

الأمم

في تفسيرين كتاب الله العزيز

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

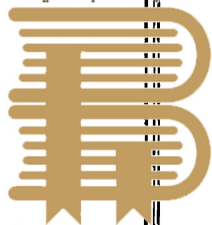
المجلد الخامس عشر



الأمثال

فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ
طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنَقَّحَةٌ مَعَ إِضَافَاتٍ

شبكة كتب الشيعة



تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

shiabooks.net
رابط سبيل < mktba.net

المجلد الخامس عشر

مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -

الأمثل فی تفسیر کتاب اللہ المنزل / تألیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا] - قم:

مدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام، ۱۴۲۱ ق. = ۱۳۷۹. ۲۰ ج.

ISBN: 964-6632-53-X (دوره)

ISBN: 964-6632-50-5 (جلد ۱۵)

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیها.

کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است.

کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است.

کتابنامه.

۱. تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴. الف. مدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام. ب. عنوان.

۲۹۷/۱۷۹

BP۹۸/م۷ت۷.۴۴۷

م۷۹-۱۰۳۹۱

۱۳۷۹

هوية الكتاب:

الأمثل فی تفسیر کتاب اللہ المنزل لهماحة الشیخ ناصر مکارم الشیرازی - المجلد الخامس عشر

النشر: مدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام ایران / قم / شارع الشهداء / رقم الهاتف: ۷۳۲۴۷۸

حجم و عدد الصفحات: ۶۰۷ الوزیری

تاریخ النشر: ۱۳۷۹ - ۱۴۲۱

الکیة: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الأولى

الطبعة: أمير المؤمنين علیه السلام - قم

جميع الحقوق محفوظة لمدرسة الإمام علی بن ابی طالب علیه السلام

WWW.AMIRALMOMENIN.ORG

عنواننا فی انترنت:

[E.mail: makarem@makaremshirazi.org](mailto:makarem@makaremshirazi.org)

سُورَة

الزُّمَرُ

مَكِّيَّة

وَعَدَدُ آيَاتِهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

«سورة الزمر»

محتوى سورة الزمر:

هذه السورة نزلت في مكة المكرمة، ولهذا السبب فإنها تستطرق للقضايا المتعلقة بالتوحيد والمعاد، وأهميّة القرآن، ومقام نبوة نبي الإسلام ﷺ كما هو الحال في بقية السور المكية.

فالمرحلة التي قضاها المسلمون في مكة كانت مرحلة للبناء الإيماني والعقائدي، ولذلك فإن السور المكية حوت أقوى البحوث وأكثرها تأثيراً في هذا المجال. وكانت الأساس القوي المحكم الذي ظهرت آثاره العجيبة في المدينة، و في الغزوات وعند مواجهة العدو، وأمام عراقيل المنافقين، وفي قبول النظام الإسلامي، وإذا أردنا معرفة سر الانتصار السريع للمسلمين في المدينة فإن علينا أن نطالع دروس مكة المؤثرة.

وعلى أية حال فإن هذه السورة تضم عدّة أقسام مهمة:

١- تستطرق السورة إلى مسألة الدعوة إلى توحيد الله، توحيده في الخلق، توحيده في الربوبية، توحيده في العبودية، كما تسلط الضوء على مسألة الإخلاص في العبادة لله، وآيات هذه السورة في هذال المجال مؤثرة جداً بحيث تجذب قلب الإنسان وتدفعه نحو الإخلاص.

٢- الأمر المهم الآخر الذي تكرر في عدّة آيات في هذه السورة من بدايتها وحتى نهايتها، هو مسألة (المعاد) والمحكمة الإلهية الكبرى، ومسألة الثواب

والعقاب، وغرف الجنة، وكور النار في جهنم، ومسألة الخوف والرهبة من يوم القيامة، وظهور نتائج الأعمال في ذلك اليوم، وتجسدها في ذلك المشهد الكبير، إضافة إلى أنها تستعرض قضية اسوداد أوجه الكاذبين والذين افتروا على الله الكذب، وسوق الكافرين صوب جهنم، وتعرض الكافرين لتوبيخ وملامة ملائكة العذاب ودعوة أهل الجنة إلى دخول الجنة وتقديم ملائكة الرحمة التهاني والتبريكات لهم، وهذه الأمور التي تدور حول محور المعاد ممزوجة مع قضايا التوحيد بشكل كبير وكأنها تشكل معها نسيجاً واحداً.

٣- قسم آخر من السورة يتناول أهمية القرآن المجيد، ورغم قلة عدد آيات هذا القسم، فهو يجسّد بصورة لطيفة القرآن وتأثيره القوي على القلوب والأرواح.

٤- قسم آخر أيضاً يبيّن مصير الأقوام السابقين والعذاب الإلهي الأليم الذي نزل بهم من جراء تكذيبهم لآيات الله الحق.

٥- وأخيراً قسم آخر من هذه السورة يتحدث عن مسألة التوبة، وكون أبواب التوبة مفتوحة لمن يرغب في العودة إلى الله، وقد تضمّن هذا القسم أقوى آيات القرآن تأثيراً في مجال التوبة، ويمكن القول بأن آيات هذا القسم تنزف البشري وتحمّل أخباراً سارة قد لا يوجد مثل لها في بقية آيات القرآن.

هذه السورة معروفة باسم سورة (الزمر) وهذا الاسم مأخوذ من الآيتين (٧١) و(٧٣) من هذه السورة، وتعرف أيضاً باسم سورة (الغرف) وهذا الاسم مأخوذ من الآية (٢٠) إلا أن هذه التسمية غير مشهورة.

فضيلة سورة الزمر:

لقد أولت الأحاديث الإسلامية أهمية كبيرة لتلاوة هذه السورة، وقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه،

وأعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا الله تعالى»^(١).

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام «من قرأ سورة الزمر أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة، وأعزه بلا مال ولا عشيرة، حتى يهابه من يراه وحرم جسده على النار»^(٢).

مقارنة فضائل تلاوة سورة الزمر مع محتوياتها في مجال الخوف من الله، ورجاء رحمته، والإخلاص في العبودية، والتسليم المطلق لذات الله، يوضح أن هذه المكافآت إنما تعطى لمن كانت تلاوته مقدمة للتفكير والتفكير وسيلة للإيمان والعمل.

وبعبارة أخرى: أن يتوغل محتوى السورة في اعماق روحه. ويتجلى في كافة مظاهر الحياة الاجتماعية والفردية. أجل فمثل هؤلاء الافراد لا تقون لهذا الثواب العظيم والرحمة الواسعة.



١ - مجمع البيان بداية سورة الزمر.

٢ - مجمع البيان وثواب الأعمال و تفسير نور الثقلين.

الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ
 الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
 لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

التفسير

عليك الاخلاص في الدين!

هذه السورة تبدأ بأيتين تتحدثان عن نزول القرآن المجيد: الأولى تقول: إن
 الله هو الذي أنزل القرآن، والثانية: تبين محتوى وأهداف القرآن.
 في البداية تقول: «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم»^(١).
 من الطبيعي أن كل كتاب تتم معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، وعندما ندرك

١- «تنزيل الكتاب» خير لمبتدأ محذوف و التقدير «هذا تنزيل الكتاب». واحتمل بعض المفسرين أن «تنزيل الكتاب»
 مبتدأ و «من الله» خبر. لكن الرأي الأول أصح، و«تنزيل» مصدر بمعنى المفعول. فتكون إضافته إلى الكتاب من باب إضافة
 الصفة إلى موصوفها، و المعنى (هذا الكتاب منزل من الله).

أن هذا الكتاب السماوي الكبير مستلهم من علم الله القادر والحكيم، الذي لا يقف أمام قدرته المطلقة شيء، ولا يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنا بلا عناء أن محتوياته حقّ وكلّها حكمة ونور وهداية.

مثل هذه العبارات عندما ترد في بدايات سور القرآن، ترشد المؤمنين إلى هذه الحقيقة، وهي أن كل ما هو موجود في القرآن المجيد هو كلام الله وليس بكلام الرسول ﷺ، ورغم كون كلامه ﷺ بليغاً وحكيماً أيضاً. ثم تنتقل السورة إلى عرض محتويات هذا الكتاب السماوي وأهدافه ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾.

لا يوجد فيه غير الحق، ولهذا السبب يتبعه طلاب الحق، والباحثون عن الحقيقة مشغولون بالبحث في محتوياته. من هنا، ولكون هدف نزول القرآن يتحدد في إعطاء الدين الخالص للبشرية، فإن آخر الآية يقول: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾.

قد يكون المراد هنا من كلمة (دين) هو عبادة الله، لأن الجملة التي وردت قبلها ﴿فاعبد الله﴾ فيها أمر بالعبادة، ولذا فإن العبارة التي تليها ﴿مخلصاً له الدين﴾ تبين شروط صحة العبادة والتي تتمثل في الإخلاص وفي الشرك والرياء. على كلّ حال فإن اتساع مفهوم (الدين) وعدم ذكر قيد أو شرط له، يعطي معنى واسعاً، بحيث يشمل العبادات وبقية الأعمال إضافة إلى العقائد، وبعبارة أخرى فإن (الدين) يتناول مجموعة شؤون الحياة المادية والمعنوية للإنسان، ويجب على عباد الله المخلصين أن يخلصوا كلّ حياتهم لله وأن يظهروا قلوبهم وأرواحهم وساحة عملهم ودائرة حديثهم عن كل ما هو لغير الله، وأن يفكروا به ويعشقوه، وأن يتحدثوا عنه ويعملوا من أجله، وأن يسيروا دائماً في سبيل رضاه، وهذا هو (إخلاص الدين).

ولذا لا يوجد أيّ داع أو دليل واضح لتحديد مفهوم الآية في شهادة (لا إله إلا

الله) أو بخصوص (العبادة والطاعة).

الآية التالية تؤكد مرة أخرى على مسألة الإخلاص، وتقول: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ وهذه العبارة ذات معنيين:

الأول: هو أن الباري عز وجل لا يقبل سوى الدين الخالص، والإستسلام الكامل له من دون أي قيد أو شرط، ولا يقبل أي عمل فيه رياء أو شرك، أو خلط للقوانين الإلهية بغيرها من القوانين الوضعية.

والثاني: هو أن الدين والشريعة الخالصة يجب أخذها من الله فقط، لأن أفكار الإنسان ناقصة وممزوجة بالأخطاء والأوهام.

ولكن وفق ما جاء في ذيل الآية السابقة فإن المعنى الأول أنسب، لأن الذين يؤدون المطلوب منهم بإخلاص هم العباد، ولهذا فإن هذا الخلوص في الآية مورد بحثنا يجب أن يراعى من جانب أولئك.

وهناك دليل آخر على هذا الكلام، وهو حديث ورد عن رسول الله ﷺ، جاء فيه أن رجلاً قال لرسول الله: يا رسول الله! إننا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: لا، قال: يا رسول الله! إننا نعطي التماس الأجر والذكر، فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل إلا من أخلص له، ثم تلا هذه الآية: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾»^(١).

وعلى أية حال، فإن هذه الآية في الواقع استدلال للآية التي جاءت قبلها، فهناك تقول: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ وهنا تقول: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾.

مسألة الإخلاص تناولتها الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية، وبدء الجملة مورد بحثنا بـ (ألا) التي تستعمل عادة لجلب الإنتباه، هو دليل آخر على أهمية هذا الموضوع.

ثم تنتقل الآية إلى إبطال المنطق الواهي للضعيف للمشركين الذين تركوا

طريق الخلاص، وضاعوا في طرق الشرك والانحراف: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١)، وهنا سيُتَّضح للجميع فساد أفكارهم وأعمالهم وبطلان عقائدهم..

هذه الآية هي تهديد قاطع للمشركين في أن الباري عز وجل سيحاكمهم في يوم القيامة، اليوم الذي تنكشف فيه الإلتباسات وتظهر فيه الحقائق، ليجزوا ويعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرمة، إضافة إلى فضيحتهم أمام الجميع في ساحة المحشر.

منطق عبدة الأصنام واضح هنا، فأحد أسباب عبادة الأصنام هي أن مجموعة كانت تزعم أن الله سبحانه وتعالى أجل من أن يحيط به الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حس، فهو منزّه عن أن يكون مورداً للعبادة مباشرة، فلذا قالوا: من الواجب أن نتقرب إليه بالتقرب إلى مقربه من خلقه، وهم الذين فوض إليهم تدبير شؤون العالم، فنتخذهم أرباباً من دون الله ثم آلهة نعبدهم ونتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند الله ويقربونا إليه زلفى، وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسو البشر.

ولما أحسوا بأن ليس باستطاعتهم الوصول إلى أولئك المقدسين، بنوا تماثيل لهم، وأخذوا يعبدونها، وهذه التماثيل هي نفسها الأصنام، ولأنهم كانوا يزعمون أن لافرق بين التماثيل وأولئك المقدسين وأنّ لهما نوعاً من التوحد، لذا عمدوا إلى عبادة الأصنام واتخاذها آلهة لهم.

وبهذا الشكل فإنّ الأرباب في نظرهم، هم أولئك الذين خلقهم الله وقربهم إلى نفسه، وفوض إليهم تدبير شؤون العالم حسب زعمهم، وكانوا يعتبرون الباري عز وجل هو (رب الأرباب) وهو خالق عالم الوجود، ومن النادر أن يوجد من الوثنيين من يقول بأن هذه الأصنام المصنوعة من الحجر والخشب، أو حتى آلهتهم

١ - من الواضح أنّ في الآية المذكورة أعلاه، وقبل عبارة «ما نعبدهم» جملة تدبرها «و يقولون ما نعبدهم».

الوهمية - أي الملائكة والجن وأمثالهم - هي التي خلقت هذا الكون وأوجدته^(١) وبالطبع فإنّ هناك أسباباً أخرى لعبادة الأصنام، ومنها أنّ الإحترام الفائق الذي يكونه في بعض الأحيان للأنبياء والصالحين يتسبب في احترام حتى التمثال الذي ينحت أو يصنع لهم بعد وفاتهم، ومع مرور الزمن تأخذ هذه تماثيل طابعاً استقلالياً، ويتبدل الإحترام إلى عبادة، ولهذا فإنّ الإسلام نهى بشدّة عن صنع التماثيل.

وقد ورد في كتب التاريخ أنّ عرب الجاهلية كانوا يكونون إحتراماً فائقاً للكعبة الشريفة ولأرض مكّة المكرمة، ولهذا كانوا يأخذون معهم قطعة حجر صغيرة من تلك الأرض عندما يذهبون إلى مكان آخر، ويضفون عليها الإحترام والتقديس، ومن ثمّ يعمدون إلى عبادتها.

وما ورد في قصة (عمرو بن لحي) التي جاء فيها، أنّ عمراً في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام شاهد بعض مشاهد عبدة الأصنام، وفي طريق عودته إلى الحجاز، اصطحب معه صنماً من بلاد الشام، ومنذ ذلك الحين بدأت عبادة الأصنام في الحجاز هذه القصة لا تتعارض مع ما ذكرناه لأنّه بيّنت بعض جذور عبادة الأصنام، وهدف أهل الشام من عبادة الأصنام كان مأخوذاً من أحد تلك الأمور أو نظائرها.

عبادة الأصنام - بأي شكل كانت - ما هي إلّا أوهام وخيالات لا صحة لها ترشحت من أفكار ضعيفة وعاجزة، حرفت الناس عن الطريق الرئيسي الأصيل لمعرفة الله.

والقرآن المجيد يؤكد بصورة خاصّة على أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل بالله من دون أي واسطة، وأن يتحدث معه ويتناجى به ويطلب منه حاجته، ويطلب العفو

والتوبة، فكلّ هذه الأمور من الله وتحت تسلط قدرته. وسورة الحمد توضح هذه الحقيقة، لأنّ قراءة العباد المستمر لهذه السورة في صلواتهم اليومية، تجعل العبد على اتصال مباشر مع البارئ، عزّ وجلّ، إذ أنّه يقرؤها ويطلب من الله - دون أي واسطة - حاجاته منه.

سبل الإستغفار والتوبة، وكذلك طلب العون من البارئ، عزّ وجلّ وما ورد في الأدعية المأثورة، كلها تبيّن أنّ الإسلام لا يرى وجود واسطة في هذا الأمر، وهذه هي حقيقة التوحيد. حتى أن مسألة الشفاعة والتوسل بأولياء الله مشروطة باذن البارئ، عزّ وجلّ وسماحه، وهذا تأكيد على مسألة التوحيد.

ويجب أن تكون العلاقة هكذا، لأنّ الله سبحانه وتعالى أقرب إلينا من أي شيء، كما يقول بذلك القرآن: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حِجْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١)، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^(٢).

وبهذا الشكل فالبارئ، عزّ وجلّ ليس ببعيد عنّا، ولسنا ببعيدين عنه كي تكون هناك حاجة للوساطة بين الطرفين، إنّه أقرب إلينا من كلّ قريب، وموجود في مكان وفي أعماق قلوبنا.

وفقاً لهذا فإنّ عبادة الوسطاء من الملائكة والجنّ ونظائرهم، أو الأصنام الحجرية والخشبية، عمل باطل لا صحّة له، إضافة إلى أنّه يعدّ كفراً بنعمة الله، لأنّ الذي يهب النعم أجدر بالعبادة من تلك الموجودات الميتة، أو المحتاجة إلى الآخرين من أعلى رأسها إلى أخمص قدمها. لذا يقول القرآن المجيد في نهاية الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

فلا يهديه إلى الطريق الصحيح في هذا العالم، ولا إلى الجنّة في العالم الآخر،

لأنه أوصد بكلتا يديه أبواب الهداية أمامه، ولأنّ الباري عزّ وجلّ يبعث فيض هدايته إلى من يراه لائقاً ومستعداً لإستقبالها، ولا يبعثها إلى الذين تعمدوا قتل الإستعدادات الموجودة في قلوبهم وذاتهم.



ملاحظة

الفرق بين التنزيل والإنزال:

في الآية الأولى وردت عبارة «تنزيل الكتاب»، وفي الثانية عبارة «أنزلنا إليك الكتاب»، فما الفرق بين الإنزال والتنزيل؟ وما المراد من تباين العبارتين في هاتين الآيتين؟

كتب اللغة تقول: إن كلمة (تنزيل) تعني نزول الشيء على عدّة دفعات، في حين أن كلمة (إنزال) لها معنى عام يشمل النزول التدريجي والنزول دفعة واحدة^(١).

قال بعضهم إن لكل منهما معنى خاصاً بها وأن (تنزيل) تعني - فقط - النزول على عدّة دفعات، و (إنزال) تعني - فقط - النزول دفعة واحدة^(٢).

اختلاف العبارتين المذكورتين أعلاه إنما يعود إلى أن القرآن المجيد نزل بصورتين:

الأولى: نزل دفعة واحدة على قلب النبي محمد ﷺ في ليلة القدر في شهر

١ - مفردات الراغب مادة (نزل) والفرق بين الإنزال و التنزيل في وصف القرآن و الملائكة، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقاً و مرّة بعد أخرى و الإنزال عام.

٢ - هذا الاختلاف ورد في التفسير الكبير للتفسير الرازي تقلد عن آخرين.

رمضان المبارك كما ورد في الآيات المباركة: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾^(١) و﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾^(٢) و﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾^(٣). وفي كل هذه الآيات استخدمت عبارة (الإنزال) التي تشير إلى نزوله دفعة واحدة.

ويوجد نزول آخر تمّ بصورة تدريجية استغرقت (٢٣) عاماً، أي طوال فترة نبوة الرسول الأكرم ﷺ إذ كانت تنزل في كلّ حادثة وقضية آية تناسبها، وتنتقل بالمسلمين من مرحلة إلى أخرى ليرتقوا سلم الكمال المعنوي والأخلاقي والعائدي والاجتماعي، كما ورد في الآية (١٠٦) من سورة الإسراء: ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾.

والذي يشير الإنباه، هو أنّ الكلمتين (تنزيل) و(إنزال) تأتيان أحياناً في آية واحدة للتعبير عن مقصودين، كما ورد في الآية (٢٠) من سورة محمد: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت﴾.

فكان المسلمون يطلبون أحياناً نزول السورة القرآنية تدريجاً كي يهضموا محتوياتها بصورة جيدة، لكن الضرورة كانت تستدعي في بعض الحالات نزول السورة دفعة واحدة، وخاصة السور التي تتناول مسائل الجهاد في سبيل الله، لأنّ نزولها التدريجي كان قد يؤدي إلى سوء استغلالها من قبل المناققين الذين كانوا يتحينون الفرص لبث سمومهم. ففي مثل هذه الحالات - كما ذكرنا - كانت السورة تنزل دفعة واحدة. وهذا آخر شيء يمكن ذكره بشأن التباين الموجود بين العبارتين، وطبقاً لهذا فإنّ آيات بحثنا أشارت إلى طريقتي النزول بصورة جامعة

١- القدر، ١.

٢- سورة الدخان، ٣.

٣- سورة البقرة، ١٨٥.

كاملة.

ومع هذا فإنه توجد هناك بعض الأمور الإستثنائية لتفسير وبيان الإختلاف المذكور أعلاه، كماورد في الآية (٣٢) من سورة الفرقان: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾.

بالطبع، لكل من (التزليل) و (الإنزال) فوائد و آثار خاصة به، سنتطرق إليها في مواضعها^(١).



١ - هناك بحث مفصل عن فوائد النزول التدريجي للقرآن ترضاه له لدى تفسير الآية (٣٤) من سورة الفرقان.

الآيتان

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلِداً لَأَظُنُّنِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ
هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ
الْقَهَّارُ ﴿٢﴾

التفسير

ما حاجة الله إلى الأولاد؟

المشركون إضافة إلى أنهم يعتبرون الأصنام وسيطاً وشفيعاً لهم عند الله، كما استعرضت ذلك الآيات السابقة، فقد اعتقدوا - أيضاً - أن بعض المخلوقات - كالملائكة - هي بنات الله، والآية الأولى في بحثنا تجيب على هذا الاعتقاد الخاطيء والتصور القبيح بالقول: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطنع مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾.

ذكر المفسرون آراء مختلفة في تفسير هذه الآية:

قال البعض: يقصد منها لو أن الله كان راغباً في انتخاب ولد له، فلم ينتخب

البنات اللاتي تزعمون أَنهنَّ لا قيمة لهنَّ؟ فلم لا ينتخب له أبناء؟ وهذا - في الحقيقة - نوع من أنواع الإستدلال وفق ذهنية الطرف المقابل كي يفهم أن كلامه لا أساس له من الصحة.

وقال آخر: إنَّما يقصد منها لو أن الله كان راغباً في انتخاب ولد له، لكان قد خلق موجودات أخرى أفضل وأرفى من الملائكة.

وبالنظر إلى كون مكانة الأنتنى لا تقل عن مكانة الذكر عند البارئ عز وجل، وبالنظر إلى كون الملائكة أو عيسى عليه السلام - والذين اعتبرهم بعض المنحرفين أبناء الله - من الموجودات الشريفة والمحترمة، فإنه لا يعد أي من التفسيرين السابقين مناسباً.

والأفضل هو القول بأن الآية تريد القول: إن الابن مطلوب إمَّا لتقديم العون أو لمؤانسة الروح، وبفرض المحال فإن الله عز وجل لو كان محتاجاً لمثل هذا الأمر، لا صطفى لهذا بعضاً ممن يشاء من أشرف خلقه، فلم يتخذ ولداً؟

ولكن لكونه الواحد الذي لا نظير له والقاهر والغالب لكل شيء والأزلي والأبدي، فإنه لا يحتاج إلى مساعدة أي أحد، ولا يستوحش من وحدانيته حتى يزيلها عن طريق الأُنس مع الآخرين، لهذا فهو منزّه ومقدّس عن الولد، حقيقياً كان أو منتخِباً.

وإضافة إلى ما ذكرناه من قبل، فإن أولئك الجهلة الذين يتصورون أحياناً أن الملائكة هم أبناء الله، وأحياناً أخرى يقولون بوجود نسبة بين البارئ، عز وجل والجن، وأحياناً يقولون بأن (المسيح) أو (العزير) هم أبناء الله، يجهلون الكثير من الحقائق الواضحة، فإن كان قصدهم هو الولد الحقيقي:

فأولاً: يجب أن يكون البارئ تعالى جسماً.

ثانياً: التركيب من أجزاء (لأنَّ الوالد جزء من الأب ينفصل عن وجود أبيه).

ثالثاً: حتمية وجود شبيهه ونظيره له (لأنَّ الأولاد على الدوام يشبهون الآباء).

رابعاً: احتياجه لزوجة، والله منزّه ومقدّس عن كلّ تلك الأمور.

وإن كان المقصود هو الولد المنتخب أي (المتبنّي) فإن ذلك إنّما يتمّ لأجل احتياجه لمساعدة جسدية أو لموانسة روحية، والله القادر القاهر لا يحتاج إلى كلّ هذه الأمور. وبهذا فإنّ وصفه بـ (الواحد) و(القهار) هو جواب مختصر على كلّ تلك الاحتمالات.

على أية حال، فإنّ عبارة (لو) التي تستخدم عادة للشرط المستحيل إشارة إلى أن هذا الفرض محال في أن ينتخب الباري عزّ وجلّ ولدًا له، وبفرض المحال أنّه يحتاج، فإنّه غير محتاج لما يقولونه من اتخاذ الولد، بل إن مخلوقاته المنتخبة هي التي تؤمن هذا الأمر.

ولإثبات حقيقة أنّ الله لا يحتاج إلى مخلوقاته، ولبيان دلائل توحيده وعظمته، يقول الباري عزّ وجلّ: ﴿خلق السنوات والأرض بالحق﴾.

كون تلك الأمور حقاً دليل على وجود هدف كبير من وراء خلقها، وذلك لتكامل المخلوقات وفي مقدمتها الإنسان، ثمّ لا تنتهي عند البعث.

بعد عرض هذا الخلق الكبير، تشير الآية إلى جوانب من تدبيره العجيب، والتغيرات التي تطرأ بحسابات دقيقة، والأنظمة الدقيقة أيضاً التي تحكم أولئك، إذ يقول القرآن المجيد: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾.

ما أجملها من عبارة! فلو وقف الإنسان في منطقة تقع خارج نطاق الكرة الأرضية، ونظر إلى مشهد حركة الأرض حول نفسها وتكوّن الليل والنهار للذين يطوقان سطحها المكور، لشاهد - بصورة منتظمة - أن سواد الليل يستولي على طرف النهار من جهة ومن الجهة المقابلة يرى بأن ضوء النهار يستولي محرّكة مستمرة على ظلام الليل.

«يكور» من (تكوير) وتعني الشيء المتكور أو المنحني، ويعتبر أصحاب اللغة تكوير العمامة على الرأس نموذجاً للتكوير، وهذا التعبير القرآني الجميل

يكشف عن بعض الأسرار، لكن الكثير من المفسرين نتيجة عدم التفاتهم إلى كروية الأرض ذكروا مواضيع أخرى لا تناسب مفهوم كلمة (التكوير)، فمن هذه الآية يتجلى لنا أن الأرض كروية وتدور حول نفسها، ومن جراء هذا الدوران، يطوق الأرض دائماً شريطان، أحدهما سواد الليل، والثاني بياض النهار، ولا يبقى هذان الشريطان ثابتين، وإنما يغطي الشريط الأسود الأبيض من جهة والشريط الأبيض يغطي الأسود من جهة أخرى، أثناء حركة الأرض حول نفسها.

وعلى أية حال، فإن القرآن المجيد يبيّن ظاهرة الليل والنهار و (النور) و (الظلمات) في عدة آيات مختلفة، كل واحدة منها تشير إلى نقطة معينة، وتنظر إلى هذه الظاهرة من زاوية خاصة، فأحياناً يقول: «يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل»^(١).

الحديث - هنا - يتطرق لتوغّل الليل في النهار وتوغل النهار في الليل التي تتم بصورة بطيئة وهادئة.

وأحياناً أخرى يقول: «يفشى الليل النهار»^(٢)، وهنا تمّ تشبيه الليل بستائر مظلمة تنزل على ضياء النهار وتحجبه.

ثمّ تنتقل إلى جانب آخر، ألا وهو التدبير والنظام الدقيق المسير لشؤون هذا العالم، قال تعالى: «و سخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمى».

فلا يظهر في حركة الشمس التي تدور حول نفسها، أو التي تتحرك مع بقية كواكب المجموعة الشمسية نحو نقطة خاصة في مجرة درب التبانة أدنى خلل، فهي تتحرك وفق نظام خاص ودقيق جداً، ولا يظهر أي خلل في حركة القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسه، فالكلّ يخضع لقوانين (الخالق) ويتحرك وفقها، وسيستمر في التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

١ - سورة فاطر، ١٣.

٢ - سورة الأعراف، ٥٤.

ويوجد احتمال آخر، وهو أن المراد من تسخير الشمس والقمر هو تسخيرها للإنسان بإذن الله، كما ورد في الآية (٣٣) من سورة إبراهيم: «وسخر لكم الشمس والقمر دائبين». ولكن بالإلتفات إلى الجملة السابقة واللاحقة في هذه الآية مورد البحث، إضافة إلى عدم ورود كلمة (لكم) في الآية، يجعل التفسير المذكور أعلاه مستبعداً بعض الشيء.

نهاية الآية كانت بمثابة تهديد وترغيب للمشركين إذ تقول: «ألا هو العزيز الغفار» فبحكم عزته وقدرته المطلقة لا يمكن لأيّ مذنب ومشرك أن يهرب من قبضة عذابه، وبمقتضى كونه الغفار، فإنه يستر عيوب وذنوب التائبين، ويظللهم بظلّ رحمته.

«غفار» صيغة مبالغة مشتقة من المصدر (غفران) وتعني في الأصل لبس الإنسان لشيء يقيه من التلوث، وعندما تستخدم بشأن الباري، عز وجل فإنها تعني ستره لعيوب وذنوب عباده النادمين وحفظهم من عذابه وجزائه، نعم فهو (غفار) في أوج عزته وقدرته، وهو (قهار) في أوج رحمته وغفرانه، والهدف من ذكر هاتين الصفتين في آخر الآية، هو إيجاد حالة من «الخوف» و «الرجاء» عند العباد، وهما عاملان رئيسيان وراء كلّ تحرك نحو الكمال.



الآيتان

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ
الْأَنْعَامِ مَمْنِيَّةً أَنْزَاجَ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ
خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى
لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

التفسير

الجميع مخلوقون من نفس واحدة:

مرة أخرى تستعرض آيات القرآن الكريم عظمة خلق الله، وتبين في نفس الوقت بعض النعم الأخرى التي من بها الله سبحانه وتعالى على الإنسان. في البداية تتحدث عن خلق الإنسان وتقول: «خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها».

خلق كل بني آدم من نفس واحدة إشارة إلى مسألة خلق آدم أبي البشر، إذ أن كل البشر وبتنوع خلقتهم وأخلاقهم وطبائعهم واستعداداتهم وأذواقهم المختلفة يعودون في الأصل إلى آدم ﷺ

وعبارة: «ثم جعل منها زوجها»^(١) إشارة إلى أن الله خلق آدم في البداية، ثم خلق حواء مما تبقى من طينته.

وعلى هذا الأساس فإن عملية خلق حواء تمت بعد خلق آدم، وقبل خلق أبناء آدم.

عبارة (ثم) لا تأتي دائماً كتأخير للزمان، وإنما تأتي أحياناً كتأخير للبيان، فمثلاً يقال: رأيت ما عملته اليوم ثم رأيت ما عملته بالأمس، في حين أن عمل الأمس قد نفذ قبل عمل اليوم، ولكن المراد هنا أن مشاهدته تمت بعد عمل اليوم. والبعض اعتبر الآية المذكورة أعلاه تشير إلى (عالم الذر) وخلق أبناء آدم بعد خلق آدم وقبل خلق حواء بشكل أرواح، هذا التفسير غير صحيح، وقد بيّنا هذا في تفسير وتوضيح «عالم الذر» في ذيل الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

ومما يجدر ذكره أن زوجة آدم ﷺ لم تخلق من أي جزء منه، وإنما خلقت مما تبقى من طينته التي خلق منها، وذلك كما ورد في الروايات الإسلامية، وأما الروايات التي تقول بأنها خلقت من ضلع آدم الأيسر، فإنه كلام خاطيء مأخوذ من بعض الروايات الإسرائيلية، ومطابق في نفس الوقت لما جاء في الفصل الثاني من كتاب التوراة (سفر التكوين) المحرّف، إضافة إلى كونه مخالفاً للواقع والعقل، إذ أن تلك الروايات ذكرت أن أحد أضلاع آدم قد أخذ وخلقت منه حواء، ولهذا فإن الرجال ينقصهم ضلع في جانبهم الأيسر، في حين أننا نعلم بعدم وجود أي فارق بين عدد أضلع المرأة والرجل، وهذا الاختلاف ليس أكثر من خرافة.

بعد هذا ينتقل الحديث إلى مسألة خلق أربعة أنواع من الانعام تؤمن للإنسان

١- في قوله تعالى: «ثم جعل منها زوجها» محذوف تقديره (خلقكم من نفس واحدة خلقها، ثم جعل منها زوجها).

ضروريات الحياة، حيث يستفيد من جلودها لملابسه، ومن حليها ولحمه الغذائية، ومن جهة أخرى يصنع من جلودها وأصوافها عدّة أمور يستفيد منها في حياته، ومن جهة ثالثة يستخدمها كوسيلة لتنقله وحمل أثقاله: «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» والمقصود من (الأزواج الثمانية) الذكر والأنثى لكل من الإبل والبقرة والضأن والمعز، ومن هنا فإن كلمة (زوج) تطلق على كل من الذكر والأنثى، ولهذا فإنّ عدده يكون ثمانية أزواج. (ولذا في بداية الآية هذه أطلقت كلمة زوج على حواء).

وعبارة «أنزل لكم» والتي تخص هنا الأنعام الأربعة - كما بيّنا ذلك من قبل - لا تعني فقط إنزال الشيء من كان عال، وإنما في مثل هذه الحالات تعني (تدني المقام) والنعم من مقام أعلى إلى أدنى.

كما ذكرنا احتمالاً آخر في أن (إنزال) مشتقة هنا من (نزل) على وزن (رسل) وتعني ضيافة الضيف، أو أول ما يقدم للضيف، ونظير هذا المعنى ورد في الآية (١٦٨) من سورة آل عمران بخصوص أهل الجنة، قال تعالى: «خالدين فيها نزلًا من عند الله».

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الأنعام الأربعة مع أنّها لم تنزل من مكان أعلى إلى الأرض، فإنّ مقدّمات توفير متطلبات حياتها وتربيتها والتي هي قطرات المطر وأشعة الشمس هي التي تنزل من الأعلى إلى الأرض.

وورد تفسير رابع لهذه العبارة هو أنّ كلّ الموجوات كانت من البداية موجودة في خزائن علم وقدرة الباري عز وجلّ، أي في علم الغيب، ثمّ انتقلت من الغيب إلى الشهادة أي إلى (الظهور)، ولهذا أطلقوا على هذا الإنتقال عبارة (الإنزال) كما ورد ذلك في الآية (٢١) في سورة الحجر: «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم»^(١).

لكنّ التفسير الأوّل أكثر مناسبة من غيره، رغم عدم وجود أي تعارض بين هذه التفسير، بل من الممكن أن تصب جميعها في نفس المفهوم والمعنى. وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث في تفسير هذه الآية جاء فيه: «إنزاله ذلك خلقه إياه» أي أن إنزال تلك الأزواج الثمانية من الأنعام يعني خلقها من قبل الله.

ظاهر الحديث يشير إلى التفسير الأوّل، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق الخلق، وله المقام الأسمن والأرفع.

وعلى أية حال، فرغم أنّ الأنعام المذكورة قليلاً ما يستفاد منها اليوم في عمليات النقل وحمل الأثقال، لكنّها تقوم بمنافع مهمّة أخرى يزداد ويتسع حجم الإحتياج إليها يوماً بعد آخر، لأنّها تغطي اليوم الجانب الأعظم من احتياجات الإنسان الغذائية كالحليب واللحوم، إضافة إلى أصوافها وجلودها التي كانت منذ السابق وحتى يومنا هذا تستخدم في صناعة الألبسة وغيرها من الأمور التي يحتاج إليها الإنسان، حتى أنّ أحد المنايع العالية المهمّة بيد الدول الكبيرة في العالم يأتي عن طريق تربيته وتكثير هذه الحيوانات.

ثمّ تتطرق الآيات إلى حلقة أخرى من حلقات خلق الله، وهي عملية نمو الجنين إذ تقول الآية: «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث».

يتضح أنّ المقصود من «خلقاً من بعد خلق» هو الخلق المتكرر والمستمر، وليس الخلق مرتين فقط.

«يخلقكم»: فعل مضارع يعطي معنى الإستمرارية، وهو هنا بمثابة إشارة قصيرة ذات معان عميقة إلى التحولات العجيبة والصور المختلفة التي تطرأ على الجنين في مراحل وجوده المختلفة في بطن الأم. وطبقاً لأقوال علماء علم الأجنّة

فإنَّ عملية خلق ونمو الجنين في بطن الأمّ تعدّ من أعجب وأدقّ صور خلق الباري عزّ وجلّ، ونادراً ما نلاحظ أنّ المطلعين على دقائق هذه القضايا لا تلهج ألسنتهم بحمد الخالق وثنائه.

وقوله «ظلمات ثلاث» إشارة إلى ظلمة بطن الأمّ وظلمة الرحم وظلمة المشيمة (الكيس الخاص الذي يستقر فيه الجنين) التي هي في الحقيقة ثلاثة أغلفة سميكة تغطي الجنين.

فالمصورون - الآن - بحاجة إلى ضوء ساطع ونور من أجل التصوير، أمّا خالق الإنسان فيخطط في تلك الظلمة بشكل عجيب ويصور بشكل يدهش العقول، ويمدّه بأسباب العيش في مكان لا يمكن لأحد أن يوصل إليه رزقه الذي هو في أمسّ الحاجة إليه للنمو.

الإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء يقول في دعائه المعروف بدعاء عرفه، الذي يعدّ دورة دراسية كاملة وعالية في التوحيد، يقول عند استعراضه للنعم التي منّ بها الباري عزّ وجلّ عليه: «وابتدعت خلقي من مني يمني، ثمّ أسكنتني في ظلمات ثلاث: بين لحم وجلد ودم لم تشهدني خلقي، ولم تجعل إليّ من أمري ثمّ أخرجتني إلى الدنيا تاماً سوياً»^(١).

(مما يذكر أننا قد تطرقنا إلى عجائب خلق الجنين ومراحل خلقه في ذيل الآية (٦) من سورة آل عمران وفي ذيل الآية (٥) من سورة الحج).

وفي نهاية الآية، بعد ذكر الحلقات التوحيدية الثلاث الخاصة بخلق الإنسان والأنعام ومراحل خلق الجنين، يقول الباري عزّ وجلّ: «ذلّكم الله ربّكم له الملك لا إله إلّا هو فأتى تصرفون».

فأحياناً يصل الإنسان بعد مشاهدته لهذه الآثار التوحيدية العظيمة إلى مقام الشهود. ثم أشار تعالى إلى ذاته القدسية، حيث يقول: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ حقاً لو كانت هناك عين بصيرة فيمكنها أن تراه إنّه وراء هذه الآثار... فعين الجسم ترى الآثار، وعين القلب ترى خالق الآثار.

عبارتي «رَبُّكُمْ» و «له الملك» تدلان في الحقيقة على حصر الربوبية بذاته الطاهرة المقدسة، والذي اتضح بصورة جيدة في عبارة «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فعندما يكون هو الخالق والمالك والمربي والحاكم لكلّ عالم الوجود، فما هو دور غيره في هذا العالم كي يستحق العبودية؟!

وهنا تصرخ الآية بوجه مجموعة من النائمين والغافلين قائلة: «فَأَن تَصْرَفُونَ» أي كيف ضللتكم وانحرفتم عن سبيل التوحيد^(١)؟

بعد ذكر هذه النعم الكبيرة التي منّ بها الباري عزّ وجلّ على عباده، تنطرق الآية التالية إلى مسألة الشكر والكفر، وتناقش جوانب من هذه المسألة. وفي البداية تقول: «إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ» أي إن تكفروا أو تشكروا فإنّ نتائجه تعود عليكم، والله غني عنكم في حال كفركم وشكركم.

ثمّ تضيف، إنّ غناه وعدم احتياجه لا يمنعان من أن تشكروا وتتجنبوا الكفر، لأنّ التكليف إنّما هو لطف ونعمة إلهية، نعم، قال تعالى: «وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ»^(٢).

وبعد استعراض هاتين النقطتين تستعرض الآية نقطة ثالثة وهي

١- نلقت الإنتباه إلى أن (أَنْتَ) تأتي أحياناً بمعنى (أين) وأحياناً أخرى بمعنى (كيف).

٢- وفق القراءات المشهورة، فإنّ (يرضه) تقرأ بضم الهاء و بدون إشباع الضمير، لأنّها كانت في الأصل (يرضاه) و قد أسقطت الألف بسبب الجزم و أصبحت (يرضه) و الضمير فيها يعود على الشكر. و رغم أن كلمة (شكر) لم ترد من العبارة السابقة بصورة صريحة، إلا أن عبارة (إن تشكروا) تدل عليها، كما هو الحال بالنسبة إلى الضمير في «أعدلوا هو أقرب للتقوى» الذي يعود على المدلّة.

تحمل شخص مسؤولية أعماله، لأن قضية التكليف لا يكتمل معناها بدون هذا الأمر، قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرةٌ وزرٌ أخرى﴾.

ولأنه لا معنى للتكليف إن لم يكن هناك عقاب و ثواب، فالآية تشير في المرحلة الرابعة إلى قضية المعاد، وتقول: ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

ولكون مسألة الحساب والعقاب لا يمكن أن تتم ما لم يكن هناك إطلاع وعلم كاملين بالأسرار الخفية للإنسان، تختتم الآية بالقول: ﴿إنه علم بذات الصدور﴾.

بهذا الشكل، ومن خلال جمل قصار، استعرضت فلسفة التكليف وخصائصه ومسؤولية الإنسان ومسألة العقاب والجزاء والثواب. وهذه الآية جواب قاطع لمن يتولى المذهب الجبري، الذي انتشر -مما يؤسف له- في صفوف بعض الطوائف الإسلامية، لأن الآيات الكريمة تقول وبصراحة: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾.

وهذا دليل واضح على أن إرادة الكفر لم تفرض على الكافرين (كما يقول بذلك أتباع المذهب الجبري) لأن من البديهي أن من لا يرضى شيئاً لا يأتي به، فهل يمكن أن تكون إرادة الله منفصلة عن رضاه؟ متعصبو المذهب الجبري يثيرون العجب عندما يعمدون إلى ستر هذه العبارة الواضحة من خلال حصر كلمة (العباد) بالمؤمنين أو المعصومين، في حين أنها كلمة ذات معنى مطلق وتشمل بصورة واضحة كل العباد، نعم، فالباري، عز وجل لا يرضى الكفر لأحد من عباده، مثلما يرضى الشكر لكل عباده من دون أي استثناء^(١).

١ - هناك بحث مفصل في ذيل الآية (٥) من سورة إبراهيم - عن أهمية وفلسفة الشكر وعن مفهومها الحقيقي وأبعادها.

وهذه النقطة تلفت الإنتباه، وهي أن أساس تحمّل كلّ إنسان لمسؤولية أعماله
يعدّ من الأسس المنطقية والمسلم بها في كلّ الأديان السماوية^(١).
وبالطبع يمكن أحياناً أن يكون الإنسان مشتركاً في ذنوب الآخرين، وذلك
عندما يكون مضطرباً أو مساهماً مع آخرين في تهيئة مقدمات أو أسس ذلك
العمل، كالذين يبتدعون البدع أو السنن الضالة، في هذه الحالة تكون ذنوب أي
شخص يرتكب تلك المحرمات في ذمة مسببها الرئيسي دون أن تقلل ذنوب ذلك
الشخص الذي ارتكب الذنب^(٢).



١- بهذا الخصوص هناك بحث في ذيل الآية (١٥) من سورة الإسراء.

٢- هناك بحث بهذا الشأن في ذيل الآية (١٤) من سورة الأنعام.

الآيات

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً
مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ اللَّهُ أُنْدَادًا لِّمِثْلٍ
عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾
أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءِآنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا
رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾

التفسير

هل العلماء والجهلة متساوون؟

الآيات السابقة تحدثت بالأدلة والبراهين عن توحيد ومعرفة الباري عز وجل، وذلك من خلال عرض بعض الظواهر العظيمة له في الآفاق والأنفس، أما آيات بحثنا فتحدثت في البداية عن التوحيد الفطري وتوضح أن ما يدركه الإنسان عن طريق العقل أو الفهم أو المطالعة في شؤون الخلق موجود بصورة فطرية في أعماقه، وأنه يظهر أثناء المشاكل وأعاصير الحوادث التي تعصف به، ولكن هذا الإنسان الكثير النسيان يبتلى مرّة أخرى بالغفلة والغرور فور ما تهدأ

العواصف والمشاكل وتقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ ونادماً من ذنوبه وغفلته.

وعندما يمنَّ الله على الإنسان بالنعم ينسى المشاكل والإبتلاءات السابقة التي دعا الله عزَّ وجلَّ من أجل كشفها عنه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

إذ يجعل لله أنداداً وشركاء ويعمد إلى عبادتها، ولا يكتفي بعبادتها بل يعمد - أيضاً - لإضلال وحرف الناس عن سبيل الله: ﴿وَجَعَلَ اللَّهُ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. المقصود هنا من (الإنسان) هم الناس العاديون الذين لم يترتبوا في ظل إشعاعات أنوار تعاليم الأنبياء، ولا يشمل هذا الكلام المؤمنين الذين يذكرون الله في السراء والضراء ويطلبون العون من لطفه دائماً.

المراد من (ضر) هنا كلُّ أذى أو محنة أو ضرر يصيب الجسم أو الروح. «خولناه»: من مادة (خول) على وزن (عمل) وتعني المراقبة المستمرة لشيء ما، المراقبة والتوجُّه الخاص يستلزم العطاء والبذل، فقد استخدمت هنا بمعنى الهبة.

وقال البعض: إنَّ (خول) على وزن (عمل) وتعني الخادم، ولهذا فإنَّ كلمة «خوله» تعني الخادم الذين وهب لصاحبه، ثمَّ استعملت في كافة أشكال هبة النعم بالتحويل.

والبعض الآخر قال: إنَّها تعني الفخر والتباهي، ولهذا فإنَّ العبارة المذكورة

١ - هناك اختلاف بين المفسرين حول المعنى الذي تعطيه (ما) في عبارة ﴿نسي ما كان يدعو إليه﴾ البعض يعتقد أن (ما) موصولة تشير إلى (ضر) و تكون هذا المعنى هو الأنسب، فقد قدم على المعاني الأخرى، وقال البعض أيضاً: إن (ما) موصولة والمراد منها هو الله سبحانه وتعالى؛ ومجموعة أخرى قالت: إن (ما) مصدرية وتعني الدعاء، وإيمان النظر في الآية (١٢١) من سورة يونس: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لِمَ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ﴾ يبيِّن أن هذه الآية شاهد على صحة المعنى الأوَّل.

أعلاه تعني حصول الإنسان على الفخر عن طريق منحه وهبته النعم^(١).
ويصورة عامة فإنّ هذه الجملة تعكس إضافة إلى العطاء والهبة، اهتمام
الباري، عزّ وجلّ الخاصّ بعبده.

عبارة «مُنيباً إليه» تبيّن أنّ الإنسان في الحالات الصعبة يضع كافّة ستائر
غروره وغفلته جانباً، ويترك وراءه كلّ ما كان يعبده أو يتمسك به من دون الله،
ويعود إلى الباري، عزّ وجلّ، ويستشفّ من مفهوم (الإنابة) هذه الحقيقة وهي أنّ
مبدأ الانسان ومقصده وغايته هو الله تعالى.

«أنداد»: جمع (ند) على وزن (ضد) وتعني الشبيه والمثيل، مع وجود بعض
الاختلاف وهو أنّ (مثل) لها مفهوم واسع، ولكن (ند) لها معنى واحد، وهو المماثلة
في الذات والجوهر.

عبارة (جعل) تبيّن أنّ تصورات وخيالات الإنسان تصنع مثيلاً وشبيهاً لله،
الأمر الذي لا يمكن أن ينطبق مع الواقع.

وعبارة «ليضل عن سبيله» تبيّن أنّ الضالين المغرورين لا يقتنعون بإضلال
أنفسهم، وإنّما يعمدون لجر الآخرين إلى وادي الضلال.

وعلى أية حال، فإنّ آيات القرآن المجيد أشارت - مرّات عديدة - إلى
العلاقة الموجودة بين (التوحيد الفطري) و (الحوادث الصعبة في الحياة) كما
عكست اضطراب الإنسان المغرور الذي يلجأ إلى الله ويوحده بإخلاص فور ما
تعصف به العواصف والأعاصير، وكيف أنّه ينسى الله ويعود إلى غروره ولجأته
فور هدوء العاصفة ليسير من جديد في طريق الشرك والضلال.

وما أكثر أمثال هؤلاء الأشخاص المتلونون، وما أقل من ينقلب ويتغير عندما
يمنّ الباري، عزّ وجلّ عليه بالنصر والنعم والاستقرار.

نعم، فأبسط نسمة هواء تمرّ على حوض ماء تجعل مياه مضطربة، أمّا المحيط

الهادي فإنه لا يتأثر أبداً بأشدّ الأعاصير ولذا سمي المحيط الهادي.
نهاية الآية تخاطب مثل أولئك الأشخاص بلغة ملؤها التهديد الصريح
والحازم والقاطع: «قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار».

فهل يمكن أن يكون لإنسان كهذا مصير أفضل من هذا؟!
الآية التالية استخدمت أسلوب المقارنة، الأسلوب الذي طالما استخدمه
القرآن المجيد لإفهام الآخرين القضايا المختلفة، حيث تقول: هل أن مثل هذا
الشخص انسان لائق وذو قيمه: «أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر
الآخرة ويرجوا رحمة ربه»^(١).

أين ذلك الإنسان المشرك والغافل والمتلون والضالّ والمضللّ من هذا
الإنسان ذو القلب اليقظ الطاهر الساطع بالنور، الذي يسجد لله في جوف الليل
والناس نيام، ويدعو ربه خائفاً راجياً؟!

فهؤلاء في حال النعمة لا يعدون أنفسهم في مأمن من العقاب والعذاب، وفي
حال البلاء لا ييأسون من رحمته، وهذان العاملان يرافقان وجودهم أثناء
حركتهم المستمرة بحذر واحتياط نحو معشوقهم.

«قانت» من مادة «قنوت» بمعنى ملازمة الطاعة المقرونة بالخشوع
والخضوع.

«آناء» هي جمع (انا) - على وزن كذا- وتعني ساعة أو مقداراً من الوقت.
التأكيد هنا على ساعات الليل، لأن تلك الساعات يحضر فيها القلب أكثر،
وتقل نسبة تلوّثه بالرياء أكثر من أي وقت آخر.

قدمت الآية السجود على القيام، وذلك لكون السجود من أعلى درجات
العبادة، وإطلاق الرحمة وعدم تقيدّها بالآخرة دليل على سعة الرحمة الإلهية التي
تشمل الحياة الدنيا والآخرة.

١- في هذه العبارة شق محذوف، والتقدير (أهلنا الذي ذكرنا خير أمن هو قانت آناء الليل).

وفي حديث ورد في كتاب «علل الشرائع» وفي كتاب «الكافي» نقلاً عن الإمام الباقر عليه السلام، إنه فسّر هذه الآية: «أمن هو قانت آناء الليل» بأنها صلاة الليل^(١).

من الواضح أن هذا التفسير يشبه الكثير من التفسير الأخرى التي بيّنت في ذيل آيات مختلفة في القرآن الكريم من قبيل ذكر مصاديقها الواضحة، ولا ينحصر مفهوم الآية بصلاة الليل.

وتمة الآية تخاطب الرسول الأكرم عليه السلام بالقول: «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

كلا، إنهم غير متساوين: «إنما يتذكر أولو الألباب».

لا شك في أن السؤال المذكور أعلاه سؤال شامل، وأنه يقارن ما بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، أي بين العلماء والجهلة، لأنه قبل طرح هذا السؤال، كان هناك سؤال آخر قد طرح، وهو: هل يستوي المشركون والمؤمنون الذين يحيون الليل بالعبادة، فالسؤال الثاني يشير أكثر إلى هذه المسألة وهو: هل أن الذين يعلمون بأن المشركين المعاندين لا يتساوون مع المؤمنين الطاهرين، يتساوون مع الذين لا يعلمون بهذه الحقيقة الواضحة؟

وعلى أية حال فهذه العبارة التي تبدأ باستفهام استنكاري، توضح أحد شعارات الإسلام الأساسية وهو سمو وعلو منزلة العلم والعلماء في مقابل الجهل والجهلة. ولأنّ عدم التساوي - هذا - ذكر بصورة مطلقة، فمن البديهي أن تكون هاتان المجموعتان غير متساويتين عند الباري، عز وجلّ، وغير متساويتين في وجهة نظر العقلاء، ولا يقفون في صف واحد من الدنيا، ولا في الآخرة وأنهم مختلفون ظاهراً وباطناً.



ملاحظة

تتضمن هاتان الآيتان إشارات لطيفة إلى نقاط مهمة:

١- في الآية الأولى، ذكرت فلسفة الحوادث المرة والصعبة، وانكشاف ستائر الغرور والغفلة عن عين القلب، وضرورة شعاع الإيمان شعلة وهاجّة، والعودة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، وأجابت الآية في نفس الوقت أولئك الذين يتصورون أنّ وجود مثل تلك الحوادث الصعبة في الحياة إنما هي نقص في مسألة نظام الخلق وفي عدالة البارئ عز وجلّ.

٢- الآية الثانية تبدأ بالدعوة إلى العمل وبناء الذات وتنتهي بالعلم والمعرفة، لأنّ من لم يبين ذاته، لا تشع أنوار المعرفة من قلبه، حيث لا يمكن أصلاً فصل العلم عن بناء الذات.

٣- قوله تعالى: ﴿قانت آناء الليل﴾ وردت هنا بصيغة اسم فاعل، وكلمة (الليل) جاءت مطلقة لتشير إلى استمرار عبودية وخضوع أولئك لله سبحانه، لأنّ العمل إذا لم يستمر فيكون ضعيف جداً.

٤- إنّ العلم الاضطرابي المتولّد من نزول البلاء والذي يربط الإنسان بخالفه، لا يكون مصداقاً حقيقياً للعلم إلا إذا استمر إلى ما بعد هدوء العاصفة. لذا فإنّ الآيات المذكورة أعلاه تجعل الإنسان الذي يستيقظ حال نزول البلاء ويعود إلى غفلته عند زواله تجعله في عداد الجهلة. إذن فإنّ العلماء الحقيقيين هم المتوجهون إليه تعالى في كلّ الحالات.

٥- ممّا يلفت الإنتباه أنّ نهاية الآية الأخيرة تقول: إنّ الفرق بين الجاهل والعالم لا يدركه سوى أولي الأبواب! لأنّ الجاهل لا يدرك قيمة العلم! وفي الحقيقة إنّ كلّ مرحلة من مراحل العلم هي مقدمة لمرحلة أخرى.

٦- العلم في هذه الآية وبقيّة الآيات لا يعني معرفة مجموعة من المصطلحات، أو العلاقة المادية بين الأشياء، وإنّما يقصد به المعرفة الخاصة التي

تدعو الإنسان إلى (القنوت) أي إلى طاعة الباري عز وجل والخوف من محكمته وعدم اليأس من رحمته، هذه هي حقيقة العلم، وإن كانت العلوم الدنيوية تؤدي إلى ما ذكرناه آنفاً، فهي علم أيضاً. وإلا فهي سبب الغفلة والظلم والغرور والفساد في الأرض، ولا يحصل منها سوى «القييل والقال» وليس «الكيفية والحال».

٧- على عكس ما يعتقد به الجهلة الذين يعدّون الذين مخدراً (أفيوناً)، فإن أهم ما يدعوا إليه الأنبياء هو طلب العلم والمعرفة، وقد أعلنوا عداًهم للجهل أينما كان، وإضافة إلى أن القرآن الحكيم استغل الكثير من المناسبات كي يوضح هذا الأمر، كما وردت في الروايات الإسلامية أحاديث تصور عدم وجود شيء أفضل من العلم.

فقد ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: «لا خير في العيش إلا لرجلين: عالم مطاع، أو مستمع واع»^(١).

كما ورد حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، جاء فيه: «إن العلماء ورثة الأنبياء وذاك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيءٍ منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»^(٢).

٨- الآية الأخيرة تتحدث عن ثلاث مجموعات، هم العلماء والجهلة وأولو الألباب، وقد شخصهم الإمام الصادق ﷺ في حديث له، عندما قال: «نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولوا الألباب»^(٣).

٩- ورد في الحديث خرج أمير المؤمنين ﷺ ذات ليلة من مسجد الكوفة

١- الكافي، المجلد الأول، باب صفة العلم وفضله الحديث (٧).

٢- الكافي، المجلد الأول، باب صفة العلم وفضله الحديث (٢).

٣- تفسير مجمع البيان ذيل آيات البحث.

متوجّهاً إلى داره وقد مضى ربع من الليل ومعه كميل بن زياد رضي الله عنه وكان من خيار شيعة ومحبيه فوصل في الطريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت ويقرأ قوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ أُنَاءَ اللَّيْلِ... الآية﴾ بصوت شجي حزين فاستحسن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئاً، فالتفت صلوات الله عليه إليه وقال: يا كميل لا يعجبك طنطنة الرجل إنّه من أهل النار سأنبئك بعد، فيما يصدر فتحيّر كميل مكاشفة له على ما في باطنه ولشهادته بدخول النار مع كونه في هذا الأمر وتلك الحالة الحسنة ومضى مدّة متطاولة إلى أن ال حال الخوارج إلى ما ال وقتلهم أمير المؤمنين رضي الله عنه وكانوا يحفظون القرآن كما أنزل، فالتفت أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى كميل وهو واقف بين يديه والسيف في يده يقطر دماً ورؤوس أولئك الكفرة الفجرة مجلقة على الأرض فوضع رأس السيف على رأس من تلك الرؤوس وقال: يا كميل أمّن هو قانت... الآية أي هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة فاعجبك حاله قبل كميل قدميه رضي الله عنه واستغفر الله. ^(١).



الآيات

قُلْ يٰۤاَعْبَادِ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اتَّقُوْا رَبَّكُمْ لِلَّذِيْنَ اٰحْسَنُوْا فِيْ هٰذِهِ
 الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَّاَرْضُ اللّٰهِ وُٰسِعَةٌ اِنَّمَا يُوَفَّى الصّٰبِرُوْنَ اَجْرَهُمْ
 بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٦﴾ قُلْ اِنِّيْٓ اُمِرْتُ اَنْ اَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصًا لِّهُ
 الدِّيْنَ ﴿١٧﴾ وَاُمِرْتُ لِاَنْ اَكُوْنَ اَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴿١٨﴾ قُلْ اِنِّيْٓ اَخَافُ
 اِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴿١٩﴾ قُلِ اللّٰهُ اَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لِّهُ
 دِيْنِيْ ﴿٢٠﴾ فَاَعْبُدُوْا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُوْنِهٖ قُلْ اِنَّ الْخٰسِرِيْنَ الَّذِيْنَ
 خَسِرُوْا اَنْفُسَهُمْ وَاَهْلِيْهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ اِلَّا ذٰلِكَ هُوَ الْخٰسِرَانُ
 الْمُبِيْنُ ﴿٢١﴾ لَمْ يَنْفُكُوْا عَنْ قُلُوْبِهِمْ اِلَّا اَنْفُسُهُمْ يَلْمِزُوْنَ اٰلِهَتَهُمْ
 لِتَكْفُرُوْا بِاللّٰهِ عِبَادَةً يٰۤاَعْبَادِ فَاتَّقُوْنَ ﴿٢٢﴾

التفسير

الخطوط الرئيسية لمناهج العباد المخلصين:

تمة لما جاء في بحث الآيات السابقة التي قارنت بين المشركين المغرورين
 والمؤمنين المطيعين لله، وبين العلماء والجهلة، فإن آيات بحثنا هذا تبحث

الخطوط الرئيسية لمناهج عباد الله الحقيقيين المخلصين وذلك ضمن سبعة مناهج وردت في عدة آيات تبدأ بكلمة (قل).

الآية الأولى تحت النبي ﷺ على التقوى: ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾^(١)

نعم، فالتقوى هي الحاجز الذي يصد الإنسان عن الذنوب، وتجعله يحس بالمسؤولية وبتكاليفه أمام الباريء، عز وجل، هي المنهج الأول لعباد الله المؤمنين والمخلصين، فالتقوى هي الدرع الذي يقي الإنسان من النار، والعامل الرئيسي الذي يردعه عن الانحراف، فالتقوى هي ذخيرهته الكبيرة في سوق القيامة، وهي ميزان شخصية وكرامة الإنسان عند الباريء عز وجل.

المنهج الثاني يختص بالإنسان والعمل الصالح في هذه الدنيا التي هي دار العمل، وقد شجعت الآية الناس وحثتهم على عمل الإحسان، من خلال بيان نتيجة ذلك العمل: ﴿للمذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾^(٢).

نعم فالإحسان بصورة مطلقة في هذه الدنيا - سواء كان في الحديث، أو في العمل، أو في نوع التفكير والتفكير بالأصدقاء والغرباء - يؤدي إلى نيل ثواب عظيم في الدنيا والآخرة، لأنّ جزاء الإحسان هو الإحسان.

وفي الواقع فإنّ التقوى عامل ردة، والإحسان عامل صلاح، وكلاهما يشمل (ترك الذنب) و (أداء الفرائض والمستحبات).

المنهج الثالث يدعو إلى الهجرة من مواطن الشرك والكفر الملوثة بالذنوب، قال تعالى: ﴿و أرض الله واسعة﴾.

١ - من البديهي أنّ الخطاب بمباراة «يا عبادي» هو من الله، وإن كان المخاطب هو رسول الله ﷺ فالقصود هنا أن أبلغهم خطايي.

٢ - أغلب المفترمين اعتبروا عبارة (في هذه الدنيا) تنوّد على عبارة (أحسنوا)، واستناداً لهذا فإن «حسنة» مطلقة تشمل كل حسنة في الدنيا والآخرة، ومع إنباه إلى أن استعمال التنوين في مثل هذه الموارد إنّما هو لإعطاء الكلمة طابع التضخيم والظنمة، فإنه يفيد بيان عظمة الثواب.

هذه الآية - في الحقيقة - ردّ على ذوي الإرادة الضعيفة والمتذرعين بمختلف الذرائع الذين يقولون: إننا عاجزون عن أداء الأحكام الإلهية لأننا في أرض مكة التي يحكمها المشركون، والقرآن يردّ عليهم بأن أرض الله لا تقتصر على مكة، فإن لم تتمكنوا من أداء فرائضكم في مكة فالمدينة موجودة، بل إن الأرض كلها لله، هاجروا من المواطن الملوثة بالشرك والكفر والظلم التي لا يمكنكم فيها أداء الأحكام الإلهية بحرية إلى آخر.

مسألة الهجرة هي إحدى أهم المسائل التي لم تلعب دوراً أساسياً في صدر الإسلام بانتصار الحكومة الإسلامية فحسب، بل إن لها أهمية في كل زمان، لأنها من جهة تمنع مجموعة من المؤمنين أن يستسلموا لضغط وكبت محيطهم، ومن جهة أخرى تكون عاملاً مساعداً لتصدير الإسلام إلى نقاط مختلفة في أنحاء العالم.

والقرآن المجيد يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

وهذا يوضح - بصورة جيدة - أنّ المؤمن الذي تحيط به الضغوط والكبت، ويستطيع أن يهاجر في سبيل الله عليه أن يهاجر، وإلا فإنه غير معذور أمام الله. (بشأن أهمية الهجرة في الإسلام وأبعادها المختلفة كانت لنا بحوث مختلفة و مفصلة في ذيل الآية (١٠٠) من سورة النساء، وفي ذيل الآية (٧٢) من سورة الانفال).

ولأنّ الهجرة ترافقها بصورة طبيعية مشكلات كثيرة في مختلف جوانب الحياة، فالمنهج الرابع إذن يتعلق بالصبر والإستقامة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى

الصابرون أجرهم بغير حساب»^(١).

وعبارة (يوفي) مشتقة من (وفى) وتعني إعطاؤه حقه تماماً كاملاً. وعبارة (بغير حساب) تبين أن للصابرين أفضل الأجر والثواب عند الله، ولا يوجد عمل آخر يبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر والإستقامة.

والشاهد على هذا القول ما جاء في الحديث المعروف الذي رواه الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي جاء فيه: «إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان، ولم ينشر لهم ديوان، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾»^(٢).

والبعض يعتقد أن هذه الآية تخص الهجرة الأولى للمسلمين، أي هجرة مجموعة كبيرة من المسلمين إلى أرض الحبشة تحت قيادة جعفر بن أبي طالب عليه السلام، وكما قلنا مراراً رغم أن أسباب النزول توضح مفهوم الآية، إلا أنها لا تحدها.

أما المنهج الخامس فقد ورد فيه أمر الإخلاص والتوحيد الخالي من شوائب الشرك، وهنا تتغير لهجة الكلام بعض الشيء، ويتحدث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن وظائفه ومسؤولياته، إذ يقول: «قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين».

ثم يضيف: «وأمرت لأن أكون أول المسلمين». وهذا هو المنهج السادس الذي يعترف بأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو أول الناس إسلاماً وتسليماً لأوامر الباري عز وجل.

أما المنهج السابع والأخير فيتناول مسألة الخوف من عقاب الباري عز وجل يوم القيامة، قال تعالى: «قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم

١ - «بغير حساب» من الممكن أن تكون متعلقة بـ (يوفي)، أو أنها (حال) لـ (أجرهم) لكن الإحتمال الأول أنسب.

٢ - تفسير مجمع البيان ذيل آيات البحث، ونفس المعنى مع اختلاف بسيط ورد في تفسير القرطبي تقيلاً عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

عظيم».

التأمل في هذه الآيات يكشف بوضوح عن أنّ رسول الله ﷺ هو عبد من عباد الله، وهو مكلف أيضاً بعبادة الله بإخلاص، لأنّه - هو أيضاً - يخاف العذاب الإلهي، وهو مكلف بإطاعة الأوامر الإلهية، كما أنّه مكلف بتكاليف وواجبات أثقل وأعظم من تكاليف الآخرين، ولذا يجب أن يكون أفضل وأسمى من الآخرين.

إنّه لم يدع الألوهية أبداً، ولم يخط خطوة واحدة خارج مسير العبودية، بل إنّه يفخر ويتباهى بهذا المقام، ولهذا السبب كان قدوة وأسوة، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يفضل نفسه على الآخرين، وهذا دليل على عظمته وأحقّيته، فهو ليس كالمدّعين الكذّابين الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، ويعتبرون أنفسهم أرقى من البشر، وأنهم من معدن ثمين أفضل من الناس، وأحياناً يدعون أتباعهم إلى التبرع سنوياً بالذهب والجواهر بقدر وزنهم.

إنّه يقول: إنّي لست مثل السلاطين المتجبرين على رقاب الناس الذين يكلفون الناس ببعض التكاليف ويعتبرون أنفسهم «فوق تلك التكاليف» وهذا في الواقع إشارة إلى موضوع تربوي هامّ، وهو أنّ كلّ إنسان - مريباً كان أم قائداً - عليه أن يكون السباق في تنفيذ من أجلها ما يمليه عليه نهجه، فيجب أن يكون أوّل مؤمن بشريعته أو سنته وأكثر الساعين والمضحين كي يؤمن الناس بصدقه، ويتخذونه أسوة وقدوة لهم في كلّ الأمور. ومن هنا يتضح أنّ رسول الله ﷺ لم يكن أوّل مسلم من حيث الزمان وحسب، وإنّما كان أوّل إسلاماً من كلّ النواحي، من ناحية الإيمان والإخلاص، والعمل، والتضحية، والجهاد، والصمود، والمقاومة، وتأريخ حياة الرسول الأكرم ﷺ يؤيد هذه الحقيقة بصورة جيدة.

بعد استعراض المناهج السبعة المذكورة في الآيات أعلاه (التقوى، الإحسان، الهجرة، الصبر، الإخلاص، التسليم، الخوف).

ولكون مسألة الإخلاص لها ميزات خاصة في مقابل العلل المختلفة للشرك،

تعود الآيات لتؤكد عليها مرة أخرى، إذ تقول وبنفس اللهجة السابقة: ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾^(١).

أما أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون الله: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾. ثم تضيف: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾. أي إنهم لم يستثمروا طاقاتهم وعمرهم، ولا من عوائلهم وأولادهم لإنقاذهم، ولا لإعادة ماء الوجه المراق إليهم، وهذا هو الخسران العظيم: ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تصف إحدى صور الخسران المبين، إذ تقول: ﴿هم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾.

وبهذا الشكل فإن أعمدة النيران تحيط بهم من كل جانب، فهل هناك أعظم من هذا؟ وهل هناك عذاب أشد من هذا؟

«ظلل» جمع (ظلمة) على وزن «سنة» وتعني الستر الذي ينصب في الجهة العليا. وطبقاً لهذا فإن إطلاق هذه الكلمة على ما يفرش تحت أهل النار إطلاق مجازي ومن باب التوسع في معنى الكلمة.

بعض المفسرين قالوا: بما أن أصحاب النار يتقلبون بين طبقات جهنم، فإن ستائر النار محيط بهم من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم. والآية (٥٥) من سورة العنكبوت تشبه هذه الآية: ﴿يوم يغشهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾.

هذا في الحقيقة تجسيد لأحوالهم وأوضاعهم في هذه الدنيا، إذ أن الجهل والكفر والظلم محيط بكل وجودهم، ومستحوذ عليهم من كل جانب، ثم تضيف الآية مؤكدة وواعظة إياهم: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾.

إضافة كلمة (العباد) إلى لفظ الجلالة في هذه الآية، ولعدة مرات إشارة إلى أن

١ - تقديم (اسم الجلالة) و الذي هو مفعول (اعبد) يفيد الحصر هنا، و قوله (مخلصاً له ديني) التي هي حال يؤكد معنى الحصر.

تهديد الباري، عز وجل لعباده بالعذاب إنما هو لطف ورحمة منه، وذلك كي لا يبتلى عباده بمثل هذا المصير المشؤوم، ومن هنا يتضح أنه لا حاجة لتفسير كلمة (العباد) هنا على أنها تخصّ المؤمنين، فهي تشمل الجميع، كي لا يأمن أحد من العذاب الإلهي.



ملاحظات

١- حقيقة الخسران!

يرى الراغب في مفرداته أن الخسران يعني ذهاب رأس المال كلّ أو بعضه، وأحياناً تنسب إلى الإنسان، عندما يقال: (الشخص الفلاني خسر) وأحياناً تنسب إلى العمل عندما يقولون: (خسرت تجارتك).

وتستخدم كلمة (خسران) أحياناً في حالة فقدان الثروة الظاهرية، كالمال والجاه، والديوي، وأحياناً أخرى تستخدم في حالة فقدان ثروة معنوية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهذا هو الشيء الذي سمّاه الباري عز وجل (الخسران المبين) فكلّ خسران ذكره الباري عز وجل في القرآن الكريم إنما يشير إلى المعنى الثاني وليس إلى الخسران الخاص بثروات الدنيا وتجارته^(١).

وقد شبه القرآن الإنسان بتجارة الأثرياء الذين يدخلون أسواق التجارة العالمية برؤوس أموال كبيرة، فالبعض منهم يجني أرباحاً كبيرة، والبعض الآخر يخسر خسارة فادحة.

آيات كثيرة في القرآن المجيد تطرقت إلى مثل هذا التعبير والتشبيه، حيث توضح الحقيقة التالية: إنّ النجاة من العذاب الإلهي لا تتحقق بالجلوس وانتظار

هذا وذلك، وإن السبيل الوحيد للنجاة هو الإستفادة من الثروة، وبذل الجهود والمساعي في هذه التجارة الكبيرة، لأنَّ كلَّ شيء يعطى بثمن، ولا يعطى بالمعاذير!

وقد يتساءل البعض: ما هي أسباب وصف خسارة المشركين والمذنبين بالخسران المبين؟

الجواب هو:
أولاً: لأنهم باعوا أفضل ثروة لديهم - أي العمر والعقل والإدراك والعواطف الانسانية - بدون مقابل.

ثانياً: لو أنهم باعوا تلك الثروة من دون أن يشتروا العذاب والعقاب لكان أمراً هيناً بعض الشيء، لكن الأمر لم يكن كذلك إذ أنهم بخسرانهم لتلك الثروة العظيمة هيأوا لأنفسهم عذاباً أليماً وعظيماً.

ثالثاً: إنَّ هذه الخسارة التي لا يمكن أن تعوّض بأيّ ثمن، وهذه هي (الخسران المبين).

٢- ما هو المراد من الآية: ﴿فاعبدوا ما شئتم﴾

عبارة ﴿فاعبدوا ما شئتم﴾ جاءت بصيغة أمر تهديدي، وهذا الأسلوب يستعمل عندما لا تؤثر النصيحة والموعظة بالشخص المجرم والمذنب، إذ أن آخر ما يقال له: (افعل ما تشاء، ولكن انتظر العقاب أيضاً) ويعني أنك وصلت إلى درجة لا تستحقّ معها النصيحة والموعظة، وأن مصيرك وعلاجك هو العذاب الأليم.

٣- من هم الأهل؟

الآيات المذكورة أعلاه تقول: إنَّ أولئك الخاسرين لم يخسروا ثروة وجودهم فحسب، وإنما خسروا أهلهم أيضاً.

بعض المفسرين قال: إنَّ المراد من (أهل) هم أتباع الإنسان والسائرون على نهجه.

والبعض الآخر فسرها بأنَّها تعني الزوجات القاصرات الطرف في الجنة، اللواتي خسرن المشركون والمجرمون.

والبعض الآخر يقول: إنَّها تعني العائلة والأرقاب في الدنيا.

والمعنى الأخير - مع الإلتفات إلى أنَّه المعنى الأصلي لهذه الكلمة - يعد أنسب من الجميع، لأن الكافر يخسر أهله يوم القيامة، إذ ينفصلون عنه وإن كانوا مؤمنين، وأما إذا كانوا مشركين فمضافاً إلى أنَّهم لا ينفعونهم، سيكونون سبباً في زيادة العذاب الاليم.



الآيات

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ
الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴿٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي
النَّارِ ﴿٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ
مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
الْمِيعَادَ ﴿١٠﴾

التفسير

عباد الله الحقيقيون:

استخدم القرآن الكريم مرة أخرى أسلوب المقارنة في هذه الآيات، إذ قارن بين عباد الله الحقيقيين والمشركين المعاندين الذين لا مصير لهم سوى نار جهنم، قال تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى﴾. ولكون كلمة (البشرى) جاءت هنا بصورة مطلقة وغير محدودة، فتشمل كافة

أنواع البشرى بالنعم الإلهية المادية والمعنوية، وهذه البشرى بمعناها الواسع تختص فقط بالذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وعمدوا إلى عبادة الله وحده من خلال إيمانهم به وعملهم الصالح.

وكلمة «طاغوت» من مادة (الطغيان) تعني الإعتداء وتجاوز الحدود، ولذا فإنها تطلق على كل متعدي، وعلى كل معبود من دون الله، كالشيطان والحكام المتجبرين (وتستعمل هذه الكلمة للمفرد والجمع)^(١).

فعبارة «اجتنبوا الطاغوت» بمعناها الواسع تعني الابتعاد عن كل أشكال الشرك وعبادة الأصنام وهوى النفس والشيطان، وتجنب الإنصياع والإستسلام للحكام المتجبرين الطغاة.

أما عبارة «أنابوا إلى الله» فإنها تجمع روح التقوى والزهد والإيمان، وأمثال هؤلاء يستحقون البشرى.

ويجب الإلتفات إلى أن عبادة الطاغوت لا تعني فقط الركوع والسجود له، وإنما تشمل كل طاعة له، كما ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام «من أطاع جباراً فقد عبده»^(٢).

ثم تعرج الآية على تعريف العباد الخاصين فنقول: «فبشر عباد»^(٣) الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب».

الآيتان المذكورتان بمثابة شعار إسلامي، وقد بيّنتا حرية الفكر عند المسلمين، وحرية الإختيار في مختلف الأمور.

١- بعض المفترين، ومنهم الرمخشري صاحب الكشاف يعتقدون أن أصل كلمة (طاغوت) هو (طفوت) على وزن (فعلوت) (كملكوت)، ثم تعدت لام الفعل على عين الفعل و أصبحت (طوغوت)، وبعد إبدال الواو بالألف أصبحت (طاغوت) و يستدل صاحب الكشاف على هذا الكلام من عدة مصادر (تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٠).

٢- مجمع البيان، الجزء السابع، الصفحة ٤٩٢، ذيل آية البحث.

٣- (عباد) كانت في الأصل (عبادي) وقد حذفت الياء، و عوض عنها بالكسرة.

ففي البداية تقول (بشر عباد) ثم تعرّج على تعريف أولئك العباد المقربين بأنهم أولئك الذين لا يستمعون لقول هذا وذاك ما لم يعرفوا خصائص وميزات المتكلم، والذين ينتخبون أفضل الكلام من خلال قوّة العقل والإدراك، إذ لا تعصب ولا لجاجة في أعمالهم، ولا تحديد وجمود في فكرهم وتفكيرهم، إنهم يبحثون عن الحقيقة وهم متعطشون لها، فأينما وجدوها استقبلوها بصدور رحبة، ليشرّبوا من نبعها الصافي من دون أيّ حتى يرتووا.

إنهم ليسوا طالبين للحق ومتعطين للكلام الحسن وحسب، بل هم يختارون الأجود والأحسن من بين (الجيد) و (الأجود) و (الحسن) و (الأحسن)، وخلاصة الأمر فإنهم يطمحون لنيل الأفضل والأرفع، وهذه هي علامات المسلم الحقيقي المؤمن الساعي وراء الحق.

أما المقصود من كلمة (القول) في عبارة «يستمعون القول» فإنّ المفسرين أعطوا عدّة آراء لتفسيرها، منها:

البعض فسّره بأنّه يعني (القرآن) الذي يحتوي على الطاعات والمباحات، واقتفاء الأحسن يعني اقتفاء الطاعات.

والبعض الآخر فسّرها بأنها تعني مطلق الأوامر الإلهية المذكورة في القرآن وغير المذكورة فيه.

ولكن لم يتوفّر أيّ دليل على هذين التفسيرين، بل أن ظاهر الآية يشتمل كلّ قول وحديث، فالمؤمنون هؤلاء يختارون من جميع الكلمات والاحاديث ما هو (أحسن)، ليترجموه في أعمالهم.

والطريف في الأمر أنّ القرآن الكريم حصر في الآية المذكورة أعلاه الذين هداهم الله بأولئك القوم الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، كما أنّه اعتبر العقلاء ضمن هذه المجموعة، وهذه إشارة إلى أنّ أفراد هذه المجموعة مشمولون بالهداية الإلهية الظاهرية، والباطنية، الهداية الظاهرية عن طريق العقل والإدراك،

والهداية الباطنية عن طريق النور الإلهي والإمداد الغيبي، وهاتان مفخرتان كبيرتان للباحثين وراء الحقيقة ذوي التفكير الحرّ.

ولكون رسول الله ﷺ كان يرغب - بشدة - في هداية المشركين والضالين، وكان يتألم كثيراً لإنحراف أولئك الذين لم يعطوا أذناً صاغية للحقائقي، فإن الآية التالية عمدت الى مواساته بعد أن وضحت له حقيقة أنّ عالمنا هذا هو عالم الحرية والإمتحان، و مجموعة من الناس - في نهاية الأمر - يجب أن تدخل جهنم، إذ قالت: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾^(١).

عبارة (حققت عليه كلمة العذاب) إشارة إلى آيات مشابهة، كآية (٨٥) من سورة ص التي تقول بشأن الشياطين وأتباعهم: ﴿لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين﴾.

ومن البديهي أنّ حتمية تعذيب هذه المجموعة لا تحمل أيّ طابع إجباري، بل إنهم يعذبون بسبب الأعمال التي ارتكبوها، ونتيجة إصرارهم على ارتكاب الظلم والذنوب والفساد، بشكل يوضح أنّ روح الإيمان والتعقل كانت ميتة في أعماقهم، وأنّ وجودهم كان قطعة من جهنم لا أكثر.

من هنا يتبين أنّ قوله تعالى: ﴿أفأنت تنقذ من في النار﴾ هو إشارة الى حقيقة أنّ كونهم من أصحاب النار يعدّ أمراً مسلماً به وكأنّهم الآن هم في قلب جهنم، حتّى أنّ رسول الله ﷺ الذي هو (رحمة للعالمين) لا يستطيع إنقاذهم من العذاب، لأنّهم قطعوا كافة طرق الإتصال بالله سبحانه وتعالى ولم يبقوا أيّ سبيل لنجاتهم.

ولبعث السرور في قلب رسول الله ﷺ ولزيادة الأمل في قلوب المؤمنين،

١ - في الحقيقة، إنّ الآية تحوي جملة محذوفة تدل عليها الجملة التي تلتها. نقديها (أفأنت تخلصه) إذ يصبح تقدير الجملة كالتالي (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تخلصه (بقرينة الجملة التالية) أفأنت تنقذ من في النار) و قال البعض الآخر: إنّ تقدير الآية هو كالتالي (أفمن حققت عليه كلمة العذاب ينجو منه).

جاء في آخر الآية: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف﴾. فإن كان أهل جهنم مستقرين في ظلل من النار، كما ورد في الآية السابقة: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ فإن لأهل الجنة غرفاً من فوقها غرف أخرى، وقصور فوقها قصور أخرى، لأن منظر الورد والماء والأنهار والبساتين من فوق الغرف يبعث على اللذة والبهجة بشكل أكثر.

«غرف» جمع «غرفة» من مادة «غرف» وعلى وزن حرف - بمعنى تناول الشيء ولذا يطلق على من يتناول الماء بكفه ليشربه «غرفة» ثم اطلقت على الطبقات العليا من المنازل.

وكشفت الآية أيضاً عن أن غرف أهل الجنة الجميلة قد زينت بأنهار تجري من تحتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ نعم، هذا وعد الله ﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾^(١).



بحوث

١ - منطق حرية التفكير في الإسلام

الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة ومناقشة مواضيع و آراء بقية المذاهب، إذ أنهم يخافون من أن تكون حجة الآخرين أقوى من حججهم الضعيفة وبالتالي فقدان اتباعهم.

إلا أن الإسلام - كما شاهدنا في الآيات المذكورة أعلاه - ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة في هذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد الله الحقيقيين الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، ولا يستسلمون لشيء من دون أي قيد أو شرط،

١ - يقول «الزمخشري» في الكشاف: ﴿وعد الله﴾ منصوب لكونه مفعولاً مطلقاً للتأكيد. ولأن عبارة ﴿لهم غرف﴾ تعني (وعدمه الله غرفاً).

ولا يتقبلون كلّ وسواس.

الإسلام الحنيف يبشّر الذين يستمعون القول ويستبجون أحسنه، الذين لا يكفون بترجيح الجيد على السيء، وإنما ينتخبون الأحسن ثمّ الأحسن من كلّ قول ورأي.

ويوبّخ - بشدّة - الجهلة الذين يضعون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم كلما سمعوا صوت الحق، كما ورد في قول نوح عليه السلام عندما شكى قومه للباري عزّ وجلّ: ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾^(١).

وأساساً فإنّ المذهب القوي الذي يملك منطقاً قوياً لا يرهب أقوال الآخرين، ولا يخاف من طرح آراء تلك المذاهب، لأنّه أقوى منها وهي التي ينبغي أن تخافه.

هذه الآية وضعت - في نفس الوقت الذين يتبعون أيّ قول يقال لهم من دون أيّ تفكير في مدى صدقه، وحتى أنّهم لا يحققون ولا يبحثون فيه بقدر ما تبحث الأغنام عن الغذاء الجيد في المراعي، وضعتهم خارج صف (أولوا الألباب) والذين (هداهم الله). فهاتان الصفتان تختصّان بالذين لم يبتلوا بالإستسلام المفرط من دون أيّ قيد أو شرط، والذين لم يفرطوا في تعصبهم الجاهلي الأعمى.

٢- الردّ على بعض الأسئلة

من الممكن أن تطرح على ضوء البحث السابق عدّة أسئلة، منها:

- ١- لماذا يمنع الإسلام بيع وشراء كتب الضلال.
- ٢- لماذا يحرم إعطاء القرآن الكريم بيد الكفار.
- ٣- كيف يمكن لإنسان ليس له إمام بموضوع ما أن ينتخب ويميز الجيد من

السي، ألا يستلزم هذا المعنى الدور؟

الجواب على السؤال الأول واضح، لأنّ البحث المتعلّق بالآيات المذكورة أعلاه يتناول أقوالاً يؤمل منها الهداية، ففي أي وقت يتضح بعد البحث والتحقيق أن الكتاب الفلاني هو مفضل فإنّه يخرج من هذا الأمر، فالإسلام لا يسمح بأن يسلك الناس في طريق ثبت انحرافه. وبالطبع فإنّه مادام الأمر لم يثبت لأحد، أي ما زال الشخص في حالة التحقيق عن المذاهب الأخرى لقبول الدين الصحيح، لا بأس بمطالعة كلّ تلك الكتب، ولكن بعد ثبوت ذلك الأمر يجب اعتبارها مادة سامة، ويجب إبعادها عن متناول الجميع.

أمّا بالنسبة إلى السؤال الثاني، فإنّه لا يجوز إعطاء القرآن لغير المسلم إن كان ذلك الشخص يهدف إهانة وهتك القرآن، ولكن إن حصل علم بأن ذلك الكافر يفكر حقاً بالتحقيق في الإسلام من خلال القرآن للوصول إلى هذا الهدف، فإن إعطاء القرآن هنا لا يعدّ أمراً ممنوعاً، بل يعدّ واجباً، والعلماء الذين حرّموا ذلك لا يقصدون هذا المعنى.

ولهذا فإنّ الجمعيات الإسلامية الكبيرة تصرّ بشدّة على ترجمة القرآن إلى بقية اللغات الحية في العالم، ليوضع تحت تصرف المتعطين لمعرفة الحقيقة. وأمّا بشأن السؤال الثالث، فيجب الالتفات إلى أنّه في كثير من الأحيان لا يستطيع شخص ما إنجاز عمل ما، ولكن عندما ينجزه الآخرون يتمكن هو من تشخيص الجيد من الرديء في ذلك العمل.

وعلى سبيل المثال، من الممكن أن يوجد شخص لا إطلاق له بفنّ الإعمار والبناء حتى أنّه لا يستطيع وضع لبنتين فوق بعضهما البعض بصورة صحيحة، ولكنّه يستطيع تمييز البناء الجيد ذي الكيفية العالية من البناء السيء غير المتناسق، كما أنّ هناك أشخاصاً كثيرين ليسوا بشعراء، إلّا أنّهم يتمكنون من تقييم أشعار شعراء كبار وتميزها عن الأشعار الفارغة التي ينظمها بعض ناظمي الشعر. هناك

أشخاص ليسوا برياضيين ولكنهم يتمكنون من التحكيم بين الرياضيين، وانتخاب الجيد منهم.

٣- نماذج من الروايات الإسلامية التي تؤكد على حربة التفكير

وردت بعض الأحاديث الإسلامية في تفسير الآيات المذكورة أعلاه، كما وردت أحاديث مستقلة تؤكد على هذا الموضوع، ومنها ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، خاطب فيه أحد أصحابه وهو هشام بن الحكم قائلاً: «يا هشام، إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه، فقال ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾»^(١).

وورد حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية المذكورة أعلاه، قال فيه: «هو الرجل يسمع الحديث فيحدث به كما سمعه، لا يزيد فيه ولا ينقص»^(٢).

وبالطبع، فإن تفسير «فيتبعون أحسنه» هو المقصود في هذا الحديث، لأن إحدى علامات اتباع القول الحسن، هو أن لا يضيف الإنسان من عنده أي شيء على القول، وينقله ذاته للآخرين.

ونقرأ في البلاغة في حقل الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام: (الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق)^(٣).

٤- سبب النزول

ذكر المفسرون أسباباً لنزول هذه الآيات، ومنها، أن الآية: «و الذين اجتنبوا

١-١ الكافي، المجلد الأول، كتاب العقل والحديث (١٢).

٢- نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٨٦، الحديث ٣٤.

٣- نهج البلاغة، قصار الكلمات، الخطبة (٨٠).

الطاغوت... والآية التي تلتها نزلنا بحق ثلاثة أشخاص (لم يستسلموا في عهد الجاهلية لغوغاء المشركين في مكة) كانوا يقولون لا إله إلا الله، والثلاثة هم (سلمان الفارسي وأبوذر الغفاري وزيد بن عمرو)^(١).

وقد ورد اسم (سعيد بن زيد) بدلاً (زيد بن عمرو) في بعض الروايات^(٢).
والبعض الآخر قال: إن الآية: «أفمن حق عليه كلمة العذاب...» نزلت بشأن (أبي جهل) وأمثاله^(٣).

وغير مستبعد أن تكون هذه الروايات من قبيل تطبيق الآية على المصاديق الواضحة وليس أسباباً للنزول.



١ - تفسير القرطبي؛ ومجمع البيان ذيل آيات البحث.

٢ - الدر المنثور تقلد عن تفسير الميزان، المجلد ١٧، صفحة ٢٦٧.

٣ - القول هنا أورده صاحب تفسير روح المعاني تقلد عن آخرين.

الآيتان

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُضْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ
حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣١﴾ أَفَنْ شَرَحَ اللَّهُ
صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ
مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

التفسير

الذين هم على مركب من نور!!

في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم مرة أخرى دلائل التوحيد والمعاد، ليكمل البحوث التي تناولت مسألة الكفر والإيمان الواردة في الآيات السابقة. إذ تشرح أحد آثار عظمة وربوبية الباري عز وجل في نظام عالم الكون، وذلك عندما تشير إلى مسألة (نزول المطر) من السماء، ثم إلى نمو آلاف الأنواع من الزرع بمختلف الألوان بعد أن تسقى من ماء عديم اللون، وإلى مراحل نموها حتى وصولها إلى المرحلة النهائية وتقول موجهة الخطاب إلى النبي الأكرم ﷺ باعتبارها القدوة لجميع المؤمنين «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في

الأرض^(١).

قطرات المطر التي تبعث الحياة حينما تنزل من السماء تمتصها الطبقة الأولى من طبقات الأرض، وعندما تنفذ إلى داخل هذه الطبقة تقف عند طبقة أخرى في الأرض ولا تتمكن من النفوذ خلالها، لتبعث مرة أخرى إلى سطح الأرض بصورة عيون وقنوت وآبار.

كلمة (سكله) تعني (نفوذ مياه الأمطار في داخل قشرة الأرض) وهذه إشارة مختصرة لما ذكرناه آنفاً.

«ينابيع» هي جمع (ينبوع) مشتقة من (نبع) وتعني فوران الماء من داخل الأرض. ولو كانت للأرض قشرة واحدة لا تمتلك القابلية على الإمتصاص، فإن مياه الأمطار النازلة سوف تتجه بأكملها بعد هطولها إلى البحار لتصب فيها من دون أن تخزن داخل قشرة الأرض، وفي هذه الحالة ينعدم وجود العيون والقنوت والآبار. وإذا كانت الأرض ذات قشرة واحدة نفوذية تماماً، فإن كل مياه الأمطار تتجه نحو أعماق مناطق باطن الأرض، وفي تلك الحالة يستحيل الوصول إليها واستخراجها، فتتظيم قشرة الأرض بحيث توجد طبقتان إحداها نفوذية والأخرى غير نفوذية، وبدرجات معينة، كل ذلك ثم وفق حسابات خاصة، تبين قدرة الباري عز وجل.

والملفت للنظر أن قشرة الأرض تكون أحياناً ذات طبقات متعددة، بعضها نفوذي والبعض الآخر غير نفوذي، ومرتبة الواحدة فوق الأخرى ويستفاد منها في عمليات حفر الآبار (السطحية) و (العميقة) و (نصف العميقة).

وتضيف الآية فيما بعد: «ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه» ذات الأشكال المختلفة.

١ - «ينابيع» على ما هو المشهور يكون منصوباً بنوع الخافض، وهو جمع ينبوع من نبع الماء (راجع تفسير روح المعاني، ج ٢٣، ص ١٢٥٦، روح البیان، ج ٨، ص ٩٣).

أي مختلف الأنواع كالحنطة والشعير والزر والذرة، ذات الأشكال المختلفة و الألوان الظاهرية المتعددة، فمنها الأخضر الغامق، والأخضر الفاتح، وبعضها ذو أوراق عريضة وكبيرة، والبعض الآخر ذو أوراق دقيقة وصغيرة.

ومما يذكر أن كلمة (زرع) تطلق على النباتات ذات الساق الدقيق، فيما تطلق كلمة (شجر) على الأشجار ذات السيقان القوية، وكلمة (زرع) ذات معان كثيرة تشمل النباتات الطبيعية التي لا يمكن الاستفادة منها للغذاء، وأنواع الورد ونباتات الزينة والأعشاب الطبية التي يؤخذ منها الدواء، وأحياناً نرى في غصن واحد، ولربما في وردة واحدة عدة ألوان جميلة جذابة، تسبح وتوحد الباري عز وجل بلسان صامت.

ثم تنتقل الآية إلى مرحلة أخرى من مراحل حياة هذه النباتات، إذ تقول: ﴿ثم يهيج فتراه مصفراً﴾^(١) حيث تعصف به الرياح من كل جانب لتقلعه من مكانه بسبب ضعف سيقانه ويضيف تعالى: ﴿ثم يجعله حطاماً﴾.

نعم، إن في هذا لذكرى لأصحاب العقول وأهل العلم «إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب».

هذا المشهد يذكر الإنسان بالنظام الدقيق والعظيم الذي وضعه الباري عز وجل لعالم الوجود، وأنه تذكير بنهاية الحياة وانطفاء شعلتها، ومن ثم بمسألة البعث وعودة الأموات إلى الحياة. فرغم أن هذا المشهد يتعلّق بعالم النبات، إلا أنه ينبّه الإنسان إلى أن مثل هذا الأمر سوف يتكرر في حياته وعمره هو أيضاً مع وجود بعض الاختلاف في مدة الأعمار، ولكن الأساس واحد إذ يبدأ بالولادة يتدرج إلى النشاط والشباب، ومن ثمّ الذبول والكهولة، وفي النهاية الموت.

وكتتمة لهذا الدرس الكبير في التوحيد والمعاد، تنتقل الآيات إلى المقارنة

١- «يهيج» من مادة (هيجان) ولها معنيان في اللغة. الأول هو جاف النبات واصفراره، والثاني هو التحرك والإنفاس، ومن الممكن أن يعود المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات حينما يجفّ فإنه يستمد للاتصال والانتشار والتحريك والهيجان.

بين المؤمنين و الكافرين، كي توضح حقيقة أنّ القرآن والوحي السماوي هما كقطرات المطر التي تهطل على الأرض، وكما أنّ الأرض التي لها الإستعداد هي التي تستفيد من قطرات المطر، فكذلك القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف الله، هي - فقط - التي تستفيد من آيات الله، وذلك طبقاً لقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾^(١) كمن هو قاسي القلب لا يهتدي بنورا!!

أما القاسية قلوبهم، فهم الذين لا تؤثر بهم المواعظ ولا الوعيد ولا البشرى، ولا الآيات القرآنية المؤثرة، ولا ينمي مطر الوحي الباعث للحياة عندهم ثمار التقوى والفضيلة، وبصورة موجزة يمكن القول بأنهم كالنباتات التي لا طراوة فيها ولا أوراق ولا ثمار ولا ظل.

نعم ﴿أولئك في ضلال مبين﴾.

«القاسية» مشتقة من (قسوة) وتعني الخشونة والصلابة والتجبر، لذلك تطلق صفة (قاسية) على الأحجار الصلبة، ويقال للقلوب التي لا تظهر أي استجابة لنور الحق والهداية، ولا تلين ولا تستسلم لها، ولا تسمح بنفوذ نور الحق والهداية إليها (قلوب قاسية).

على أية حال، فإنّ هذه العبارة جاءت في مقابل (انشراح الصدر) وسعة الروح، لأنّ الرحابة والإتساع كناية عن الإستعداد للإستقبال، فالشارع والبيت الواسع يمكنهما أن يضما أناساً كثيرين، وكذلك الصدر الواسع والروح المنسرحة، فإنها مستعدة لتقبل حقائق أكثر.

ونقرأ في إحدى الروايات أنّ ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن تفسير هذه الآية: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾

١ - هذه الآية تتضمن جملة محذوفة توضح من خلال الجملة التي تليها وعند تقديرها نصيح الآية (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه كمن هو قاسي القلب لا يهتدي بنورا).

فقال ﷺ: «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح».

ثم قلنا: يا رسول الله ما هي علامات انشراح الصدر؟ فقال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والإستعداد للموت قبل نزوله»^(١).

أما علي بن إبراهيم فيقول في تفسيره أن عبارة: «أفمن شرح الله صدره للإسلام» نزلت في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد ورد في تفاسير أخرى أن عبارة: «فويل للقاسية قلوبهم» نزلت بحق (أبي لهب وأبنائه)^(٢).

ومن الواضح أن أسباب النزول هنا هي في الحقيقة من باب تطبيق المفهوم العام على المصاديق الواضحة.

إن ما يلفت النظر في عبارة: «فهو على نور من ربه» أن النور والضياء جعل هنا بمثابة مركبة يركبها المؤمنون تفسير بهم بسرعة عجيبة ومسير واضح وقدرة على طواف العالم كله.



بحث

عوامل (شرح الصدر) و(قسوة القلب)

الناس ليسوا على وتيرة واحدة من حيث قبول الحق وإدراك الأمور، فالبعض يتمكن من إدراك الحقيقة بمجرد إشارة واحدة أو جملة قصيرة، وهذا يعني أن تذكيراً واحداً يكفي لإيقاظهم فوراً، وموعظة واحدة قادرة على إحداث صيحات في أرواحهم وفي حين أن البعض الآخر لا يتأثر بأبلغ الكلمات وأوضح الأدلة وأقوى العبارات، وهذه المسألة ليست بالأمر السهل أو الهين.

١- تفسير القرطبي. المجلد الثامن. الصفحة ٥٦٩١ (تفسير سورة الزمر ذيل آيات البحث) نقل هذا الحديث مع اختلاف جزئي عن (روضة الواعظين) للشيخ المفيد.

٢- تفسير المصافي ذيل آيات البحث.

وكم هي جميلة التعابير القرآنية في هذا المجال، وذلك عندما تصف البعض بأنهم ذوو صدور منشرحة وأرواح واسعة، وتصف البعض الآخر بأنهم ذوو صدور ضيقة، كما ورد في الآية (١٢٥) من سورة الأنعام: ﴿لئن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾. هذا الموضوع يتضح بصورة كاملة في حالة دراسة أوضاع وأحوال الأشخاص، فالبعض لهم صدور منشرحة رحبة تتسع لإستيعاب أي مقدار من الحقائق، في حين أن البعض الآخر على العكس، إذ أن صدورهم ضيقة وأفكارهم محدودة لا يمكنها أحياناً استيعاب أي حقيقة، وكأن عقولهم محاطة بجدران فولاذية لا يمكن اختراقها. وبالطبع لكل واحد منهما أسبابه.

فالدراسة الدائمة والمستمرة والاتصال بالعلماء والحكماء الصالحين، وبناء الذات وتهذيب النفس، واجتناب الذنوب وخاصة أكل الطعام الحرام، وذكر الله دائماً، كلها أسباب وعوامل لإنتشاح الصدر، وعلى العكس فإن الجهل والذنوب والعداوة والجدل والرياء، ومجالسة أصحاب السوء والفجار والمجرمين وعبيد الدنيا والشهوات، كلها تؤدي إلى ضيق الصدر وقساوة القلب.

فعندما يقول القرآن الكريم: ﴿لئن يرد الله يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾. فهذه الإرادة وعدم الإرادة ليست اعتبارية وبدون دليل. بل هي نابعة من اعماقنا وذواتنا في البداية.

وقد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام جاء فيه: «أوحى الله عز وجل إلى موسى: يا موسى لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وإن ترك ذكري يقسي القلوب»^(١).

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام، جاء فيه: «ما جفت الدموع إلا

لقسوة القلوب، وما قسمت القلوب إلا لكثرة الذنوب»^(١).

كما ورد في حديث ثالث أن من جملة كلام الله سبحانه وتعالى مع موسى عليه السلام «يا موسى لا تطول في الدنيا أملك، فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد»^(٢).
وأخيراً، ورد حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام جاء فيه: «لمتان: لمة من الشيطان ولمة من الملك، فلمة الملك الرقة والفهم، ولمة الشيطان السهو والقسوة»^(٣).

على أية حال، فإن من يريد انشراح صدره وإزالة القساوة من قلبه، عليه أن يتوجه نحو الباري عز وجل كي يبعث الأنوار الإلهية في قلبه كما وعد بذلك الرسول الأكرم ﷺ. وعليه أن يصقل مرآة قلبه من صدأ الذنوب، ويظهر روحه من أوساخ هوى النفس والوساوس الشيطانية، استعداداً لإستقبال المعشوق، وأن يسكب الدموع خوفاً من الله وحباً له، فإن في ذلك تأثيراً عجيبيلاً لا نظير له على رقة ولين القلب ورحابة الروح، وفي المقابل فإن جمود العين هو إحدى علامات القلب المتحجر.



١- بحار الأنوار، المجلد ٧٠، الصفحة ٥٥، الحديث ٢٤.

٢- الكافي، المجلد الثاني، باب القسوة الحديث (١).

٣- نفس المصدر السابق الحديث (٣).

الآيات

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَاءَ لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّهَمُوا الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

سبب النزول

نقل بعض المفسرين عن (عبد الله بن مسعود) أن جمعا من الصحابة ملأوا وتضجروا، فقالوا لرسول الله ﷺ: حدثنا حديثاً يزيل السأم من نفوسنا والملل من قلوبنا، فنزلت أول آية من الآيات المذكورة أعلاه معرفة القرآن بـ (أحسن الحديث) (١).

التفسير

الآيات السابقة تحدثت عن العباد الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، كما تحدثت عن الصدور الرحبة المستعدة لتقبل الحق.

الآيات التي يدور حولها البحث تواصل التطرق إلى هذا الأمر، كي تكمل حلقات البحوث السابقة الخاصة بالتوحيد والمعاد مع ذكر بعض دلائل النبوة، إذ تقول الفقرة الأولى من الآية: «الله نزل أحسن الحديث».

ثم تستعرض خصائص القرآن الكريم، حيث تشرح الخصائص المهمة للقرآن من خلال بيان ثلاث صفات له:

أما الخاصية الأولى فهي «كتاباً متشابهاً»

المقصود من (متشابه) هنا هو الكلام المتناسق الذي لا تناقض فيه ويشبه بعضه البعض، فلا تعارض فيه ولا تضاد، وكل آية فيه أفضل من الأخرى والمتماثل من حيث اللطف والجمال والعمق في البيان.

وهذا بالضبط على عكس العبارات التي يصوغها الإنسان، والتي مهما اعتنى بصياغته فإنها لن تخلو من الأخطاء والاختلافات والتناقضات، خصوصاً عندما يتسع مجالها وتأخذ أبعاداً أوسع، إذ تلاحظ أن بعضها في قمة البلاغة، والبعض الآخر عادي وطبيعي، ودراسة آثار الكتاب الكبار المعروفين في مجالي النثر والشعر هي خير شاهد على هذا الموضوع.

أما كلام الله المجيد فليس كذلك، إذ نرى فيه انسجاماً خارقاً، وتناسقاً لا نظير له في المفاهيم والفصاحة والبلاغة، وهذا بحد ذاته يجعل آيات القرآن تحكّم وتشهد بأنه ليس من كلام البشر.

أما الخاصية الثانية فهي «مثنائي» - أي المكرر -

وهذه الكلمة تشير إلى تكرار بحوثة المختلفة وقصصه ومواعظه، التكرار الذي لا يعمل منه الإنسان، وإنما على العكس من ذلك، إذ يتشوق لتلاوته أكثر، وهذه إحدى أسس الفصاحة، إذ يعتمد الإنسان أحياناً إلى التكرار وبصور مختلفة وأساليب متنوعة، وذلك إذا أراد التأكيد على أمر ما وجلب الانتباه إليه والتأثير به، كي لا يعمل السامع أو يضرر منه.

إضافة إلى أن مواضع القرآن المكررة تفسر إحداها الأخرى، وتحل الكثير من الغازه عن هذا الطريق.

بعضهم اعتبرها إشارة إلى تكرار تلاوة القرآن وبقائه غصاً طرياً من جراء تكرار تلاوته.

والبعض الآخر اعتبرها إشارة إلى تكرار نزول القرآن، فمرة نزل دفعة واحدة على صدر الرسول الأكرم ﷺ وذلك في ليلة القدر، ومرة أخرى بصورة تدريجية استمرت لفترة (٢٣) عاماً.

ومن المحتمل أن يكون المراد من التكرار هو ملاءمة القرآن لكل زمان، وانكشاف بعض الأمور الغيبية فيه بمرور السنوات.

والتفسير الأول أنسب من بقية التفاسير، رغم عدم وجود أي تعارض بين الجميع، بل من الممكن أن تكون جميعها صحيحة^(١).

أما الخاصية الثالثة فهي «تتشعر منه الجلود»

وهذه الخاصية للقرآن فهي مسألة نفوذه وتأثيره العميقين والخارقين «تتشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله».

١ - قال الزمخشري في الكشاف: إن (مثنائي) يمكن أن تكون جمع (مثنى) على وزن (مصلى) و تعني المكرر، ويمكن أن تكون جمع (مثنى) على وزن (مثنى) من الثنية بمعنى التكرار، الكشاف، المجلد الرابع، الصفحة ١٢٣.

إنه لوصف وتجسيد لطيف وجميل لنفوذ آيات القرآن العجيب إلى أعماق القلوب، إذ أنه في بداية الأمر يبعث في القلب شيئاً من الخوف والرهبة، الخوف الذي يكون أساساً للصحة ولبدء الحركة، والرهبة التي تجعل الإنسان يتحسس مسؤولياته المختلفة. ثم تأتي مرحلة الهدوء وقبول آيات الله وتتبعها السكينة والاستقرار.

هذه الحالة التدريجية التي تبيّن مراحل (السلوك إلى الله) المختلفة، يمكن إدراكها بسهولة، فالقلوب تقشعر فور ما تسمع آيات التهديد والتحذير النازلة على رسول الله ﷺ، ثم تهدأ فور ما تسمع آيات الرحمة.

التفكير بذات الله ومسألة أديته وأزليته وعدم محدوديته يوجد عند الإنسان حالة من الرهبة في كيفية معرفة الله، إلا أن دراسة آثار ودلائل ذاته المقدسة في الآفاق والأنفس تمنح الإنسان نوعاً من الإرتياح والهدوء^(١).

والتأريخ الإسلامي مليء بالشواهد على التأثير العجيب للقرآن في قلوب المؤمنين، وحتى غير المؤمنين من أصحاب القلوب المستعدة لتقبل الإيمان، فالجاذبية أو النفوذ الخارق للقرآن دليل واضح على أن القرآن كتاب نزل من السماء بواسطة الوحي.

وقد ورد حديث عن (أسماء)، جاء فيه (كان أصحاب النبي حقاً إذا قرئ عليهم القرآن - كما نعتهم الله - تدمع أعينهم و تقشعر جلودهم)^(٢).

أمير المؤمنين عليه السلام وصف هذه الحقيقة بأفضل وجه في الخطبة الخاصة بالمتقين، إذ قال: «أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلاً،

١- (تقشعر) من مادة (قشعريرة) وقد ذكر اللغويون والمفسرون معاني مختلفة و متقاربة بعض الشيء، فالبيض قال: إنها تمنى لنكماش جلد البدن (حالة تصيب الإنسان أثناء خوفه) والبيض قال: إنها الرجفة التي تصيب الإنسان في حالة الخوف، والبيض الآخر قال: إنها تمنى وفوف شعر البدن، وفي الحقيقة فإن كل حالة من هذه الحالات ملازمة للأخرى.

٢- تفسير القرطبي، المجلد الثامن، الصفحة ٥٦٩٣، عن التأثير العميق و الخارق لآيات القرآن، أوردنا روايات عديدة في ذيل الآية ٩٢ من سورة آل عمران.

يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغروا إليها مسامح قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم».

وفي نهاية الآية يقول تعالى بعد أن بين تلك الخصائص: «ذلك هدى الله يهدي به من يشاء».

حقاً إن القرآن نزل لهداية الجميع، لكن المتقين وطلاب الحق والحقيقة هم المستفيدون - فقط - من نوره، أما أولئك الذين تعمدوا إغلاق كافة نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الكريم، و الذين تتحكم بأرواحهم ظلمات التعصب والعناد فقط لا يستفيدون من نور القرآن، وإنما يزدادون ضلالة من جراء عنادهم وعدائهم، لذلك فإن تمة الآية تقول: «ومن يضل الله فما له من هاد».

فهذه الضلالة هي التي يضع الإنسان حجر أساسها بيده، ويحكم بناء أساسها بواسطة أعماله الخاطئة والسيئة، ولذلك لا تتنافى إطلاقاً مع إرادة الإنسان وحرية.

الآية التالية تقارن بين مجموعة من الظالمين والمجرمين، ومجموعة من المؤمنين الذين استعرضت أوضاعهم فيما قبل، وذلك كي تجعل الحقيقة أكثر وضوحاً في هذه المقارنة، إذ تقول: «أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة»^(١) كمن هو آمن في ذلك اليوم ولا تمسه النار أبداً؟!

الملاحظة التي ينبغي الالتفات إليها، هي قوله تعالى: «يتقى بوجهه سوء العذاب» وكما هو معروف فإن الوجه أشرف أعضاء جسم الإنسان، لأن فيه (العينان والقم والأذنان) التي هي أهم حواس الإنسان، وأساساً فإن تشخيص الإنسان إنما يتم عن طريق وجهه، ولهذا الخصائص الموجودة في الوجه، فإن

١ - هذه العبارة فيها محذوف، التصدير (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن لا تمسه النار).

الإنسان عندما يحسّ أنّ هناك خطراً سيصيب وجهه، فإنّه يضع يديه وما يمكن من أعضاء جسمه أمام وجهه كدرع لدرء ذلك الخطر.

إلا أن أوضاع الظالمين في جهنم في ذلك اليوم تجبرهم على استخدام وجوههم كوسيلة دفاعية، لأنّ أيديهم وأرجلهم مقيدة بالسلاسل، كما ورد في الآية (٨) من سورة يس: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون﴾.

قال البعض: بما أنّ أهل جهنم يرمون على وجوههم في النار، لذا فإنّ الوجه هو أوّل عضو من أعضاء الجسم يحترق في نار جهنم، كما ورد في الآية (٩٠) من سورة النمل: ﴿من جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾.

والبعض الآخر قال: إنّ هذه العبارة كناية عن عجز أهل جهنم من الدفاع عن أنفسهم مقابل نار جهنم.

التفاسير الثلاثة - هذه - لا تتعارض مع بعضها، ويمكن أن تعطي جميعها مفهوم الآية.

ثم تضيف نهاية الآية: ﴿وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾.

نعم، إنّ ملائكة العذاب هي التي توضح لهم هذه الحقيقة المرّة والمؤلّمة، إذ يقولون لهم: إنّ أعمالكم ستبقى معكم وستعذبكم، وهذا التوضيح هو تعذيب روحي آخر لهؤلاء.

ومتّى يلفت النظر أنّ هذه العبارة لا تقول: ذوقوا عقاب ما كنتم تكسبون، وإنّما تقول لهم: ذوقوا ما كنتم تكسبون، وهذا شاهد آخر على مسألة تجسيد الأعمال يوم القيامة.

إنّ ما قيل لحدّ الآن هو إشارة بسيطة لعذابهم الأليم في يوم القيامة، والآية التالية تتحدّث عن العذاب الدنيوي لهؤلاء، كي لا يتصور أحد أنّه يعيش في أمان بهذه الدنيا، قال تعالى: ﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث

لا يشعرون».

فالإنسان لا يتألم كثيراً إن أُصيب بضربة كان يتوقعها، إلا أنه يتألم كثيراً إن وجهت إليه ضربة من طرف لم يتوقع أن تصدر منه، كأن تصدر عن أقرب أصدقائه، أو يلحق به أذى من أمور حيوية جداً ومحبوبة له كالماء الذي هو مصدر حياة الإنسان، أو من نفحة النسيم التي هي مصدر نشاطه، أو من الأرض الهادئة التي هي مقر استراحته وأمنه.

نعم، إن نزول العذاب الإلهي بواسطة هذه الطرق يعدّ أمراً مؤلماً جداً، كالذي أصاب قوم نوح وعاد وشمود ولوط وفرعون وقارون وأمثالهم، إذ لم يكن أي أحد منهم يتوقع أن يصيبه العذاب بواسطة إحدى الطرق المذكورة أعلاه.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تبين أنّ عذاب هؤلاء الدنيوي لا يقتصر على العذاب الجسدي، وإنما يشتمل أيضاً على عقوبات نفسية: «فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا»^(١).

نعم، فإن أُصيب الإنسان بمصيبة في هذه الدنيا، ثم خرج منها مرفوع الرأس حافظاً لماء وجهه، فهذه الحالة ليست بعار وخزي على الإنسان، إنّما العار والخزي للإنسان الذي يخرج من هذه الدنيا رذيلاً وذليلاً، ومبتلىً بعذاب فاضح يريق ماء وجهه، «وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون».

كلمة (أكبر) كناية عن شدة العذاب وقسوته.



بحث

وردت عدّة روايات في ذيل الايات مورد البحث تجسّم أماننا آفاقاً أوسع مهما يفهم من الآية.

١ - كلمة (خزي) تعني الذلّ والهوان كما تعني الفضيحة (راجع لسان العرب).

إذ نقل العباس عم النبي، حديثاً عن رسول الله ﷺ جاء في، «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»^(١). ومن الواضح أن الشخص الذي يخشى الله ويتأثر من ذلك الى هذه الدرجة لا بد أن تتوفر فيه حالة التوبة والانابة، ومثل هذا الشخص سيكون مورداً لعفو الله ومغفرته حتماً.

وروي عن (أسماء) إذ قالت عندما سئلت عن أصحاب رسول الله فقالت: (كان أصحاب النبي حقاً إذا قرئ عليهم القرآن - كما نعتهم الله - تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم). وأضاف الراوي: سئلت أسماء: هل عندنا أحد يغمى عليه أو يفقد الوعي عندما يسمع آيات القرآن المجيد، فأجابت أسماء: أعوذ بالله تعالى من الشيطان، (أي إنه من عمل الشيطان)^(٢).

هذا الحديث - في الحقيقة - جواب لأولئك المتصوفة الذين يعتقدون الاجتماعات والحلقات، ويقرأون فيها بعض الآيات والأذكار، ثم يقومون ببعض الحركات بعنوان حالة الوجد والسرور، ثم يشرعون بإطلاق بعض الصيحات وإظهار أنفسهم وكأنهم قد أغشى عليهم، ويحتمل أن البعض يغمى عليه فعلاً. مثل هذه الأمور لم ينقلها أحد أبداً بشأن أصحاب الرسول، وما هي إلا بدعة ابتدعتها المتصوفة.

وبالطبع يمكن أن يندهش الإنسان أحياناً وقد يغمى عليه من شدة خوفه من الباري عز وجل، وهذا الأمر يختلف كثيراً عن ممارست الصوفيين الذين يعتقدون الحلقات للذكر التي ذكرناها آنفاً.



١ - (مجمع البيان) ذيل آيات البحث، كما نقل هذه الرواية أبو الفتح الرازي و القراطي مع شيء من الاختلاف.

٢ - أورد الأوكوسي هذا الحديث في روح المعاني، المجلد ٢٣، الصفحة ٢٢٥. كما أورد بعض المفسرين في ذيل الآية.

الآيات

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَسْتَقُونَ ﴿٢٨﴾
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

التفسير

قرآن لا عوج فيه:

الآيات - هنا- تبحث خصائص القرآن المجيد أيضاً، وتكمل البحوث السابقة

في هذا المجال.

ففي البداية تتحدّث عن مسألة شمولية القرآن، إذ تقول الآية الكريمة: ﴿ولقد

ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل﴾.

حيث تمّ فيه شرح قصص الطغاة والمتمردين الرهيبة، وعواقب الذنوب

الوخيمة، ونصائح ومواعظ، وأسرار الخلق ونظامه، وأحكام وقوانين متينة.

وبكلمة أنه وضع فيه كل ما هو ضروري لهداية الإنسان على شكل أمثال، لعلمهم يتذكرون ويعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم ﴿لعلمهم يتذكرون﴾. ومما يذكر أن «المثل» في اللغة العربية هو الكلام الذي يجسّم الحقيقة، أو يصف الشيء، أو يشبه الشيء بشيء آخر، وهذه العبارة شملت كل حقائق ومواضيع القرآن، وبيّنت شموليته.

ثم تتطرق الآية إلى وصف آخر للقرآن، إذ تقول: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾^(١).

في الحقيقة، تمّ هنا ذكر ثلاث صفات للقرآن:

الأولى كلمة (قرآناً) التي هي إشارة إلى حقيقة أن الآيات الكريمة ستبقى تتلى دائماً، في الصلاة وفي غير أوقات الصلاة، في الخلوات وفي أوساط الناس، وعلى طول التاريخ الإسلامي حتى قيام الساعة، وبهذا الترتيب فإن آيات القرآن ستبقى نور الهداية المضيء على الدوام.

الصفة الثانية هي فصاحة وحلاوة وجاذبية هذا الكلام الإلهي، الذي عبّر عنه بـ(عربياً) لأنّ إحدى معاني العربي هي الفصاحة، والمقصود منه هنا هذا المعنى. الصفة الثالثة، ليس فيه أي إعوجاج، فأياته منسجمة، وعباراته ظاهرة ويفسر بعضها البعض^(٢).

الكثير من اللغويين وأصحاب التفسير قالوا: إنّ (عوج) (بكسر العين) تعني الإنحرافات المعنوية، في حين أنّ (عوج) بفتح العين، تعني الإعوجاج الظاهر. ومن النادر استعمال العبارة الأولى في الإعوجاج الظاهري، ما في الآية (١٠٧) من سورة طه: ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ لهذا فإنّ بعض اللغويين يعتبرونها أكثر

١- الموقع الإعرابي لقوله تعالى: ﴿قرآناً عربياً﴾ حال (القرآن) التي ذكرت من قبل، و لكون كلمة (قرآناً) لا تحمل طابع الوصف فقد قال البعض: إنها نوطنة للحال الذي هو (عربياً) و ذهب البعض إلى أنها بمعنى (مقرؤاً) وتحلّي معنى الوصف، والبعض قال: إنها منصوبة على المدح بتقدير فعل.

٢- كلمة (عوج) جاءت بصورة نكرة في سياق النفي، وتحلّي معنى النفي العام لعدم لوجود أي انحراف وانطاف في القرآن.

عمومية^(١).

وعلى أية حال، فإن الهدف من نزول القرآن الكريم - بكل هذه الصفات التي ذكرناها - هو «لعلهم يتقون».

ومما يلفت النظر أن الآية السابقة انتهت بعبارة: «لعلهم يتذكرون» وهنا انتهت بعبارة: «لعلهم يتقون» لأن التذكّر يكون دائماً مقدّمة للتقوى و«التقوى» هي ثمرة شجرة «التذكّر».

ثمّ يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التي ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد والمشرک، وذلك ضمن إطار مثل ناطق وجميل، إذ يقول: «ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون»^(٢).

أي إن هناك عبداً يمتلكه عدّة أشخاص، كلّ واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معين، فهذا يقول له: نفذ العمل الفلاني، والآخر ينهائه عن تنفيذ ذلك العمل، وهو في وسطهم كالثائه الحيران، لا يدري أي أمر ينفذ، فالأمران متناقضان ومتضادان، ولا يدري أيّاً منهما يرضيه؟

والأدهى من كلّ ذلك أنه عندما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر، والآخر يرميه على الأوّل، وهكذا يبقى محروماً محتاجاً عاجزاً تائهاً. وفي مقابله هناك رجل سلم لرجل واحد «ورجلاً مسلماً لرجل».

فهذا الشخص خطه ومنهجه واضح، وولي أمره معلوم فلا تردد ولا حيرة ولا تضاد ولا تناقض، يعيش بروح هادئة ويخطو خطوات مطمئنة، ويعمل تحت رعاية فرد يدعّمه في كلّ شيء وفي كلّ أمر وفي كلّ مكان. فهل أن هذين الرجلين متساويان «هل يستويان مثلاً».

١- يراجع (مفردات لراغب) و(لسان العرب) وغيرها من التفسير.

٢- «متشاكسون»: أصلها من (شكاسة) أو تعني سوء الخلق و التنازع و الإختصاص، ولهذا يقال «متشاكس» لمن يتخاصم

ويتنازع بعصبية وسوء خلق.

هذا المثال ينطبق على (المشرك) و (الموحد) فالمشرك يعيش في وسط المتضادات والمتناقضات، وكل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديد، فلا استقرار في حياته ولا اطمئنان ولا مسير واضح يسلكه. أما الموحّدون فإنهم يعشقون الله وحده، وفي كلّ الأحوال يلجؤون إلى ظلّ لطفه، ولا تنظر عيونهم إلى سواه، فطريقتهم ونهجهم واضح، ومصيرهم ونهايتهم واضحة أيضاً.

وجاء في حديث لأمير المؤمنين عليه السلام «أنا ذاك الرجل السلم لرسول الله»^(١).

وورد في حديث آخر عنه أيضاً «الرجل السلم للرجل حقاً عليّ وشيعته»^(٢). وفي نهاية الآية يقول تعالى: ﴿الحمد لله﴾ فالله سبحانه وتعالى يذكره لتلك الأمثال يرشدكم إلى أفضل السبل، ويضع تحت تصرفكم أوضح الدلائل لتشخيص الحق عن الباطل، فالبايء عز وجل يدعو الجميع إلى الإخلاص وفي ظل الإخلاص تكون السكينة والراحة، فهل هناك نعمة أفضل من هذه، وهل هناك أمر آخر يستحق الحمد والشكر أكثر من هذه النعمة؟!

ولكن أكثرهم لا يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ أنّ حبّ الدنيا والشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضلون عن طريق الحقيقة: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

وتتمّة لبحث الآيات السابقة بشأن التوحيد والشرك، تتحدث الآية التالية عن نتائج الشرك والتوحيد في موقف القيامة.

إذ تبدأ بمسألة الموت الذي هو بوابة القيامة، وتبيّن لكلّ البشرية أنّ قانون الموت عامّ وشامل للجميع: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾^(٣).

١- نقله (الحاكم أبو القاسم الحسكاني) في شواهد التنزيل.

٢- نقله العياشي في تفسيره مجمع البيان، ذيل آيات البحث.

٣- عبارة ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ على الظاهر تطبي معنى موت الجميع في الوقت الحاضر، وهي من قبيل (المضارع المتحقق الوقوع) الذي يأتي أحياناً بصورة حال و أحياناً أخرى بصورة الماضي.

نعم، فالموت من الأمور التي تشمل جميع الناس، ولا يستثنى منه أحد، فهو طريق يجب أن يمرّ به الجميع في نهاية المطاف.

قال بعض المفسرين: إن أعداء رسول الله كانوا ينتظرون وفاته، وكانوا في نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول الله ﷺ يموت في نهاية الأمر، فالقرآن - هنا - أجابهم بالقول: إن مات رسول الله فهل تبقون أتم خالدين، هذا ما نصت عليه الآية (٣٤) من سورة الأنبياء: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾.

ثم ينتقل البحث إلى محكمة يوم القيامة، ليجسم المجادلة بين العباد في ساحة المحشر، ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾.

«تختصمون»: مشتقة من (اختصام) وتعني النزاع والجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل، منهما تنفيذ كلام الآخر، فأحياناً يكون أحدهم على حق والآخر على باطل، وأحياناً يكون الاثنان على باطل، كما في مجادلة ومخاصمة أهل النار فيما بينهم، وقد اختلف المفسرون في كون هذا الحكم عاماً أم لا. قال البعض: إن المخاصمة تقع بين المسلمين والكفار.

وقال البعض الآخر: إنها تقع بين المسلمين أنفسهم، وفي رواية عن أبي سعيد الخدري قال: لم يكن أحد فينا يفكر في أن يقع خصام فيما بين المسلمين، وكنا نقول: كيف نختصم نحن وربنا واحد، ونبينا واحد وديننا واحد؟ فلما كان يوم صفين وشدّ الفريقان الذين كانا مسلمين (حيث كان أحدهما مسلماً حقيقياً والآخر يدعي الإسلام) بالسيوف على بعضهما البعض، قلنا: نعم، الآية تشملنا نحن أيضاً^(١).

ولكن الآيات التالية تبين أن المخاصمة تقع بين الأنبياء والمؤمنين من جهة، والمشركين المكذبين من جهة أخرى.

لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب؛ فقال: إن رجالاً من المنافقين

يزعمون أنّ رسول الله قد توفي والله رسول الله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات؛ والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول الله ﷺ مات؟.

وقال الراوي: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله ﷺ مسجني في ناحية البيت، عليه بُرد حبرة؟، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم قال الراوي: قال أبو بكر: على رسلك يا عمر أنصت فأبى إلا أن يتكلم ثم تلا أبو بكر هذه الآية: «وما محمد إلا رسول».

قال الراوي: فوالله لكان الناس يعلموا أنّ هذه الآية ما نزلت حتى تلا أبو بكر ثم قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففجرت^(١) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي^(٢).



١-١- غفرت: وحشت

٢- سورة ابن هشام، المجلد الرابع، الصفحات ٣٠٥ و ٣٠٦، تقرأ عن الكامل لابن الأثير، المجلد الثاني، الصفحة ٣٢٣ و ٣٢٤.

مع شيء من التلخيص.

بداية

الجزء الرابع والعشرون

مِنَ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الآيات

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ
فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ
بِهِ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ هُمْ مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ
جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ
يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾

التفسير

أولئك الذين يصدقون كلام الله:

هذه الآيات تواصل البحث الخاص بموقف الناس في ساحة المحشر،
وتخاصهم في تلك المحكمة الكبرى، وتقسم آيات بحثنا إلى مجموعتين هما
(المكذبون) و (المصدقون).

والقرآن الكريم يعطي صفتين لأصحاب المجموعة الأولى، أي
«المكذبين»، قال تعالى: «فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه».
الكافرون والمشركون يكذبون كثيراً على الباري عز وجل، فأحياناً
يعتبرون الملائكة بنات الله، وأحياناً يقولون: عيسى هو ابن الله، وأحياناً أخرى

يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند الله، وأحياناً يبتدعون أحكاماً كاذبة في الحلال والحرام وينسبونها إلى الله، وما شابه ذلك.

وأما الكلام الصادق الذي أنزل إليهم وكذبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمة الآية تبين في جملة قصيرة جزاء أمثال هؤلاء الأفراد، قال تعالى:

﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾^(١).

أما المجموعة الثانية فقد وصفها القرآن الكريم بوصفين، إذ قال: ﴿و الذي

جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾.

فبعض الروايات الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام فسرت: ﴿و الذي جاء بالصدق﴾

بأنها تعود على النبي صلى الله عليه وآله وسلم و﴿صدق به﴾ تعود على علي عليه السلام^(٢)، وبالطبع فإن

المقصود من ذلك هو بيان مصداقية الآية، لأن عبارة: ﴿و أولئك هم المتقون﴾ دليل

على شمولية الآية.

ومن هنا يتضح أن تفسير الآية المذكورة أعلاه بأن المراد شخص

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو مهبط الوحي والمصدق به في نفس الوقت، فهو أيضاً من

قبيل بيان مصداق الآية وليس بيان المفهوم العام لها.

لذلك فإن مجموعة من المفسرين فسروا عبارة قوله تعالى: ﴿و الذي جاء

بالصدق﴾ بأنه يعني كل الأنبياء و﴿صدق به﴾ يعني أتباعهم الحقيقيين، وهم

المتقون.

وهناك تفسير آخر للآية، لكنه أوسع وأكثر شمولية من التفسير الأخرى،

رغم أنه لم يحظ كثيراً باهتمام المفسرين، لكنه أكثر انسجاماً مع ظاهر الآيات،

والتفسير هو أن ﴿الذي جاء بالصدق﴾ ليس منحصرأ في الرسل فقط، وإنما يشمل

كل الذين يبلغون نهج الأنبياء ويروجون كلام الله، وفي هذه الحالة فلا يوجد أي

١ - «مشوى»: من مادة (شوى) وتعني الإقامة المستمرة في مكان ما ولهذا فإن (مشوى) هنا تعني السكان والمنزل الدائم.

٢ - مجمع البيان ذيل آيات البحث.

مانع من القول بأن العبارتين تنطبقان على مجموعة واحدة (كما يوضح ذلك ظاهر الآية، لأن ضمير (والذي ذكر مرة واحدة فقط).

وبهذا الشكل فإن الآية تتحدث عن أناس هم من حملة الرسالة و من العاملين به، وتتحدث عن أولئك الذين ينشرون في العالم ما ينزل به الوحي من كلام الباري عز وجل وهم يؤمنون به ويعملون به، وهكذا فإن الآية تضم الأنبياء والأئمة المعصومين والدعاة لنهج الأنبياء.

والملفت للنظر أن الآية عبرت عن الوحي «بالصدق» وهو إشارة إلى أن الكلام الوحيد الذي لا يحتمل وجود الكذب والخطأ فيه هو كلام الله الذي نزل به الوحي، فإن سار الإنسان في ظلّ تعليمات نهج الأنبياء وصدقها فإن التقوى سوف تفتح في داخل روحه.

الآية التالية تبين أن هناك ثلاث مثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعة، أي المصدقين، إذ تقول في البداية: «لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين». لهذه الآية مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ النعم المادية والمعنوية التي يمكن تصورها والتي لا يمكن تصورها.

وعلى ضوء هذه الآية يطرح البعض السؤال التالي: إذا طلب أحدهم أن يكون مقامه أرفع من مقام الأنبياء والأولياء، فهل يعطى ذلك؟ علينا أن لا ننفل عن كون أهل الجنة يدركون عين الحقيقة، ولهذا لا يفكر أحد منهم بأمر يخالف الحقّ والعدالة، ولا يتناسب مع أساس توازن اللياقات والكفاءات.

بعبارة أخرى: لا يمكن أن يحصل أشخاص لهم درجات مختلفة في الإيمان والعمل على نفس الجزاء، فكيف يأمل أصحاب الجنة في تحقيق أشياء مستحيلة؟! وفي نفس الوقت فإنهم يعيشون في حالة روحية خالية من الحسد والغيرة، وهم راضون بما رزقوا به.

وكما هو معلوم فإنّ المكافأة الإلهية في الآخرة وحتى التفضيل الإلهي للبعض دون البعض الآخر إنما يتمّ على أساس اللياقة التي حصل عليها الإنسان في هذه الدنيا، فالذي يعرف أنّ إيمانه وعمله في هذه الدنيا لم يصل إلى درجة إيمان وعمل الآخرين لا يأمل يوماً ما أن يكون بمرتبتهم، لأنّ ذلك أمل ورجاء غير منطقي.

وعبارة: «عند ربهم» تبيّن عدم انقطاع اللطف الإلهي عن أولئك وكأنّهم ضيوف الله على الدوام، وكلّ ما يطلبونه يوفر لهم.

وعبارة: «ذلك جزاء المحسنين» أقيم فيها الظاهر مقام ضمير الإشارة، إشارة إلى أن إحسانهم وعملهم الصالح كانا سبباً في حصولهم على الأجر المذكور. أما المكافأتان الثانية والثالثة اللتان يمنحهما الباري عزّ وجلّ للمصدقين، فيقول القرآن المجيد بشأنهما: «ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون»^(١).

كم هي عبارة جميلة ولطيفة! فمن جانب يدعون الله سبحانه وتعالى ليكفر عنهم أسوأ ما عملوا بظلمة لطفه، ويظهرهم من تلك البقع السوداء بماء التوبة، ومن جهة أخرى يدعون الله لجعل أفضل وأحسن أعمالهم معياراً للمكافأة، وأن يجعل بقية أعمالهم ضمن ذلك العمل.

إنّ ما يتّضح من الآيات الكريمة هو أنّ الله استجاب لدعواهم، عندما غفر لهم وعفا عن أسوأ أعمالهم، وجعل أفضل الأعمال معياراً للمكافأة. من البديهي، عندما يشمل العفو الألهي الزلّات الكبيرة، فإنّ الزلّات الصغيرة أولى بالشمول، لأنّ الزلّات الكبيرة هي التي تقلق الإنسان أكثر من أيّ شيء آخر،

١- في عودة قوله تعالى: «ليكفر الله عنهم» ذكر المفسرون آراء شتى بهذا الشأن ولكن التفسير الذي يبدو أنسب هو أنّها تعود على الفعل (أحسنوا) وبهم ذلك من كلمة المحسنين، والتقدير (ذلك جزاء المحسنين أحسنوا ليكفر الله عنهم) نعم إنهم عمدوا إلى عمل الإحسان كي يكفر الله عنهم سيئاتهم ويفرّ زلاتهم ويطيّبهم أفضل الثواب.

ولهذا السبب فإنّ المؤمنين كثيراً ما يفكرون بها.

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا: إذا كانت الآيات السابقة تخص الأنبياء والمؤمنين من أتباعهم، فكيف اُقترب هؤلاء تلك الزلات الكبيرة؟

الجواب على هذا السؤال يتضح من خلال الإنتباه إلى أنّه عندما ينسب عمل ما إلى مجموعة، فهذا لا يعني أنّ الجميع قاموا بذلك العمل، وإنما يكفي أن تقوم به مجموعة صغيرة منهم، فمثلاً عندما نقول: إن بني العباس خلفوا رسول الله ﷺ من دون أيّ حق، فإنّ هذا لا يعني أنّ الكل اعتلوا كرسي الخلافة، وإنما مجموعة منهم.

الآية المذكورة أعلاه تبيّن أنّ مجموعة من حملة الرسالة وأتباع نهجهم كانوا قد ارتكبوا بعض الأخطاء والزلات، وأنّ الباري عزّ وجلّ صفح عنهم وغفر لهم بسبب أعمالهم الصالحة والحسنة. على أيّة حال فإنّ ذكر الغفران والصفح قبل ذكر الثواب، يعود إلى هذا السبب، وهو أنّ عليهم في البداية أن يغتسلوا ويستطهروا، ومن ثمّ الورود إلى مقام القرب الإلهي. يجب عليهم في البداية أن يريحوا أنفسهم من العذاب الإلهي كي يتلذذوا بنعم الجنّة.

* * *

مسألة:

الكثير من المفسرين المسلمين من الشيعة والسنة نقلوا الرواية التالية بشأن تفسير هذه الآية، وهي أنّ النبي ﷺ هو المقصود في «والذي جاء بالصدق» وأنّ الإمام علي عليه السلام هو المقصود في «صدّق به».

المفسّر الإسلامي الكبير العلامة «الطبرسي» نقل ذلك في تفسيره (مجمع البيان) عن أهل البيت الأطهار، ونقلها كذلك أبو الفتوح الرازي في تفسير (روح الجنان) عن نفس المصدر السابق. كما نقلت مجموعة من المفسرين السنة ذلك عن أبي هريرة نقلاً عن رسول الله ﷺ، وعن طرق أخرى، ومن جملة من نقله

العلامة ابن المغازلي في (المناقب) و (العلامة الكنجي) في (كفاية الطالب) والقرطبي في تفسيره والعلامة السيوطي في (الدر المنثور) وكذلك (الآلوسي) في (روح المعاني)^(١).

ومثلما أشرنا من قبل فإن نقل مثل هذه التفاسير هو بيان أوضح المصاديق، ومن دون أي شك فإن الإمام علي عليه السلام يقف في مقدمة الصف الأول لاتباع النبي ﷺ والمصدقين به، وإنه هو أول من صدق برسول الله ﷺ، ولا يوجد أحد من العلماء من ينكر هذه الحقيقة.

والإعتراض الوحيد الذي صدر عن بعض المفسرين هو أن الإمام علي عليه السلام آمن بالرسول وكان عمره ما بين (١٠) إلى (١٢) عاماً، وأنه لم يكن مكلفاً في هذا السن ولم يبلغ بعد سنّ الحلم.

هذا الكلام عجيب جداً، فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الإعتراض صحيحاً، في الوقت الذي قبل فيه رسول الله ﷺ إسلام علي عليه السلام، وقال له بأنه (وزيره) و (وصيه) وأكد مراراً وتكراراً في كلماته على أن علياً هو (أول المؤمنين) أو (أولكم إسلاماً) وقد أوردنا في نهاية الآية (١٠) من سورة التوبة أدلة متعددة من كتب علماء أهل السنة وبصورة مفصلة.



١- لمن يرغب الإطلاع أكثر عليه مراجعة كتاب إحقاق الحق، المجلد الثالث، الصفحة ١٧٧ فما بعد، وكتاب المراجعات، الصفحة ٦٤ (المراجعة ١٢).

الآيتان

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ
يُظَلِّلِ اللَّهُ فَأَلَّهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

سبب النزول

الكثير من المفسرين قالوا: إن مشركي قريش كانوا يخوفون رسول الله ﷺ من آلهتهم ويحذرونه من غضبها على أثر وصفه تلك الأوثان بأوصاف مزرية، ويوعدونه بأنه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى، وللدرد على كلامهم نزلت الآية المذكورة أعلاه^(١).

والبعض قال: عندما عزم خالد على كسر العزى بأمر من النبي ﷺ قال المشركون: إياك يا خالد فبأسها شديد. فضرب خالد أنفها بالفأس وهشمها وقال: كفرانك يا عزى لا سبحانك، سبحان من أهانك، إنني رأيت الله قد أهانك^(٢). ولكن قصة خالد هذه التي كانت بعد فتح مكة كما يبدو، لا يمكن أن تكون سبباً لنزول الآية لأن كل سورة الزمر (مكية) ولهذا علما من قبيل التطابق.

١- تفسر الكشاف ومجمع البيان وأبو الفتح الرازي وفي خلال مع اختلافات جزئية.

٢- مجمع البيان ذيل آيات البحث (هذه الرواية وردت أيضاً في الكشاف والقرطبي وبصورة مختصرة).

التفسير

إن الله كاف!

تمة لتهديدات الباري عز وجل التي وردت في الآيات السابقة للمشركين، والوعد التي لأنبيائه، تتطرق الآية الأولى في بحثنا لتهديد الكفار ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه﴾.

إن قدرة الباري عز وجل أقوى وأعظم من كل القدرات الأخرى، وهو الذي يعلم بكل احتياجات ومشكلات عباده، والذي هو رحيم بهم غاية الرحمة واللطف، كيف يترك عباده المؤمنين لوحدهم أمام أعاصير الحوادث وعدوان بعض الأعداء؟

ومع أن سبب نزول هذه الآية - طبقاً لما جاء في الروايات التي ذكرناها - هو للرد على التخويف والتهديد بغضب الأصنام، لكن معنى الآية أوسع، ويتسع لكل تهديد يهدد به الإنسان بما هو دون الله.

على أية حال، فإن في هذه الآية بشرى لكل السائرين في طريق الحق والمؤمنين الحقيقيين، خاصة أولئك الذين يعيشون أقلية في بعض المجتمعات، والمحاطين بمختلف أشكال التهديد من كل جانب.

الآية تعطيهم الأمل والثبات، وتملاً أرواحهم بالنشاط وتجعل خطواتهم ثابتة، وتمحو الآثار النفسية لصدومات تهديدات الأعداء، نعم فعندما يكون الله معنا فلا نخاف غيره، وإن انفصلنا وابتعدنا عنه فسيكون كل شيء بالنسبة لنا رهيباً ومخيفاً.

وكتمة للآية السابقة والآية التالية إشارة إلى مسألة (الهداية) و (الضلالة) وتقسم الناس إلى قسمين: (ضالين) و (مهيئين) وكل هذا من الله سبحانه وتعالى، كي تبين أن جميع العباد محتاجون لرحمته، ومن دون إرادته لا يحدث شيء في هذا العالم، قال تعالى: ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾.

﴿ومن يهد الله فما له من مضل﴾.

ومن البديهي أنّ الضلالة لا تأتي من دون سبب، وكذلك الهداية بل إن كلّ حالة منهما هي استمرار لإرادة الإنسان وجهوده، فالذي يضع قدمه في طريق الضلال، ويبدل أقصى جهوده من أجل إطفاء نور الحق، ولا يترك أدنى فرصة تتاح له لخداع الآخرين وإضلالهم، فمن البديهي أنّ الله سيضلّه، ولا يكتفي بعدم توفيقه وحسب، وإنما يعطل قوى الإدراك والتشخيص التي لديه عن العمل، ويوصد قلبه الأفعال ويغطي عينيه بالحجب، وهذه هي نتيجة الأعمال التي ارتكبتها.

أما الذين يعزمون على السير إلى الله سبحانه وتعالى بنوايا خالصة، ويخطون الخطوات الأولى في هذا المسير، فإنّ نور الهداية الإلهية يشعّ لينير لهم الطريق، وتهبّ ملائكة الرحمن لمساعدتهم ولتطهير قلوبهم من وساوس الشياطين، فتكون إرادتهم قوية، وخطواتهم ثابتة، واللطف الإلهي ينقذهم من الزلات.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن المجيد كشاهد على تلك القضايا، وما أشدّ جهل الذين فصلوا بين مثل هذه الآيات وبقية آيات القرآن واعتبروها شاهداً على ما ورد في المذهب الجبري، وكأنّهم لا يعلمون أن آيات القرآن تفسّر إحداها الأخرى. بل إن القرآن الكريم بقول في نهاية هذه الآية: ﴿أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾ وهو خير شاهد على هذا المعنى.

وكما هو معروف فإنّ الإنتقام الإلهي هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكرة التي اقترفها الإنسان، وهذا يشير إلى أنّ إضلاله سبحانه وتعالى للإنسان هو بحدّ ذاته نوع من أنواع الجزاء وردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه، وبالطبع فإن هدايته سبحانه وتعالى للإنسان هي بحدّ ذاتها نوع أنواع الثواب، وهي ردّ فعل للأعمال الصالحة والخالصة التي يقوم بها الإنسان^(١).



١- يقول الراغب في مفرداته: كلمة (نقمة) تنمي العقوبة و الجزاء.

بحثان

١- الهداية والإضلال من الله:

«الهداية»: في اللغة تعني التوجيه والإرشاد بلطف ودقة^(١)، وتنقسم إلى قسمين (بيان الطريق)، و (الإيصال إلى المطلوب) وبعبارة أخرى (هداية تشريعية) و (هداية تكوينية)^(٢).

ولتوضيح ذلك نقول: إنَّ الإنسان يصف أحياناً الطريق للسائل بدقّة ولطف وعناية ويترك السائل معتمداً على الوصف في قطع الطريق والوصول إلى المقصد المطلوب. وأحياناً أخرى يصف الإنسان الطريق للسائل ومن ثمّ يمسك بيده ليوصله إلى المكان المقصود.

وبعبارة أخرى: الشخص المجيب في الحالة الأولى يوضّح القانون وشرائط سلوك الطريق للشخص السائل كي يعتمد الأخير على نفسه في الوصول إلى المقصد والهدف، أمّا في الحالة الثانية، فإضافة إلى ما جاء في الحالة الأولى، فإنَّ الشخص المجيب يهيء مستلزمات السفر، ويزيل الموانع الموجودة، ويحلّ المشكلات، إضافة إلى أنّه يرافق الشخص السائل في سلوك الطريق حتّى الوصول إلى مقصده النهائي لحمايته والحفاظ عليه.

و (الإضلال) هو النقطة المقابلة لـ (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة على آيات القرآن لانتضح لنا - بصورة جيدة - أنّ القرآن يعتبر أنّ الظلالة والهداية من الله، أي أنّ الاثنين ينسبان إلى الله، ولو أردنا أن نعدّد كل الآيات التي تتحدث بهذا الخصوص، لطال الحديث كثيراً، ولكن نكتفي بذكر ما جاء في الآية (٢١٣) من سورة البقرة: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط

١- مفردات مادة (هدى).

٢- نلفت الإنتباه إلى أنّ الهداية التكوينية هنا قد استخدمت بمعناها الواسع. حيث تشمل كل أشكال الهداية عدا الهداية التي تأتي عن طريق بيان الشرائع والتوجيه إلى الطريق.

مستقيم» وفي الآية (٩٣) من سورة النحل: «ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء». وأمثال هذه الإيات - الخاصة بالهداية أو الضلال أو أحدهما - ورد في آيات كثيرة من القرآن المجيد^(١).

وأكثر من هذا، فقد جاء في بعض الآيات نفي قدرة الرسول الأكرم ﷺ على الهداية وتحديد القدرة على الهداية بالله سبحانه وتعالى، كما ورد في الآية (٥٦) من سورة القصص: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ». وفي الآية (٢٧٢) من سورة البقرة: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

الدراسة السطحية لهذه الآيات وعدم إدراك معانيها العميقة أدت إلى زيغ البعض خلال تفسيرهم لها وانحرافهم عن طريق الهداية ووقوعهم في فخاخ المذهب الجبري، حتّى أنّ بعض المفسرين المعروفين لم ينجوا من هذا الخطأ الكبير، حيث اعتبروا الضلالة والهداية وفي كلّ مراحلها أمراً جبرياً، والأدهى من ذلك أنهم أنكروا أصل العدالة كي لا ينتقض رأيهم، لأنّ هناك تناقضاً واضحاً بين عقيدتهم وبين مسألة العدالة والحكمة الإلهية، فاذا كنا أساساً نقول بالجبر، فلا يبقى هناك داعٍ للتكليف والمسؤولية وإرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

أما المعتقدون بمذهب الإختيار وأن الإنسان مخير في هذه الدنيا - وأن العقل السليم لا يقبل مطلقاً بأن الله سبحانه وتعالى يجبر مجموعة من الناس على سلوك سبيل الضلال ثم يعاقبهم على عملهم ذلك، أو أنّه يهدي مجموعة أخرى إجبارياً ثم يمنحها - من دون أي سبب - المكافأة والشواب، ويفضلها على الآخرين لأدائها عملاً كانت قد أجبرت على القيام به -

فهؤلاء انتخبوا لأنفسهم تفاسير أخرى لهذه الآيات، كان أهمها:

١ - إنّ المراد من الهداية الإلهية هي الهداية التشريعية التي تأتي عن طريق

١ - منها ما ورد في السور والآيات التالية (فاطر - ٨) و (الزمر - ٢٣) و (المصدر - ٣١) و (البقرة - ٢٧٢) و (الأنعام - ٨٨) و (يونس - ٢٥) و (الرعد - ٢٧) و (البراهم - ٤٤).

الوحي والكتب السماوية وإرسال الأنبياء والأوصياء، إضافة إلى إدراك العقل والشعور، أما انتهاج السبيل فهو في عهدة الإنسان في كافة مراحل حياته. وبالطبع فإنّ هذا التفسير يتطابق مع الكثير من الآيات القرآنية التي تتناول موضوع الهداية، ولكن هناك آيات كثيرة أخرى لا يمكن تطابقها مع هذا التفسير، لأنّ فيها نوعاً من الصراحة فيما يخص (الهداية التكوينية) و (الإيصال إلى الهدف) كما ورد في الآية (٥٦) من سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. في حين أننا نعرف أنّ الهداية التشريعية والتوجيه نحو الطريق الصحيح، هي الواجب الرئيسي للأنبياء.

٢- مجموعة أخرى من المفسرين فسروا الهداية والضلال اللذين لهما هنا طابع تكويني على أنّهما الثواب والعقاب، والإرشاد إلى طريق الجنة والنار، وقالوا بأنّ الباري عزّ وجلّ يهدي المؤمنين إلى طريق الجنة، ويضل عنها الكافرين. إن هذا المعنى صحيح بالنسبة لعدة آيات فقط، ولكنّه لا يتطابق مع آيات أخرى تتحدث عن الهداية والإضلال بصورة مطلقة.

٣- مجموعة ثالثة قالت: إنّ المراد من الهداية هو تهيئة الأسباب والمقدمات التي توصل إلى الغرض المطلوب، والمراد من الضلالة هو عدم توفير تلك الأسباب والمقدمات أو حجبها عنهم، والتي عبّر عنها البعض بـ (التوفيق) و (سلب التوفيق) لأنّ التوفيق يعني تهيئة المقدمات للوصول إلى الهدف، وسلب التوفيق يعني عدم تهيئة تلك المقدمات.

ووفقاً لهذا فإنّ الهداية الإلهية لا تعني أنّ الباري عزّ وجلّ يجبر الإنسان على الوصول إلى الهدف، وإنّما يضع الوسائل المطلوبة للوصول تحت تصرفهم واختيارهم، وعلى سبيل المثال، وجود مربّ جيد، بيئة سالمة للتربية، أصدقاء وجلساء صالحين، وأمثالها، كلها من المقدمات، ورغم وجود هذه الأمور فإنّه لا يجبر الإنسان على سلوك سبيل الهداية.

وثمة سؤال يبقى مطروحاً، وهو: لماذا يشمل التوفيق مجموعة دون أخرى؟ المنحازون لهذا التفسير عليهم أن ينتهوا إلى حكمة أفعال الباري عز وجل ويعطوا دلائل لهذا الاختلاف، فمثلاً يقولون: إنَّ عمل الخير هو سبب التوفيق الإلهي، وتنفيذ الأعمال الشريفة تسلب التوفيق من الإنسان.

وعلى آية حال فإنَّ هذا التفسير جيد ولكن الموضوع ما زال أعمق من هذا. ٤- إنَّ أدق تفسير يتناسب مع كلِّ آيات الهداية والضلال، ويفسرها جميعاً بصورة جيدة من دون أن يتعارض أدنى تعارض مع المعنى الظاهري، وهو أنَّ الهداية التشريعية التي تعني (إراءة الطريق) لها خاصية عامة وشاملة، ولا توجد فيها أي قيود وشروط، كما ورد في الآية (٣) من سورة الدهر: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ وفي الآية (٥١) من سورة آل عمران: ﴿وإنَّك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ ومن البديهي أن دعوة الأنبياء هي مظهر دعوة الله تعالى. لأنَّ كلَّ ما عند النَّبي هو من الله.

وبالنسبة إلى مجموعة من المنحرفين والمشركين ورد في الآية (٢٣) من سورة النجم: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

أما الهداية التكوينية فتعني الإيصال إلى الغرض المطلوب، والأخذ بيد الإنسان في كلِّ منعطفات الطريق، وحفظه وحمايته من كلِّ الأخطار التي قد تواجهه في تلك المنعطفات حتى إيصاله إلى ساحل النجاة، وهي أي الهداية التكوينية - موضع بحث الكثير من آيات القرآن الأخرى التي لا يمكن تقييدها بأية شروط، فالهداية هذه تخصَّ مجموعة ذكرت أو صافهم في القرآن، أما الضلال الذي هو النقطة المقابلة للهداية فإنه يخص مجموعة أخرى ذكرت أو صافهم أيضاً في القرآن الكريم.

ورغم وجود بعض الآيات التي تتحدث عن الهداية والإضلال بصورة مطلقة، إلا أن هناك الكثير من الآيات الأخرى التي تبين - بدقة - محدوديتهما، وعندما

تضع الآيات (المطلقة) إلى جانب (المحدودة) يتضح المعنى بصورة كاملة، ولا يبقى أي غموض أو إيهام في معنى الآيات، كما أنها - أي الآيات - تؤكد بشدة على مسألة الإختيار وحرية الإرادة عند الإنسان ولا تتعارض معهما.

الآن يجب الإنتباه إلى التوضيح التالي:

القرآن المجيد يقول في إحدى آياته: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين» وفي مكان آخر يقول الباري عز وجل: «والله لا يهدي القوم الظالمين»^(١) وهذا يبين أن الظلم مقدمة للضلال. ومن هنا يتضح أن الفسق، أي عدم إطاعة أوامر الباري، تعالى وهو مصدر الضلال.

وفي موضع آخر نقرأ: «والله لا يهدي القوم الكافرين»^(٢)، وهنا اعتبر الكفر هو الذي يهيء أرضية الضلال.

وقد ورد في آية أخرى: «إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار»^(٣) يعني أن الكذب والكفر هما مقدمة الضلال.

والآية التالية تقول: «إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب»^(٤) أي أن الإسراف والكذب يسببان الضلالة.

وبالطبع، فإن ما أوردناه كان جزءاً يسيراً من آيات القرآن التي تتناول هذا الموضوع، فبعض الآيات وردت مرات عديدة في سور القرآن المختلفة وهي تحمل المعاني والمفاهيم.

إن ما يمكن استنتاجه هو أن القرآن الكريم يؤكد على أن الضلالة الإلهية تشمل كل من توفرت فيه هذه الصفات (الكفر) و (الظلم) و (الفسق) و (الكذب). (الإسراف) فهل أن الضلالة غير لاتقة بمن تتوفر فيه مثل هذه الصفات!

١- البقرة، ٢٥٨.

٢- البقرة، ٢٦٤.

٣- الزمر، ٣.

٤- غافر، ٢٨.

وبعبارة أخرى: هل ينجو قلب من يتصف بتلك الصفات القبيحة، من الغرق في الظلمات والحجب؟!

وبعبارة أخرى أوضح: أن لهذه الأعمال والصفات آثاراً تلاحق الإنسان شاء أم أبى، إذ ترمي بستانرها على عينيه وأذنيه وعقله، وتؤدي به إلى الضلال، ولكون خصوصيات كل الأشياء وتأثيرات كل الأسباب إنما هي بأمر من الله، ومن الممكن أيضاً أن ينسب الإضلال إليه سبحانه وتعالى في جميع هذه الموارد، وهذه النسبة هي أساس اختيار الإنسان وحرية إرادته.

هذا فيما يتعلق بالضلالة، أما فيما يخص الهداية، فقد وردت في القرآن المجيد شروط وأوصاف تبيّن أن الهداية لا تقع من دون سبب وخلاف الحكمة الإلهية.

وقد استعرضت الآيات التالية بعض الصفات التي تجعل الإنسان مستحقاً للهداية ومحاطاً باللطف الإلهي، منها: «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل الاسلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم»^(١). إذن فاتباع أمر الله، وكسب مرضاته يهيئان الأرضية للهداية الإلهية. وفي مكان آخر نقرأ: «إن الله يضل من يشاء ويهدي الله من أناب»^(٢) إذن فالتوبة والإنابة تجعلان الإنسان مستحقاً للهداية.

وفي آية أخرى ورد: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا»^(٣) فالجهاد، وخاصة (الجهاد الخالص في سبيل الله) هو من الشروط الرئيسية للهداية. وأخيراً نقرأ في آية أخرى: «والذين اهتدوا زادهم هدى»^(٤) أي أن قطع مقدار من طريق الهداية هو شرط للإستمرار فيه بلطف الباري عز وجل.

١- المائدة، الآية ١٦.

٢- الرعد، الآية ٢٧.

٣- الضحى، الآية ٦٩.

٤- محمد، الآية ١٧.

نستنتج من ذلك أنه لو لم تكن هناك توبة وإنابة من العبد، ولا اتباع لأوامر الله، ولا جهاد في سبيله ولا بذل الجهد وقطع مقدار من طريق الحق، فإن اللطف الإلهي لا يشمل ذلك العبد، وسوف لا يمسك الباريء بيده لإيصاله إلى الغرض المطلوب.

فهل أن شمول هؤلاء الذين يتحلون بهذه الصفات بالهداية هو أمر عبث، أو أنه دليل على هدايتهم بالإيجابار؟

من الملاحظ أن آيات القرآن الكريم في هذا المجال واضحة جداً ومعناها ظاهر، ولكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية والضلال ابتلوا بمثل هذا الإبتلاء و (لأنهم لم يشاهدوا الحقيقة فقد ساروا في طيق الخيال). إذن يجب القول بأنهم هم الذين اختاروا لأنفسهم سبيل (الضلال).

على أية حال، فإن المشيئة الإلهية في آيات الهداية والضلال لم تأت عبثاً ومن دون أي حكمة، وإنما تتم بشروط خاصة، بحيث تبين تطابق حكمة الباريء عز وجل مع ذلك الأمر.

٢- الإتكال على لطف الله

يعتبر الإنسان كالقشة الضعيفة في مهب الرياح العاتية التي تهب هنا وهناك في كل لحظة من الزمان، ويمكن أن تتعلق هذه القشة بورقة أو غصن مكسور تأخذه الرياح أيضاً مع تلك القشة الضعيفة، ونرميها جانباً، وحتى إذا تمكنت يد الإنسان من الإمساك بشجرة كبيرة فإن الأعاصير والرياح العاتية تقتلع أحياناً تلك الشجرة من جذورها، أما إذا لجأ الإنسان إلى جبل عظيم فإن أعتى الأعاصير لا تتمكن من أن ترحزح ذلك الجبل ولو بمقدار رأس إبرة من مكانه.

الايان بالله بمثابة هذا الجبل والاعتماد والأتكال على غير الله بمثابة الاعتماد على الأشياء الواهية، ولهذا السبب يقول الباريء عز وجل في الآيات

المذكورة أعلاه: «أليس الله بكاف عبده» الإعتقاد والإيمان بما جاء في هذه الآية يضيف للإنسان شجاعة واعتماداً على النفس، وتطمئن خواطره وتهدئها، كي يصمد ويثبت أمام الحوادث كالجبل، ولا يخاف حشود الأعداء، ولا يستوحش من قلّة عدد أتباعه أو أصحابه، ولا تعبت المشاكل الصعبة بروحه الهادئة المستقرة، وقد ورد في الحديث «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف»



الآيات

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَسِيلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

التفسير

هل إن الهتمكم قادرة على حل مشاكلكم؟

الآيات السابقة تحدثت عن العقائد المنحرفة للمشركون والعواقب الوخيمة التي حلت بهم، أما آيات بحثنا هذا فإنها تستعرض دلائل التوحيد كسي تكمل البحث السابق بالأدلة، كما تحدثت الآيات السابقة عن دعم الباري، عز وجل لعباده وكفاية هذا الدعم، والآيات أعلاه تتابع هذه المسألة مع ذكر الدليل. في البداية تقول الآية: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله».

العقل والوجدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسع بكل هذه العظمة مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضية، فكيف يمكن للعقل أن يقبل أن الأصنام التي لا روح فيها ولا عقل ولا شعور هي التي خلقت هذا العالم، وبهذا الشكل فإنّ القرآن يحاكم أولئك إلى عقولهم وشعورهم وفطرتهم، كي يثبت أول أسس التوحيد في قلوبهم، وهي مسألة خلق السماوات والأرض.

وفي المرحلة التالية نتحدث الآيات عن مسألة الريح والخسارة، وعن مدى تأثيرها على نفع أو ضرر الإنسان، كي تثبت لهم أن الأصنام لا دور لها في هذا المجال، وتضيف «قل أفرأتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات ضرره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته»^(١).

والآن بعد أن اتضح أن الأصنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئاً ولا باستطاعتها أن تتدخل في ربح الإنسان وخسارته، إذن فلم نعبدها وترك الخالق الأصلي لهذا الكون، والذي له اليد الطولى في كل ربح وخسارة، ونمد أيدينا إلى هذه الموجودات الجامدة التي لا قيمة لها ولا شعور؟ وحتى إذا كانت الآلهة ممن يمتلك الشعور كالجن أو الملائكة التي تعبد من قبل بعض المشركين، فإنّ مثل هذا الإله ليس بخالق ولا يمكنه أن يتدخل في ربح الإنسان وخسارته، وكنتيجة نهائية وشاملة يقول الباري عز وجل «قل حسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون».

آيات القرآن المجيد أكدت - ولعدة مرات - على أن المشركين يعتقدون بأنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق السموات والأرض^(٢). وهذا الأمر يبيّن أن الموضوع كان بالنسبة للمشركين من المسلّمات، وهذا أفضل دليل على بطلان الشرك، لأنّ توحيد خالق الكون والاعتراف بمالكه وربوبيته أفضل دليل على (توحيد

١ - المفسرون واللغويون يفسرون (أفرأيتم) بأنها تطي منى (أخبروني) في الوقت الذي لا يوجد فيه أي مانع من تفسيرها بمعناها الأصلي وهو رؤية العين أو القلب.

٢ - المنكوت (٦١) و (٦٣)، لقمان (٣١)، الزخرف (٩) و (٨٧).

المعبود) ومن كلّ هذا نخلص إلى أن التوكل لا يكون إلا على الله مع صرف النظر عن عبادة غيره.

وإذا أمعنا النظر في المواجهة التي حدثت بين إبراهيم محطم الأصنام والطاغية نمرود الذي ادعى الربوبية والقدرة على إحياء الناس وإماتهم، والذي انبهرت وتحير في كيفية تنفيذ طلب إبراهيم عليه السلام عندما طلب منه أن يجعل الشمس تشرق من المغرب إن كان صادقاً في ادعاءاته، مثل هذه الإدعاءات التي يندر وجودها حتى في أوساط عبدة الأصنام، لا يمكن أن تصدر إلا من أفراد ذوي عقول ضعيفة ومغرورة وبلهاء كعقل نمرود.

والملفت للنظر أن الضمير العائد على تلك الآلهة الكاذبة في هذه الآيات، إنما جاء بصيغة جمع المؤنث (هن - كاشفات - ممسكات -) وذلك يعود لأسباب: أولاً: إن الأصنام المعروفة عند العرب كانت تسمى بأسماء مؤنثة اللات ومناة والعزى).

ثانياً: يريد الباري عز وجل بهذا الكلام تجسيد ضعف هذه الآلهة أمامهم، وطبقاً لمعتقداتهم، لأنهم كانوا يعتقدون بضعف وعجز الإناث. ثالثاً: لأن هناك الكثير من الآلهة لا روح فيها، وصيغة جمع المؤنث تستخدم عادة بالنسبة إلى تلك الموجودات الجامدة، لذا فقد استفيد منها في آيات بحثنا هذا.

كما يجب الالتفات إلى أن عبارة «عليه يتوكل المتوكلون» تعطي معنى الحصر بسبب تقدم كلمة (عليه) وتعني أن المتوكلين يتوكلون عليه فقط. الآية التالية تخاطب أولئك الذين لم يستسلموا لمنطق العقل والوجدان بتهديد إلهي مؤثر، إذ تقول: «قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون»^(١).

١ - ما هو أصل كلمة (مكانة)؟ وماذا تعني؟ أغلب المفسرين واللفنيين قالوا: إنها تعني المكان والمنزلة، وهي من مادة

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المخزي والعذاب الخالد في الآخرة ﴿من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾. وبهذا الشكل فإن آخر كلام يقال لأولئك هو: إِمَّا أَنْ تَسْتَسْلِمُوا الْمُنْطِقَ الْعَقْلَ وَالشُّعُورَ وَتَسْتَجِيبُوا لِنِدَاءِ الْوَجْدَانِ، أَوْ أَنْ تَنْتَظِرُوا عَذَابِينَ سَيَحْلَانُ بِكُمْ، أَحَدُهُمَا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الَّذِي سَيَخْزِيكُمْ وَيُفْضِحْكُمْ، وَالثَّانِي فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ عَذَابٌ دَائِمِي خَالِدٌ، وَهَذَا الْعَذَابُ أَنْتُمْ أَعَدَدْتُمُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ، وَأَشْعَلْتُمْ النَّيْرَانَ فِي الْحَطَبِ الَّذِي جَمَعْتُمُوهُ بِأَيْدِيكُمْ.



﴿كون﴾ ولأنها تستخدم كثيراً بمعنى المكان لهذا يتصور أن الميم فيها أصلية، ولذا أصبح جمع تكسیرها (أمكنة) أما صاحب (لسان العرب)، فقد ذكر أن أصلها (مكنة) و(تمكن) و التي تعني القدرة والإستطاعة. و على أية حال فإن مفهوم الآية يكون في الحالة الأولى: ابقوا على مواقفكم، وفي الحالة الثانية: ابدلوا كل ما لديكم من جهد و طاقة.

الآيات

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ
 وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١﴾ اللَّهُ
 يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ
 الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّهِ
 الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾

التفسير

الله سبحانه يتوفى الأنفس:

بعد ذكر دلائل التوحيد، و بيان مصير المشركين والموحدين، تبين الآية
 الأولى - في هذا البحث - حقيقة مفادها أن قبول ما جاء في كتاب الله أو عدم قبوله
 إنما يعود بالفائدة أو الضرر عليكم، وإن كان رسول الله ﷺ يصرّ عليكم في هذا

المجال، فإنه لم يكن يبتغي جني الأرباح من وراء ذلك، وإنما كان يؤدي واجباً إلهياً، «إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق»^(١).

وتضيف الآية «فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها».

على أية حال، فإنك لست مكلفاً بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، وإنما عليك إبلاغهم وإنذارهم فقط «وما أنت عليهم بوكيل».

هذه القاعدة بأن كل من اتبع طريق الحق عاد بالريح على نفسه، ومن اتبع سبيل الضلال عاد بالخسارة على نفسه، تكررت عدة مرات في آيات القرآن الكريم، كما أنها تأكيد على حقيقة أن الله غير محتاج لإيمان عباده ولا يخاف من كفرهم، وكذلك رسوله، وإنه لم يدع عباده إلى عبادته كي يجني من وراء ذلك الأرباح، وإنما ليجود على عباده.

قوله تعالى: «وما أنت عليهم بوكيل» - التي وردت فيها كلمة (وكيل) بمعنى الشخص المكلف بهداية الضالين وجعلهم يؤمنون بالله - وردت عدة مرات في آيات القرآن، وبنفس التعبير أو ما يشابهه، والغرض من تكرارها هو بيان أن الرسول الأكرم ﷺ ليس مسؤولاً عن إيمان الناس، لأن أساس الإيمان لا يأتي عن طريق الإجبار، وإنه مكلف بإبلاغ الأمر الإلهي إلى الناس من دون أن يظهر أدنى تقصير أو عجز، فإما أن يستجيبوا لدعوته وإما أن يرفضوها.

ثم لتوضح أن الحياة والموت وكل شؤون الإنسان هي بيد الله سبحانه وتعالى، قالت الآية: «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها»^(٢).

وبهذا الشكل فإن (النوم) يعد شقيق (الموت) لكن بأحد أشكاله الضعيفة، أي (أشكال الموت)، لأن العلاقة بين الروح والجسد تصل إلى أدنى درجاتها أثناء

١ - «بالحق»: من الممكن أن تكون حالاً (كتاب) أو للفاعل في «أنزلناه». مع أن المعنى الأول أنسب، ولذا فإن مفهوم الآية يكون: «إنا أنزلنا عليك القرآن مترافقاً بالحق».

٢ - كلمة (توفى) تعني قبض الشيء بالتمام، كلمة (أنفس) تعني الأرواح، وكلمة (منام) لها معنى مصدرى وتعني النوم.

النوم، وتقطع الكثير من العلاقات والوشائج بينهما.
وتضيف الآية «فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى» نعم «إن ذلك آيات لقوم يتفكرون»
من هذه الآية يمكن استنتاج عدة أمور:

١- إنَّ الإنسان عبارة عن روح وجسد، والروح هي جوهر غير مادي، يرتبط بالجسد فيبعث فيه النور والحياة.

٢- عند الموت يقطع الله العلاقة بين الروح والجسد، ويذهب بالروح إلى عالم الأرواح، وعند النوم يخرج الباري، عزَّ وجلَّ الروح والجسد، ولكن ليس بتلك الحالة التي تقطع فيها العلاقات بصورة كاملة. ووفقاً لهذا فإنَّ الروح لها ثلاث حالات بالنسبة للجسد، وهي: إرتباط كامل (حالة الحياة واليقظة) وإرتباط ناقص (حالة النوم) وقطع الإرتباط بصورة كاملة (حالة الموت).

٣- النوم هو أحد الصور الضعيفة (للموت)، و (الموت) هو نموذج كامل (للنوم).

٤- النوم هو أحد دلائل استقلال وأصالة الروح، خاصة عندما يرافق بالرؤيا الصادقة التي توضح المعنى أكثر.

٥- إنَّ العلاقة التي تربط بين الروح والجسد تضعف أثناء النوم، وأحياناً تقطع تماماً ممَّا يؤدي إلى عدم يقظة النائم إلى الأبد، أي موته.

٦- إنَّ الإنسان عندما ينام في كلِّ ليلة يشعر وكأنه وصل إلى أعتاب الموت، وهذا الشعور بحد ذاته درساً يمكن الاعتبار منه، وهو كاف لإيقاظ الإنسان من غفلته.

٧- كلَّ هذه الأمور تجري بقدرة الباري عزَّ وجلَّ، وإن كان قد ورد في بعض الآيات ما يشير إلى أن ملك الموت هو الذي يقبض الأرواح، فهذا لا يعني سوى أنه ينفذ أوامر الباري عزَّ وجلَّ.

وعلى أية حال، فإنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هو إثبات دلائل قدرة الباري عزَّ وجلَّ، ومسألة الخلق، والمعاد، وضعف وعجز الإنسان مقابل إرادة الله عزَّ وجلَّ.

وبعد ما أصبحت - حاكمية - (الله) على وجود الإنسان وتدبير أمره عن طريق نظام الحياة والموت والنوم واليقظة، أمراً مسلماً من خلال الآيات السابقة، تناولت الآية اللاحقة خطأ اعتقاد المشركين فيما يخص مسألة الشفاعة، كي تثبت لهم أنَّ مالك الشفاعة هو مالك حياة وموت الإنسان، وليس الأصنام الجامدة التي لا شعور لها ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾^(١).

وكما هو معروف فإنَّ إحدى الأعدار الواهية لعبدة الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هي ما ورد في مطلع هذه السورة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢)، إذ أنَّهم كانوا يعدونها تماثيل وهايكل للملائكة للأرواح المقدسة، ويزعمون أنَّ هذه الأحجار والأخشاب الميتة لها قدرة هائلة.

ولكون الشفاعة تحصل من الشفيح الذي هو، أولاً: يشعر ويدرك ويفهم، وثانياً: قدير ومالك وحكيم، فإنَّ تنمة الآية تجييبهم ﴿قُلْ أُولُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣).

إذا كنتم تتخذون من الملائكة والأرواح المقدسة شفعاء لكم، فإنَّهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، لأنَّ كلَّ ما عندهم هو من الله، وإذا كنتم تتخذون من الأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة شفعاء لكم، فإنَّهم علاوة على عدم امتلاكهم شيئاً لأنفسهم، فهم لا يمتلكون أدنى عقل أو شعور، فاتركوا هذه الأعدار، وعودوا إلى الذي يملك ويحكم كلَّ هذا العالم، وإلى من إليه تنتهي كلُّ الأمور.

١- «أم»: هنا منقطعة وتعني (هل) ولو كانت متصلة. لكان يجب تقدير القسم الثاني لها، وهذا خلاف الظاهر.

٢- الزمر، ٣.

٣- عبارة ﴿أُولُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ فيها محذوف، والتقدير: (أنشعون لكم ولو كانوا لا يملكون شيئاً).

لذا فإنَّ الله جَلَّ وعلا يضيف في الآية التالية ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ لأنَّه ﴿له ملك السماوات والأرض ثمَّ إليه ترجعون﴾.

وبهذا الشكل لم يبق لديهم شيء، لأنَّ النظام المسيطر والحاكم على كلِّ العالم يقول: لا شفاعة هناك ما لم يأذن البارئ عزَّ وجلَّ بذلك ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾^(١).

أو كما يقول بعض المفسرين: إنَّ حقيقة الشفاعة، هي التوسل بأسماء الله الحسنَى، التوسل برحمته وغفرانه وستره، طبقاً لهذا فإنَّ كافة أشكال الشفاعة تعود في النهاية إلى ذاته المقدسة، إذن كيف يمكن طلب الشفاعة من غيره وبدون إذنه^(٢).

وبشأن إرتباط عبارة ﴿ثمَّ إليه ترجعون﴾ بما قبلها، أظهر المفسرون عدَّة آراء مختلفة منها:

١- هذه العبارة إشارة إلى أنَّ شفاعة البارئ عزَّ وجلَّ لا تقتصر على هذه الدنيا، وإنَّما تتعداها إلى الشفاعة في الآخرة، ولذا يجب عدم اللجوء إلى غير الله لحل المشاكل ورفع المصائب كما كان يفعل المشركون.

٢- هذه العبارة هي دليل ثانٍ على اختصاص الشفاعة بالله، لأنَّ الدليل الأوَّل اعتمد على (مالكية) الله، وهنا تمَّ الاعتماد على (عودة جميع الأشياء إليه).

٣- هذه الجملة هي بمثابة تهديد للمشركين، إذ تقول لهم: إنَّكم سترجعون إلى الله، وستشاهدون نتيجة أفكاركم وأعمالكم السيئة والقييحة.

كلُّ هذه التفاسير مناسبة إلا أنَّ التفسيرين الأوَّل والثاني أنسب.



ملاحظتان

١ - عجائب عالم الرؤيا؟

ما هي حقيقة النوم؟ وما سبب ميل الإنسان إلى النوم؟
بهذا الشأن كتب العلماء أبحاثاً كثيرة:

فالبعض منهم قال: إنه يأتي نتيجة انتقال جزء كبير من الدم الموجود في المخ إلى بقية أجزاء الجسم، ولذا فإنّ السبب هنا (فيزياوي).

والبعض الآخر يعتقد أنّ النشاط الإضافي للجسم يؤدي إلى تجمع مواد سامة معينة في الجسم، وهذه الحالة تؤثر على الأنظمة العصبية وتدفع الإنسان إلى النوم، وتستمر هذه الحالة عند الإنسان حتى تتمّ تجزئة تلك السموم وامتصاصها من قبل الجسد، وبهذا يكون السبب هنا (كيمياوياً).

مجموعة أخرى تقول: إن سبب النوم إنّما يعود لأسباب عصبية لأنّ هناك جهازاً عصبياً نشطاً في داخل مخ الإنسان، وهذا الجهاز هو مصدر الحركة المستمرة لبقية أعضاء الجسم، وهو يتوقف عن العمل إثر التعب الشديد الذي يصيبه فيحصل النوم.

النظريات المذكورة أعلاه عجزت عن إعطاء جواب مقنع فيما يخص مسألة النوم، رغم أنّنا لا يمكن أن ننكر تأثير هذه الأسباب ولو بمقدار ضئيل. نحن نعتقد أنّ التفكير المادي لعلماء اليوم هو السبب الرئيسي الذي يكمن وراء عجزهم عن إعطاء تفسير واضح لمسألة النوم، إذا أنّهم يريدون تفسير هذه المسألة من دون قبول أصالة واستقلالية الروح، فالنوم قبل أن يكون ظاهرة جسدية هو ظاهرة روحية، ومن دون معرفة الروح بصورة صحيحة فإنّ تفسير النوم حالة متعذرة.

القرآن المجيد وضّح من خلال آياته المذكورة أعلاه أدقّ التفاسير لمسألة النوم، إذ يقول: إن النوم هو نوع من أنواع (قبض الروح) وانفصال الروح من الجسد، ولكن هذا الانفصال ليس انفصلاً كاملاً.

وبهذا الشكل فعندما يخفت شعاع الروح في الجسد بأمر من الله، ولا يبقى غير شعاع خافت اللون يشع في ذلك الجسد، يتعطل جهاز الإدراك والشعور عن العمل، و يتوقف الحسّ والحركة عند الإنسان، عدا بعض الأجزاء التي تبقى تواصل نشاطها لحفظ واستمرار الحياة عند الإنسان، كضربات القلب و دوران الدم ونشاطات الجهاز التنفسي والغذائي.

وقد ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإن أذن الله في ردّ الروح أجابت النفس الروح، فهو قوله سبحانه: «الله يتوفى الأنفس حين موتها»^(١).

وثمة مسألة مهمة أخرى هي مسألة (الرؤيا) لأنّ الكثيرين يرون في عالم الرؤيا أحلاماً حدثت و قائعها أو ستحدث فيما بعد في الواقع، مع اختلافات جزئية أو بدون أيّ اختلاف.

التفاسير المادية عاجزة عن توضيح مثل هذه الرؤيا والأحلام، في حين أن التفاسير الروحية تستطيع بسهولة توضيح هذا الأمر، لأنّه عندما تنفصل روح الإنسان عن جسده وترتبط بعالم الأرواح، تدرك حقائق كثيرة لها علاقة بالماضي والمستقبل، وهذه الحالة هي التي تشكل أساس الرؤيا الصادقة، وللتوضيح أكثر يراجع التفسير الأمتل) في نهاية الآية (٤) من سورة يوسف، إذ أنّ هناك شرحاً مفصلاً بهذا الخصوص.

٢- النوم كما ورد في الروايات الإسلامية:

يتضح جيداً من خلال روايات المفسرين التي وردت في نهاية الآيات

١- مجمع البيان ذيل آية البحث وتفسر الصافي. كلمة (روح) في هذه الرواية تعني (الروح الحيوانية) وعمل أجهزة الجسم الرئيسية، وكلمة (نفس) تعني روح الإنسان.

المذكورة أعلاه، أن النوم يعني في الإسلام حركة الروح نحو عالم الأرواح، فيما تعني اليقظة عودة الروح إلى الجسد لبدء حياة جديدة.
ونقرأ في حديث ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ضمن وصاياه لأصحابه:

«لا ينام المسلم وهو جنب، لا ينام إلا على ظهور، فإن لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد، فإن روح المؤمن ترفع إلى الله تعالى فيقبلها، ويبارك عليها، فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته، وإن لم يكن أجله قد حضر بعث بها مع أمنائه من ملائكته، فيردونها في جسده»^(١).

وورد حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيه: «إذا قمت بالليل من منامك فقل: الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي لأحمده وأعبده»^(٢).
والأحاديث في هذا الشأن كثيرة.



١ - خصال الصدوق، نقلًا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٨٨.

٢ - أصول الكافي، نقلًا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٨٨.

الآيات

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٤﴾ قُلِ اللَّهُمَّ
فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ
تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِّنْ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا
يَحْتَسِبُونَ ﴿١٦﴾ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٧﴾

التفسير

الذين يخافون من اسم الله!

مرّة أخرى يدور الحديث عن التوحيد والشرك، إذ عكست الآية الأولى إحدى الصور القبيحة والمشوهة للمشركين ولمنكري المعاد من خلال تعاملهم مع التوحيد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون»^(١).

فأحياناً يستحسن الإنسان القبائح ويستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق ويستبشر إذا سمع اسم الباطل لا يسجد ولا يركع أمام عظمة الله جلّ وعلا خالق الكون، إلا أنه يسجد و يركع تعظيماً لأصنام صنعها من الحجارة والخشب أو لإنسان أو كائنات مثله.

ونظير هذا المعنى ورد في الآية (٤٦) من سورة الإسراء، قال تعالى: «وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً».

وفي سورة نوح الآية (٧) عندما شكى نبيّ الله نوح ﷺ ممن يفكر بمثل هذا التفكير المنحرف إلى الله سبحانه وتعالى «وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً».

نعم، هذا هو حال المتعصبين اللجوجين والجهلة المغرورين.

من هذه الآية يتضح بصورة جيدة أنّ مصدر شقاء هذه المجموعة أمران: الأول: إنكارهم لأساس التوحيد، والثاني: عدم إيمانهم بالآخرة.

وفي المقابل ترى المؤمنين لدى سماعهم اسم الله ينجذبون إليه بدرجة أنّهم على استعداد لبذل كلّ ما لديهم في سبيله، فاسم حبيبتهم يحلّي أفواههم ويعطّر أنفاسهم ويضيء قلوبهم، كما أن سماع أي شيء يرتبط ويتعلق بالله يبعث السرور والبهجة في قلوبهم.

نعود إلى المشركين مرّة أخرى لنقول: إن الصفة القبيحة التي ذكرناها في بداية البحث بشأن المشركين، لا تخصّ مشركي عصر الرّسول الأكرم ﷺ وإنما في عصر وزمان هناك منحرفون ذوو قلوب مظلمة يفرحون ويستبشرون فور سماعهم أسماء أعداء الله وأصحاب المذاهب الإلحادية، وسماعهم نبأ انتصار الظلم والطغيان، أمّا سماع أسماء الطيبين والطاهرين ومناهجهم وانتصاراتهم فإنّه

١ - «اشمأزت»: من مادة (اشمأزت) وتعني الإقباض والنفور عن الشيء، (وحده) منصوب حال أو مفعول مطلق.

يسبب لهم آلاماً مبرحة، بعض الروايات فسّرت الآية على أنها تعني أولئك الذين ينزعجون من سماع فضائل أهل بيت النبوة الأطهار عليهم السلام أو من يتبع نهجهم^(١).

وعندما يصل الأمر إلى درجة أن مجموعة من اللجوجين والجهلة المغرورين ينفرون ويشمئزون حتى من سماع اسم الله، يوحى الباري عز وجل إلى نبيه الكريم ﷺ أن يتركهم ويتوجه إلى الباري عز وجل ويشتكى إليه من هؤلاء بلحن مليء بالعواطف الرفيعة والعشق الإلهي لكي يبعث على تسكين قلبه المليء بالغم من جهة، وعلى تحريك العواطف الهامدة عند أولئك من جهة أخرى: «قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون»^(٢).

نعم أنت الحاكم المطلق في يوم القيامة الذي تنتهي فيه الاختلافات وتظهر فيه كل الحقائق المخفية، لانك خالق كل شيء في الوجود وعالم بكل الأسرار فتنتهي الاختلافات بحكمك العادل، وهناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، ويفكرون في إصلاح ما مضى، ولكن ما الفائدة؟

الآية التالية تقول: «ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة» ولكن هذا الأمر غير ممكن. «الظلم»: هنا له معان واسعة تشمل الشرك أيضاً وبقيّة المظالم.

ثم تضيف الآية «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون». وسيرور العذاب بأعينهم، العذاب الذي لم يكن يتوقعه أحد منهم، لأنهم كانوا مغرورين بلطف الله، في حين كانوا في غفلة عن غضبه وقهره. وأحياناً كانوا يقومون بأعمال يتصورونها حسنة، في حين أنها كانت من الذنوب الكبيرة. على أية حال، تظهر لهم في ذلك اليوم أمور لم يكن يتصور أحد ظهورها.

١- صول الكافي، وروضة الكافي، تقرأ عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٩٠.

٢- «فاطر السموات» منصوب بعنوان منادى مضاف.

ذلك الوعيد يأتي في مقابل الوعود الطيبة التي قطعت للمؤمنين، قال تعالى:
﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾. (١)

وقد نقل أن أحد المسلمين جزع عند الموت، فقيل له: أتجزع، فقال: أخذتني
هذه الآية «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» (٢).

الآية التالية توضيح أو تنمة لموضوع طرحته الآية السابقة، إذ تقول: «وبدا
لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون». في الحقيقة هناك أربعة مواضع تتعلق بالمشركين والظالمين طرحت في هذه
الآيات:

أولاً: إن هول ورهبة العذاب الإلهي في ذلك اليوم ستكون من الشدة بحيث
تجعلهم يتمنون لو أن لديهم في تلك الساعة ضعف الثروات والأموال التي كانوا
يمتلكونها في عالم الدنيا ليفقدوا بها من سوء العذاب، ولكن من المستحيل أن
يحدث مثل هذا الأمر في يوم القيامة.

ثانياً: تظهر أمامهم أنواع من العذاب الإلهي الذي لم يكن أحد يتوقعه ولا
يتصوره.

ثالثاً: حضور أعمالهم السيئة أمامهم وتجسيدها لهم.
رابعاً: مشاهدتهم حقيقة المعاد الذي لم يأخذه مأخذ الجد، ومن ثم انغلاق
كل أبواب النجاة أمامهم.

الآية التي تقول: «بدا لهم سيئات ما كسبوا» والتي وردت آنفاً، هي دليل آخر
على مسألة تجسيد الأعمال.



الآيات

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا
أُوتَيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلِ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَسَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾
قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ لَمَّا آغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٧﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ
سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٨﴾ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

التفسير

في الشدائد يذكرون الله، ولكن...

الآيات هنا تتحدث مرّة أخرى عن المشركين والظالمين، وتعكس صورة

أخرى من صورهم القبيحة.

في البداية يقول «فإذا مس الإنسان ضرر دعانا» فذلك الإنسان الذي كان -

وفق ما جاء الآيات السابقة - يشتمز من ذكر اسم الله. نعم، هو نفسه يلجأ إلى ظلّ

الله عندما يصيبه الضرّ ويتعرض للشدائد. لكن هذا اللجوء مؤقت، إذ ما إن يتفضل عليه البارئ عزّ وجلّ ويكشف عنه الضر والشدائد، حتى يتبجح ناكراً لهذه النعم، وزاعماً بأنّه هو الذي أنقذ نفسه من ذلك الضرّ ثمّ إذا خولناه نعمةً منا قال إنّما أوتيته على علم^(١).

نظير هذا الكلام نقله القرآن في الآية (٧٨) من سورة القصص عن لسان «قارون» عندما نصحه علماء بني إسرائيل بأن ينفق ممّا منّ الله به عليه في سبيل الله، إذ قال: «إنّما أوتيته على علم عندي».

إنّ أمثال هؤلاء الغافلين لا يتصورون أنّ العلوم والمعارفة التي يمتلكها الإنسان إنّما هي نعمة إلهية، فهل أنّ هؤلاء اكتسبوا العلم الذي كان يدّرّ عليهم الأموال الطائلة من ذاتهم؟ أم أنّه كان في ذاتهم منذ الأزل؟

بعض المفسّرين ذكروا احتمالاً آخر لتفسير هذه العبارة، وقالوا: إنّ النعم التي منّ بها البارئ عزّ وجلّ علينا إنّما منّ بها علينا لعلمه بلياقتنا واستحقاقنا لها.

ومع أنّ هذا الاحتمال وارد بشأن الآية مورد بحثنا، لكنّه غير وارد بشأن الآية الآتفة التي تحدثت عن قارون، خاصة مع وجود كلمة (عندي) وهذه أحد القرائن لترجيح التفسير الأوّل للآية التي هي مورد البحث.

ثمّ يجيب القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المفرورين، الذين ينسون أنفسهم وخالفهم بمجرد زوال المحنة وتوفّر النعمة، قائلاً: «بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون».

فالهدف من إبتلائهم بالحوادث الشديدة والصعبة، ومن ثمّ إغداق النعم الكبيرة عليهم هو اظهار خباياهم والكشف عن بواطنهم.

١ - «خول»: من مادة (تخويل) وتعني الإعطاء على نحو الهبة، وقد شرحت بالتفصيل في ذيل الآية الثامنة من هذه السورة (الزمر)، ضمير (أوتيته) رغم أنّه يعود على (نعمة) فقد جاء بصيغة المذكر، لأنّ المقصود منه (شيء من النعمة) أو (قسم من النعمة).

هل يئأس الإنسان عند المصيبة ويفترّ ويطنغي عند النعمة؟
هل أنّه يزداد تفكيراً بالله عزّ وجلّ عندما يحاط بهذه النعم، أم أنّه يفرق في
ملذات الدنيا؟

هل ينسى ذاته، أو أنّه يلتفت إلى نقاط ضعفه ويعود إلى ذكر الله أكثر؟
متا يؤسف له أنّ أكثر الناس مبتلون بالنسيان، وغير مطلعين على الحقائق
التي تكررت مرات عديدة في آيات القرآن المجيد، وهي أنّ العزيز الحكيم يجعل
الإنسان أحياناً محاطاً بالمشاكل والإبتلاءات الشديدة، وأحياناً يقدق عليه النعم،
وذلك ليتمتحنه ويرفع من شأنه وليعرفه بأن كلّ شيء في هذه الحياة هو من الله
سبحانه وتعالى.

ومن الطبيعي أنّ الشدائد تهيء الأرضيه لتفتح الفطرة، كما أنّ النعم مقدمة
للمعرفة (وفي هذا الخصوص أوردنا بحثاً آخر في تفسيرنا الأمل في نهاية الآية
(٦٥) من سورة العنكبوت).

ومتا يدعوا إلى الإبتناء تأكيد الآية على كلمة (إنسان) التي عرفته بأنه كثير
النسيان والغرور، وهذه إشارة إلى الذين لم يتربوا وفق ما جاء في الشرائع والسنن
الإلهية، والذين لم يكن لهم أيّ مربّ ومرشد.. الذين أطلقوا شهواتهم العنان
واستسلموا لأهوائهم، نعم فهؤلاء هم الذين يلجؤون إلى الباريء عزّ وجلّ كلّما
مستهم الضرّ وكلّمّا ابتلوا بالشدائد والمحن، ولكن عندما تهدأ أعاصير الحوادث
ويشملهم لطف الباريء وعنايته، ينسونه وكأنّهم لم يدعوه إلى ضرّ مستهم. ولמיד
من الإطلاع راجع موضوع: الإنسان في القرآن الكريم. في نهاية الآية (١٢) من
سورة يونس.

وتضيف الآية التالية ﴿قد قالها الذين من قبلهم فاغنى عنهم ما كانوا
يكسبون﴾^(١).

١ - ضمير (قد قالها) راجع إلى القول السابق باعتبار أنّه مقالة أو كلمة، والمراد منها عبارة ﴿إنما أوتيته على علم﴾.

نعم، فقارون وأمثاله من المغرورين يتصورون أنهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم وغفلوا عن أن الله سبحانه وتعالى هو الذي من بهذه النعم عليهم وأنه المصدر الأصل للنعم والواهب الحقيقي لها، وأنهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهرية، لكن التاريخ بين أنه عندما خسف الباري، عز وجل الأرض بأولئك لم يسرع أحد إلى مساعدتهم، ولم تفهم أموالهم، كما ورد في سورة القصص الآية (٨١) ﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾.

وليس قارون - وحده - ابتلي بهذا العذاب، وإنما أقوام عاد وشمود وسبأ وأمثالهم ابتلوا - أيضاً - وكان لهم نفس المصير.
ثم يقول: ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾.

فكل واحد منهم ابتلي بنوع من العذاب الإلهي وهلك، كابتلائهم بالطوفان والسيول والزلازل والصيحة السماوية.

ويضيف: إن هذا المصير لا ينحصر بأولئك الاقوام وحسب بل إن مشركي مكة سيبتلون في القريب العاجل بعواقب أعمالهم السيئة، ولا يستطيع أحد منهم أن يفر من قبضة العذاب الإلهي الذي سينزل بهم جميعاً ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبيهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾.

وسينال هذا العذاب والابتلاء كل الطغاة والمغرورين والمشركين، وفي كل العصور والقرون.

ومن جهة أخرى ورد احتمالان في هل أن المراد من عبارة ﴿سيصيبيهم سيئات ما كسبوا﴾ هو العذاب الدنيوي أم العذاب الأخروي، ولكن بقرينة ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ فإن التفسير الأول أنسب.

القرآن الكريم أجاب على ادعاءات الذين يزعمون أنهم حصلوا على النعم الدنيوية بعلمهم وقدرتهم، عندما دعاهم إلى مراجعة تاريخ الأولين للإطلاع على أنواع الابتلاءات والعذاب الذي ابتلوا به بسبب مزاعمهم الباطلة، وهذا هو رد

تأريخي وواقعي.

ثم يرد القرآن الكريم عليهم بردّ عقلي، إذ يقول: ﴿أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾.

فالكثير من الأشخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياة المستضعفين والبسطاء، في حين نرى أنّ الكثير من الأشخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء ومتنعمين من كلّ النواحي، فلو كان الظفر الماديّ كلّهُ يأتي عن طريق جهد وسعي الإنسان إضافة إلى كفاءته، لما كنّا نرى مثل هذه المشاهد. إذن فمن هنا يستدل على وجود يد قوية أخرى خلف عالم الاسباب تدير الشؤون وفق منهج محسوب.

صحيح أنّه يجب على الإنسان أن يبذل الجهد والسعي في حياته، وصحيح أنّ الجهاد والسعي هما مفتاح حلّ الكثير من المشاكل، ولكن إغفال مسبب الأسباب والنظر إلى الأسباب فقط، واعتبار الكفاءة هي المؤثر الوحيد يعد خطأ كبيراً. فإحدى أسرار إحاطة الفقر والحرمان بمجموعة من العلماء المقتدرين، وإحاطة الغنى بمجموعة من الجهلة غير الأكفاء هو تنبيه لكلّ الناس التائهين في عالم الأسباب بأن لا يعتمدوا فقط على قواهم الذاتية. لذا تضيف الآية ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

الآيات التي وضحها أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال: «عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود الهمم»^(١). وهي كلمة سامية تدلّ على ضعف وعجز الإنسان كي لا يتيه ولا يبتلى بالفرور والتكبر.



الآيات

قُلْ يَسْعَادِي الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٧﴾ وَ
 أَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يُأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا
 تُنصَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن
 قَبْلِ أَن يُأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٩﴾

التفسير

إن الله يغفر الذنوب جميعاً

بعد التهديدات المتكررة التي وردت في الآيات السابقة بشأن المشركين والظالمين، فإن آيات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبين وأعطتهم الأمل، لأن الهدف الرئيسي من كل هذه الأمور هو التربية والهداية وليس الانتقام والعنف، فيلهمجة مملوءة باللطف والمحبة يفتح الباريء أبواب رحمته أمام الجميع ويصدر أوامر العفو عنهم، عندما يقول: ﴿قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

التدقيق في عبارات هذه الآية يبين أنها من أكثر آيات القرآن الكريم التي

تعطي الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما في القرآن آية أوسع من يا عبادي الذين أسرفوا...»^(١).

والدليل على ذلك واضح من وجوه:

- ١- التعبير بـ «يا عبادي» هي بداية لطف الباري عز وجل.
- ٢- التعبير بـ (إسراف) بدلاً من (الظلم والذنوب والجريمة) هو لطف آخر.
- ٣- التعبير بـ «على أنفسهم» يبين أن ذنوب الإنسان تعود كلها عليه، وهذا التعبير هو علامة أخرى من علامات محبة الله لعباده، وهو يشبهه خطاب الأب الحريص لولده، عندما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا!
- ٤- التعبير بـ «لا تقنطوا» مع الأخذ بنظر الاعتبار أن «القنوط» يعني - في الأصل - اليأس من الخير، فإنها لو حدها دليل على أن المذنبين يجب أن لا يقنطوا من اللطف الإلهي.
- ٥- عبارة «من رحمة الله» التي وردت بعد عبارة «لا تقنطوا» تأكيد آخر على هذا الخير والمحبة.

- ٦- عندما نصل إلى عبارة «إن الله يغفر الذنوب» التي بدأت بتأكيد، وكلمة «الذنوب» التي جمعت بالألف واللام تشمل كل الذنوب من دون أي استثناء، فإن الكلام يصل إلى أوجه، وعندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الإلهية.
- ٧- إن ورود كلمة (جميعاً) كتأكيد آخر للتأكيد السابق يوصل الإنسان إلى أقصى درجات الأمل.

- ٨ و ٩- وصف الباري عز وجل بالففور والرحيم في آخر الآية، وهما وصفان من أوصاف الله الباعثة على الأمل، فلا يبقى عند الإنسان أدنى شعور باليأس أو فقدان الأمل.

نعم، لهذا السبب فإن الآية المذكورة أعلاه من أوسع وأشمل آيات القرآن المجيد، حيث تعطي الأمل بغفران كل أنواع الذنوب، ولهذا السبب فإنها تبعث الأمل في النفوس أكثر من بقية الآيات القرآنية. وحقاً، فإن الذي لانهاية لبحر لطفه، وشعاع فيضه غير محدود، لا يتوقع منه أقل من ذلك.

وقد شغلت أذهان المفسرين مسألتان، رغم أن حلها كما نمت في هذه الآية والآية التي تليها:

الأولى: هل أن عمومية الآية تشمل كل الذنوب حتى الشرك والذنوب الكبيرة الأخرى، فإذا كان كذلك فلم تقول الآية (٤٨) من سورة النساء: إن الشرك من الذنوب التي لا تغفر إلا بالله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

والثانية: هل أن الوعد الذي أعطاه الله بغفران الذنوب مطلق أم مشروط بالتوبة ونظير ذلك؟

وبالطبع فإن السؤال الأول مرتبط بالسؤال الثاني، والجواب عليهما سيوضح خلال الآيات التالية بصورة جيدة، لأن هناك ثلاثة أوامر وردت في الآيات التالية وضحت كل شيء «انيبوا إلى ربكم» والثانية «وأسلموا له» والثالثة «واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم».

هذه الأوامر الثلاثة تقول: إن أبواب المغفرة والرحمة مفتوحة للجميع من دون أي استثناء، ولكن شريطة أن يعودوا إلى أنفسهم بعد ارتكاب الذنب، ويتوجهوا في مسيرهم نحو الباري عز وجل، ويستسلموا لأوامره، ويظهروا صدق توبتهم وأنابتهم بالعمل، وبهذا الشكل فلا الشرك مستثنى من المغفرة ولا غيره، وكما قلنا فإن هذا العفو العام والرحمة الواسعة مشروطان بشروط لا يمكن تجاهلها.

وإذا كانت الآية (٤٨) من سورة النساء تستثني المشركين من هذا العفو

والرحمة، فإنها تقصد المشركين الذين ماتوا على شركهم، وليس أولئك الذين صحوا من غفلتهم واتبعوا سبيل الله، لأن أكثر مسلمي صدر الإسلام كانوا كذلك، أي أنهم تركوا عبادة الأصنام والشرك بالله، وآمنوا بالله الواحد القهار بعد دخولهم الدين الإسلامي.

إذا طالعنا الحالة النفسية عند الكثير من المجرمين بعد ارتكابهم للذنب الكبير، نرى أن حالة من الألم والندم تصيبهم بحيث لا يتصورون بقاء طريق العودة مفتوحاً أمامهم، ويعتبرون أنفسهم ملوثين بشكل لا يمكن تطهيره، ويتسألون: هل من الممكن أن تغفر ذنوبنا؟ وهل أن الطريق إلى الله مفتوح أمامنا؟ وهل بقي خلفنا جسر غير مدمر؟

إنهم يدركون معنى الآية جيداً، ومستعدون للتوبة، ولكنهم يتصورون استحالة غفران ذنوبهم، خاصة إذا كانوا قد تابوا مرات عديدة من قبل ثم عادوا إلى ارتكاب الذنب مرة أخرى.

هذه الآية تعطي الأمل للجميع في أن طريق العودة والتوبة مفتوح أمامهم. لذا فإن (وحشي) المجرم المعروف في التأريخ الإسلامي والذي قتل حمزة سيد الشهداء عليه السلام، كان خائفاً من عدم قبول توبته، لأن ذنبه كان عظيماً، مجموعة من المفسرين قالوا: إن هذه الآية عندما نزلت على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فتحت أبواب الرحمة الإلهية أمام وحشي التائب وأمثاله!

ولكن لا يمكن أن تكون هذه الحادثة سبب نزول هذه الآية، لأن هذه السورة من السور المكية، ولم تكن معركة أحد قد وقعت يوم نزول هذه الآيات، ولم تكن أيضاً قصة شهادة حمزة ولا توبة وحشي، وإنما هي من قبيل تطبيق قانون عام على أحد المصاديق، وعلى أية حال فإن شمول معنى الآية يمكن أن يشخص هذا المعنى.

يتضح مما تقدم أن إصرار بعض المفسرين كالألوسي في تفسيره (روح

المعاني) على أن الوعد بالمغفرة الذي ورد في الآية المذكورة أعلاه ليس مشروطاً بشيء غير صحيح، حتى أن الأدلة السبعة عشر التي ذكرها بشأن هذا الموضوع غير مقبولة، لأن فيها تعارضاً واضحاً مع الآيات التالية، والكثير من هذه الأدلة السبعة عشر يمكن ادغامها في بعضها البعض، ولا يفهم منها سوى أن رحمة الله واسعة تشمل حتى المذنبين، وهذا لا يتعارض مع كون الوعد الإلهي مشروطاً. بقرائن الآيات التالية، وسيأتي مزيد بحث في نهاية هذا البحث. ترشد المجرمين والمذنبين على أبواب الدخول إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع إذ تقول: «وأنيبوا إلى ربكم» واصلحوا أموركم ومسير حياتكم «واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون».

بعد طي هاتين المرحلتين «الإنباء» و «التسليم»، تتحدث الآية عن المرحلة الثالثة وهي مرحلة (العمل)، إذ تقول: «واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأتم لا تشعرون». وبهذا الشكل فإن مسيرة الوصول إلى الرحمة الإلهية لا تتعدى هذه الخطوات الثلاث:

الخطوة الأولى: التوبة والندم على الذنب والتوجه إلى الله تعالى.

الخطوة الثانية: الإيمان بالله والاستسلام له.

الخطوة الثالثة: العمل الصالح.

فبعد طي هذه المراحل الثلاث يكون الإنسان قد دخل إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع طبقاً لوعده الله المؤكد مهما كان ذلك الإنسان مثقلاً بالذنوب. أما بشأن المراد من «اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم» فقد ذكر المفسرون تفسيرات متعددة. والتفسير الذي هو أفضل من البقية هو أن أوامر متعددة ومختلفة نزلت من عند الباري عز وجل، البعض منها واجب والآخر مستحب، والبعض الآخر مباح، والمراد من (أحسن) هو انتخاب الواجبات

والمستحبات، مع الإلتباه إلى تدرّجها.

وقال البعض: إنّه إشارة إلى كون القرآن هو أحسن الكتب السماوية النازلة،
بدليل ما ورد في الآية (٢٣) من هذه السورة الزمر ﴿الله أحسن الحديث كتاباً
متشابهاً مثاني﴾. وبالطبع فإنّه لا يوجد هناك أي تعارض بين التفسيرين.

* * *

بحثنان

١- باب التوبة مفتوح للجميع

من المشاكل التي تقف عائقاً في طريق بعض المسائل التربوية، هو إحساس
الإنسان بعقدة الذنب من جراء الأعمال القبيحة السابقة التي ارتكبتها، خاصة إذا
كانت هذه الذنوب كبيرة، إذ أنّ الذي يستحوذ على ذهن الإنسان إن أراد التوجّه
نحو الطهارة والتقوى والعودة إلى الله، فكيف يتخلص من أعباء الذنوب الكبيرة
السابقة.

هذا التفكير يبقى كابوساً مخفياً يرافقه كالظل، فكلمًا خطأ خطوة نحو تغيير
منهاج حياته وسعى نحو الطهارة والتقوى، تحدّثه نفسه: ما الفائدة من التوبة؟
فسلاسل أعمالك السابقة تطوق يديك ورجليك، لقد اصطبغت ذاتك بلون الذنب،
وهو لون ثابت ولا يمكن إزالته

والمطلعون على مسائل التربية وتوبة المذنبين يدركون جيداً ما ذكرناه،
يعلمون حجم هذه المشكلة الكبيرة.

التعاليم الإسلامية في القرآن المجيد حلت هذه المشكلة عندما أفصحت عن
أنّ التوبة والإنابة يمكن أن تكون أداة قاطعة وحازمة للإنفصال عن الماضي وبدء
حياة جديدة، أو حتى يمكن أن تكون بمثابة (ولادة جديدة) للتائب إذا تحققت
بشرطها وشروطها، إذ تكرر الحديث في الروايات الإسلامية بشأن بعض المذنبين

التائبين، حيث ورد (كمن ولدته أمه).

وبهذا الشكل فإن القرآن الكريم يبقي أبواب اللطف الإلهي مفتحة أمام كل الناس مهما كانت ظروفهم، والمثال على ذلك الآيات المذكورة آنفاً التي تدعو المجرمين والمذنبين بلطف للعودة إلى الله، وتعدهم بإمكانية محو الماضي. ونقرأ في رواية وردت عن رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١).

كما ورد حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيه: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء»^(٢). ومن البديهي أن هذه العودة لا يمكن أن تتم بدون قيد أو شرط، لأنّ الباري عز وجل حكيم ولا يفعل شيئاً عبثاً، فإذا كانت أبواب رحمته مفتحة أما عباده، ودعوته إياهم للتوبة مستمرة، فإنّ وجود الاستعداد عند العباد أمر لا بد منه. ومن جهة أخرى يجب أن تكون عودة الإنسان صادقة، وأن تحدث انقلاباً وتغيراً في داخله وذاته.

ومن ناحية ثانية يجب أن يبدأ الإنسان بعد توبته بأعمار وبناء أسس الإيمان والعقيدة التي كانت قد دمرت بعواصف الذنوب.

ومن ناحية ثالثة، يجب أن يصلح الإنسان بالأعمال الصالحة عجزه الروحي وسوء خلقه، فكلما كانت الذنوب السابقة كبيرة، عليه أن يقوم بأعمال صالحة أكثر وأكبر، وهذا بالتحديد ما بيّنه القرآن المجيد في الآيات الثلاث المذكورة أعلاه تحت عنوان (الإنيابة) و (التسليم) و (اتباع الأحسن).

١- سفينة البحار، المجلد الأول، الصفحة ١٢٧، مادة التوبة.

٢- أصول الكافي، المجلد ٢، الصفحة ٢١٦، باب التوبة، الحديث ١٠.

٢- اصحاب الأحمال الثقيلة

بعض المفسرين أوردوا أسباباً متعددة لنزول الآيات آفة الذكر، ويحتمل أن تكون جميعها من قبيل التطبيق وليس من قبيل أسباب النزول.

ومنها قصة (وحشي) الذي ارتكب أفظع جريمة في ساحة معركة أحد، عندما قتل حمزة عم النبي ﷺ غدراً، وقد كان حمزة قائداً شجاعاً كرس كل حياته في سبيل الدفاع عن النبي الكريم. وبعبارة أخرى: إنه كان درعاً للرسول ﷺ. فبعد أن بلغ الإسلام أوج عظمته وانتصر المسلمون على أعدتهم، أراد وحشي أن يدخل الدين الإسلامي، ولكنه كان خائفاً من عدم قبول إسلامه، ولما أسلم قال له النبي ﷺ: «أوحشي؟» قال: نعم، قال: «أخبرني كيف قتلت عمي» فأخبره، فبكى ﷺ، وقال: «غيب وجهك عني فإنني لا أستطيع النظر إليك» فلحق بالشام فمات في الخمر^(١). وهنا تساءل أحدهم: هل أن هذه الآية تخص وحشياً فقط أم تشمل كل المسلمين، فأجاب رسول الله ﷺ: إنها تشمل الجميع.

ومنها قصة النباش - قال: دخل معاذ بن جبل على رسول الله ﷺ فسلم فردّ عليه السلام ثم قال: «ما يبكيك، يا معاذ؟» فقال: يا رسول الله، إنّ بالباب شاباً طريّ الجسد نقي اللون حسن الصورة يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.

فقال النبي ﷺ: «ادخل عليّ الشاب يا معاذ» فأدخله عليه فسلم فردّ عليه السلام قال: «ما يبكيك يا شاب؟»

قال: كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوباً، إن أخذني الله عزّ وجلّ ببعضها أدخلني نار جهنم؟ ولا أراني إلاّ سيّاً أخذني بها ولا يغفر لي أبداً.
فقال رسول الله ﷺ: «هل أشركت بالله شيئاً؟»

١ - سفينة البحار، المجلد ٢، الصفحة ٦٣٧، مادة (وحش) وتفسير الفخر الرازي، للمجلد ٢٧، الصفحة ٤؛ وتفسير نور الثقلين،

قال: أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئاً.

قال: «أقتلت النفس التي حرم الله؟».

قال: لا.

فقال النبي ﷺ: «يغفر الله لك ذنوبك، وإن كانت مثل الجبال الرواسي».

فقال الشاب: فإنها أعظم من الجبال الرواسي.

فقال النبي ﷺ: «يغفر الله لك ذنوبك، وإن كانت مثل الأرضين السبع

وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق».

قال: فإنها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيه من

الخلق.

فقال النبي ﷺ: «يغفر الله ذنوبك وإن كانت مثل السماوات ونجومها ومثل

العرش والكرسي».

قال: فإنها أعظم من ذلك.

قال: فنظر النبي ﷺ إليه كهيئة الغضبان ثم قال: «ويحك يا شاب ذنوبك

أعظم أم ربك؟».

فخر الشاب لوجهه وهو يقول: سبحان ربي ما شيء أعظم من ربي، ربي

أعظم يا نبي الله من كل عظيم.

فقال النبي ﷺ: «فهل يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم».

قال الشاب: لا والله يا رسول الله، ثم سكت الشاب فقال له النبي ﷺ:

«ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك؟».

قال: بلى، أخبرك: إنني كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات وأنزع

الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار فلما حملت إلى قبرها ودفنت

وانصرف عنها أهلها وجنّ عليهم الليل، أتيت قبرها فنبشتها ثم استخرجتها

ونزعت ما كان عليها من أكفانها وتركتها متجردة على شفير قبرها ومضيت

منصرفاً، فأتاني الشيطان فأقبل يزينها لي... ولم أملك نفسي حتى جامعته وتركتها مكانها. فإذا أنا بصوت من ورائي يقول: يا شاب ويل لك من ديان يوم الدين... فما أظن أنني أشم رائحة الجنة أبداً فما ترى يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: تنحى عني يا فاسق؛ إني أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك من النار!...

فذهب فاتى المدينة فترود منها ثم أتى بعض جبالها متعبداً فيها، ولبس مسحاً وغل يديه جميعاً إلى عنقه، ونادى: يا رب هذا عبدك (بهلول) بين يديك مغلول... ثم قال: اللهم ما فعلت في حاجتي إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوح إلى نبيك، وإن لم تستجب لي دعائي... فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة...﴾^(١).

الظاهر أن تلاوة جبرائيل لهذه الآية هنا لم تكن لأول مرة كي تعد من أسباب النزول، وإنما هي آية مكررة ونزلت من قبل، وتكرارها إنما هو للتأكيد وجلب الانتباه أكثر، وإعلان عن قبول توبة ذلك الرجل المذنب. ونكرر مرة أخرى: إن مثل أولئك الأشخاص الذين يحملون على أكتافهم ذنوباً ثقيلة عليهم أداء واجبات كثيرة لمحو آثار الماضي.

وقد ذكر «الفخر الرازي» أسباباً أخرى لنزول هذه الآيات إذ قال: إنها نزلت في أهل مكة حيث قالوا: يزعم محمّد أن من عبد الأوثان وقتل النفس لم يفر له، وقد عبدنا وقتلنا، فكيف نسلم؟!^(٢).



١- بحار الأنوار، المجلد ٦، الصفحة ٢٤ (طبع بيروت).

٢- التفسير الكبير لفخر الرازي، المجلد ٢٧، الصفحة ٤ ذيل آيات البحث.

الآيات

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءٍ أَيَسَىٰ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

التفسير

الندم لا ينفع في ذلك اليوم:

الآيات السابقة أكدت على التوبة وإصلاح الذات وإصلاح الأعمال السابقة، وآيات بحثنا الحالي تواصل التطرق لذلك الموضوع، ففي البداية تقول: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾^(١). «يا حسرتا»: هي في الأصل (يا حسرتي)، (حسرة أضيفت إليها ياء

١- في بداية الآية عبارة تتعلق بالآيات السابقة، ويكون التقدير (لئلا تقول نفس) أو (حذراً أن تقول نفس) وفي الحالة الثانية تكون مفعولاً له لعبارة (أنيبوا واسلموا واتبعوا). (إن) في عبارة (وإن كنت لمن الساخرين) مخففة من الثقيلة إذ أنها كانت في الأصل، (إني كنت من الساخرين).

المتكلم)، والتحسر معناه الحزن مآفات وقته لا نحساره ممًا لا يمكن استدراكه. ويرى الراغب في مفرداته (يا حسرتا) من مادة (حسر) على وزن (حسس) وتعني التعري والتجرد من الملابس، وبما أن الندم والحزن على ما مضى بمنزلة زوال حجب الجهل، فلا اطلاق على هذه الموارد.

نعم، فعندما يرد الانسان إلى ساحة المحشر، ويرى بأّم عينيه نتائج إفراطه وإسرافه ومخالفته واتخاذ الأمور الجدية هزواً ولعباً، يصرخ فجأة (واحسرتاه) إذ يمتلئ قلبه في تلك اللحظات بغمّ كبير مصحوب بندم عميق، وهذه الحالة النفسية التي وردت في الآيات المذكورة.

أما فيما يخصّ معنى «جنب الله» هنا؟ فإنّ المفسرين ذكروا تفاسير ومعاني كثيرة لها. وكلمة (جنب) تعني في اللغة «الخاصرة»، كما تطلق على كلّ شيء يستقر إلى جانب شيء آخر، مثلما أن اليمين واليسار يعينان الطرف الأيمن والأيسر للجسم، ثمّ يقال لكل شيء في يسار أو يمين الجسم، وهنا «جنب الله» تعني أن الأمور ترجع إلى جانب الله، فأوامره وإطاعته والتشرب إليه، والكتب السماوية كلها نزلت من جانبه، وكلها مجموعة في هذا المعنى.

وبهذا الترتيب فإنّ المذنبين يكشفون في ذلك اليوم عن ندامتهم وحسرتهم وأسفهم على تقصيرهم وتفريطهم تجاه الله سبحانه وتعالى، خاصة فيما يتعلق بسخرتهم واستهزائهم بآيات الله ورسله، لأنّ السبب الرئيسي لتفريطهم هو العبث والسخرية من هذه الحقائق الكبيرة بدافع الجهل والغرور والتعصب. ثمّ تضيف الآية «أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتقين».

يبدو أنّ هذا الكلام يقوله الكافر عندما يوقف أمام ميزان الحساب، حيث يرى البعض يقادون إلى الجنّة وهم محملون بأعمالهم الحسنة، وهنا يتمنى الكافر لو أنّه كان أحد هؤلاء المتوجهين إلى جنّة الخلد.

وتضيف الآية مرّة أخرى «أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من

المحسنين ﴿٥٦﴾.

وهذا ما يقوله الكافر - أيضاً - حينما تقوده الملائكة الموكلة بالنار نحو جهنم، وترى عيناه نار جهنم ومنظر العذاب الأليم فيها، وهنا يتأوه من أعماق قلبه ويتوسل لكي يسمح له بالعودة مرة أخرى إلى الحياة الدنيا ليظهر نفسه من الأعمال السيئة والقبیحة بأعمال صالحة تهيئه وتعدّه للوقوف في صفوف المحسنين والصالحين.

والملاحظ أن كل عبارة من هذه العبارات الثلاث يقولها المجرمون عند مشاهدة مشهد معين من عذاب يوم القيامة الرهيب.

حيث أنهم يتحسرون على ما فرطوا في جنب الله فور دخولهم ساحة المحشر.

ويتمنون لو أنهم فازوا بما فاز به المتقين، عندما يرون الثواب الجزيل الذي أغدقه الباري عز وجل على عباده المتقين.

ويتوسلون إلى الباري عز وجل ليعيدهم إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ماضيهم الفاسد، عندما يرون العذاب الإلهي الأليم.

القرآن المجيد يرد على القول الثاني من بين الأقوال الثلاثة إذ يقول: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾^(١).

إن قولك: لو كانت الهداية قد شملتني لأصبحت من المتقين، فما هي الهداية الإلهية؟ هل هي غير الكتب السماوية ورسول الله، وآياته وعلاماته الصادقة في الآفاق والأنفس؟! إنك سمعت بأذنك وشاهدت بعينيك كل هذه الآيات، فما كان رد فعلك إزاءها غير التكذيب والتكبر والكفر!

١ - رغم أن المتحدث هي النفس وهي مؤنث، وأن القرآن أورد أوصافها وأفعالها بصيغة المؤنث في آياته، ولكن في هذه الآية ورد ضمير (كذبت) وما بعدها بصيغة المذكر، وذلك لأن المقصود هنا هو الإنسان، وقد قال البعض: إن (النفس) يمكن أن تأتي بصيغة المذكر والمؤنث.

فهل يمكن أن يعاقب الباريء عزوجلّ أحداً من دون أن يتم حجته عليه؟ وهل كان هناك فرق بينك وبين الذين اهدوا إلى طريق الحق من حيث المناهج التربوية الإلهية التي أعدت لكم ولهم؟ لهذا فأنت المقصر الرئيسي، وأنت بنفسك جلبت اللعنة إليك!

فمن بين تلك الأعمال الثلاثة يعد (الاستكبار) الجذر الرئيسي، ومن بعد يأتي التكذيب بآيات الله، وحصيلة الاثنين هو الكفر وعدم الإيمان. ولكن لماذا لم يجيب القرآن على القول الأول؟

الجواب: لأنّ هناك حقيقة لا مناص منها، وهي أنّهم يجب أن يتحسروا ويفرقوا في الغم والهم.

وأما بشأن قولهم الثالث الذي يتوسلون فيه إلى الباريء عزوجلّ كي يسمح لهم بالعودة إلى الحياة الدنيا، فإنّ القرآن الكريم يجيبهم في عدّة آيات منها الآية (٢٨) من سورة الأنعام: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون﴾ والآية (١٠٠) من سورة المؤمنون، ولا حاجة لتكرار تلك الأجوبة.

والملاحظ هنا أنّ الرد على قولهم الثاني، يمكن أن يكون في الوقت نفسه إجابة على السؤال الثالث أيضاً، لأنّهم ماذا يهدفون من عودتهم إلى الحياة الدنيا؟ هل أنّه أمر آخر غير إتمام الحجة، في حين أنّ الباريء عزوجلّ أتمّ الحجة عليهم بصورة كاملة لا نقص فيها، فانتباه المجرمين من غفلتهم فور مشاهدتهم للعذاب، إنّما هو نوع من اليقظة الإضطرارية التي لا يبقى لها أي أثر عندما يعودون إلى حالتهم الطبيعية. حقاً إنّ نفس الموضوع الذي يشير إليه القرآن الكريم بشأن الكافرين والمشركين الذين يدعون الله مخلصين له الدين عندما يبتلون بخطر ما في وسط البحر المتلاطم الأمواج، ثمّ ينسون الله بمجرد أن ينجيهم ويوصلهم بسلام إلى ساحل النجاة ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فأنجاهم

إلى البر إذا هم يشركون»^(١).

* * *

ملاحظتان

١ - التفريط في جنب الله

قلنا: إن «جنب الله» التي وردت في آيات بحثنا لها معان واسعة، تشمل كل ما يرتبط بالله سبحانه وتعالى، وبهذا الشكل فإن التفريط في جنب الله يشمل كل أنواع التفريط في طاعة أوامر الله، واتباع ما جاء في الكتب السماوية، والتأسي بالأنبياء والأولياء.

ولهذا السبب ورد في العديد من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الأئمة الأطهار هم المقصودون بـ «جنب الله»، ومن تلك الروايات ما ورد في أصول الكافي نقلاً عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام إذ قال في تفسير: «يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله»: «جنب الله أمير المؤمنين وكذلك من كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهي الأمر إلى آخرهم»^(٢).

كما نقرأ في تفسير علي بن إبراهيم نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام: «نحن جنب الله»^(٣).

والمعنى ذاته ورد في روايات أخرى لأئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام. وكما قلنا مراراً فإن هذه التفاسير إنما هي من قبيل بيان المصاديق الواضحة، لأن من المسلم أن اتباع نهج الأئمة إنما هو اتباع للرسول وطاعة لله، إذ أن الأئمة عليهم السلام لا ينطقون بشيء من عندهم.

١ - سورة المتكوت، الآية ٦٥.

٢ - تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحة ٤٩٥.

٣ - تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحة ٤٩٥.

وفي حديث آخر تمّ تعريف العلماء غير العالمين بأنهم مصداق واضح للمتحررين، حيث ورد في كتاب (المحاسن) حديث للإمام الباقر عليه السلام، جاء فيه: «إن أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا بالعدل ثمّ خالفوه، وهو قول الله عزّ وجلّ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله»^(١).

٢- على أعتاب الموت أو القيامة؟

هل أنّ تلك الأقوال الثلاثة قالها المجرمون عندما شاهدوا العذاب الإلهي في الدنيا وهو عذاب الاستئصال والهلاك في نهاية أعمارهم؟ أم عن زمان دخولهم ساحة القيامة؟

المعنى الثاني أنسب، لأنّ الآيات السابقة تتحدث عن عذاب الاستئصال والآية التالية تتحدث عن يوم القيامة، والشاهد على هذا القول هو الآية (٣١) من سورة الأنعام التي تقول: «قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها».

والروايات المذكورة أعلاه خير شاهد على هذا المعنى.



الآيات

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ
 أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 بِمِقَارَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
 شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير

الله خالق كل شيء وحافظه:

الآيات السابقة تتحدث عن المشركين الكذابين والمستكبرين الذين يندمون
 يوم القيامة على ما قدمت أيديهم ويتوسلون لإعادتهم إلى الدنيا، ولكن هيهات أن
 يستجاب لهم طلبهم، وآيات بحثنا هذه توصل الحديث عن هذا الأمر، إذ تقول:
 «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة».

ثم تضيف «أليس في جهنم مثوى للمتكبرين».

لا شك أن عبارة «كذبوا على الله» لها مفاهيم ومعان واسعة وعميقة، لكن

الآية - هنا - تستهدف أولئك الذين قالوا بوجود شريك لله، أو باتخاذ الله ولدًا من الملائكة أو الذين يزعمون أن المسيح ﷺ هو ابن الله، وأمثال هذه المزاعم والإدعاءات.

وكلمة «مستكبر» تطلق دائماً على أولئك الذين يرون أنفسهم ذات شأن وقدر كبير، ولكن المراد منها - هنا - أولئك الذين يستكبرون على الأنبياء، والذين يتركون اتباع الشريعة الحقة، ويرفضون قبولها واتباعها.

اسوداد وجوه الكاذبين يوم القيامة دليل على ذلتهم وهوانهم وافتضحهم، وكما هو معروف فإن ساحة القيامة هي ساحة ظهور الأسرار والخفايا وتجسيد أعمال وأفكار الإنسان، فالذين كانت قلوبهم سوداء ومظلمة في الدنيا، وأعمالهم وأفكارهم سوداء ومظلمة أيضاً، يخرج هذا السواد والظلام من أعماقهم إلى خارجهم في يوم القيامة ليظفح على وجوههم التي تكون في ذلك اليوم مسودة ومظلمة.

وبعبارة أخرى فإن ظاهر الإنسان يطابق باطنه يوم القيامة، ولون الوجه يكون بلون القلب، فالذي قلبه أسود ومظلم، يكون وجهه مظلماً وأسود، والذي قلبه ساطع بالنور يكون وجهه كذلك ساطعاً بالنور.

وهو ما ورد في الآيتين (١٠٦) و (١٠٧) من سورة آل عمران «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون».

والملفت للنظر أنه قد ورد في بعض الروايات أهل البيت عليهم السلام، أن الكذب على الله، الذي هو أحد أسباب اسوداد الوجه يوم القيامة، له معان واسعة تشمل حتى الادعاء بالإمامة والقيادة كذباً، كما ذكر ذلك الشيخ الصدوق في كتاب (الاعتقادات) نقلاً عن الإمام الصادق ﷺ عندما أجاب الإمام على سؤال

يتعلق بتفسير هذه الآية، وقال: «من زعم أنه إمام وليس بإمام، قيل: وإن كان علويًا فاطمياً؟ قال: وإن كان علويًا فاطمياً»^(١).

وهذا في الحقيقة بيان لمصدق بارز، لأنّ الإدعاء المزيف بالإمامة والقيادة الإلهية هو أوضح مصاديق الكذب على الله.

وكذلك فإنّ من نسب إلى رسول الله ﷺ أو إلى الإمام المعصوم حديثاً مختلفاً، اعتبر كاذباً على الله، لأنهم لا ينطقون عن الهوى.

لهذا فقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «من تحدث عناً بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً فإن صدق علينا فإنما يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذب علينا فإنه يكذب على الله ورسوله، لأننا إذا حدثنا لا نقول قال فلان وقال فلان، إنّما نقول قال الله وقال رسول الله ثم تلا هذه الآية «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة...»^(٢).

الحديث المذكور يبيّن بصورة واضحة أنّ أئمة أهل البيت الأطهار، لم يقولوا شيئاً من عندهم، وإن كلّ الأحاديث التي وردت عنهم صحيحة وموثوقة، لأنها تعود إلى رسول الله ﷺ، وهذه الحقيقة مهمّة جداً، وعلى علماء الإسلام أن يلتفتوا إليها، فالذين لا يقبلون بإمامة أهل البيت عليهم السلام، عليهم أن يقبلوا بأنّ الأحاديث التي يروها أئمة أهل البيت عليهم السلام، إنّما هي منقولة عن رسول الله ﷺ.

وبهذا الشأن ورد في كتاب الكافي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ»^(٣).

١- الإعتقادات الإمامية، نقلًا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٩٦، ونفس المعنى نقل عن تفسير علي بن إبراهيم وكتاب الكافي (راجع المجلد الأوّل من كتاب الكافي (باب من ادعى الإمامة وليس لها أهل) الحديث الأوّل والثالث).

٢- مجمع البیان ذیل آية البحث.

٣- أصول الكافي، للمجلد ١، صفحة ٥١ (باب رواية الكتب والأحاديث) الحديث ١٤.

هذا الكلام يدعو إلى الإمعان والتأمل أكثر في آيات القرآن المجيد، لأن التكبر هو المصدر الرئيسي للكفر، كما نقرأ ذلك بشأن الشيطان «أبى» واستكبر وكان من الكافرين»^(١). ولهذا السبب فلا يمكن أن يكون للمستكبرين مكان آخر غير جهنم ليحترقوا بنارها، وقد ورد في حديث لرسول الله ﷺ:

«إن في جهنم لوادٍ للمتكبرين يقال له سقر، سكنى إلى الله عز وجل شدة حره، وسأله أن يتنفس فأذن له فتنفس فاحرق جهنم»^(٢).

الآية التالية تتحدث عن طائفة تقابل الطائفة السابقة، حيث تتحدث عن المتقين وابتهاجهم في يوم القيامة، إذ تقول: «وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم»^(٣). ثم توضح فوزهم وانتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعاني، «لا يسهم السوء ولا هم يحزنون».

نعم، إنهم يعيشون في عالم لا يوجد فيه سوى الخير والطهارة والسرور، وهذه العبارة القصيرة جمعت - حقاً - كل الهيات الإلهية فيها.

الآية التالية تنطرق من جديد إلى مسألة التوحيد والجهاد ضد الشرك، وتواصل مجادلة المشركين، حيث تقول: «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل».

العبارة الأولى في هذه الآية تشير إلى (توحد الله في الخلق) والثانية تشير إلى (توحده في الربوبية).

فمسألة (توحده في الخلق) هي حقيقة اعترف بها حتى المشركون، كما ورد

١- البقرة، ٣٤.

٢- تفسير علي بن إبراهيم، نقلًا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٤٩٦. كما ورد نفس المعنى في تفسير الصافي في ذيل آيات البحث.

٣- «مفازة»: مصدر ميمي بمعنى الفوز والظفر. و(الياه) في (بمفازتهم) للملابسة أو السببة، وبالنسبة إلى الحالة الأولى يكون المعنى إن الله يعطهم النجاة المقترنة بالاخلاص والفلح. أمّا بالنسبة إلى الحالة الثانية فالمعنى يكون (إن الله أنقذهم ونجاهم بسبب إخلاصهم) كناية عن الأعمال الصالحة والإيمان ..

في الآية (٣٨) من السورة هذه «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله».

ولكنهم ابتلوا بالإنحراف فيما يتعلق بمسألة (توحده في الربوبية)، ففي بعض الأحيان اعتبروا الأصنام هي التي تحفظهم وتحميهم وتدبر أمرهم، وكانوا يلجؤون إليها عندما يواجهون أي مشكلة. والقرآن المجيد - من خلال الآية المذكورة أعلاه - يشير إلى حقيقة أن تدبير أمور الكون وحفظه هي بيد خالقه، وليس بيد أحد آخر، ولهذا يجب اللجوء إليه دائماً.

وقد ذكر «ابن منظور» في كتاب (لسان العرب) معاني متعددة لكلمة (وكيل) منها: الكفيل، والحافظ، والمدير للأمر.

ومن هنا يتضح أن الأصنام ليست مصدر خير أو شر، وأنها عاجزة عن حل أبسط عقدة، حيث أنها موجودات ضعيفة وعاجزة، ولا يمكن أن تقدم أدنى فائدة للإنسان.

وقد عمد بعض المؤيدين للمذهب الجبري إلى الاستدلال على بعض الأمور من عبارة «الله خالق كل شيء» لتأكيد ما جاء في معتقداتهم المنحرفة، إذ قالوا: إن هذه الآية تشمل الأعمال أيضاً، ولهذا فإن أعمالنا تعد من خلق الله، رغم أن أعضاءنا هي التي تقوم بها.

إن خطأ أولئك هو أنهم لم يدركوا هذه الحقيقة جيداً، وهي أن خالقية الله سبحانه وتعالى لا يوجد فيها أي تعارض مع حرية الإرادة والإختيار لدينا، لأن التناسب فيما بينهما طولي وليس عرضي.

فأعمالنا تتعلق بالله، وتتعلق بنا أيضاً، لأنه لا يوجد هناك شيء في هذا الكون يمكن أن يكون خارج إطار سلطة الباري عز وجل، وعلى هذا الأساس فإن أعمالنا هي من خلقه، وإنه أعطانا القدرة والعقل والإختيار والإرادة وحرية العمل. ومن هذه الناحية يمكن أن ننسب أعمالنا إليه، حيث أنه أراد أن نكون

أحراراً وتنفيذ الأعمال بأختيارنا، كما أنه وضع كل ما نحتاجه تحت تصرفنا. لكننا في الحال ذاته أحرار مخيرون في تنفيذ الأعمال، وعلى ذلك فإن أفعالنا منسوبة إلينا ونحن المسؤولون عنها.

فإذا قال أحد: إن الإنسان يخلق أعماله، ولا دخل لله عزّ وجلّ فيها، فإنه قد أشرك لأنّه في هذه الحالة يعتقد بوجود خالقين، خالق كبير وخالق صغير، وإذا قال آخر: إن أعمالنا هي من خلق الله ولا دخل لنا فيها، فقد انحرف، لأنّه أنكر بقوله هذا حكمة وعدالة الله، إذ لا يصح أن يجبرنا في الأعمال، ثمّ يحمّلنا مسؤوليتها! لأنّ في هذه الحالة، يصبح الجزاء والشواب والحساب والمعاد والتكليف والمسؤولية كلّها عبثاً.

لذا فإن الاعتقاد الإسلامي الصحيح والذي يمكن أن يستشف من مجموع آيات القرآن المجيد، هو أن كلّ أعمالنا منسوبة لله وإلينا، وهذه النسبة لا يوجد فيها أي تعارض، لأنّها طويلة وليست عرضية.

أما الآية التالية فقد تطرقت (توحيد الله في المالكية) لتكتمل بحث التوحيد الذي ورد في الآيات السابقة، إذ تقول: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾.

«مقاليد»: كما يقول أغلب اللغويين، جمع (مقليد) (مع أن الزمخشري يقول في الكشف: إن هذه الكلمة ليس لها مفرد من لفظها) و (مقليد) و (إقليد) كلاهما تعني المفتاح، وعلى حدّ قول صاحب كتاب (لسان العرب) وآخرين غيره فإن كلمة (مقليد) مأخوذة من (كليد) الفارسية الأصل، ومن العربية تستعمل بنفس المعنى، ولذا فإن «مقاليد السماوات والأرض» تعني مفاتيح السماوات والأرض.

هذه العبارة تستخدم ككناية عن امتلاك شيء ما أو التسلط عليه كأن يقول أحد: مفتاح هذا العمل بيد فلان. لذا فإن الآية المذكورة أعلاه يمكن أن تشير إلى (وحدانية الله في الملك) وفي نفس الوقت تشير إلى وحدانيته في التدبير والربوبية والحاكمية على هذا العالم الكوني.

ولهذا السبب أوردت الآية المذكورة بمثابة استنتاج «والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون».

لأنهم تركوا المصدر الرئيسي والمنبع الحقيقي لكل الخيرات والبركات وتاهوا في صحاري الضلال عندما أعرضوا بوجوههم عن مالك مفاتيح السماوات والأرض، وتوجهوا نحو موجودات عاجزة تماماً عن تقديم أدنى عمل لهم.

وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه طلب من رسول الله ﷺ توضيح معنى كلمة (مقاليد) فقال رسول الله ﷺ: «يا علي، لقد سئلت عن عظيم المقاليد، هو أن تقول عشراً إذا أصبحت، وعشراً إذا أمسيت، لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله واستغفر الله ولا قوة إلا بالله (هو) الأول والآخِر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد (يحيي و يميت) بيده الخير وهو على كل شيء قدير»^(١).

ثم أضاف: «من قالها عشراً إذا أصبح، وعشراً إذا أمسى، أعطاه الله خصالاً ستاً... أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان».

أما من ردد هذه الكلمات بصورة سطحية فإنه - حتماً - لا يستحق كل، هذه المكافآت، فيجب الإيمان بمحتواها والتخلق بها.

هذا الحديث يمكن أن يشير إلى أسماء الله الحسنى التي هي أصل الحاكمية والمالكية لهذا العالم الكوني.

من مجموع كل الأمور التي ذكرناها في الآيات السابقة بشأن فروع التوحيد، يمكن الحصول على نتيجة جيدة، وهي أن التوحيد في العبادة هو حقيقة لا يمكن نكرانها وعلى كل إنسان عاقل أن لا يسمح لنفسه بالسجود للأصنام، ولهذا فإن

١ - تفسير القرطبي، المجلد الثامن، الصفحة ٥٧١٩، وتفسير أبو الفتوح الرازي، المجلد ٩، الصفحة ٤١٧ ذيل آيات البحث (مع اختصار ذيل الحديث).

البحث ينتهي بآية تتحدث بلهجة حازمة ومتشددة «قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون».

هذه الآية - وبالنظر إلى أن المشركين والكفرة كانوا أحياناً يدعون رسول الله ﷺ إلى احترام آلهتهم وعبادتها، أو على الأقل عدم الانتقاص منها أو النهي عن عبادتها، - أعلنت وبمنتهى الصراحة أن مسألة توحيد الله وعدم الإشراك به هي مسألة لا تقبل المساومة والإستسلام أبداً، إذ يجب أن تزال كافة أشكال الشرك وتمحى من على وجه الأرض.

فالآية تعني أن عبدة الأصنام على العموم هم أناس جهلة، لأنهم لا يجهلون فقط الباري عز وجل، بل يجهلون حتى مرتبة الإنسان الرفيعة.

إن التعبير بـ «تأمروني»، الذي ورد - في الآية الآتفة - يشير إلى أن الجهلة كانوا يأمرّون رسول الله ﷺ بأن يعبد أصنامهم بدون أي دليل منطقي، وهذا الموقف ليس بعجيب من أفراد جهلة.

أليس من الجهل والغباء أن يترك الإنسان عبادة الباري عز وجل رغم مشاهدته للكثير من الأدلة في هذا العالم والتي تدلّ على علمه وقدرته وتدييره وحكمته، ثم يتمسك بعبادة موجودات تافهة لا قيمة لها وعاجزة عن تقديم أدنى مساعدة وعون لعبدتها.



الآيات

وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيُخْبِطَنَّ
عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦﴾ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً
قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ
وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾

التفسير

الشرك محبط للأعمال:

آيات بحثنا توصل التطرق للمسائل المتعلقة بالشرك والتوحيد والتي كانت قد استعرضت في الآيات السابقة أيضاً.

الآية الأولى تتحدث بلهجة قاطعة وشديدة حول أخطار الشرك، وتقول: «ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين».

وبهذا الترتيب، فإنّ للشرك نتيجتين خطيرتين، تشملان حتى أنبياء الله في مالو أصبحوا مشركين - على فرض المحال -

النتيجة الأولى: إحياء الأعمال، والثانية: الخسران والضياع.

وإحياء الأعمال يعني محو آثار ثواب الأعمال السابقة، وذلك بعد كفره وشركه بالله، لأنَّ شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحيد، ولا يقبل أي عمل بدون هذا الاعتقاد.

فالشرك هو النَّار التي تحرق شجرة أعمال الإنسان.

والشرك هو الصاعقة التي تهلك كلَّ ما جمعه الإنسان خلال فترة حياته.

والشرك هو عاصفة هوجاء تدمر كلَّ أعمال الإنسان وتأخذها معها، كما ورد في الآية (١٨) من سورة إبراهيم ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾. لذا ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يحاسب كلَّ خلق إلا من أشرك بالله فإنه لا يحاسب ويؤمر به إلى النَّار»^(١).

وأما خسارتهم فإنها بسبب بيعهم أكبر ثروة يمتلكونها، ألا وهي العقل والإدراك والعمر في سوق التجارة الدنيوية، وشراؤهم الحسرة والألم بثمانها.

وهنا يطرح هذا السؤال: هل من الممكن أن يسير الأنبياء العظام في طريق الشرك حتى تخاطبهم الآية الآتفة بهذه اللهجة؟

الجواب على هذا السؤال واضح، وهو أن الأنبياء لم يشركوا قط، مع أنهم يمتلكون القدرة والاختيار الكاملين في هذا الأمر، ومعصوميتهم لا تعني سلب القدرة والاختيار منهم، إلا أن علمهم الغزير وإرتباطهم المباشر والمستمر مع الباري عز وجل يمنعهم حتى من التفكير ولو للحظة واحدة بالشرك، فهل يمكن أن يتناول السمَّ طيب عالم وحاذق ومطلع بصورة جيدة على تأثير تلك المادة السامة والخطرة، وهو في حالة طبيعية؟!

الهدف هو إطلاع الجميع على خطر الشرك، فعندما يخاطب الباري عز وجل

أنبياء العظام بهذه اللهجة الشديدة، فعلى الأمة أن تحسب حسابها، هذا الأسلوب من قبيل ما نصّ عليه المثل المعروف (إيّاك أعني واسمعي يا جارة).

ونفس المعنى ورد في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أثناء إجابته على سؤال وجهه إليه المأمون، إذ قال: يا بن رسول الله أليس من قولك أن الإنبياء معصومون؟ قال عليه السلام: «بلى» قال: فما معنى قول الله إلى أن قال: فأخبرني عن قول الله: «عفى الله عنك لم أذنت لهم».

قال الرضا عليه السلام: «هذا ممّا نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله بذلك نبيّه وأراد به أمته» وكذلك قوله: «لئن أشركت ليحبطن عملك ...» وقوله تعالى: «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً» قال: صدقت يا بن رسول الله ^(١). الآية التالية تضيف للتأكيد أكثر «بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» ^(٢).

تقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر، وذلك يعني أن ذات الله المنزهة يجب أن تكون معبودك الوحيد، ثم تأمر الآية بالشكر، لأن الشكر على النعم التي أغدقت على الإنسان هي سلم يؤدي إلى معرفة الله، ونفي كلّ أشكال الشرك، فالشكر على النعم من الأمور الفطرية عند الإنسان، وقبل الشكر يجب معرفة المنعم، وهنا فإن خط الشكر يؤدي إلى خط التوحيد، وينكشف بطلان عبادة الاصنام التي لا تهب للإنسان آية نعمة.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تكشف عن الجذر الرئيسي لانحرافهم، وتقول: «وما قدروا الله حق قدره». ولهذا تنزلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفاً للآلوهة!!

نعم، فمصدر الشرك هو عدم معرفة الباري عز وجلّ بصورة صحيحة، فالذي

١- المصدر السابق.

٢- (الفاء) في (فاعيد) زائدة للتأكيد على ما قبل. وقال البعض: إنها (فاء) الجزاء وقد حذف شرطه والتقدير (إن كنت عابداً فاعبد الله)، ثم حذف الشرط، وقدم المنفول مكانه.

يعلم:

أولاً: أن الله مطلق وغير محدود من جميع النواحي.

وثانياً: أنه خالق كل الموجودات التي تحتاج إليه في كل لحظة من لحظات

وجودها.

وثالثاً: أنه يدير الكون ويحل كل عقد المشاكل، وأن الأرزاق بيده، وحتى

الشفاعة إنما تتم بإذنه وأمره، فما معنى توجه من يعلم بكل هذه الحقائق إلى غير الله.

وأساساً فإن وجود مثل هذه الصفات في موجودين اثنين أمر محال، لأنه من

غير الممكن عقلاً وجود موجودين مطلقين من جميع الجهات.

ثم يأتي القرآن بعبارتين كنائيتين بعد العبارة السابقة، وذلك لبيان عظمة

وقدرة الباري عز وجل، إذ يقول كلام الله المجيد: «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه».

«القبضة»: الشيء الذي يقبض عليه بجميع الكف، تستخدم - عادة - للتعبير

عن القدرة المطلقة والتسلط التام، مثلما نقول في الإصطلاحات اليومية الدارجة:

إن المدينة الفلانية هي بيدي، أو الملك الفلاني هو بيدي وفي قبضتي.

«مطويات»: من مادة (طي) وتعني الشيء، والتي تستعمل أحياناً كناية عن

الوفاة وانقضاء العمر، أو عن عبور شيء ما.

والعبارة المذكورة أعلاه استخدمت بصورة واضحة بشأن السماوات في

الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء «يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب».

فالذي يشني طوماراً ويحمله بيده اليمنى يسيطر بصورة كاملة على الطومار

الذي يحمله بتلك اليد، وانتخب اليد اليمنى هنا لأن أكثر الأشخاص يؤدون

أعمالهم المهمة باليد اليمنى ويحسون بأنها ذات قوة وقدرة أكثر.

خلاصة الكلام، أن كل هذه التشبيهات والتعابير هي كناية عن سلطة الله

المطلقة على عالم الوجود في العالم الآخر، حتى يعلم الجميع أن مفتاح النجاة وحل المشاكل يوم القيامة هو بيد القدرة الإلهية، كي لا يعمدوا إلى عبادة الأصنام وغيرها من الآلهة بذريعة أنها ستشفع لهم في ذلك اليوم.

ولكن هل أن السماء والأرض ليستا في قبضته في الحياة الدنيا؟ فلم الحديث عن الآخرة؟

الجواب: إن قدرة الباري عز وجل تظهر وتتجلى في ذلك اليوم أكثر من أي وقت مضى، وتصل إلى مرحلة التجلي النهائي، وكل إنسان يدرك ويشعر أن كل شيء هو من عند الله وتحت تصرفه. إضافة إلى أن البعض اتجه إلى غير الله بذريعة أن أولئك سينقذونه يوم القيامة، كما فعل المسيحيون، إذ أنهم يعبدون عيسى عليه السلام متصورين أنه سينقذهم يوم القيامة، وطبقاً لهذا فمن المناسب التحدث عن قدرة الباري عز وجل في يوم القيامة.

ويتضح بصورة جيدة مما تقدم أن طابع الكناية يطفئ على هذه العبارات، وبسبب قصور الألفاظ المتداولة فإتينا نجد أنفسنا مضطرين إلى صب تلك المعاني العميقة في قوالب هذه الألفاظ البسيطة، ولا يرد إمكانية تجسيم الباري عز وجل من خلالها، إلا إذا كان الشخص الذي يتصور ذلك ذا تفكير ساذج وعقل بسيط جداً، حيث نفتقد ألفاظاً تبيّن مقام عظمة الباري عز وجل بصورة واضحة، إذن فيجب الاستفادة بأقصى ما يمكن من الكنايات التي لها مفاهيم كثيرة ومتعددة.

على أية حال، فبعد التوضيحات التي ذكرت آنفاً، يعطي الباري عز وجل في آخر الآية نتيجة مركزة وظاهرية، إذ يقول: «سبحانه وتعالى عما يشركون».

فلو لم يكن بنو آدم قد أصدروا أحكامهم على ذات الله المقدسة المنزهة وفق مقاييس تفكيرهم الصغيرة والمحدودة، لما انجر أحد منهم إلى حبال الشرك وعبادة الأصنام.

ملاحظتان

١- مسألة إحباط الأعمال

هل يمكن حقاً أن تحبط الأعمال الصالحة للإنسان بسبب أعمال سيئة يرتكبها؟ وهل أن هذه المسألة لا تتعارض مع عدالة الباري عز وجل من جهة، ومع ظواهر الآيات التي تقول: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»؟.

البحث في هذه المسألة طويل وعريض سواء من حيث الأدلة العقلية أو النقلية، وقد أوردنا جزءاً منه في ذيل الآية (٢١٧) من سورة البقرة، وسنذكره في نهاية بعض الآيات التي تناسب مع الموضوع في المجلدات القادمة إن شاء الله. ومما تجب الإشارة إليه هنا هو: إذا كان هناك شك في مسألة (إحباط الأعمال) بسبب المعاصي، فإنه لا ينبغي أن يشك أبداً في تأثير الشرك على إحباط الأعمال، لأن آيات كثيرة في القرآن المجيد أشير إلى بعضها آنفاً - تقول وبصراحة (إن الوفاة على الإيمان) هي شرط قبول الأعمال، وبدونها لا يقبل من الإنسان أي عمل.

فقلب المشرك كالأرض السبخة التي مهما بذرت فيها أنواع بذور الورد، ومهما هطل عليها المطر الذي هو مصدر الحياة، فإن تلك البذور سوف لن تنبت أبداً.

٢- هل عرف المؤمنون الله؟

قرأنا في الآيات الآتفة أن المشركين لم يعرفوا الله حق معرفته، إذ أنهم لو عرفوه لما ساروا في طريق الشرك ومعنى هذا الكلام أن المؤمنين الموحدون هم وحدهم الذين عرفوا الله حق معرفته.

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: كيف يتلاءم هذا الكلام مع الحديث المشهور

لرسول الله ﷺ والذي يقول فيه: «ما عرفناك حق معرفتك، وما عبدناك حق عبادتك».

وللجواب على هذا السؤال يجب القول: إنَّ للمعرفة مراحل، أعلاها هي تلك المعرفة التي تخص ذات الله المقدسة، والتي لا يمكن لأي أحد أن يعرفها أو يطلع عليها غير ذاته المقدسة التي تعرف كنه ذاته المقدسة، والحديث الشريف المذكور يشير إلى هذا المعنى.

أما بقية المراحل التي تأتي بعد هذه المرحلة والتي يمكن للعقل البشري أن يتعرف عليها، هي مرحلة معرفة صفات الله بصورة عامة ومعرفة أفعاله بصورة مفصلة، وهذه المرحلة كما ذكرنا ممكنة بالنسبة للإنسان، والمراد من معرفة الله الوصول إلى هذه المرحلة، والآية مورد بحثنا تحدثت عن هذه المرحلة، حيث أن المشركين يجهلون هذا المقدار من المعرفة أيضاً.



الآية

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾

التفسير

(النفخ في الصور) وموت وإحياء جميع العباد:

الآيات الأخيرة في البحث السابق تحدثت عن يوم القيامة، وآية بحثنا الحالي تواصل الحديث عن ذلك اليوم مع ذكر إحدى الميزات المهمة له، إذ تبدأ الحديث بنهاية الحياة في الدنيا، وتقول: «ونفخ في الصور من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله».

يتضح بصورة جيدة من هذه الآية أنّ حادثتين تقعان مع نهاية العالم وعند البعث، في الحادثة الأولى يموت الأحياء فوراً، وفي الحادثة الثانية - التي تقع بعد فترة من وقوع الحادثة الأولى - يعود كلّ الناس إلى الحياة مرّة أخرى، و يقفون بانتظار الحساب.

القرآن المجيد عبّر عن هاتين الحادثتين بـ «النفخ في الصور»، وهذا التعبير كناية عن الحوادث المفاجئة والمتزامنة التي ستقع و «الصور» بمعنى البوق الذي يتخذ من قرن الثور ويكون مجوفاً عادة حيث يستخدم مثل هذا البوق في حركة

القوافل أو الجيش وتوقفها، وطبعاً هناك تفاوت بين النفخة للتحركة والنفخة للتوقف.

كما يبيّن هذا التعبير سهولة الأمر ويوضح كيف أن الباري عز وجل - من خلال أمر بسيط وهو النفخ في الصور - يमित كل من في السماء والأرض، وكيف أنه يبعثهم من جديد بنفخة صور أخرى.

وقلنا سابقاً إن الألفاظ التي نستخدمها في حياتنا اليومية عاجزة عن توضيح الحقائق المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة أو نهاية العالم وبدء عالم آخر بدقة، ولهذا السبب يجب الاستفادة من أوسع معاني الألفاظ الدارجة والمتداولة مع الإلتفات إلى القرائن الموجودة.

توضيح: لقد وردت تعبيرات مختلفة في القرآن المجيد عن نهاية الحياة في هذا العالم وبدء حياة أخرى في عالم آخر، حيث ورد الحديث عن (النفخ في الصور) في أكثر من عشر آيات^(١).

في إحداها استخدمت عبارة النفخ في الناقور ﴿فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير﴾^(٢).

وفي بعضها استخدمت عبارة (القارعة) كما في الآيات (١ و ٢ و ٣ من سورة القارعة) ﴿القارعة، ما القارعة، وما أدراك ما القارعة﴾.

وأخيراً استخدمت في بعضها عبارة «صحيحة» والتي تعني الصوت العظيم، كما ورد ذلك في الآية (٤٩) من سورة يس ﴿ما ينظرون إلاّ صحيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾ التي تتحدث عن الصحيحة التي تقع في نهاية العالم وتفاجيء كل بني آدم.

١- الآيات التي ورد فيها ما يشير إلى النفخ في الصور هي: (الكهف - ٩٩) و (المؤمنون - ١٠١)، (يس - ٥١)، (الزمر - ٦٨)، (ن - ٢٠)، (الحاقة - ١١٣)، (الأنعام - ٧٣)، (طه - ١٠٢)، (النمل - ٨٧)، (النبا - ١٨).

أما الآية (٥٣) من سورة يس ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فإنها تتحدث عن صيحة (الإحياء) التي تبعث الناس من جديد وتحضرهم إلى محكمة العدل الإلهية.

من مجموع هذه الآيات يمكن أن يستشف بأن نهاية أهل السموات والأرض تتم بعد صيحة عظيمة وهي (صيحة الموت) وأنهم يبعثون من جديد وهم قيام بصيحة عظيمة أيضاً، وهذه هي (صيحة بعث الحياة).

وأما كيف تكون هاتان الصيحتان؟

وما هي آثار الصيحة الأولى وتأثير الصيحة الثانية؟ فلا علم لأحد بهما إلا الله سبحانه وتعالى، ولذا ورد في بعض الروايات التي تصف (الصور) الذي ينفخ فيه «إسرافيل» في نهاية العالم، عن علي بن الحسين عليه السلام: - «وللصور رأس واحد وطرفان، وبين طرف رأس كل منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض» قال: فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي الأرض فلا يبقى في الأرض ذرورح إلا صعق ومات، ويخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات فلا يبقى في السماوات ذرورح إلا صعق ومات إلا إسرافيل، قال: فيقول الله لإسرافيل: يا إسرافيل، مت، فيموت إسرافيل...»^(١).

على أية حال، فإن أكثر المفسرين اعتبروا (النفخ في الصور) كناية لطيفة عن كيفية نهاية العالم وبدء البعث، ولكن مجموعة قليلة من المفسرين قالوا: إن (صور) هي جمع (صورة) وطبقاً لهذا القول، فقد اعتبروا النفخ في الصور يعني النفخ في الوجه، مثل نفخ الروح في بدون الإنسان، ووفق هذا التفسير ينفخ مرة واحدة في وجوه بني آدم فيموتون جميعاً، وينفخ مرة أخرى فيبعثون جميعاً^(٢).

هذا التفسير إضافة إلى كونه لا يتطابق مع ما جاء في الروايات، فإنه

١- تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٥٠٢.

٢- يرجع الإتيان إلى أن (صور) هي على وزن (نور)، و(صُور) هي على وزن (زحل) هما جمع (الصورة).

لا يتطابق أيضاً مع الآية مورد بحثنا، لأنّ الضمير في عبارة ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾ مفرد مذكر يعود على الصور، في حين لو كان يراد منه المعنى الثاني لكان يجب استعمال ضمير المفرد المؤنث في العبارة لتصبح (نفخ فيها).

إنّ النفخ في الوجه في مجال إحياء الأموات يعدّ أمراً مناسباً (كما في معجزات عيسى ﷺ) إلا أنّ هذا التعبير لا يمكن استخدامه في مجال قبض الأرواح.



بحوث

١- هل أنّ النفخ في الصور يتمّ مرتين، أو أكثر؟

المشهور بين علماء المسلمين أنّه يتمّ مرتين فقط، وظاهر الآية يوضّح هذا أيضاً، كما أنّ مراجعة آيات القرآن الأخرى تبين أنّ هناك نفختين فقط، لكن البعض قال: إنّها ثلاث نفخات، والبعض الآخر قال: إنّها أربع.

وبهذا الشكل فالنفخة الأولى يقال لها نفخة (الفرع)، وهذه العبارة وردت في الآية (٨٧) من سورة النمل ﴿ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السماوات ومن في الأرض﴾.

والنفختان الثانية والثالثة يعتبرونها للإماتة والإحياء، والتي أشير إليها في آيات بحثنا وفي آيات قرآنية أخرى، أو لهما يطلقون عليها نفخة (الصعق) (الصعق تعني فقدان الإنسان حالة الشعور، أي يغشى عليه، وتعني أيضاً الموت) والثانية يطلق عليها نفخة (القيام).

أمّا الذين احتملوا أنّ النفخات أربع، فيبدو أنّهم استشفوا ذلك من الآية (٥٣) من سورة يس والتي تقول بعد نفخة الإحياء ﴿إن كانت صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ وهذه النفخة هي (لجمعهم وإحضارهم).

والحقيقة أنه ليس هناك أكثر من نفختين، ومسألة الفزع والرعب العام في الواقع هي مقدمة لموت جميع البشر والذي يتم بعد النفخة الأولى أو الصيحة الأولى، كما أن نفخة الجمع هي تمة لنفخة الإحياء والبعث، وبهذا الشكل فلا يوجد أكثر من نفختين (نفخة الموت) و (نفخة الإحياء)، وهناك شاهد آخر على هذا القول وهو الآيتان (٦ و ٧) من سورة النازعات، اللتان تقولان: «يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة».

٢- ما هو صور إسرافيل:

هناك سؤال يتبادر إلى الذهن، وهو: كيف تملأه أمواج الصور الصوتية كل العالم في نفس اللحظة؟ رغم أننا نعلم أن سرعة الأمواج الصوتية بطيئة ولا تتجاوز الـ (٢٤٠) متراً في الثانية، في حين أن سرعة الضوء هي أكثر بمليون مرة من هذه السرعة إذ تبلغ (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية.

يجب الاعتراف في البداية بأن معلوماتنا بشأن هذا الموضوع هي كمعلوماتنا بشأن الكثير من المسائل المتعلقة بيوم القيامة، فهي معلومات عامة لا أكثر، إذ نجهل الكثير من تفاصيل ذلك اليوم كما قلنا.

والتدقيق في الروايات الواردة في المصادر الإسلامية بشأن تفسير كلمة (الصور) تبين عكس ما يتصور البعض من أن (الصور) هو (زمارة) أو (مزمار) أو (بوق) اعتيادي.

وقد جاء في رواية عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إن الصور قرن عظيم له رأس واحد وطرفان، وبين الطرف الأسفل الذي يلي الأرض إلى الطرف الأعلى الذي يلي السماء مثل تخوم الأرضين إلى فوق السماء السابعة، فيه أثقاب بعدد أرواح الخلائق»^(١).

وفي حديث ورد عن رسول الله، جاء فيه: «الصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد»^(١).

طرح مسألة النور هنا بمثابة جواب على السؤال الثاني المذكور أعلاه، ويوضح أن الصيحة العظيمة ليست من قبيل الأمواج الصوتية الاعتيادية، وإنما هي صيحة أعظم وأعظم، وتكون أمواجها ذات سرعة فائقة وغير طبيعية حتى أنها أسرع من الضوء الذي يجتاز السماء والأرض بفترة زمنية قصيرة جداً، ففي المرة الأولى تكون مميتة، في المرة الثانية تكون باعثة للأموات.

أما كيف يتسبب مثل هذا الصوت في إماتة العالمين، فإن كان هذا الأمر عجباً في السابق، فإنه غير عجيب اليوم، لأننا سمعنا كثيراً بأن الأمواج الانفجارية تسببت في تمزق أجساد البعض وإصابة آخرين بالصميم، ورمي آخرين إلى مسافة بعيدة عن مكانهم، وتسببت في تدمير البيوت أيضاً، كما شاهد الكثير منا كيف أن زيادة سرعة الطائرة وبعبارة أخرى (اختراق حاجز الصوت) يولد صوتاً مرعباً وأمواجاً مدمرة، قد تحطم زجاج نوافذ الكثير من العمارات والبيوت.

فإذا كانت الأمواج الصوتية الصغيرة التي هي من صنع الإنسان تحدث مثل هذا التأثير، فما هي الآثار التي تتركها الصيحة الإلهية العظيمة، هي بلا شك انفجار عالمي كبير.

ولهذا السبب لا عجب أيضاً إن قلنا بوجود أمواج تقابل تلك الأمواج، وأنها تهز الإنسان وتوقظه وتحببه، رغم أنه من العسير علينا تصور هذا المعنى، ولكننا نرى دائماً كيف يوقظ النائم من نومه بواسطة الصوت، وكيف يعود الإنسان المغمى عليه إلى حالته الطبيعية بواسطة عدّة صعقات شديدة، ونكرر القول مرّة أخرى، ونقول: إن علمنا المحدود لا يمكنه إدراك سوى ظلّ هذه الأمور ومن بعيد.

٣- من هم المستثنون؟

كما مرّ علينا في الآية المبحوثة عنها فإنّ كلّ أهل السموات والأرض يموتون سوى مجموعة واحدة «إلا من شاء الله» فمن هي هذه المجموعة؟ هناك اختلاف بين المفسّرين بشأن هذا الأمر:

فمجموعة من المفسّرين قالوا: إنهم ملائكة الله الكبار، كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقد أشارت رواية إلى هذا المعنى^(١).

البعض أضاف إلى أولئك الملائكة الكبار حملة عرش الله (كما وردت في رواية أخرى)^(٢).

ومجموعة أخرى قالت: إنّ أرواح الشهداء مستثناة من الموت، وفقاً لما جاء في آيات القرآن المجيد «أحياء عند ربهم يرزقون» كما ورد في رواية تشير إلى هذا المعنى^(٣).

وبالطبع فإنّ هذه الروايات لا تتعارض مع بعضها البعض، ولكن في كلّ الصور فإنّ هذه المجموعة المتبقية تموت في نهاية الأمر، كما أوضحته تلك الروايات، ولا يبقى أحد حياً في هذا العالم سوى الباري عزّ وجلّ إذ هو «حي لا يموت».

وعن كيفية موت الملائكة وأرواح الشهداء والأنبياء والأولياء، فيحتمل أن المراد من موت أولئك هو قطع إرتباط الروح عن قالبها المثالي، أو تعطيل نشاط الروح المستمر.

١- مجمع البيان ذيل آيات البحث.

٢- بحار الأنوار، المجلد ٦، الصفحة ٣٢٩.

٣- نور الثقلين، المجلد ٤، الصفحة ٥٠٣، العُدته ١١٩.

٤- فجائية النفختين:

آيات القرآن الكريم توضح بصورة جيدة أن النفختين تقعان بصورة مفاجئة، والنفخة الأولى تكون فجائية بحيث أن مجموعة كبيرة من الناس تكون منشغلة بالتجارة والجدال والنقاش في أموالهم وبيعتهم وشرائعهم، وفجأة يسمعون الصيحة، فيسقطون في أماكنهم ميتين، كما صرحت بذلك الآية (٢٩) في سورة يس «إِن كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ».

وأما (الصيحة الثانية) فإن آيات القرآن الكريم - ومنها الآية التي هي مورد بحثنا - تبين بأنها تقع فجأة أيضاً.

٥- ماهي الفاصلة الزمنية بين النفختين؟

الآيات القرآنية لم تذكر توضيحاً حول هذا الأمر، سوى كلمة (ثم) التي وردت ضمن آية بحثنا والتي تدل على وجود فاصل زمني بين النفختين، إلا أن بعض الروايات ذكرت بأن هذه الفاصلة مقدارها (٤٠) عاماً^(١). والمجهول بالنسبة لنا هو معيار هذه السنين، فهل هي سنوات اعتيادية كالتي نعيشها نحن، أم أنها سنوات وأيام كسنوات وأيام القيامة.

على أية حال فالتفكير في نفخة الصور ونهاية العالم، وكذلك بالنفخة الثانية وبدء عالم جديد، ومع ملاحظة الإشارات التي وردت في القرآن المجيد، والتفاصيل الأخرى في الروايات الإسلامية بهذا الشأن، يعطي دروساً تربوية عميقة للإنسان، وخاصة أنها توضح هذه الحقيقة، وهي البقاء على استعداد دائم لاستقبال مثل هذا الحادث العظيم والرهيب في كل لحظة، لأنه لم يحدد لوقوعها تاريخ معين، إذ يحتمل وقوعها في أية لحظة، إضافة إلى أنها تقع من دون مقدمات، لذا ورد في ذيل إحدى الروايات الخاصة بنفخ الصور والمذكورة آنفاً أن

الراوي قال، عندما وصل الكلام إلى هذا الأمر «رأيت علي بن الحسين يبكي عند ذلك «بكاء شديداً»، إذ كان قلقاً جداً من مسألة نهاية العالم ويوم القيامة، وإحضار الناس للحساب في محكمة العدل الإلهية»^(١).



الآيتان

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَ جِئْنَا
بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٧٦﴾
وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٧﴾

التفسير

ذلك اليوم الذي تشرق الأرض بنور ربها:

آيتا بحثنا توصلان استعراض الحديث عن القيامة والذي بدأ قبل عدة آيات، وهاتان الآيتان تضمان سبع عبارات منسجمة، كلّ واحدة تتناول أمراً من أمور المعاد، لتكمل بعضها البعض، أو أنها تقيم دليلاً على ذلك.

في البداية تقول: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا».

وقد اختلف المفسرون في معنى إشراق الأرض بنور ربها، إذ ذكروا تفسيرات عديدة، اخترنا ثلاثاً منها، وهي:

١- قالت مجموعة: إنَّ المراد من نور الرب هما الحق والعدالة، الذي ينير بهما رب العالمين الأرض في ذلك اليوم، حيث قال العلامة المجلسي في بحار الأنوار: «أي أضاءت الأرض بعدل ربها يوم القيامة، لأن نور الأرض

بالعدل»^(١).

والبعض الآخر اعتبر الحديث النبوي (الظلم ظلمات يوم القيامة) شاهداً على هذا المعنى^(٢).

فيما قال «الزمخشري» في تفسيره الكشاف: (وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات).

٢- البعض الآخر يعتقد أنه إشارة إلى نور غير نور الشمس والقمر، يخلقه الله في ذلك اليوم خاصة.

٣- أما المفسر الكبير العلامة الطباطبائي أعلى الله مقامه الشريف صاحب تفسير الميزان فقد قال: إن المراد من إشراق الأرض بنور ربها هو ما يخص يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبدو الأعمال من خير أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين. وقد استدلت العلامة الطباطبائي على هذا الرأي بالآية (٢٢) من سورة (ق) «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد». وهذا الإشراق - وإن كان عاماً لكل شيء يسعه النور - لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهلها يومئذ من الشأن خصها بالبيان. وبالطبع فإن هذه التفاسير لا تتعارض فيما بينها، ويمكن القول بصحتها جميعاً، مع أن التفسيرين الأوّل والثالث أنسب من غيرهما.

ومن دون شك فإن هذه الآية تتعلق بيوم القيامة، وإن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار (عليهم السلام) تفسرها على أنها تعود إلى ظهور القائم المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فهي في الواقع نوع من التطبيق والتشبيه،

١- بحار الأنوار، المجلد ٦، الصفحة ٣٢١.

٢- روح المعاني وروح البيان ذيل آية البعث.

وتأكيد لهذا المعنى، وهو عند ظهور المهدي (عج) تصبح الدنيا نموذجاً حياً من مشاهد القيامة، إذ يملأ هذا الإمام بالحق ونائب الرسول الأكرم وخليفة الله الأرض بالعدل إلى الحد الذي ترطيه الحياة الدنيا.

ونقل (المفضل بن عمر) عن الإمام الصادق عليه السلام «إذا قام قائمنا أشرفت الأرض بنور ربها واستغنى العباد عن ضوء الشمس وذهبت الظلمة»^(١).

العبارة الثانية في هذه الآية تتحدث عن صحائف الأعمال، إذ تقول: «ووضع الكتاب».

الصحائف التي تتضمن جميع صفات وكبائر أعمال الإنسان، وكما يقول القرآن المجيد في الآية (٤٩) من سورة الكهف «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها».

وتضيف العبارات التي تتحدث عن الشهود «وجيء بالنبين والشهداء».
فالأنبياء يحضرون ليسألوا عن أدايتهم لمهام الرسالة، كما ورد في الآية (٦) من سورة الأعراف «ولنسألن المرسلين».

كما يحضر شهداء الأعمال في محكمة العدل الإلهية ليدلوا بشهاداتهم، صحيح أن البارئ عز وجل مطلع على كل الأمور، ولكن للتأكيد على مقام العدالة يدعو شهداء الأعمال للحضور في تلك المحكمة.

ذكر المفسرون آراء عديدة بشأن أولئك الشهداء على الأعمال، حيث قال البعض: إنهم الصالحون والظاهر والعاقلون في الأمة، الذين يشهدون على أداء الأنبياء لرسالتهم، وعلى أعمال الناس الذين كانوا يعاصرونهم، والأتمة المعصومون) هم في طليعة شهداء الأعمال.

١- إرشاد المفيد والخبير ذاته في تفسير الصافي ونور التنزيل في ذيل آيات البحث، ونفس المعنى. ورد في للمجلد الثاني والخمسين الصفحة ٣٢٠ من بحار الأنوار للمرحوم العلامة المجلسي، مع شيء من الإغناء.

في حين يعتقد البعض الآخر بأن الملائكة هم الشهداء على أعمال الإنسان، والآية (٢١) في سورة (ق) تعطي الدليل على هذا المعنى «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد».

وقال البعض: إن أعضاء بدن الإنسان ومكان وزمان الطاعة والمعصية هم الذين يشهدون على الإنسان يوم القيامة.

ويبدو أن كلمة (شهداء) لها معان واسعة، أشار كل مفسر إلى جانب منها في تفسيره.

واحتمل البعض أنها تخص «الشهداء» الذين قتلوا في سبيل الله، ولكن هذا الاحتمال غير وارد وبعيد، لأن الحديث هو عن شهداء محكمة العدل الإلهي، وليس عن شهداء طريق الحق، مع إمكانية انضمامهم إلى صفوف الشهداء.

العبارة الرابعة تقول: «وقضى بينهم بالحق».

والخامسة تضيف: «وهم لا يظلمون».

فمن البديهيات، عندما يكون الحاكم هو الباري عز وجل، وتشرق الأرض بنور عدالته، وتعرض صحائف أعمال الإنسان التي تبيّن كل صغيرة وكبيرة بدقة، ويحضر الأنبياء والشهود والعدول، فلا يحكم الباري عز وجل إلا بالحق، وفي مثل هذا المحاكم لا وجود للظالم والاستبداد مطلقاً.

العبارة السادسة في الآية التالية أكملت الحديث بالقول: «وفيت كل نفس ما

عملت».

إن جزء الأعمال وعواقبها سترد إليهم، وهل هناك مكافأة ومجازاة أعلى من أن يرد عمل الإنسان بصورة كاملة إلى الإنسان نفسه (نلت الانتباه إلى أن كلمة (وفيت) تعني الأداء بصورة كاملة) ويبقى مراقباً له إلى الأبد.

فالذي يتمكن من تنفيذ مثل هذه المناهج العادلة بدقة، هو الذي أحاط علمه

بكل شيء، لهذا فإن العبارة السابعة والأخيرة في هذا البحث تقول: «وهو أعلم بما يفعلون».

إذن فلا حاجة حتى للشهود، لأن الله هو أعلم من كل أولئك الشهود، ولكن لطفه وعدله يقتضيان إحصار الشهود، نعم فهذا هو مشهد يوم القيامة، فليستعد الجميع لذلك اليوم.



الآيتان

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ إِذَا جَاءُوهَا فَسِيحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ
وَلَسَكُنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ أَدْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾

التفسير

الذين يدخلون جهنم زمرًا:

تواصل الآيات هنا بحث المعاد، وتستعرض بالتفصيل ثواب وجزاء
المؤمنين والكافرين الذي استعرض بصورة مختصرة في الآيات السابقة. وتبدأ
بأهل جهنم، إذ تقول: «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا».

فمن الذي يسوقهم إلى جهنم؟

كما هو معروف فإن ملائكة العذاب هي التي تسوقهم حتى أبواب جهنم،
ونظير هذه العبارة ورد في الآية (٢١) من سورة (ق)، إذ تقول: «وجاءت كل نفس
معها سائق وشهيد».

عبارة «زمر» تعني الجماعة الصغيرة من الناس، وتوضح أن الكافرين يساقون إلى جهنم على شكل مجموعات مجموعات صغيرة ومتفرقة.

و«سيق» من مادة (سوق) وتعني (الحث على اسير).

ثم تضيف «حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا»^(١).

يتضح بصورة جيدة من خلال هذه العبارة، أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل سوق أولئك الكفرة، وهي كأبواب السجون المغلقة التي تفتح أمام المتهمين الذين يراد سجنهم، وهذا لحدث المفاجيء يوجد رعباً ووحشة كبيرة في قلوب الكافرين، وقبل دخولهم يتلقاهم خزنة جهنم باللوم والتوبيخ، الذين يقولون استهجاناً وتوبيخاً لهم: لم كفرتم وقد هيئت لكم كافة أسباب الهداية، ألم يرسل إليكم أنبياء منكم يتلون آيات الله عليكم باستمرار، ومعهم معجزات من خالقكم، وإنذار وإعلام بالأخطار التي ستصيبكم إن كفرتم بالله^(٢)؟ فكيف وصل بكم الحال إلى هذه الدرجة رغم إرسال الأنبياء إليكم؟

حقاً إن كلام خزنة جهنم يعد من أشد أنواع العذاب على الكافرين الذين يواجهون بمثل هذا اللوم فور دخولهم جهنم.

على أية حال، فإن الكافرين يجيبون خزنة جهنم بعبارة قصيرة ملؤها الحسرات، قائلين: «قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين».

مجموعة من المفسرين الكبار اعتبروا «كلمة العذاب» إشارة إلى قوله تعالى حين هبط آدم على الأرض، أو حينما قرر الشيطان إغواء بني آدم، كما ورد في الآية (٣٩) من سورة البقرة «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

١- «خزنة» جمع (خازن) من مادة (خزن) على وزن (جزم) وتني حافظ الشيء، (وخازن) تطلق على المحافظ والعارض.

٢- «يتلون» و«ينذرون»: كلهما فعل مضارع ودليل على الاستمرارية.

و حينما قال الشيطان: لأغوينهم جميعاً إلا عبادك المخلصين، فأجابه الباري عز وجل «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»^(١).
وبهذا الشكل اعترفوا بأنهم كذبوا الأنبياء وانكروا آيات الله، وباطبع فإن مصيرهم لن يكون أفضل من هذا.

كما يوجد احتمال في أن المراد من «حققت كلمة العذاب» هو ما تعنيه الآية السابعة في سورة (يس) «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون». وهو إشارة إلى أن الإنسان يصل أحياناً - بسبب كثرة ذنوبه وعدائه ولجاجته وتعصبه أمام الحق - إلى درجة يختم معها على قلبه ولا يبقى أمامه أيّ طريق للعودة، وفي هذه الحالة يصبح مستحقاً تماماً للعذاب.
وعلى أية حال، فإن مصدر كلّ هذه الأمور هو عمل الإنسان ذاته، وليس من الصحيح الاستدلال على معنى الجبر وفقدان حرية الإرادة.

هذا النقاش القصير ينتهي مع اقترابهم من عتبة جهنم «قليل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين».

فأبواب جهنم - كما أشرنا إليها من قبل - يمكن أن تكون قد نظمت حسب أعمال الإنسان، وإن كلّ مجموعة كافرة تدخل جهنم من الباب الذي يتناسب مع أعمالها، وذلك مثل أبواب الجنة التي يطلق على أحد أبوابها اسم «باب المجاهدين» وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنة»^(٢).

والذي يلفت النظر هو أن ملائكة العذاب تؤكد على مسألة التكبر من بين بقية الصفات الرذيلة التي تؤدي بالإنسان إلى السقوط في نار جهنم، وذلك إشارة إلى أن التكبر والغرور وعدم الإنصياع والإستسلام أمام الحق هو المصدر الرئيسي

١- هم الجنة، ١٣.

٢- نهج البلاغة، الخطبة (٢٧).

للكفر والإنحراف وإرتكاب الذنب.

نعم، فالتكبر ستار سميك يغطي عيني الإنسان ويحول دون رؤيته للحقائق الساطعة المضيئة، ولهذا نقرأ في رواية عن الأمامين المعصومين الباقر والصادق عليهما السلام «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١).



الآيات

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمِ عَلَيكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا
الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مَنْ أَتَىٰ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٧﴾
وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾

التفسير

المتقون يدخلون الجنة افواجا!!

هذه الآيات - التي هي آخر آيات سورة (الزمر) - تواصل بحثها حول موضوع المعاد، حيث تتحدث عن كيفية دخول المؤمنين المتقين الجنة، بعد أن كانت الآيات السابقة قد استعرضت كيفية دخول الكافرين جهنم، لتوضح الأمور أكثر من خلال هذه المقارنة.

في البداية تقول: «وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمرًا».

استعمال عبارة (سيق) (والتي هي من مادة (سوق) على وزن (شوق) وتعني الحث على السير). أثار التساؤل، كما لفت أنظار الكثير من المفسرين، لأن هذا

التعبير يستخدم في موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أي اشتياق ورغبة في تنفيذه، ولذلك فإنّ هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل جهنم، ولكن لم استعملت بشأن أهل الجنّة الذين يتوجهون إلى الجنّة بتلهف واشتياق؟
قال البعض: إنّ هذه العبارة استعملت هنا لأنّ الكثير من أهل الجنّة ينتظرون أصدقاءهم.

والبعض الآخر قال: إنّ تلهف وشوق المتقين للقاء الباري عز وجل يجعلهم يتحينون الفرصة لذلك اللقاء بحيث لا يقبلون حتّى بالجنّة.

فيما قال البعض: إنّ هناك وسيلة تنقلهم بسرعة إلى الجنّة.

مع أن هذه التفسيرات جيدة ولا يوجد أي تعارض فيما بينها، إلا أنّ هناك نقطة أخرى يمكن أن تكون هي التفسير الأصح لهذه العبارة، وهي مهما كان حجم عشق المتقين للجنّة، فإنّ الجنّة وملائكة الرحمة مشتاقة أكثر لوفود أولئك عليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى المستضيف المشتاق لضيف والمتلهف لوفوده عليه إذ أنّه لا يجلس لانتظاره وإنما يذهب لجلبه بسرعة قبل أن يأتي هو بنفسه إلى بيت المستضيف، فملائكة الرحمة هي كذلك مشتاقة لوفود أهل الجنّة.

والملاحظ أن (زمر) تعني هنا المجموعات الصغيرة، وتبيّن أن أهل الجنّة يساقون إلى الجنّة على شكل مجموعات مجموعات كلّ حسب مقامه.

ثم تضيف الآية «حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين»^(١).

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول بشأن أهل جهنم: إنهم حينما يصلون إلى قرب جهنم تفتح لهم الأبواب، ويقول بشأن أهل الجنّة. إن أبواب الجنّة مفتحة لهم

١ - ماهو جواب الجملة الشرطية (إذا جاءها)؟ ذكر المفسرون آراء متعددة، أنسبها الذي يقول: إن عبارة (قال لهم خزنتها) جوابها والواو زائدة. كما احتملوا أن جواب الجملة محذوف، والتقدير (سلام من الله عليكم). أو أن حذف الجواب (إشارة إلى أن سعة الموضوع وعنوه لا يمكن وصفها، والبعض قال: (فتحت) هي الجواب (والواو) زائدة.

من قبل، وهذه إشارة إلى الاحترام والتبجيل الذي يستقبلون به من قبل ملائكة الرحمة، كالمستضيف المحب الذي يفتح أبواب بيته للضيوف قبل وصولهم، ويقف عند الباب بانتظارهم.

وقد قرأنا في الآيات السابقة أن ملائكة العذاب يستقبلون أهل جهنم باللوم والتوبيخ الشديدين، عندما يقولون لهم: قد هيئت لكم أسباب الهداية، فلم تركتموها وانتهيتم إلى هذا المصير المشؤوم؟
أما ملائكة الرحمة فإنها تبادر أهل الجنة بالسلام المرافق للاحترام والتبجيل، ومن ثم تدعوهم إلى دخول الجنة.

عبارة «طبتم» من مادة (طيب) على وزن (صيد) وتعني الطهارة، ولأنها جاءت بعد السلام والتحية، فمن الأرجح القول بأن لها مفهوماً إنشائياً، وتعني: لنكونوا طاهرين مطهرين و نتمنى لكم السعادة والسرور.

وبعبارة أخرى: طابت لكم هذه النعم الطاهرة، يا أصحاب القلوب الطاهرة. ولكن الكثير من المفسرين ذكروا لهذه الجملة معنىً خبيراً عند تفسيرها، وقالوا: إن الملائكة تخاطبهم بأنكم تطهروا من كل لوث وخبث، وقد تطهروا بإيمانكم وبعملكم الصالح قلوبكم وأرواحكم، وتطهروا من الذنوب والمعاصي، ونقل البعض رواية تقول: إن هناك شجرة عند باب الجنة، تفيض من تحتها عينا ماء صافيتان، يشرب المؤمنون من إحداها فيتطهر باطنهم، ويغتسلون بماء العين الأخرى فيتطهر ظاهرهم، وهنا يقول خزنة الجنة لهم: «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين»^(١).

الملاحظ أن «الخلود» استخدم بشأن كل من أهل الجنة وأهل النار، وذلك لكي لا يخشى أهل الجنة من زوال النعم الإلهية، ولكي يعلم أهل النار بأنه لا سبيل لهم للنجاة من النار.

الآية التالية تتكون من أربع عبارات قصار غزيرة المعاني تنقل عن لسان أهل الجنة السعادة والفرح اللذين غمراهم، حيث تقول: «وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده».

وتضيف في العبارة التالية «وأورثنا الأرض».

المراد من الأرض هنا أرض الجنة. واستخدام عبارة (الإرث) هنا، إنما جاء لكونهم حصلوا على كل هذه النعم في مقابل جهد قليل بذلوه، إذ - كما هو معروف - فإن الميراث هو الشيء الذي يحصل عليه الإنسان من دون أي عناء مبذول. أو أنها تعني أن لكل إنسان مكان في الجنة وآخر في جهنم، فإن ارتكب عملاً استحق به جهنم فإن مكانه في الجنة سوف يمنح لغيره، وإن عمل عملاً صالحاً استحق به الجنة، فيمنح مكاناً في الجنة ويترك مكانه في جهنم لغيره. أو تعني أنهم يتمتعون بكامل الحرية في الاستفادة من ذلك الأثر، كالميراث الذي يحصل عليه الإنسان إذ يكون حراً في استخدامه.

هذه العبارة - في الواقع - تحقق عيني للوعد الإلهي الذي ورد في الآية (٦٣) من سورة مريم «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً».

العبارة الثالثة تكشف عن الحرية الكاملة التي تمنح لأهل الجنة في الاستفادة من كافة ما هو موجود في الجنة الواسعة، إذ تقول: «نتبوا من الجنة حيث نشاء». يستشف من الآيات القرآنية أن في الجنة الكثير من البساتين والحدائق وقد أطلقت عليها في الآية (٧٢) من سورة التوبة عبارة «جنات عدن» وأهل الجنة وفقاً لدرجاتهم المعنوية يسكنون فيها، وأن لهم كامل الحرية في التحرك في تلك الحدائق والبساتين في الجنة.

أما العبارة الأخيرة فتقول: «فنعم أجر العالمين».

وهذه إشارة إلى أن هذه النعم الواسعة إنما تعطى في مقابل العمل الصالح (المتولد من الايمان طبعاً) ليكون صاحبه لائقاً ومستحقاً لنيل مثل هذه النعم.

وهنا يطرح هذه السؤال وهو: هل أن هذا القول صادر عن أهل الجنة، أم أنه كلام الله جاء بعد كلام أهل الجنة؟

المفسرون وافقوا الرأيين، ولكنهم رجحوا المعنى الأول الذي يقول: إنه كلام أهل الجنة ويرتبط بالعبارات الأخرى في الآية.

وفي النهاية تخاطب الآية - مورد بحثنا وهي آخر آية من سورة الزمر - الرسول الأكرم ﷺ قائلة: «وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون الله ويقدمونه ويحمدونه».

إذ تشير إلى وضع الملائكة الحافين حول عرش الله، أو أنها تعبر عن استعداد أولئك الملائكة لتنفيذ الأوامر الإلهية، أو أنها إشارة إلى خفايا قيمة تمنح في ذلك اليوم للخواص والمقربين من العرش الإلهي، مع أنه لا يوجد أي تعارض بين المعاني الثلاثة، إلا أن المعنى الأول أنسب.

ولهذا تقول العبارة التالية «وقضى بينهم بالحق».

وباعتبار هذه الأمور هي دلائل على ربوبية الباري عز وجل واستحقاق ذاته المقدسة والمنزهة لكل أشكال الحمد والثناء، فإن الجملة الأخيرة تقول: «وقيل الحمد لله رب العالمين».

وهنا يطرح هذا السؤال: هل أن هذا الخطاب صادر عن الملائكة، أم عن أهل الجنة المتقين، أم أنه صادر عن الاثنين؟

المعنى الأخير أنسب من غيره، لأن الحمد والثناء على الله هو منهاج كل أولي الألباب، ومنهاج كل الخواص والمقربين، واستعمال كلمة (قيل) وهي فعل مبني للمجهول يؤيد ذلك.

نهاية سورة الزمر

سُورَة

المُؤْمِن

مَكِّيَّة

وَعَدَدُ آيَاتِهَا خَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

«سورة المؤمن»

نظرة مُختصرة في محتوى السورة:

سورة المؤمن هي طبيعة الحواميم، والحواميم في القرآن الكريم سبع سور متتالية يلي بعضها بعضاً، نزلت جميعاً في مكة، وهي تبدأ بـ «حم».

هذه السورة كسائر السور المكية، تثير في محتواها قضايا العقيدة، وتتحدث عن أصول الدين الإسلامي ومبانيه وفي ذلك تلبي حاجة المسلمين في تلك المرحلة إلى تشييد وإقامة قواعد الدين الجديد.

ومحتوى هذه السورة يضم بين دفتيه الشدة واللطف، ويجمع في نسيجه بين الإنذار والبشارة... السورة - إذاً - مواجهة منطقية حادة مع الطواغيت والمستكبرين، كما هي نداء لطف ورحمة ومحبة بالمؤمنين وأهل الحق.

وتمتاز هذه السورة أيضاً بخصوصية تنفرد بها دون سور القرآن الأخرى، إذ تتحدث عن «مؤمن آل فرعون» وهو مقطع من قصة موسى ﷺ، وقصة مؤمن آل فرعون لم ترد في كتاب الله سوى في سورة «المؤمن».

إن قصة «مؤمن آل فرعون» هي قصة ذلك الرجل المؤمن المخلص الذي كان يستحلي بالذكاء والمعرفة في الوقت الذي هو من بطانة فرعون، ومحسوب - ظاهراً - من حاشيته. لقد كان هذا الرجل مؤمناً بما جاء به موسى ﷺ، وقد احتل وهو يعمل في حاشية فرعون - موقعاً حساساً مميزاً في الدفاع عن موسى ﷺ وعن دينه، حتى أنه - في الوقت الذي تعرضت فيه حياة موسى ﷺ

للخطر - تحرك من موقعه بسلوكٍ فطنٍ وذكيٍّ وحكيمٍ لكي يخلص موسى من الموت المحقق الذي كان قد أحاط به.

إن اختصاص السورة باسم «المؤمن» يعود إلى قصة هذا الرجل الذي تحدثت عشرون آية منها عن جهاده، أي ما يقارب ربع السورة.

يكشف الأفق العام أن حديث السورة عن «مؤمن آل فرعون» ينطوي على أبعادٍ تربويةٍ لمجتمع المسلمين في مكّة، فقد كان بعض المسلمين ممن آمن بالاسلام يحافظ على علاقات طيبة مع بعض المشركين والمعاندين، وفي نفس الوقت فإن إسلامه وانقياده لرسول الله ﷺ ليس عليهما غبار.

لقد كان الهدف من هذه العلاقة مع المشركين هو توظيفها في أيام الخطر لحماية الرسالة الجديدة ودفع الضر عن أتباعها، وفي هذا الإطار يذكر التاريخ أن أبا طالب ﷺ عم رسول الله ﷺ كان من جملة هؤلاء، كما يستفاد ذلك من بعض الروايات الإسلامية المروية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ^(١).

وبشكل عام يمكن النظر إلى محتوى السورة في إطار ما تثيره النقاط والأقسام الآتية:

القسم الأول: وهو يضم طليعة آيات السورة التي تتحدث عن بعض من أسماء الله الحسنى، خصوصاً تلك التي ترتبط ببعض معاني الخوف والرجاء في القلوب، مثل قوله تعالى: «غافر الذنب» و«شديد العقاب».

القسم الثاني: تهديد الكفار والطواغيت بعذاب هذه الدنيا الذي سبق وأن نال أقواماً أخرى في ماضي التاريخ، بالإضافة إلى التعرض لعذاب الآخرة، وتناول بعض الصور والمشاهد التفصيلية فيه.

القسم الثالث: بعد أن وقفت السورة على قصة موسى وفرعون، بدأت بالحديث - بشكل واسع - عن قصة ذلك الرجل المؤمن الواعي الشجاع الذي

اصطلح عليه بـ «مؤمن آل فرعون» وكيف واجه البطانة الفرعونية وخلص موسى ﷺ من كيدها.

القسم الرابع: تعود السورة مرة أخرى للحديث عن مشاهد القيامة، لتبعث في القلوب الغافلة الروح واليقظة.

القسم الخامس: تتعرض السورة المباركة فيه إلى قضيتي التوحيد والشرك، بوصفهما دعامين لوجود الإنسان وحياته، وفي ذلك تناول جانباً من دلائل التوحيد، بالإضافة إلى ما تقف عليه من مناقشة لبعض شبهات المشركين.

القسم السادس: تنتهي السورة - في محتويات القسم الأخير هذا - بدعوة رسول الله ﷺ للتحمل والصبر، ثم تختم بالتعرض إلى خلاصات سريعة مما تناولته مفصلاً من قضايا ترتبط بالمبدأ والمعاد، وكسب العبرة من هلاك الأقوام الماضية، وما تعرضت له من أنواع العذاب الإلهي في هذه الدنيا، ليكون ذلك تهديداً للمشركين. ثم تخلص السورة في خاتمتها إلى ذكر بعض النعم الإلهية.

لقد أشرنا فيما مضى إلى أن تسمية السورة بـ «المؤمن» يعود إلى اختصاص قسم منها بالحديث عن «مؤمن آل فرعون». أما تسميتها بـ «غافر» فيعود إلى كون هذه الكلمة هي بداية الآية الثالثة من آيات السورة المباركة.

فضيلة تلاوة السورة:

في سلسلة الروايات الإسلامية المروية عن رسول الله ﷺ وعن أئمة أهل البيت ، نرى كلاماً واسعاً من فضل تلاوة سور «الحواميم» وبالأخص سورة «غافر» منها.

ففي بعض هذه الأحاديث نقرأ عن رسول الله ﷺ قوله: «الحواميم تاج

القرآن»^(١).

وعن ابن عباس مِمَّا يَحْتَمَل نَقْلَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؓ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ بَابٌ وَلِبَابِ الْقُرْآنِ الْحَوَامِيمُ»^(٢).
وفي حديث عن الإمام الصادق نقرأ قوله ﷺ: «الحواميم ريحان القرآن، فحمدوا الله واشكروه بحفظها وتلاوتها، وإنَّ العبد ليقوم يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر والعنبر، وإنَّ الله ليرحم تاليها وقارئها، ويرحم جيرانه وأصدقاءه ومعارفه وكلَّ حميم أو قريب له، وإنَّه في القيامة يستغفر له العرش والكرسي وملائكة الله المقربون»^(٣).

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «الحواميم سبع، وأبواب جهنم سبع، تجيء كلَّ «حاميم» منها فتقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللَّهُمَّ لَا تُدْخِلْ مِنْ هَذَا الْبَابِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِي وَيَقْرَأَنِي»^(٤).

وفي قسم من حديث مروي عن رسول الله ﷺ: «من قرأ «حاميم المؤمن» لم يبق روح نبي ولا صديق ولا مؤمن إلا صلوا عليه واستغفروا له»^(٥).
ومن الواضح أنَّ هذه الفضائل الجزيلة ترتبط بالمحتوى الثمين للحواميم، هذا المحتوى الذي إذا واطب الإنسان على تطبيقه في حياته والعمل به، والالتزام بما يستلزمه من مواقف وسلوك، فإنه سيكون مستحقاً للشواب العظيم والفضائل الكريمة التي قرأناها.

وإذا كانت الروايات تتحدث عن فضل التلاوة، فإنَّ التلاوة المعنية هي التي

١- هذه الأحاديث في مجمع البيان في بداية تفسير سورة المؤمن.

٢- المصدر السابق

٣- مجمع البيان أثناء تفسير السورة

٤- البيهقي طبقاً لما نقله عنه الألويسي في روح المعاني، المجلد ٢٤، صفحة ٣٦.

٥- مجمع البيان في مقدمة تفسير السورة.

تكون مقدمة للإعتقاد الصحيح، فيما يكون الإعتقاد الصحيح مقدمة للعمل الصحيح. إذا التلاوة المعنية هي تلاوة الإيمان والعمل، وقد رأينا في واحد من الأحاديث - الآفة الذكر - المنقولة عن النبي ﷺ تعبير «من كان يؤمن بي وقرأني».



الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنْبِ
وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِهِ
الْمَصِيرُ ③

التفسير

صفات تبعث الأمل في النفوس:

تواجهنا في مطلع السورة الحروف المقطعة وهي هنا من نوع جديد لم نعهده في السور السابقة، حيثُ افتتحت السورة بـ «حاء» و«ميم».

وبالنسبة للحروف المقطعة في مطلع السور كانت لنا بحوث كثيرة في معانيها ودلالاتها، تعرضنا إليها أثناء الحديث عن بداية سورة «البقرة»، وسورة «آل عمران» و«الأعراف» وسور أخرى.

الشيء الذي تضيفه هنا، هو أن الحروف التي تبدأ به سورة المؤمن التي نحن الآن بصددھا، تشير - كما يستفاد ذلك من بعض الروايات ومن آراء المفسرين - إلى أسماء الله التي تبدأ بحروف هذه السورة، أي «حميد» و«مجيد» كما ورد ذلك

عن الامام الصادق عليه السلام ^(١).

البعض الآخر ذهب إلى أنّ «ح» إشارة إلى أسمائه تعالى مثل «حميد» و «حليم» و «حنان»، بينما «م» إشارة إلى «ملك» و «مالك» و «مجيد».

وهناك احتمال في أن حرف «حاء» يشير إلى الحاكمية، فيما يشير حرف «الميم» إلى المالكية الإلهية.

عن ابن عباس، نقل القرطبي «في تفسيره» أن «حم» من أسماء الله العظمى ^(٢).

ويتضح في نهاية الفقرة أنّ ليس ثمة من تناقض بين الآراء والتفسيرات الآتفة الذكر، بل هي تعمد جميعاً إلى تفسير الحروف المقطعة بمعنى واحد.

في الآية الثانية - كما جرى على ذلك الأسلوب القرآني - حديث عن عظمة القرآن، وإشارة إلى أنّ هذا القرآن بكل ما ينطوي عليه من عظمة وإعجاز وتحذ، إنّما يشتكل في مادته الخام من حروف الألف باء... وهنا يكمن معنى الإعجاز. يقول تعالى: «تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم».

إن قدرته تعالى تعجز الأشياء الأخرى عن الوقوف إزاءه، فقدرتة ماضية في كل شيء، وعزته مبسوطه، أمّا علمه تعالى فهو في أعلى درجات الكمال، بحيث يستوعب كلّ احتياجات الإنسان ويدفعه نحو التكامل.

والآية التي بعدها تعدّد خمساً من صفاته تعالى، يبعث بعضها الأمل والرجاء، بينما يبعث البعض الآخر منها على الخوف والحذر.

يقول تعالى: «غافر الذنب».

«قابل التوب» ^(٣).

١ - يلاحظ «معاني الأخيار» للشيخ الصدوق، صفحة ٢٢، باب معنى الحروف المقطعة في أوائل السور.

٢ - تفسير القرطبي أثناء تفسير الآية.

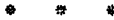
٣ - «توب» يمكن أن تكون جمع «توبة» وأن تكون مصدرأً يلاحظ مجمع البيان.

﴿شديد العقاب﴾.

﴿ذي الطول﴾^(١).

﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾.

أجل إن من له هذه الصفات هو المستحق للعبادة وهو الذي يملك الجزاء في العقاب والثواب.



ملاحظات

تطوي الآيات الثلاث الآتفة الذكر على مجموعة من الملاحظات، نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولاً: في الآيات أعلاه (آية ٢ و ٣) بعد ذكر الله وقبل ذكر المعاد ﴿إليه المصير﴾ اشتملت الآيتان على ذكر سبع صفات للذات الإلهية، بعضها من «صفات الذات» والبعض الآخر منها من «صفات الفعل» التي انطوت على إشارات للتوحيد والقدرة والرحمة والغضب، ثم ذكرت «عزیز» و «علیم» وجعلتهما بمثابة القاعدة التي نزل الكتاب الإلهي (القرآن) على أساسهما.

أما صفات «غافر الذنب» و «قابل التوب» و «شديد العقاب» و «ذي الطول» فهي بمثابة المقدمات اللازمة لتربية النفوس وتطويعها لعبادة الواحد الأحد.

ثانياً: ابتدأت الصفات الآتفة الذكر بصفة «غافر الذنب» أولاً و «ذي الطول» أخيراً، أي صاحب النعمة والفضل كصفة أخيرة. وفي موقع وسط جاءت صفة «شديد العقاب» وهكذا ذكرت الآية الغضب الإلهي بين رحمتين. ثم إننا نلاحظ أن

١ - «طول» على وزن «قول» بمعنى النعمة والفضل. وبمعنى القدرة والقوة والمكنة وما يشبه ذلك. بعض المفسرين يقول: إن «ذي الطول» هو الذي يبدل النعم الطويلة والجزيلة للأخرين. ولذلك فإن معناها أخص من معنى «المنعم» كما يقول صاحب مجمع البيان.

الغضب الإلهي جاء وسط حديث الآية عن ثلاث صفات من صفات الرحمة الإلهية، وفي كل ذلك دليل على المعنى المكنون في «يا من سبقت رحمته غضبه». ثالثاً: لا يقتصر المعنى في جملة «إليه المصير» على عودة الجميع ورجوعهم كافةً إليه تعالى في يوم القيامة، وإنما تشير أيضاً إلى الإنتهاء المطلق لكل الأمور في هذا العالم والعالم الآخر إليه تعالى، وانتهاء سلسلة الوجود إلى قدرته وإرادته. رابعاً: جاء تعبير «لا إله إلا هو» في ختام الصفات، وهو حكاية عن مقام التوحيد والعبودية الذي لا يليق بغير الله تعالى، حيث تنتهي أمام عبوديته كل العبوديات الأخرى. وهكذا يكون تعبير «لا إله إلا هو» بمثابة النتيجة النهائية الإخيرة للبيان القرآني في هذا المورد.

ولذلك نقرأ في حديث عن ابن عباس أنه تعالى: «غافر الذنب» للشخص الذي يقول: لا إله إلا الله وهو تعالى: «قابل التوب» للذي يقرّ بالعبودية ويقول: لا إله إلا الله. وهو «شديد العقاب» للذي لا يقرّ ولا يقول: لا إله إلا الله. وهو «ذي الطول» وغني عن الشخص الذي لا يقول: لا إله إلا الله. من كل ذلك يتضح أن محور الصفات المذكورة هو التوحيد، الذي يدور مدار الإعتقاد الصحيح والعمل الصالح.

خامساً: من وسائل الغفران في القرآن:

ثمة في كتاب الله أمور كثيرة تكون أسباباً وعناوين للمغفرة ومحو الذنوب والسيئات، وفيما يلي تشير إلى بعض هذه العناوين:

١- التوبة: إذ في آية (٨) من سورة التحريم قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم».

٢- الإيمان والعمل الصالح: حيث نقرأ في سورة (محمد - آية ٢) قوله تعالى: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم».

٣- التقوى: ونرى مصداقها في قوله تعالى: «إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم»^(١).

٤- الهجرة والجهاد والشهادة: ومصداقها قوله تعالى في الآية (١٩٥) من سورة «آل عمران»: «فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم».

٥- صدقة السر: وذلك قوله تعالى: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي وأن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم»^(٢).

٦- الإقراض: كما في قوله تعالى: «إن ترضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم»^(٣).

٧- اجتناب كبائر الذنوب: حيث يقول تعالى في^(٤): «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم».

وهكذا يتبين لنا أن أبواب المغفرة الإلهية مفتوحة من كل مكان، وأن عباد الله بوسعهم طرق هذه الأبواب والولوج إلى المغفرة الإلهية. وقد رأينا في الآيات الآتية الذكر سبعة من هذه الأبواب التي تضمن الخلاص لمن يلج أي واحد منها، أو كلها جميعاً.



١- الأنفال، آية ٢٩.

٢- البقرة، آية ٢٧١.

٣- النفاين، الآية ١٧.

٤- النساء، آية ٣١.

الآيات

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُوكَ تَقَلُّبُهُمْ
فِي الْبَلَدِ ① كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ
وَمَثَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالنَّبِطِ
لِيُذِخُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ② وَكَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ③

التفسير

الأمر الإلهي الحاسم:

بعد أن تعرضت الآيات السابقة إلى نزول القرآن، وإلى بعض الصفات الإلهية التي تستهدف بعث الخوف والرجاء، ورد كلام في الآيات التي بين أيدينا عن قوم امتازوا بالمجادلة والمنازعة حيال آيات الله... الآية الكريمة توضح مصير هذه المجموعة ضمن تعبير قصير وقاطع، فتقول: «ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا».

صحيح أن هذه المجموعة قد تملك العدة والعدد، إلا أن ذلك لن يدوم إلا لفترة، فلا تغتر وتنخدع إذا لتحركهم في البلاد وتنقلهم في المدن المختلفة،

واستعراضهم لقوتهم: ﴿فلا يفرك قلبهم في البلاد﴾.

إنها أيام تنقضي بين الكرّ والفرّ، ثم تنتهي هذه الضجة لتزول معها هذه المجموعة وتمحى تماماً، كما تزول الفقاعات من على سطح الماء، أو كما يتلاشى الرماد عند هبوب العواصف!

«يجادل» مشتقة من «جدل» وهي في الأصل تعني لف الحبل وإحكامه، ثم عمّ استخدامها في الأبنية والحديد وما شابه، ولهذا فإن كلمة (مجادلة) تطلق على عمل الاشخاص المتقابلين ويريد كل شخص أن يلقي حجته ويثبت كلامه ويغلب خصمه.

ولكن ينبغي الإنتباه إلى أن كلمة (المجادلة) لا تعتبر مذمومة دائماً في اللغة العربية، بل تعتبر إيجابية ومطلوبة إذا كانت المجادلة في طريق الحق وتستند على المنطق، وتهدف إلى تبين الحقائق وإرشاد الأشخاص الجهلة... أما إذا كانت على أسس واهية من التعصب والجهل والغرور، وتستهدف خداع هذا وذاك، فتكون عند ذلك مذمومة.

القرآن الكريم استخدم كلمة (المجادلة) في كلا مورديها، إذ نقرأ في الآية (١٢٥) من سورة النحل قوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

إلا أنه في موارد أخرى - كما في الآية أعلاه وفيما بعدها - وردت (المجادلة) لغرض الذم، وهناك بحث حول الجدال والمجادلة سنتعرض له فيما بعد إن شاء الله.

«تقلب» مشتقة من «قلب» وتعني التغيير، و«تقلب» هنا بمعنى التصرف في المناطق والبلاد المختلفة للسيطرة والتسلط عليها، وتعني الذهاب والإياب فيها أيضاً.

إن هدف الآية تحذير للرسول ﷺ والمؤمنين به - في بداية البعثة - من الذين كانوا من الطبقة المستضعفة المحرومة، بأن لا يركنوا إلى الإمكانيات المالية

أو القوة السياسية والاجتماعية للكفار، ويعتبرونها دليلاً على حقانيتهم أو سبباً لقوتهم الحقيقية، إذ هناك الكثير منهم في تأريخ هذه الدنيا، وقد انكشف ضعفهم وسقطت عنهم سراييل القوة المزعومة ليبين عجزهم حيال العقاب الإلهي، ليسقطوا كما تسقط الأوراق الخريفية الذابلة في العواصف الهوجاء.

إننا في عالم اليوم نشاهد الكفار والمستكبرين والظالمين وهم يقومون بشتى المحاولات، من زيارات ومؤتمرات وأحلاف وتكتلات ومناورات عسكرية، وتوقيع لاتفاقات سياسية وعسكرية، واعتماد لوسائل القمع والإرهاب إزاء المستضعفين والمحرومين في العالم، ولكي يسلكوا من خلال ذلك طريقاً إلى تحقيق أهدافهم المشؤومة. لذلك ينبغي للمؤمنين أن يكونوا يقظين وحذرين حتى لا يروحوأ ضحية هذه الأساليب القديمة وحتى لا يسكتهم الرعب والخوف فيفتنون بهذا الوضع.

لذلك توضح الآية التي بعدها عاقبة بعض الأمم السابقة التي ضلّت الطريق وانكفأت عن جادة الحق والصواب، فتقول في عبارات قاطعة واضحة تحكي عاقبة قوم نوح وحالهم ومن تلاهم من أقوام وجماعات: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم﴾.

المقصود من «الأحزاب» هم قوم عاد وثمود وحزب الفراعنة وقوم لوط، وأمثال هؤلاء ممن أشارت إليهم الآيتان (١٢ - ١٣) من سورة «ص» في قوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح و عاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب﴾.

هؤلاء هم «الأحزاب» الذين تآزروا ووقفوا ضدّ دعوات الأنبياء الإلهيين، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات ومضامينها الربانية.

إنهم لم يقتنعوا بمجرد الوقوف ضدّ الدعوات النبوية الكريمة، بل خططت كلّ أمة منهم لأن تمسك بنبيها فتسجنه وتؤذيه، بل وحتى تقتله: ﴿وهمت كلّ أمة

برسولهم ليأخذوه».

ثم لم يكتبوا بهذا القدر أيضاً، بل لجأوا إلى الكلام الباطل لأجل القضاء على الحق ومحوه، وأصروا على إضلال الناس وصدّهم عن شريعة الله: «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق»^(١).

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، ولم يبق لهم الخيرا دوماً، إذ حينما حان الوقت المناسب جاء الوعد الإلهي: «فأخذتهم فكيف كان عقاب».

لكم - أيها الناس - أن تشاهدوا خرائب مدنهم حين سفركم وأثناء تجوالكم... انظروا عاقبتهم المشؤومة المظلمة مدونة على صفحات التأريخ وفي صدور أهل العلم، فانظروا واعتبروا!

ليس هناك أفضل من هذا المصير الذي ينتظر أشقياء مكّة من الكفار والمشركين الظالمين؛ إلا أن يثوبوا إلى أنفسهم ويعيدوا تقييم أعمالهم.

إذاً، الآية أعلاه تلخص برنامج «الأحزاب» الطاغية ومخططهم في ثلاثة أقسام هي: (التكذيب والإنكار) ثم (التأمر للقضاء على رجال الحق) وأخيراً (الدعاية المستمرة لإضلال عامة الناس).

أما مشركو العرب على عهد البعثة النبوية فقد قاموا بتكرار هذه الأقسام الثلاثة حيال رسول الإسلام ﷺ وحيال رسالته، لذلك فليس ثمة من عجب أن يهددهم القرآن الكريم بما حلّ بأسلافهم وبمن سبقهم من الأحزاب... نفس العاقبة ونفس الجزاء!

الآية الأخيرة - في المقطع الذي بين أيدينا - تشير إلى الجزاء الأخروي الذي ينتظر هؤلاء، بالإضافة إلى قسطهم من العقاب الدنيوي «كذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار».

إنّ المعنى الظاهري للآية واسع، يشمل جميع الكفار والمعاندين من جميع

الأقوام، والآية بهذا المعنى لا تختص بكفار مكة، كما يتصور بعض المفسرين. إن حتمية العقاب الإلهي لهؤلاء القوم يعود إلى ذنوبهم المستمرة، والأعمال التي يقومون بها بملء إرادتهم خلافاً لرسالة الله... ولكن العجيب أن بعض المفسرين - كالفخر الرازي - يتصور أن هذه الآية هي من أدلة عقيدة الجبر والمصير الجبري الإلزامي للأقوام المختلفة، ودليل سلب الإرادة عنهم، في حين أننا لو دققنا في نفس الآية مع ترك التعصب المذهبي جانباً، فسيتوضح لنا أن هذا المصير الإلهي الذي ينتظرهم هو بسبب سلوكهم لطريق الإنحراف المظلم، وبسبب إصرارهم على السير بهذا الطريق بأرجلهم وبكامل حريتهم وملء إرادتهم.

* * *

بحثان

أولاً: استعراض الكفار لقواهم الظاهرية

يواجهنا في الآيات القرآنية وفي أماكن متعددة مؤدى يفيد أن المؤمنين المحرومين ينبغي لهم أن لا يتصوروا أن الإمكانيات الكبيرة والقوى الظاهرة الواقعة في حوزة الظالمين والكفار، هي دليل على سعادتهم، أو شرط لانتصارهم في نهاية المطاف.

- ومن أجل القضاء على هذا التصور المنحرف الخاطيء الذي يلازم في العادة الضعفاء ذوي الأفكار المحدودة والأفق الإيماني الضيق، ومن الذين يرون في إمكانيات الخصم دليلاً معنوياً على حقانيته، فالقرآن يعالج هذه الظاهرة من خلال تفحص واستعراض تأريخ الأقوام السابقة، ويشير في استعراضه لهم إلى نماذج واضحة ومعروفة منهم كالفرعنة في مصر، والنماردة في بابل، وأقوام نوح وعاد وثمود في العراق والحجاز والشام، حتى لا يشعر المؤمنون المتسضعفون بالضعف والهوان، ولكي يأسوا من جدوى المواجهة في حرب هي سجال بين

الطرفين، لكنّها بالوعد الإلهي الحتمي لا بدّ أن تنتهي لصالح أهل الحق. إن القانون الإلهي لا يقضي دائماً بتعجيل العقوبة الآتية لكل من يرتكب عملاً منافياً، أو لمن يخرج عن جادة الصواب ويحيد عن سبيل الرشد، وإنما الأمر كما تقول الآية (٥٩) من سورة الكهف، «وجعلنا لمهلكهم موعداً».

وفي مكان آخر من الكتاب الإلهي العظيم نقراً قوله تعالى: «فهل الكافرين أمهلهم رويداً»^(١).

وفي الآية (١٧٨) من «آل عمران» نلتقي في هذا المورد مع قوله تعالى: «إنما نملّي لهم ليزدادوا إثماً».

نستطيع أن نهي القول في أنّ الهدف من هذا «الإمهال» هو إما لإتمام الحجة على الكافرين، أو لإختبار المؤمنين، أو قد يكون زيادة في ذنوب الذين قطعوا جميع طرق العودة على أنفسهم.

وفي عالمنا اليوم تشبه هذه الحالة الشعور بالدونية والحقارة الذي تعيشه بعض الشعوب المسلمة المختلفة مادياً إزاء الدول الكبرى والمتقدمة، ولكن ينبغي مكافحة هذا الشعور بشدة بأسلوب المنطق القرآني أعلاه.

علاوة على هذا يجب على هؤلاء أن يدركوا أنّ أشكال التخلف والحرمان المادي إنّما تعود بدرجة كبيرة إلى ظلم الظالمين، فإذا ما تحطمت سلاسل الظلم والعبودية أمكن تجاوز التخلف بالمثابرة والكدح.

ثانياً: المجادلة في القرآن الكريم

لقد وردت كلمة «المجادلة» خمس مرات في هذه السورة المباركة، وهي جميعاً تختص بالمجادلة السلبية الباطلة، والآيات التي اشتملت على ذكر المجادلة هي (٤، ٥، ٣٥، ٥٦، ٦٩) وبهذه المناسبة لا بأس بالتعرض إلى بحثٍ عن

الجدال من وجهة النظر القرآنية.

«الجدال» و «المراء» موضوعان وردا كثيراً في الآيات القرآنية، وفي الأحاديث والزوايات الإسلامية أيضاً. وكتوطئة للبحث ينبغي أولاً أن نميّز أقسام الجدال (الجدال الإيجابي والجدال السلبي) وما هو المقصود من كلّ واحدٍ منها، وعلائم كلّ واحدٍ منها، وأخيراً أضرار «الجدال السلبي» وكذلك عوامل الغلبة في «الجدال الإيجابي».

وفي هذا الصدد أماننا النقاط والعناوين الآتية:

أ- مفهوم «جدال» و «مراء»

«الجدال» و «المراء» و «الخصام» ثلاث مفردات متقاربة من حيث المعنى، وفي نفس الوقت يوجد ثمة اختلاف بينها^(١).

«الجدال» يعني في الأصل اللغوي لف الحبل، ثم أخذ يطلق بعد ذلك على لف الطرف المقابل والنقاش الذي يتضمّن الغلبة.

«مراء» على وزن «حجاب» وتعني الكلام في شيء ما فيه مرية أو شك. أما «الخصومة» والمخاصمة فتعني في الأصل إمساك شخصين كلّ منهما للآخر من جانبه، ثم أطلقت بعد ذلك على التشاجر اللفظي والأخذ والرد في الكلام.

وكما يقول العلامة المجلسي في (بحار الأنوار) فإنّ الجدال والمراء أكثر ما يستخدمان في القضايا العلمية، في حين تستخدم المخاصمة في الأمور والمعاملات الدنيوية.

ويحدّد بعضهم الاختلاف بين الجدال والمراء في أنّ هدف المراء هو إظهار الفضل والكمال، في حين أنّ الجدال يستهدف تعجيز وتحقير الطرف المقابل.

وقالوا أيضاً في الفرق بينهما: إن الجدل في القضايا العلمية، والمراء أعم من ذلك.

وقالوا أخيراً: إن المراء ذو طابع دفاعي في قبال هجوم الخصم، بينما الجدل أعم من الدفاع والهجوم.

ب: الجدل السلبي والإيجابي

يظهر من الآيات القرآنية أن لفظ الجدل معاني واسعة، ويشمل كل أنواع الحديث والكلام الحاصل بين الطرفين، سواء كان إيجابياً أم سلبياً، ففي الآية (١٢٥) من سورة «النحل» نقرأ أمر الخالق تبارك وتعالى لرسوله الكريم ﷺ في قوله تعالى: «وجادلهم بالتي هي أحسن».

وفي الآية (٧٤) من سورة «هود» نقرأ عن إبراهيم عليه السلام: «فما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط» والآية تشير إلى النوع الإيجابي من المجادلة.

ولكن أغلب الإشارات القرآنية حول المجادلة تشير إلى النوع السلبي منها، كما نرى ذلك واضحاً في سورة «المؤمن» التي نحن بصدددها، حيث أشارت إلى «المجادلة» بمعناها السلبي خمس مرات.

وفي كل الأحوال يتبين أن البحث والكلام والإستدلال والمناقشة لأقوال الآخرين، إذا كان لإحقاق الحق وإبانة الطريق وإرشاد لجاهل، فهو عمل مطلوب يستحق التقدير، وقد يندرج أحياناً في الواجبات.

فالقرآن لم يعارض أبداً البحث والنقاش الإستدلالي والموضوعي الذي يستهدف إظهار الحق، بل حث ذلك في العديد من الآيات القرآنية.

وفي مواقف معينة طالب القرآن المعارضين بالإتيان بالدليل والبرهان فقال:

﴿ها تو برهانكم﴾^(١).

وفي المواقف التي كانت تتطلب إظهار البرهان والدليل، ذكر القرآن أدلة مختلفة، كما نقرأ ذلك في آخر سورة «يس» حين جاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وهو يمسك بيده عظماً فقال له سائلاً: «من يحيى العظام وهي رميم»^(٢) فذكر القرآن عدداً من الأدلة على لسان الرسول الأكرم في المعاد وقدرة الخالق على إحياء الموتى.

وفي القرآن نماذج أخرى واضحة على الجدال الإيجابي، كما في الآية (٢٥٨) من سورة البقرة، التي تعكس كلام إبراهيم عليه السلام وأدلته القاطعة أمام نمرود. والآيات (٤٧-٥٤) من سورة «طه» تعكس تحاجج موسى وفرعون. وكذلك نجد القرآن مليء بالأدلة المختلفة التي أقامها رسول الله ﷺ مقابل عبدة الأصنام والمشركين وأصحاب الذرائع.

ومن جهة أخرى يذكر القرآن الكريم نماذج أخرى من مجادلات أهل الباطل لإثبات دعاوهم الباطلة من خلال استخدام السفسطات الكلامية والحجج الواهية لابطال الحق وغواية عوام الناس.

إن السخرية والإستهزاء والتهديد والإقتراء والإنكار الذي لا يقوم على دليل، هي مجموعة من الأساليب التي يعتمد عليها الظالمون الضالون إزاء الأنبياء ودعواتهم الكريمة، أما الإستدلال المزوج بالعاطفة والحب والرفقة بالناس فهو أسلوب الأنبياء، رسل السماء إلى الأرض.

في الروايات الإسلامية والتاريخ الإسلامي آثار كثيرة وغنية عن مناظرات الرسول الأكرم ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام مع المعارضين، وإذا ما توفر جهد معين

١- البقرة، الآية ١١١.

٢- سورة يس، الآية ٧٨.

على جمعها وتصنيفها فإنها ستشكل كتاباً كبيراً وضخماً للغاية. (وقد قام العلامة الشيخ الطبرسي بجمع بعضها في كتابه «الإحتجاج»).

وبالطبع لم ينحصر مقام المجادلة بالتي هي أحسن ومناظرة الخصوم على المعصومين، بل إن الأئمة عليهم السلام كانوا يحثون من يجدون فيه القدرة الكافية والمنطق القوي المتين للقيام بهذه الوظيفة، والآ فقد تضعف جبهة الحق ويقوى عود خصومها، ويجدون في أنفسهم الجرأة في مواجهة الحق والتماذي في عنادهم. وفي هذا الإتجاه نقرأ في حديث، أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام يلقب بـ «الطيار» ويدعى (حمزة بن محمد) جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: «بلغني أنك كرهت مناظرة الناس» فأجابه الإمام عليه السلام بقوله: «أما مثلك فلا يكره، من إذا طار يحسن أن يقع، وإن وقع يحسن أن يطير، فمن كان هذا لا نكرهه»^(١).

كلاماً جميع يشير بوضوح كافٍ إلى القوة والمتانة في قدرة الإستدلال والمناظرة وخصم الطرف المقابل لمن يريد خوض المناظرة مع الخصوم، كي يكون بمقدوره استخلاص النتائج وإنهاء البحث، فلا بد من حضور اشخاص مستعدين ولهم تسلط كافٍ على البحوث الاستدلالية، حتى لا يحسب ضعف منطقتهم بأنه من ضعف دينهم ومذهبهم.

ج: الآثار السيئة للجدال السلبي

صحيح أن البحث والنقاش هو مفتاح لحل المشاكل، إلا أن هذا الأمر يصح في حال رغبة الطرفين في نشدان الحق والبحث عن الطريق الصحيح؛ أو على الأقل يكون أحد الطرفين متمسكاً بالحق ومستهدفاً السبيل إليه فيما يخوض من

نقاش ومناظرة.

أما أن يكون النقاش والجدل بين الطرفين بهدف التفاخر واستعراض القوة، وفرض الرأي على الطرف الثاني عن طريق إثارة الضجة، فإن عاقبة هذا الأمر لا تكون سوى الإبتعاد عن الحق وعشعشة الظلمة في القلوب وتجدد العداة والحق لا غير.

ولهذا السبب نهت الروايات والأحاديث الإسلامية عن المراء والجدال الباطل، وفي هذه المرويات إشارات كبيرة المعنى إلى الآثار السيئة لهذا النوع من الجدل.

ففي حديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نقرأ قوله ﷺ: «من ضنّ بعرضه فليدع المراء»^(١). لأن في هذا النوع من النقاش سوف ينحدر بالكلام تدريجياً ليصل إلى مناحي الإستهانة وعدم الإحترام وتبادل الكلام المبتذل القبيح، وترامي الإتهامات الباطلة.

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين أيضاً نقرأ وصيته ﷺ إذ يقول: «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق»^(٢).

إن مثل هذا النوع من الجدل والذي يكون عادةً فاقداً للإلتزام بالأصول الصحيحة للبحث والإستدلال، سيقوي روح اللجاجة والتعصب والعناد لدى الأشخاص، بحيث يستخدم كل طرف - بهدف التغلب على خصمه والإنتصار لنفسه - كل الأساليب حتى تلك التي تنطوي على الكذب والتهمة، ومثل هذا العمل لا يمكن أن تكون عاقبته إلاّ السوء والحقد وتنمية جذور النفاق في الصدور.

١- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٦٢.

٢- أصول الكافي، المجلد الثاني، باب المراء والخصومة، الحديث الأول.

إنّ واحدة من المفاصد الكبيرة الأخرى للجدال السلبي المنهوي عنه، هو تمسك الطرفين بانحرافاتهم وأخطائهم وإصرارهم على اشتباهاتهم، في موقف عنيد بعيد عن الحق والصواب، ذلك لأنّ كلّ طرف يحاول ما استطاع التمسك بأيّ دليل والتشبّث بالباطل لفرض رأيه وإثبات كلامه، وهو في ذلك مستعدّ لأنّ يتجاهل الكلام الحق الذي يصدر من خصمه، أو أنّه ينظر إليه بعدم الرضا والقبول. وهذا بحدّ ذاته يزيد من الإنحراف والاشتباه والخطأ.

د: أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن:

لا يستهدف «الجدال الإيجابي» تحقير الطرف الآخر أو الانتصار عليه، بل يهدف النفوذ إلى عمق أفكاره وروحه، لهذا فإنّ أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن يختلف كلياً عن الجدال السلبي أو الباطل.

ولكي يؤثر الطرف المجادل معنوياً على الطرف الآخر، عليه الاستفادة من الأساليب الآتية التي أشار إليها القرآن الكريم بشكلٍ جميل:

١- ينبغي عدم الإصرار على الطرف المقابل بقبول الكلام على أنّه هو الحق، بل على المجادل إذا استطاع أن يجعل الطرف المقابل يعتقد بأنّه هو الذي توصل إلى هذه النتيجة، وهذا الأسلوب سيكون أكثر تأثيراً. بعبارة أخرى: من المفيد للطرف المقابل أن يعتقد بأنّ النتيجة أو الفكرة نابعة من أعماقه وهي جزء من روحه، كي يتمسك بها أكثر ويدع عن لها بشكلٍ كامل.

وقد يكون هذا الأمر هو سر ذكر القرآن للحقائق المهمة كالتوحيد ونفي الشرك وغير ذلك على شكل استفهام، أو أنّه بعد أن ينتهي من استعراض وذكر

أدلة التوحيد يقول: ﴿أإله مع الله﴾^(١).

٢- يجب الإمتناع عن كل من ما يشير صفة العناد واللجاجة لدى الطرف الآخر، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿ولا تسيؤوا الذين يدعون من دون الله﴾^(٢). كي لا يصير هؤلاء على عنادهم ويهينوا الخالق جلّ وعلا بتافه كلامهم.

٣- يجب مراعاة منتهى الإيضاح في النقاش مع أي شخص أو أي مجموعة، كي يشعر الطرف المقابل بأن المتحدث إليه يبغى حقاً توضيح الحقائق لا غير، فعندما يتحدث القرآن عن مساوئ الخمر والقمار، فهو لا يتجاهل المنافع الثانوية المادية والإقتصادية التي يمكن أن يحصل عليها البعض منهما، فيقول: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها﴾.

إن هذا الطراز من الحديث يحمل آثاراً إيجابية كبيرة على المستمع.

٤- يجب عدم الرد بالمثل حيال المساوئ والأحقاد التي قد تطفح من الخصم، بل يجب سلوك طريق الرأفة والحبّ والعمو ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً، إذ أن الرد بهذا الأسلوب الودود يؤثر كثيراً في تسليخ قلوب الأعداء المعاندين، كما يقول القرآن الكريم ويحث على ذلك: ﴿أدفع بالتي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾^(٣).

والخلاصة، إننا عندما ندقق في أسلوب نقاشات الأنبياء عليهم السلام مع الأعداء والظالمين والجبارين، كما يعكسها القرآن الكريم، أو كما تعكسها تلك المناظرات العقائدية بين رسول الله ﷺ أو أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام وبين أعدائهم وخصومهم، ننتهي إلى دورس تربوية في هذا المجال تطوي في تضاعيفها

١- النمل، الآية ٦٠.

٢- الأنعام - ١٠٨.

٣- فصلت، الآية ٣٤.

أدق الأساليب والوسائل النفسية التي تسهّل لنا النفوذ إلى أعماق الآخرين.
 وبهذا الخصوص ينقل العلامة المجلسي في (بحار الأنوار) رواية مفصلة عن
 رسول الله ﷺ يضمنها مناظرة طويلة بين الرسول الأكرم وبين خمسة مجاميع
 مخاصمة هي: اليهود والنصارى والدهريين والثنويين (أتباع عقيدة الثنية في
 التأليه) ومشركي العرب، تنتهي بسبب الأسلوب الحكيم الجميل والمؤثر الذي
 استخدمه رسول الله ﷺ إلى قبول هؤلاء بالحق وإذعانهم وتسليمهم له.
 إن هذه المناظرة العريية بإمكانها أن تكون لنا درساً بناءً في مناظراتنا
 وأساليب جدلنا ومناقشاتنا مع الآخرين^(١).



الآيات

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ
رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

التفسير

دعاء حملة المستمر للمؤمنين:

يتضح من أسلوب الآيات السابقة أنها نزلت في فترة كان فيها المسلمون قلة
محرومة، بينما كان الأعداء في أوج قوتهم، يتمتعون بالإمكانات الكبيرة
ويسيطرون على السلطة.

بعد ذلك نزلت الآيات التي نحن بصددھا لتكون بشرى للمؤمنين الحقيقيين

والصابرين، بأنكم لستم وحدكم، فلا تشعروا بالغبية أبداً، فحملة العرش الإلهي والمقربون منه، وكبار الملائكة معكم يؤيدونكم، إنهم في دعاء دائم لكم، ويطلبون لكم من الله النصر في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة... وهذا هو أفضل أسلوب للتعاطف مع المؤمنين في ذلك اليوم، وهذا اليوم، وغداً.

فالقرآن يقول: «الذي يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا».

أما قولهم ودعاؤهم فهو: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً» فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين ورحيم بهم «فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم».

يوضح هذا الكلام للمؤمنين بأنكم لستم وحدكم الذين تعبدون الله وتسبحونه وتحمدونه، فقبلكم الملائكة المقربون وحملة العرش ومن يطوف حوله، يسبحون الخالق جلّ وعلا ويحمدونه.

وهي من جانب آخر تحذر الكفار وتقول لهم: إن إيمانكم أو عدمه ليس مهماً، فالله غني عن العباد لا يحتاج إلى إيمان أحد، وهناك الملائكة يسبحون بحمده ويحمدونه وهم من الكثرة بحيث لا يمكن تصوّرهم بالرغم من أنه غير محتاج إلى حمد هؤلاء وتسبيحهم.

ومن جانب ثالث، في الآية إخبار للمؤمنين بأنكم لستم وحدكم في هذا العالم - بالرغم من أنكم أقلية في محيطكم - فأعظم قوة غيبية في العالم وحملة العرش هم معكم ويساندونكم ويدعون لكم، وهم في نفس الوقت يسألون الله أن يشملكم بعفوه ورحمته الواسعة، وأن يتجاوز عن ذنوبكم وينجيكم من عذاب الجحيم.

وفي هذه الآية تواجهنا مرة أخرى كلمة (العرش) حيث ورد كلام عن حملته والملائكة الذين يحيطون به، وبالرغم من أننا تحدثنا عن هذا الموضوع في تفسير

بعض السور، فإننا سنقف عليه مرة أخرى في باب البحوث إن شاء الله^(١).
 في الآية التي تليها استمرار دعاء حملة العرش للمؤمنين، يقول تعالى:
 ﴿رَبَّنَا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾.
 وأيضاً: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾^(٢).
 لماذا؟ - «إنك أنت العزيز الحكيم».

هذه الآية التي تبدأ بكلمة (رَبَّنَا) التي يطلب حملة العرش والملائكة المقربون بها من خالقهم - بإصرار - أن يتلطف بعباده المؤمنين، ويركزون في هذا الطلب على مقام ربوبيته تعالى، وهؤلاء لا يريدون من خالقهم انقاذ المؤمنين من عذاب القيامة وحسب، بل إدخالهم في جنات خالدة، ليس وحدهم وإنما مع آبائهم وأزواجهم وأبنائهم السائرين على خطهم في الاستقامة والإيمان... إنهم يطلبون الدعم من عزته وقدرته، أما الوعد الإلهي الذي أشارت إليه الآية فهو نفس الوعد الذي ورد مراراً على لسان الأنبياء لعامة الناس.

أما تقسيم المؤمنين إلى مجموعتين، فهو في الواقع يكشف عن حقيقة أن هناك مجموعة تأتي بالدرجة الأولى، وهي تحاول أن تتبع الأوامر الإلهية بشكل كامل.

أما المجموعة الأخرى فهي ليست بدرجة المجموعة الأولى ولا في مقامها، وإنما بسبب انتسابها إلى المجموعة الأولى ومحاولتها النسبية في اتباعها سيشملها دعاء الملائكة.

بعد ذلك تذكر الآية الفقرة الرابعة من دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾.
 ثم ينتهي الدعاء بهذه الجملة ذات المعنى الكبير: ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾.

١ - كما في نهاية الآية (٥٤) من الأعراف، نهاية الآية (٧) من هود، ونهاية الآية (٢٥٥) من البقرة.

٢ - جملة (من صلح) مطوقة على المضمر في جملة «وادخلهم».

هل هناك فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان، وبيتعد عنه العذاب لتشمله الرحمة الإلهية ويدخل الجنة الخالدة، وثم يلتحق به أقرباؤه الذين يؤدّهم؟

* * *

بحوث

أولاً: الأدعية الأربعة لحملة العرش

قد يطرح هنا هذا السؤال: ما هو التفاوت الموجود بين الأدعية الأربعة؟ أليس بعضها مكرراً؟

عند التأمل والتدقيق يتبين أن كلّ واحد منها يشير إلى موضوع مختلف. ففي البداية يطلب الملائكة غسل المؤمنين وتطهيرهم من آثار الذنوب، وهذا الأمر إضافة لكونه مطلوباً بذاته، فهو يعتبر مقدمة للوصول إلى أي نعمة كبيرة. وإلا فهل هناك موهبة أعلى من أن يشعر الإنسان بأنّه أصبح طاهراً مطهراً، وأنّ خالقه جلّ وعلا راضٍ عنه، وهو أيضاً راضٍ عن خالقه الكريم؟

إنّ هذا الإحساس - بغض النظر عن قضية الجنة والنار يعتبر أمراً عظيماً وفخراً كبيراً بالنسبة للعباد.

في مرحلة ثانية يطلب حملة العرش والملائكة إبعاد المؤمنين وإنقاذهم من عذاب جهنّم. وهذا الأمر بحد ذاته يعتبر من أهم وسائل تحقيق الراحة والرضا النفسيين.

المرحلة الثالثة تنطوي على دعاء الملائكة وحملة العرش للمؤمنين في طلب الجنة لهم ولأقربائهم أيضاً، حيث يعتبر هؤلاء الإقرباء الصالحون عاملاً من عوامل الراحة والإستقرار النفسي.

وبسبب وجود (مؤذيات) أخرى مهمّة في يوم القيامة غير نار جهنّم، كهول المطلع والمحشر، والفضيحة أمام الخلائق، وطول الوقفة للحساب وأمثال ذلك، لذا

طلبت الملائكة وحملة العرش في أدعيتهم الأخرى أن يحفظ الله المؤمنين وبقية من أي سوء أو مكروه في ذلك اليوم، كي يدخلوا جنة الخلد براحة بال واطمئنان واحترام كامل.

ثانياً: آداب الدعاء

في هذه الآيات يعلم حملة العرش والملائكة المؤمنين أسلوب الدعاء. ففي البداية ينبغي بالتمسك بكلمة «ربنا».

ثم مناداته تعالى بصفات الجلال والجمال، وطلب العون من مقام رحمته المطلقة وعلمه غير المتناهي: «وسعت كل شيء رحمة وعلماً».

وأخيراً الدعاء وطلب الحاجة بحسب أهميتها وبشروط توفّر الأرضية للإستجابة: «فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك».

ثم ينتهي الدعاء بذكر صفاته تعالى الجمالية والجلالية، والتوسل برحمته تعالى مرة أخرى.

والطريف في الأمر أنّ حملة العرش الإلهي يعتمدون على خمسة أوصاف إلهية مهمّة في دعائهم وهي: الربوبية، والرحمة، والقدرة، والعلم، والحكمة.

ثالثاً: لماذا تبدأ الأدعية بكلمة «ربنا»؟

عند قراءة آيات القرآن الكريم نرى أنّ أولياء الله - سواء منهم الأنبياء أو الملائكة أو الصالحون - كانوا يبدأون كلامهم بـ «ربنا» أو «ربّي» عند الدعاء... فآدم عليه السلام يقول: «ربنا ظلمنا أنفسنا».

ونوح عليه السلام يقول: «رب اغفر لي ولوالدي»

وإبراهيم عليه السلام يقول: «رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».

أما يوسف عليه السلام فيقول: «رب قد آتيتني من الملك».

وموسى الكليم ﷺ يقول: «رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ».
 أما سليمان ﷺ فيقول: «رَبِّ هَبْ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي».
 أما عيسى المسيح ﷺ فيقول: «رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ»^(١).
 والرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ يقول: «رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَزَمَاتِ الشَّيَاطِينِ»^(٢).
 وعلى لسان المؤمنين نقرأ في أماكن متعدّدة كلمة «رَبَّنَا» في فاتحة الدعاء،
 ففي آخر سورة «آل عمران» نرى دعائهم: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً».
 من خلال هذه النماذج والمواقف نستنتج أن أفضل الدعاء هو ما يبدأ
 بالربوبية صحيح أن الاسم المبارك «الله» هو أكثر شمولية لأسماء الخالق، ولكن
 لارتباط الحاجات بمقام الربوبية، هذا المقام الذي يرتبط به الإنسان منذ اللحظة
 الأولى من وجوده وحتى آخر عمره، وتستمر بعد ذلك صفة الارتباط
 بـ «الربوبية» التي تفرق الإنسان بالألطف الإلهية، لذا فإن ذكر هذه الكلمة في
 بداية الأدعية يعتبر أكثر تناسباً من باقي الأسماء الأخرى^(٣).

رابعاً: ما هو العرش الإلهي؟

لقد أشرنا مراراً إلى أن ألفاظنا - الموضوعية أصلاً لتوضيح مشخصات الحياة
 المحدودة - لا تستطيع أن توضح عظمة الخالق، أو حتى أن تحيط بعظمة مخلوقاته
 جلّ وعلا، لهذا السبب فليس أمامنا سوى استخدام ألفاظ ومعاني للكناية عن تلك
 العظمة.

وفي طليعة الألفاظ التي يشملها هذا الوضع كلمة (العرش) التي تعني لغوياً
 (السقف) أو (السريّر ذا المسند المرتفع) في قبال (الكرسي) الذي هو (سريّر ذو

١ - المائدة، الآية ١١٤.

٢ - المؤمن، الآية ٨٧.

٣ - التفسير الكبير، الفخر الرازي في نهاية الآية مورد البحث.

مسند منخفض). ثم استخدمت هذه الكلمة لتشمل (عرش) القدرة الإلهية. وللمفسرين والفلاسفة والمناطقة كلام كثير حول المقصود بالعرش، وما ينطوي عليه من معنى كنائي.

فأحياناً فُسرَوا العرش بمعنى (العلم اللامتناهي لله تبارك وتعالى). وأخرى قالوا بأن المعنى هو (المالكية والحاكمية الإلهية). وفسرَوا العرش أيضاً بأنه إشارة إلى أي واحدة من الصفات الكمالية والجلالية لله تبارك وتعالى، لأن كل واحدة من هذه الصفات توضح عظمة منزلته جلّ وعلا، كما أنّ عرش السلطان (والأمثال تضرب ولا تقاس) يوضح عظمته. فالخالق جلّ وعلا يملك عرش العلم، وعرش القدرة، وعرش الرحمانية، وعرش الرحيمية.

وطبقاً للتفسير والآراء الثلاثة هذه، فإنّ مفهوم (العرش) يعود إلى صفات الخالق جلّ وعلا، ولا يعني وجود خارجي آخر له.

وفي بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ما يشير إلى هذا المعنى، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أجاب عندما سئل عن معنى قوله تعالى: «وسع كرسیه السماوات والأرض» أنّ المقصود بذلك علمه تعالى شأنه^(١).

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه فسّر (العرش) بأنه «العلم» الذي كشفه وعلمه الله للأنبياء عليهم السلام، بينما (الكرسي) هو «العلم» الذي لم يعلمه لأحد ولم يطلع عليه أحد^(٢).

وبين أيدينا تفاسير أخرى استندت إلى روايات إسلامية، فسّرت العرش والكرسي بأنهما موجودات عظيمة من مخلوقات الله تبارك وتعالى. قالوا - مثلاً - إنّ المقصود بالعرش هو مجموع عالم الوجود.

١ - بحار الأنوار، المجلد ٥٨، صفحة ٢٨، الحديث رقم ٤٦، ٤٧.

وقالوا أيضاً: هو مجموع الأرض والسماء المتجسدة ضمن هذا الكرسي؛ بل إن السماء والأرض كالخاتم في الصحراء الواسعة مقايسة بينهما وبين (الكرسي) ثم قالوا: إن «الكرسي» في مقابل العرش كالخاتم في الصحراء الواسعة.

وفي تفاسير أخرى تستند بدورها إلى روايات إسلامية، أطلقوا كلمة (العرش) للكناية عن قلوب الأنبياء والأوصياء والمؤمنين التامين الكاملين، كما جاء ذلك في الحديث: «إن قلب المؤمن عرش الرحمن»^(١).

وفي حديث قدسي نقرأ قوله تعالى: «لم يسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن»^(٢).

أما أفضل الطرق لإدراك معنى العرش - بمقدار ما تسمح به قابلية الإنسان واستيعابه - فهو أن نبحث موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم، ونتفحص مدلولاتها بشكل متأن.

في آيات كثيرة من كتاب الله نلتقي مع هذا التعبير، كما في قوله تعالى: «ثم استوى على العرش»^(٣). ثم يرد تعبير «يدبر الأمر» في بعض الآيات التي تأتي بعد مفاد الآية أعلاه (آية العرش) أو ترد جملاً أخرى تعبر عن علم الله ودراية الخالق جلّ وعلا.

في آية أخرى من القرآن الكريم يوصف العرش بالعظمة: «وهو ربّ العرش العظيم»^(٤).

وأحياناً نتحدث الآية عن حملة العرش، كما في الآية التي نحن بصدددها. ومن الآيات ما نتحدث عن الملائكة المحيطة بالعرش، كما في قوله تعالى:

١- بحار الأنوار، المجلد ٥٨، صفحة ٣٩.

٢- بحار الأنوار، المجلد ٥٨، صفحة ٣٩.

٣- الأعراف، الآية ٥٤.

٤- التوبة، الآية ١٢٩.

﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾^(١)

وفي آية أخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾.

من خلال مجموع هذه الموارد، والتعابير الأخرى الواردة في الأحاديث والروايات الإسلامية، نستنتج بشكل واضح أن كلمة (العرش) تطلق على معاني مختلفة بالرغم من أنها تشترك في أساس واحد.

فأحد معاني العرش هو مقام (الحكومة والمالكية وخلق عالم الوجود) إذ تلاحظ أن الإستخدام الشائع للعرش يدلل - من خلال الكناية - على سيطرة الحاكم على أمور دولته، فنقول مثلاً: «فلان شلّ عرشه» والتعبير كناية عن انهيار قدرته وحكومته.

والمعنى الآخر من معاني العرش هو، «مجموع عالم الوجود» لأن كلّ الوجود هو دليل على العظمة.

وأحياناً يستخدم العرش بمعنى «العالم الأعلى» والكرسي بمعنى «العالم الأدنى».

ويستخدم العرش أحياناً بمعنى (عالم ما وراء الطبيعة) والكرسي بمعنى (مجموع عالم المادة) بما في ذلك الأرض والسماء، كما جاء في آية الكرسي: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾.

ولأنّ علم الخالق لا ينفصل عن ذاته المنزهة، لذا فإن كلمة (عرش) تطلق أحياناً على «علم الله».

وإذا أطلق وصف (عرش الرحمن) على القلوب الطاهرة لعباد الله المؤمنين، فذلك يعود إلى أنّ هذا المكان هو محل معرفة الذات الإلهية المنزهة، وهو بحد ذاته أحد أدلة عظمته وقدرته جلّ وعلا.

من كلّ ذلك يتضح أنّ كافة معاني العرش - التي وردت آنفاً - توضع عظمة

الخالق جلّ وعلا.

وفي الآية التي نحن بصدد بحثها يمكن أن يكون المقصود من العرش هو نفس حكومة الله تعالى وتديره لعالم الوجود، وحملة العرش يقومون بتنفيذ إرادة الله الحاكمة في الخلق.

ويمكن أن يكون المعنى هو مجموع عالم الوجود أو عالم ما وراء الطبيعة. أما حملة العرش الإلهي فهم الملائكة الذين تقع عليهم مسؤولية تدبير أمر هذا العالم بأمر الله تعالى.

* * *

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذِ
تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ
وَأَخِيَّتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ
سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ
تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

التفسير

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟

تحدثت الآيات السابقة عن شمول الرحمة الإلهية للمؤمنين، أما مجموعة
الآيات التي بين أيدينا فهي تتحدث عن «غضب» الله تعالى على الكافرين، كي
يكون بالمستطاع المقارنة بين صورتين ومشهدين متقابلين.
في البداية تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ إِذِ تَدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ».

من الذي ينادي هؤلاء بهذا النداء؟

يبدو أن ملائكة العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم وفضحهم، في مقابل ما

تفعله ملائكة الرحمة من إكرام المؤمنين والصالحين.

ويحتمل أن يكون هذا النداء من نوع التخاطب والتخاصم الذي يقوم بين الكفار في القيامة، لكن المعنى الأول أرجح كما يبدو، وعلى كل حال سينطلق هذا النداء يوم القيامة، كما أن الآيات اللاحقة شاهد على هذا المعنى.

«المقت» تعني في اللغة البغض والعداوة الشديدة. وهذه الآية تبين أن غضب الله تعالى على الكافرين هو أشد من عداوتهم لأنفسهم أما فيم يتعلق بمقت الكفار لأنفسهم، فهناك تفسيران:

الأول: يتمثل في ارتكاب هؤلاء في الحياة الدنيا لأكبر عداوة إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد، فهم لم يهملوا مصاييح الهداية وحسب، بل عمدوا إلى تحطيمها. فهل ثمة عداة للنفس أكثر من أن يعلق الإنسان أمامه أبواب السعادة الأبدية، ويفتح على نفسه أبواب العذاب.

وطبقاً لهذا التفسير يكون قوله تعالى: ﴿إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ بياناً لكيفية مقت وعداوة الكافرين لأنفسهم.

الثاني: أن يكون المقصود بغضهم وعدائهم لأنفسهم هو أن تصيبيهم حالة من الألم والندم الشديد عندما يشاهدون يوم القيامة نتيجة أعمالهم وما اقترفت أيديهم في هذه الدنيا، حيث ترتفع آهاتهم وصرخاتهم، ويعضون على أناملهم من الندم، ولات ساعة مندم يقول تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾^(١). ويتمنون أن يكونوا تراباً: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾^(٢). وفي ذلك اليوم تفتح آفاق البصر: ﴿قبصرك اليوم حديد﴾^(٣) وتتكشف الأسرار والحقائق الخفية: ﴿يوم تبلى السرائر﴾^(٤). وفي ذلك اليوم تنشر الصحف وتكشف

١- فرقان، الآية ٢٧.

٢- نبأ، الآية ٤٠.

٣- سورة ق، الآية ٢٢.

٤- الطارق، الآية ٩.

الأعمال: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾^(١). وعندها تكون النتيجة: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾^(٢). لذلك سيلوم هؤلاء أنفسهم بشدة ويتنفرون منها ويكون على مصيرهم.

وهنا يأتي النداء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾.

وطبقاً لهذا التفسير تكون جملة: ﴿إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ بياناً لدليل شدة الغضب الإلهي عليهم^(٣).

بالطبع فإن كلا التفسيرين مناسب، إلا أن التفسير الأول بلحاظ بعض الأمور - أرجح.

عندما يشاهد المجرمون أوضاع يوم القيامة وأحوالها، ويرون مشاهد الغضب الإلهي حيالهم، سينتبهون من غفلتهم الطويلة ويفكرون بطريق للمخلص، فيعترفون بذنوبهم ويقولون: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾.

عندما تزول حجب الغرور والغفلة، وينظر الإنسان بالعين الحقيقية، فلا سبيل عندها سوى الاعتراف بالذنوب!

إِنَّ هَؤُلَاءِ كانوا يصرون على إنكار المعاد، ويستهزئون بوعيد الأنبياء لهم،

١- التكويم، آية ١٠.

٢- الإسراء، الآية ١٤.

٣- طبقاً للتفسير الأول تكون (إذ) ظرفية ومعلقة بـ «مقتكم أنفسكم» أما طبق التفسير الثاني فتعتبر (إذ) تعليلية ومعلقة بـ «مقت الله» والجدير بالملاحظة أن المقتين الواردين في الآية أعلاه يرتبطان بأربعة احتمالات هي:

الأول: أن يكون مكان الإثنين في يوم القيامة.

الثاني: أن يكون مكانهما في هذه الدنيا.

الثالث: أن يكون المقت الأول في الدنيا والثاني في الآخرة.

أما الرابع: فهو عكس الثالث.

ولكن الأفضل وفقاً للتفسير أعلاه أن يخص الأول بالآخرة. والثاني بالدنيا، أو أن يخص الإثنين بالآخرة.

ولكن بعد توالي الموت والحياة لا يبقى مجال للإنكار، وقد يكون سبب تكرارهم للموت والحياة، أنهم يريدون القول: يا خالقنا الذي تملك الموت والحياة، أنت قادر على أن تعيدنا إلى الدنيا مرة أخرى كي نعوض ماضى.



ذكر المفسرون عدّة تفاسير حول المقصود من قوله تعالى: ﴿أمتنا اثنتين﴾ و﴿أحيينا اثنتين﴾ و من بين هذه التفاسير هناك ثلاثة آراء نقف عليها فيما يلي:
أولاً: أن يكون المقصود من ﴿أمتنا اثنتين﴾ هو الموت في نهاية العمر، والموت في نهاية البرزخ. أما المقصود من ﴿أحيينا اثنتين﴾ فهي الإحياء في نهاية البرزخ والإحياء في القيامة.

ولتوضيح لذلك، نرى أن للإنسان حياة أخرى بعد الموت تسمى الحياة البرزخية، وهذه الحياة هي نفس حياة الشهداء التي يحكي عنها قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(١)، وهي نفس حياة النبي ﷺ والأنمة من أهل البيت ، حيث يسمعون سلامنا ويردون عليه.

وهي أيضاً نفس حياة الطغاة والأشقياء كالفراعنة الذين يعاقبون صباحاً ومساءً بمقتضى قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾^(٢).

ومن جانب آخر نعرف أن الجميع، من الملائكة والبشر والأرواح، ستموت في نهاية هذا العالم مع أول نفخة من الصور: ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾^(٣). ولا يبقى أحد سوى الذات الإلهية (بالطبع على خلاف ما أوضحناه في نهاية الآية (٨٦) من سورة الزمر بين موت وحياة الملائكة والأرواح، وبين موت وحياة الإنسان).

١- آل عمران، الآية ١٦٩.

٢- غافر، الآية ٤٦.

٣- الزمر، الآية ٦٨.

وعلى هذا الأساس فإنَّ هناك حياة جسمانية وحياة برزخية، ففي نهاية العمر يحل الموت بحياتنا الجسمانية ؛ لكن في نهاية العالم يحل بحياتنا البرزخية.

يترتب على ذلك أن تكون هناك حياتان بعد هذين الموتين: حياة برزخية، وحياة في يوم القيامة.

وهنا قد يطرح البعض هذا السؤال: إننا في الواقع نملك حياة ثالثة هي حياتنا في هذه الدنيا، وهي غير هاتين الحياتين، وقبلها أيضاً كنَّا في موت قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا، وبهذا سيكون لدينا ثلاث موتات وثلاثة إحياءات.

ولكن الجواب يتوضح عند التدقيق في نفس الآية، فالموت قبل الحياة الدنيا (أي في الحالة التي كنَّا فيها تراباً) يعتبر «موتاً» لا «إماتة» وأمَّا الحياة في هذه الدنيا فالبرغم من أنَّها مصداق للإحياء، إلا أنَّ القرآن لم يشر إلى هذا الجانب في الآية أعلاه، لأنَّ هذا الإحياء لا يشكِّل عبرة كافية بالنسبة للكافرين، إذ الشيء الذي جعلهم يعون ويعترفون بذنوبهم هو الحياة البرزخية أولاً، والحياة عند البعث ثانياً.

ثانياً: إنَّ المقصود بالحياتين، هو الإحياء في القبر لأجل بعض الأسئلة، والإحياء في يوم القيامة، وإنَّ المقصود بالموتين، هما الموتة في نهاية العمر، والموتة في القبر.

لذلك اعتبر بعض المفسرين هذه الآية دليلاً على الحياة المؤقتة في القبر. أمَّا عن كيفية حياة القبر، وفيما إذا كانت جسمانية أو برزخية أو نصف جسمانية، فهذه كلها بحوث ليس هنا مجال الخوض فيها.

ثالثاً: إنَّ المقصود بالموتة الأولى، هو الموت قبل وجود الإنسان في هذه الدنيا، إذ أنه كان تراباً في السابق، لذا فإنَّ الحياة الأولى هي الحياة في هذه الدنيا، والموت الثاني هو الموت في نهاية هذا العالم، فيما الحياة الثانية هي الحياة عند

البعث.

والذين يعتقدون بهذا التفسير يستدلون بالآية (٢٨) من سورة «البقرة» حيث قوله تعالى: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون».

إلا أن الآية التي نبهتها نتحدث عن إمامتين، في حين أن آية سورة البقرة تتحدث عن حياة واحدة وإمارة واحدة^(١).

يتضح من مجموع التفسيرات الثلاثة هذه أن التفسير الأول هو الأرجح. ولا بأس أن نشير إلى أن بعض مؤيدي «التناسخ» أرادوا الإستدلال بهذه الآية على الحياة والموت المكرر للإنسان، وعودة الروح إلى الأجساد الجديدة في هذه الدنيا، في حين أن الآية أعلاه تعتبر إحدى الأدلة الحية على نفي التناسخ، لأنها تحدد الموت والحياة في مرتين، إلا أن أنصار عقيدة «التناسخ» يقولون بالموت والحياة المتعدد والمتوالي، ويعتقدون بأن روح الإنسان الواحد يمكن أن تتجسد و تحل مرأت أخرى في أجساد جديدة، ونظف جديدة وترجع إلى هذه الدنيا.

من الطبيعي أن يكون الجواب على طلب الكافرين بالعودة إلى هذه الدنيا للتكفير عما فاتهم هو الرفض. وهذا الرفض من الواضح بحيث لم تشر إليه الآيات التي نبهتها.

لكن نستطيع أن نعتبر الآية التي بعدها دليلاً على ما نقول، إذ تقول: «ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يُشرك به تؤمنوا».

فعندما يدور الكلام عن التوحيد والتقوى والأوامر الحقة تشمئزون وتحزنون، أما إذا دار الحديث عن الكفر والنفاق والشرك فستفرحون وتنبسطن

١ - احتل بعض المفسرين أن الآية أعلاه تشير إلى «الرجعة» إلا أن مراعاة عمومية الآية وشمولها جميع الكافرين، وعدم ثبوت عمومية الرجعة لهم جميعاً، يجعل هذا التفسير قابلاً للنقاش.

أسأريركم، لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

وهنا نطرح هذا السؤال: كيف نربط هذا الجواب مع طلبهم العودة إلى هذه الدنيا؟

إن الآية تفيد أن حقيقة أعمال هؤلاء لم تكن محدودة بزمن معين، ولم تكن مؤقتة، بل كانت دائمية، لذلك فلو عادوا إلى الحياة مرة أخرى فإنهم سيستمرون على هذا الوضع، أما هذا الإيمان والتسليم والإذعان الذي رأيناه منهم يوم القيامة، فهو اضطراري وليس عن قناعة حقيقية.

ثم إن اعتقادات هؤلاء وأعمالهم ونياتهم السابقة تستوجب خلودهم في الجحيم، لذا فلا يمكن عودة هؤلاء إلى الدنيا مع هذا الوضع.

وهذا الوضع يختص بالأفراد الذين تجذّر الكفر والشر والذنب في أعماقهم، وهؤلاء هم الذين يصفهم القرآن بأن نفوسهم تشمئز عند ذكر الله تعالى وحده، ويفرحون عند ذكر الأصنام: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾^(١).

إن هذا الوصف لا يختص بالمشركين في زمن رسول الله ﷺ فحسب، إذ يشهد زماننا مثل هؤلاء من ذوي القلوب الميتة، الذين يفرون من الإيمان والتوحيد والتقوى، ويقبلون على الكفر والنفاق والفساد.

لذلك نقرأ في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام، في تفسير هذه الآية، أنها تختص بقضية (الولاية) إذ يتأذى البعض عند سماعها (أي الولاية) ويفرحون عند سماع أسماء أعداء أهل البيت عليهم السلام هذا التفسير هو من باب انطباق المفهوم العام على المصداق، وليس من باب تقييد كل المفهوم الذي تطوية الآية بهذا المصداق).

وفي نهاية الآية، ومن أجل أن لا ييأس هؤلاء المشركون ذوو القلوب

المظلّمة، تقول الآية إنّ الحاكمية تختص بذات الله سبحانه وتعالى: «فالحكم لله العليّ الكبير» إذ لا يوجد غيره قاضٍ وحاكم في محكمة الآخرة، ولا يوجد غيره علىّ وكبير، فلا يستطيع أحد أن يغلبه أو أن يؤثر عليه أو على حكمه بسفدية أو غرامة أو وساطة، فالحاكم المطلق هو، والجميع يطيعونه، ولا يوجد طريق للهرب من حكمه.



ملاحظة

الدعاء البعيد عن الإجابة!

ليست هذه المرّة الأولى التي تواجهنا فيها طلبات أهل النار أو الكفار الذين يريدون العودة إلى هذه الدنيا، فيكون الجواب بالنفي. لقد طرحت الآيات القرآنية هذا الموضوع عدّة مرّات. ففي سورة الشورى الآية (٤٤) نقرأ أن الظالمين بعد أن يروا العذاب يقولون: «هل إلى مردٍ من سبيل».

وفي الآية (٥٨) من سورة الزمر، ورد على لسان المذنبين وغير المؤمنين عند رؤيتهم العذاب: «أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرة فأكون من المحسنين».

وفي الآية (١٠٧) من سورة «المؤمنون» نقرأ قوله تعالى حكاية على لسان أمثال هؤلاء القوم: «ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون».

مجموعة أخرى عندما يحل بها الموت وترى ملائكة الموت تطلب من الله تعالى العودة فتقول: «ربّ أرجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت»^(١). إلا أنّ هذه الطلبات تردع دوماً بكلمة «كلاً» أو ما شابه ذلك.

وبذلك يتضح أنّ المفهوم القرآني يؤكد على أنّ الحياة في هذه الدنيا هي تجربة لا يمكن تكرارها بالنسبة للشخص، لذا يجب إبعاد هذا الوهم من العقول بأننا اذا متنا وواجهنا العذاب فسوف نعود الى هذه الدنيا ونجبر ما فات حيث لا إمكان للعودة إلى هذه الحياة بعد الموت.

وملاك هذا الأمر واضح، ففي قانون التكامل لا يمكن الرجوع والعودة، كما لا يمكن عودة الطفل إلى بطن أمه وفقاً لهذا القانون، سواء كان هذا الطفل قد اكتمل نموه في بطن أمه أو لم يكتمل وولد ناقصاً، إذ العودة غير ممكنة أصلاً. كذلك الموت الذي هو في الواقع ولادة ثانوية، وانتقال من عالم الدنيا هذه إلى عالم آخر، وهناك تعتبر العودة ضرباً من المحال.

إضافة إلى ذلك لا يمكن اعتبار اليقظة الإضرارية التي تنتاب الناس -الذين تتحدث عنهم الآية- دليلاً على الإقناع أو اليقظة الحقيقية، إذ عندما تخف أسبابها سيعود النسيان والغفلة مرة أخرى، وسيتم تكرار نفس الأعمال، كما نرى ذلك واضحاً في هذه الدنيا لدى الكثير من الناس الذين يتوجهون إلى خالقهم عندما تضيق عليهم الحياة، ويلجئون أبواب التوبة، إلا أنّهم بمجرد هدوء العواصف ينسون كل شيء وكانهم لم يدعوا الله إلى ضمير مسئهم!!



الآيات

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ
إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ
أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾

التفسير

ادع الله وحده رغماً على الكافرين:

هذه الآيات المتضمنة للنصيحة والتهديد والإنذار استدلال على المسائل المطروحة في الآيات السابقة، فهي استدلال على التوحيد والربوبية ونفي الشرك وعبادة الأصنام.

تقول الآية أولاً: «هو الذي يريكم آياته».

فهي نفس الآيات والعلامات الآفاقية والأنفسية التي تملأ عالم الوجود، وتستوعب بإشراقها أركانها، وتضع بصماتها وآثارها العجيبة على جدران الوجود وجميع أرجاءه.

ثم توضح واحدة من هذه الآيات: «وينزل لكم من السماء رزقاً».

قطرات المطر تعطي الحياة، ونور الشمس يحيي الكائنات، والهواء سرُّ الوجود والحياة؛ حياة جميع الكائنات، حيوانات نباتات، أناس... كلُّها تنزل من السماء. وتشكّل هذه الأثافي الثلاث فيما بينها قوام الحياة، حيث تتفرع الأشياء الأخرى من أصولها.

بعض المفسرين أطلق على السماء اسم «عالم الغيب» وعلى الأرض اسم «عالم الشهود» ونزول الرزق من السماء إلى الأرض هو بمعنى الظهور من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

ولكن هذا التفسير فضلاً عن منافاته لظاهر الآية، لم نعثر له على دليل وشاهد، صحيح أنّ الوحي والآيات، هما غذاء الروح، ينزلان من سماء الغيب، وأنّ المطر والشمس والنور التي تعتبر غذاء الجسد تنزل من السماء الظاهرية، وهما متناسقان مع بعضهما. ولكن ينبغي أن لا نتصور أن عبارة (آياته) التي نحن بصدد هاتشير إلى مفهوم أوسع، أو تشير بالخصوص إلى الآيات التشريعية، لأنّ عبارة «يريكم آياته» وردت مراراً في القرآن الكريم، وهي عادةً ما تطلق على الآيات الدالة على التوحيد في عالم الوجود.

مثلاً، في أواخر هذه السورة (المؤمن) وبعد ذكر النعم الإلهية، من قبيل الزواحف والفلك تقول: «ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون»^(١).

إنّ تعبير «يريكم» ينسجم في العادة مع الآيات التكوينية، بينما جرت العادة في الآيات التشريعية على استخدام تعابير مثل (أوحى) و (يأتكم).

من هنا يتبيّن أنّ اعتبار هذه الآيات بمعنى الآيات التشريعية، وأنّها أعم من التشريعية والتكوينية، كما يذهب بعض كبار المفسرين القدماء والمحدثين إلى ذلك، لا يستند إلى دليل، ولا تقوم عليه حجة.

ولكن من الضروري أن نلتفت إلى أنّ القرآن يختار الإشارة إلى آية الرزق

من بين آيات الله الماثورة في السماء والأرض وفي وجود الإنسان، ذلك لأنَّ الرزق هو أكثر ما يشغل البال والفكر، وأحياناً نرى الإنسان يستنجد بالأصنام من أجل زيادة الرزق، وإنقاذه من وضعه المتردي، لذا يأتي القرآن ليؤكد أن جميع الأرزاق هي بيد الله ولا تستطيع الأصنام أو غيرها أن تفعل أي شيء.

وأخيراً تضيف الآية الكريمة: برغم جميع هذه الآيات البينات التي تسود هذا العالم الواسع، وتغمد الوجود بضياتها، إلا أن العيون العمياء والقلوب المحجوبة لا تكاد ترى شيئاً، وإنما يتذكر - فقط - من ينيب إلى خالقه ويغسل قلبه وروحه من الذنوب: ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾.

الآية التي بعدها ترتب نتيجة على ما سبق فتقول: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ إنهضوا واضربوا الأصنام وحطموها بفؤوس الإيمان، وامحوا آثارها من ذاكرة الفكر والثقافة والمجتمع.

ومن الطبيعي أن وقتكم الزبانية هذه ستؤدي الكافرين والمعاندين، لكن عليكم أن لا تسمحوا للخوف أن يتسرّب إلى قلوبكم، أخلصوا نياتكم: ﴿ولو كره الكافرون﴾.

ففي المجتمع الذي يشكل فيه عبدة الأصنام الغالبية، يكون طريق أهل التوحيد موحشاً في بادئ الأمر، مثل شروق الشمس في بدايات الصباح الأولى وسط عالم الظلام والخفافيش، لكن عليكم أن لا تركنوا إلى ردود الأفعال غير المدروسة، تقدموا بحزم وإصرار، وارفعوا راية التوحيد والإخلاص، وانشروها في كل مكان.

تصف الآية التي تليها خالق الكون ومالك الحياة والموت، بعض الصفات المهمة، فتقول: ﴿رفيع الدرجات﴾ فهو تعالى يرفع درجات العباد الصالحين كما في قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾^(١).

وحتى بين التبيين فقد فضل الله بعضهم على بعض بسبب اجتيازهم للإمتحان والاختيار أكثر من غيرهم، فأخلصوا لله تعالى بمراتب أعلى وأفضل: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾^(١).

لقد استخلف الله الإنسان في هذه الأرض، وجعل منه خليفته، وفضل البعض على البعض الآخر وفقاً لاختلاف الخصائص والقابليات لدى الإنسان: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾^(٢).

فإذا كانت الآية السابقة قد دعت إلى الإخلاص في الدين، فإن الآية التي بين أيدينا تقول: إن الله تبارك وتعالى سوف يرفع درجاتكم بمقدار إخلاصكم، فهو رفيع الدرجات.

إن صحة كل هذه المعاني منوطة بتفسير (رفيع) بالرافع، إلا أن البعض ذهب إلى أن (رفيع) في الآية بمعنى (المرتفع) وبناء على هذا المعنى فإن «رفيع الدرجات» تشير إلى الصفات العالية الرفيعة لله تعالى، فهو رفيع في علمه، وفي قدرته، وفي جميع أوصافه الكمالية والجمالية، هو تعالى رفيع في أوصافه بحيث أن عقل الإنسان برغم قابليته واستعداده لا يستطيع أن يدركها.

وبحكم أن اللغة تعطي صلاحية متساوية للمعنيين الآتقين لكلمة (رفيع) فإن التفسيرين واردان، ولكن لأن الآية تتحدث عن إعطاء الأجر لعباد الله الصالحين، والذي هو الدرجات الرفيعة، لذا فإن المعنى الأول أظهر.

لكن لا مانع من الجمع بين التفسيرين، لأننا نعتقد جواز استخدام اللفظ لأكثر من معنى، خصوصاً في إطار الآيات التي تشتمل ألفاظها على معاني كبيرة وواسعة.

تضيف الآية بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ذو العرش﴾.

١- البقرة، الآية ٢٥٣.

٢- الأنعام، الآية ١٦٥.

فكل عالم الوجود تحت حكومته وفي قبضته، ولا منازع له في حكومته، وهذا بحد ذاته دليل على أن تحديد درجات العباد حسب أفضليتهم إنما يتم بقدرته تعالى.

وبما أننا تحدثنا بالتفصيل عن «العرش» فلا حاجة هنا للتكرار.

وفي وصف ثالث تضيف الآية أنه هو تعالى الذي: «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده» وهذه الروح هي نفس القرآن ومقام النبوة والوحي، حيث تحيي هذه الأمور القلوب، وتكون في الانسان كالروح بالنسبة لجسد الانسان. إن قدرته من جانب، ودرجاته الرفيعة من جانب آخر، تقتضي أن يعلن عز وجل عن برنامجه وتكليفه عن طريق الوحي، وهل ثمة تعبير أجمل من الروح، هذه الروح التي هي سر الحياة والحركة والنشاط والتقدم.

لقد ذكر المفسرون احتمالات متعدّدة لمعنى الروح، لكن من خلال القرائن الموجودة في الآية، ومما تفيدته الآية (٢) من سورة «النحل» التي تقول: «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذورا أنه لا إله إلا أنا فاتقون» وكذلك مما تفيدته آية (٥٢) من سورة «الشورى» التي تخاطب الرسول ﷺ وتوضح له نزول القرآن والإيمان والروح بقوله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» من كل ذلك يتبين أن المقصود بالروح في الآية التي نحن بصدددها، هو الوحي والقرآن والتكليف الإلهي.

تفيد عبارة (من أمره) أن ملك الوحي المكلف بإبلاغ هذه الروح، إنما يتحدث ويتكلم بأمر الله لا من عند نفسه.

أما قوله تعالى: «على من يشاء من عباده» فلا تعني أن هبة الوحي تعطى لأي كان، لأن مشيئته تعالى هي عين حكمته، وكل من يجده مؤهلاً لهذا المنصب يخصه بهذا الأمر، كما نقرأ في الآية (١٢٤) من سورة الأنعام حيث قوله تعالى: «الله أعلم

حيث يجعل رسالته».

وعندما نجد بعض الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام تُفسّر الروح في الآية أعلاه بـ «روح القدس» وتخصّها بالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام، فإنّ ذلك لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّ «روح القدس» هي نفس الروح العلوية المقدسة والمنصب المعنوي العظيم الذي يتجسّد كاملاً في الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، وكثيراً ما يتجلّى جزء منها في الأشخاص الآخرين الذي متى ما ساعدتهم فيوضات روح القدس فإنّه سيقومون بأعمال مهمّة، وتنطق لسانهم بالحكمة. (لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة تفسير الآية ٨٧ من سورة البقرة).

والملفت للنظر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن رزق الأجساد من مطر ونور وهواء، فيما تتحدث هذه الآيات عن الرزق «الروحي» والمعنوي المتمثل في نزول الوحي.

والآن لنرى ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عليهم السلام، ولماذا يسلك الأنبياء هذه الطرق الطويلة المليئة بالعقبات والصعاب.

الإجابة يقدمها القرآن في نهاية الآية بقوله: «لينذر يوم التلاق».

إنّه اليوم الذي يلتقي فيه العباد بخالقهم ...

إنّه اليوم الذي يلتقي فيه السابقون باللاحقين ...

إنّه اليوم الذي يجمع على ساحة القيامة بين رموز الحق وقادته، ورموز

الباطل وزعامته وأنصاره ...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين ...

إنّه يوم التقاء الظالم والمظلوم ...

هو يوم التقاء الإنسان والملائكة ...

وأخيراً، يوم التلاق، هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله وأقواله في محكمة

العدل الإلهي.

إذاً، هدف بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية هو تحذير الإنسان من يوم التلاقي الكبير... إنه لاسم عجيب (يوم التلاق) الذي انتخبته الآية اسماً ليوم القيامة!



الآيتان

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ
الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ
الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

التفسير

يوم التلاقي!

هذه الآيات والتي تليها، هي توضيح وتفسير (ليوم التلاق) وهو اسم ليوم
القيامة.

في هاتين الآيتين تم ذكر بعض خصوصيات القيامة وكلّ واحدة أكثر إثارة
من الأخرى.

يبين تعالى أن يوم التلاقي، هو: «يوم هم بارزون»... إنه اليوم الذي تزول فيه
جميع الحجب والأستار، وكتوطنة له ستزول الموانع المادية كالجبال الراسيات
مثلاً، وتصبح الأرض «قاعاً صافياً» كما يصفها القرآن في الآية (١٠٦) من
سورة طه.

ومن جانب آخر سيخرج الناس من قبورهم، ثم تتكشف الأسرار الباطنية

والمخفية: «يوم تبلى السرائر»^(١).

ويوم تخرج الأرض ما تطويه في بطونها: «وأخرجت الأرض أثقالها»^(٢).

ويوم تشر صحف الأعمال وينكشف محتواها: «وإذا الصحف نشرت»^(٣).

في يوم التلاق تتجسد الأعمال التي اقترفها الإنسان وتبدو حاضرة أمامه:

«يوم ينظر المرء ما قَدَّمَت يداه»^(٤).

وفي ذلك اليوم تنكشف الأسرار التي كان يطويها الإنسان بداخله ويتكتم

عليها: «بئل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل»^(٥).

وفي ذلك اليوم المهول ستشهد الأعضاء على أعمال الإنسان، وستشهد -

أيضاً- الأرض وتكشف ما ارتكب عليها: «يومئذ تحدث أخبارها»^(٦).

في ذلك اليوم سيطوى الكون، وسيظهر الإنسان بكل وجوده، ويبرز الكون

وما عليه، ولا تبقى من خافية: «ويرزوا الله جميعاً»^(٧).

إنَّه منظر مهول ومشهد موحش!!

ويكفي لتصور هول ذلك اليوم تخيّل... ولو للحظة واحدة... منظر هذه الدنيا

وقد حلّت بها شرائط القيامة؟ لترى أيّ فرع سينتاب البشرية وتحل بها! وكيف

تقطع العلائق والروابط في ذلك اليوم لذلك على الإنسان أن يستعد، وأن يعيش

بشكل لا يخشى فيه انكشاف المستور من أوضاعه، وأن تكون أعماله وأفعاله

بحيث لا يقلق منها لو ظهرت وانكشفت أمام الملائكة.

الوصف الثاني لذلك اليوم المهول، هو انكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى

١- الطارق، الآية ٩.

٢- الزلزال، الآية ٢.

٣- التكوثر، الآية ١٠.

٤- قنبا، الآية ٤٠.

٥- الأنعام، الآية ٢٨.

٦- الزلزال، الآية ٤.

٧- إبراهيم، الآية ٢١.

شيء منها على الله تعالى: «لا يخفى على الله منهم شيء».

بالطبع ... في هذه الحياة لا يخفى من أمر الإنسان شيء على الله العالم المطلق، إذ يتساوى لذى ذاته المطلقة غير المتناهية المخفي والظاهر، والشاهد والغائب. فلماذا- إذأ- ذكر القرآن الجملة أعلاه على أنها تفسير لجملة «يوم هم بارزون»؟

إن سبب ذلك يعود إلى أن «البروز» في ذلك اليوم يكون مؤكداً أكثر، بحيث أن الآخرين سيظلمون على أسرار بعضهم البعض. أما بالنسبة لله فالمسألة لا تحتاج إلى بحث أو كلام.

الخصوصية الثالثة ليوم التلاقي هو انبساط الحاكمية المطلقة لله تعالى، ويظهر ذلك من خلال نفس الآية التي تسأل عن الحكم والملك في ذلك اليوم: «لمن الملك اليوم»؟

يأتي الجواب: «الله الواحد القهار».

من الذي يطرح السؤال، ومن الذي يجيب عليه؟

الآية لا تتحدث عن ذلك، والتفاسير مختلفة في هذا الصدد.

ذهب البعض إلى أن السؤال يطرح من قبل الله جلّ وعلا، أما الجواب فيأتي من الجميع، مؤمنين وكافرين^(١).

وذهب آخرون إلى أن السؤال والجواب كلاهما من قبل الخالق عزّ وجلّ^(٢). قسم ثالث يعتقد أن «المنادي الإلهي» هو الذي يطرح السؤال، وهو الذي يجيب عليه.

ولكن يبدو من الظاهر أن هذا السؤال وجوابه لا يطرحان من قبل فرد معين، بل هو سؤال يطرحه الخالق والمخلوق، الملائكة والإنسان، المؤمن والكافر،

١ - مجمع البيان، أثناء تفسير الآية.

٢ - الميزان: ذهل الآية مورد البحث.

تطرحة جميع ذرات الوجود، وكلهم يجيبون عليه بلسان حالهم، بمعنى أنك أينما تنظر تشاهد آثار حاكميته، وأينما تدقق ترى علام قاهرته واضحة.

فلو أصحت السمع إلى أي ذرة من ذرات الوجود، لسمعتها تقول: «لمن الملك» وفي الجواب تسمعها نفسها تقول: «الله الواحد القهار».

وقد نرى في هذه الدنيا نموذجاً مصغراً لذلك، فعندما ندخل إلى بيت أو مدينة أو بلد معين، فإننا نحس بقدرة شخص معين، وبانبساط حاكميته، وكأن الجميع يقولون - كل بلسان حاله - إن المالك أو الحاكم هو فلان، وتشهد على ذلك حتى الجدران!!

وبالطبع، في هذا اليوم أيضاً تطفئ الحاكمية الإلهية على كل شيء، وتبسط قدرتها في كل الأرجاء، لكن في يوم القيامة سيكون لها ظهور وبروز من نوع جديد، فهناك لا يوجد كلام عن حكومة الجبارين، ولا نسمع ضجيج الطواغيت السكارى، ولا نرى أثراً لإبليس وجنوده وجيوشه من الإنس والجن.

الخصوصية الرابعة لذلك اليوم، هو كونه يوم جزاء: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت». أجل، إن ظهور وبروز الاحاطة العلمية لله تعالى وحاكميته ومالكيته وقهاريته كلها أدلة واضحة على هذه الحقيقة العظيمة المخيفة من جهة، والمفرحة من جهة أخرى.

أما الخصوصية الخامسة لذلك اليوم، فهي ما يختصره قوله تعالى: «لا ظلم اليوم».

وكيف يمكن أن يحصل الظلم، في حين أن الظلم إما أن يكون عن جهل، والله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً.

وإما أن يكون عن عجز، والله عز وجل هو القاهر والمالك والحاكم على شيء، لذا لا مجال لظلم أحد في محضر القدس الإلهي وفي ساحة القضاء الإلهي العادل.

الصفة السادسة والأخيرة ليوم التلاقي، هي سرعة الحساب لأعمال العباد، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وسرعة الحساب بالنسبة لله تعالى تجري كلمح البصر، وهي بدرجة بحيث نقرأ عنها في حديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْسَبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فِي مَقْدَارِ لَمَحِ الْبَصْرِ»^(١).

وأساساً فإنه مع القبول بمسألة تجسّم الاعمال وبقاء آثار الخير والشر فإن مسألة الحساب مسألة محلولة؟ فهل أن الأجهزة المتطورة في هذه الدنيا التي تحسب مقدار العمل في اثناء العمل بحاجة الى زمان؟! وقد يكون الغرض من تكرار «سريع الحساب» في مواضع مختلفة من القرآن الكريم هو عدم انخداع الناس العاديين بوساوس الشيطان وإغوائاته، ومن يتبعه من الذين يثيرون الشكوك بإمكانية محاسبة الخلائق على أعمالهم التي قاموا بها خلال آلاف سحيفة من السنين وعصور التاريخ. إضافة إلى أن هذا التعبير يستبطن معنى التحذير لجميع الناس بأن ذلك اليوم لا مجال فيه للمجرمين والظالمين والقتلة، ولا تعطى لهم الفرصة كما يحصل في هذه الدنيا، حيث يترك ملف الظلمة والقتلة لشهور وسنين.

* * *

الآيات

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَسْظِيمٍ مَّا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿٧٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٨٠﴾

التفسير

يوم تبلغ القلوب الحناجر:

هذه الآيات تستمر - كالأيات السابقة - في وصف القيامة - يوم التلاقي -
وتحدد سبع خصائص للقيامة والحوادث المهولة والمدهشة التي تدفع بكل انسان
مؤمن نحو التفكير والتأمل بالحياة والمصير.
يقول تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾.

«الآرزاق» باللغة بمعنى (القریب) وبإلها من كناية عجيبة، حيث أطلق سبحانه
على يوم القيامة يوم الأرزاق كي لا يظن الجهلة أن هناك فترة طويلة تفصلهم عن
ذلك اليوم، فلا ينبغي - والحال هذه - أن ينشغل المرء بالتفكير به!
وإذا نظرنا بتأمل فسنجد أن عمر الدنيا بأجمعه لا يعادل سوى لحظة زائلة

حيال يوم القيامة، ولأنَّ الله تبارك وتعالى لم يذكر أيَّ تأريخ لهذا اليوم المهول، حتى للأنبياء ﷺ، لذا يجب الإستعداد دائماً لاستقبال ذلك اليوم.

الوصف الثاني ليوم الأزقة هو: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ من شدة الخوف. فعندما تواجه الإنسان الصعوبات يشعر وكأنَّ قلبه يفر من مكانه، وكأنَّه يريد أن يخرج من حنجرته، والعرب في ثقافتها اللغوية التي نزل بها القرآن تطلق على هذه الحالة وصف «بلغت القلوب الحناجر».

ويمكن أن يكون (القلب) كناية عن (الروح) بمعنى أنَّ روحه بلغت حنجرته هلعاً وخوفاً، كأنما تريد أن تفارق بدنه تدريجياً ولم يبق منها سوى القليل.

إنَّ هول الخوف من الحساب الإلهي الرباني الدقيق، والخشية من الإفتضاح وانكشاف السر والحجب أمام جميع الخلائق، وتحمل العذاب الأليم الذي لا يمكن الخلاص منه، كلَّ هذه أمور سيواجهها الإنسان ولا يمكن وصفها وشرحها بأي بيان.

الصفة الثالثة لذلك اليوم تعبر عنها الآية بـ ﴿كاظمين﴾ أي إنَّ الهم والغم سيشمل كل وجودهم، إلاَّ أنَّهم لا يستطيعون إظهار ذلك أو إبداءه.

«كاظم» مشتقة من «كظم» وهي في الأصل تعني غلق فوهة القربة المملوءة بالماء؛ ثمَّ أطلقت بعد ذلك على الأشخاص المملوئين غضباً إلاَّ أنَّهم لا يظهره لسبب من الأسباب.

قد يستطيع الإنسان المغمووم المحزون أن يهدأ أو يستريح بالصراخ، لكن المصيبة حينما لا يستطيع هذا الإنسان حتى عن الصراخ ... فماذا ينفع الصراخ في محضر الخالق جلَّ وعلا وفي ساحة عدله وعندما تنكشف جميع الأسرار امام جميع الخلائق.

الصفة الرابعة ليوم التلاقي هو يوم: ﴿ما للظالمين من حميم﴾. أي صديق نعم، أنَّ تلك المجموعة من الأصدقاء الكذابين التي تحيط بالشخص كذباً وتملقاً - كما

يحيط الذباب بالحلويات - طمعاً في مقامه وقدرته وجاهه وماله. إنَّ هؤلاء في هذا اليوم مشغولون بأنفسهم لا ينفعون أحداً... وهو يوم لا تنفع فيه لا صداقة ولا خلّة.

الصفة الخامسة تقول عنها الآية: ﴿ولا شفيع يطاع﴾.

ذلك أنَّ شفاعَةَ الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء والأولياء إنما تكون بإذن الله تعالى، وعلى هذا الأساس لا مجال لتلك التصورات السقيمة لعبدة الأصنام، الذين كانوا يعتقدون في الحياة الدنيا أنَّ أصنامهم ستشفع لهم في حضرة الله جلَّ وعلا. وفي المرحلة السادسة تذكر الآية أحد صفات الخالق جلَّ وعلا، والتي تعتبر في نفس الوقت وصفاً لكيفية القيامة، حيث تقول: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾^(١).

إنَّ الله تبارك وتعالى يعلم الحركات السرية للعيون وما تخفيه الصدور من أسرار، وسيقوم تعالى بالحكم والقضاء العادل عليها، وهو بعلمه سيجعل صباح الظالمين المذنبين مظلاماً.

وعندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى الآية فأجاب: «ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر إليه، فذلك خائنة الأعين»^(٢). أي يوهم أنه لا ينظر إليه.

قد يتناول البعض بنظره إلى أعراض الناس وإلى ما يحرم النظر إليه، وقد يستطيع الفاعل أن يخفي فعلته عن الآخرين، لكن ذلك لا يخفى عن علم الله المحيط بكل ذرات الوجود إذ: ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في

١ - هناك احتمالان من حيث التركيب النحوي لجملة «يعلم خائنة الأعين»: الأول: أنَّ (خائنة) لها معنى مصدرى وتعني الخيانة (مثل كاذبة ولا غبة بمعنى كذب ولغو). ويحتل أن تكون (اسم فاعل) من باب تقديم الصفة، أي أنها تعني في الأصل (الأعين الخائنة).

٢ - تفسر الصافي أثناء الحديث عن الآية.

الأرض ﴿١﴾.

وقد روي أنه (لما جيء بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله ﷺ بعد ما اطمان أهل مكة وطلب له الأمان عثمان صمت رسول الله طويلاً ثم قال (نعم) فلما انصرف قال رسول الله لمن حوله: «ما صمت طويلاً إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار: فهلاً أو مات إلي يا رسول الله، فقال: «إن النسبي لا تكون له خاتنة الأعين»^(١).

وبالطبع فإنّ لخيانة العين أشكال مختلفة، إذ تتمثل في بعض الأحيان باستراق النظر إلى ما يحرم كالنساء وغيرهن، وأحياناً تتمثل بإشارات معينة للعين تهدف تحقير الآخرين والإستهزاء بكلامهم. وقد تكون حركات العين مقدمة لمخططات شيطانية ضد الآخرين.

إنّ من يؤمن بالحساب الدقيق في الآخرة، عليه أن يراعي حدود التقوى في خاتنة الأعين وخطرات الفكر، وواضح أنّ استحضار عناصر الرقابة هذه لها مؤداها التربوي الكبير في سلوك الإنسان وحياته.

وفي قصص الوعظ المتداولة في مجالس العلماء، يقال أن أحد كبار العلماء عندما أنهى دراسته الدينية في النجف الأشرف، طلب من أستاذه عندما أراد الرجوع إلى بلده أن يعظه وينصحه، فقال له الأستاذ: بعد كلّ هذا التعب وتحمل مضاق الدراسة والتحصيل فإنّ آخر نصيحتي لك هي أن لا تنسى أبداً قوله تعالى ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾^(٢).

المؤمن الحقيقي يعتبر العالم كلّه حاضراً عند الله تعالى، وإنّ كلّ الأعمال تتمّ في حضوره، وينبغي لهذا الحضور الإلهي أن يكون رادعاً كافياً للخجل والكف

١- سبأ، الآية ٣.

٢- تفسر القرطبي ذيل الآية.

٣- الملئق، الآية ١٤.

عن المعاصي والذنوب.

الآية التي تليها تتحدث عن صفة سابعة للقيامة تتمثل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾.

أما غيره: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾.

في ذلك اليوم يختص الله وحده بالقضاء، وهو جلّ جلاله لا يقضي إلا بالحق، لأنّ القضاء بغير الحق - بالظلم مثلاً والإنحياز - إما أن يعود إلى الجهل وعدم المعرفة، والله محيط بكل شيء، حتى بما يموج في الضمائر وماتكته السرائر. أو أنه يكون نتيجة للعجز والإحتياج، وهذه صفات هي أبعد ما تكون عن ذات الله جلّ جلاله.

إنّ هذا التعبير يحمل في مؤداه دليلاً كبيراً على توحيد المعبود والعبادة، لأنّ من يكون له حق القضاء في النهاية يستحق العبادة حتماً أما الأصنام التي لا تنفع شيئاً في هذا العالم، ولا تكون في القيامة مرجعاً للحكم والقضاء، فكيف تستحق العبادة.

ومن الضروري أن نشير أيضاً إلى أنّ للحكم والقضاء بالحق معاني واسعة، إذ هي تشمل عالم التكوين وعالم التشريع، حيث وردت كلمة «قضى» في الآيات القرآنية لتشمل المعنيين، ففي مكان نقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(١) حيث تنطوي الآية على القضاء التشريعي. وفي آية أخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾^(٢).

وفي الختام وللتأكيد على المطالب المذكورة في الآيات السابقة تضيف الآية (إن الله هو السميع البصير).

١- الإسراء، الآية ٢٣.

٢- آل عمران، الآية ٤٧.

فهو تعالى سميع وبصير بمعنى الكلمة، أي إن كلَّ المسموعات والمبصرات حاضرة عنده، وهذا تأكيد على إحاطته وعلمه بكل شيء، وقضاوته بالحق، إذ ما لم يكن الشخص سميعاً وبصيراً مطلقاً فلا يستطيع أن يقضي بالحق،



الآيتان

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾

التفسير

اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين:

إن أسلوب القرآن الكريم في كثير من الآيات أنه بعد أن يتعرض لكليات
القضايا الحساسة والمهمة يمزجها ببعض المسائل الجزئية والمحسوسة ويأخذ بيد
الإنسان ليريه الحوادث الماضية والحالية. لذلك فإن الآيات التي بين أيدينا
تتحدث عن أحوال الأمم الظالمة السابقة ومنهم فرعون والفراعنة وما حل بهم من
جزاء اليم، وتدعوا الناس للإعتبار بمصير أولئك، بعد ما كانت الآيات السابقة قد
حدثتنا عن يوم القيامة وصفاته وطبيعة الحساب الدقيق الذي ينطوي عليه.
يقول تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا

من قبلهم».

إنّ الذي تحكيه الآيات وتدعونا للإعتبار به ليس تأريخاً مدوناً نستطيع أن نشكك في طبيعة الوثائق والنصوص المكوّنة له، وإنما هو تأريخ حي ينطق عن نفسه، وينبض بالعبرة والعظة، فهذه قصور الظالمين الخربة، وماتركوه من جنات وعيون، وهذه مدن الأشقياء التي نزل بساحتها العذاب والانتقام الإلهي، وها هي عظامهم النخرة التي يطويها التراب، والقصور المدفونة تحت الأرض ... ها هي كلّها تحكي عظة الدرس، وعظيم العبرة، خصوصاً وأنّ القرآن يزيدنا معرفةً بهؤلاء فيقول عنهم: «كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض».

كانوا يملكون السلطات القوية، والجيوش العظيمة، والمدنية الباهرة التي لا يمكن مقايستها بحياة مشركي مكة.

إنّ تعبير «أشد منهم قوة» يكشف عن قوتهم السياسية والعسكرية، وعن قوته الإقتصادية والعلمية أيضاً.

أما التعبير في قوله تعالى: «آثاراً في الأرض» فلعله إشارة إلى تقدمهم الزراعي العظيم، كما ورد في الآية (٩) من سورة «الروم» في قوله تعالى: «أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها».

وقد يكون التعبير القرآني إشارة إلى البناء المحكم العظيم للأمم السابقة، مما قاموا به في أعماق الجبال وبين السهول، كما يصف القرآن ذلك في حال قوم «عاد»: «أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون»^(١).

ولكن عاقبة هؤلاء القوم، بكل ما انطوت عليه حياتهم من مظاهر قوة وحياة ونماء، هي كما يقول تعالى: «فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق». فلم تنفعهم كثرتهم ولم تمنعهم أموالهم وقدرتهم وشوكتهم من العذاب الإلهي

عندما نزل بساحتهم.

لقد وردت كلمة «أخذ» مراراً في القرآن الكريم بمعنى العقاب، وهي إشارة إلى «أخذ» القوم أو الجماعة قبل أن يُنزل بها العقاب، تماماً كما يقبض أولاً على الشخص المجرم، ثم يتمّ عقابه.

الآية التي بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقاً بإيجاز، بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا﴾. فلم يكن الأمر أنهم كانوا غافلين ولم يعرفوا الأمر، ولم يكن كفرهم وارتكابهم الذنوب بسبب عدم إتمام الحجّة عليهم، فلقد كانت تأتيهم رسلهم تترأ، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ﴾ إلا أنهم لم يخضعوا للأوامر الإلهية، كانوا يحطمون مصابيح الهداية، ويديرون ظهورهم للرسول، وكانوا - أحياناً - يقتلونهم!

وحينئذ: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ وعاقبتهم أشدّ العقاب - ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. إذ هو في مواطن الرأفة أرحم الراحمين وفي مواضع الغضب أشدّ المعاقبين.



الآيات

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهٰمٰنَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سٰحِرٌ كَذٰبٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِٱلْحَقِّ
مِنَ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ ٱلَّذِينَ ءٰمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۗ ۭ اِلَّا فِي ظٰلِلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ذُرُونِي ۖ اَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ اِنِّي ۤاَخَافُ اَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ اَوْ
اَنْ يُظْهِرَ فِي ٱلْاَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ اِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

التفسير

ذروني اقتل موسى!!

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى العاقبة الأليمة للأقوام السابقة، فقد شرعت الآيات التي بين أيدينا بشرح واحدة من هذه الحوادث، من خلال قصة موسى وفرعون، وهامان وقارون.

قد يبدو للوهلة الأولى أن قصة موسى ﷺ مكررة في أكثر من سورة من سور

القرآن الكريم، ولكن التأمّل في هذه الموارد يظهر خطأ هذا التصوّر، إذ يتبيّن أن القرآن يتطرف إلى ذكر القصة في كلّ مرّة من زاوية معينة، وفي هذه السورة يتعرض القرآن للقصة من زاوية دور «مؤمن آل فرعون» فيها. والباقي هو بمثابة أرضية ممهّدة لحكاية هذا الدور.

يقول تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾.

أرسله تعالى: ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾.

لقد ذكر المفسرون عدّة تفاسير في الفرق بين «الآيات» و «السلطان المبين» فالبعض اعتبر «الآيات» الأدلة الواضحة، بينما «السلطان المبين» هي المعجزات. والبعض الآخر اعتبر «الآيات» آيات التوراة، بينما «السلطان المبين» المعجزات.

واحتمل البعض الثالث أنّ «الآيات» تشمل كلّ معاجز موسى ﷺ، أمّا «السلطان المبين» فهو المعاجز الكبيرة كالعصا واليد البيضاء، التي تسببت في غلبته الواضحة على فرعون.

ومنهم من اعتبر «الآيات» المعجزات، بينما فسّر «السلطان المبين» بالسلطة القاهرة والنفوذ الإلهي لموسى ﷺ والذي كان سبباً في عدم قتله وعدم فشل دعوته.

لكن الملاحظ أنّ هذه الآراء بمجموعها لا تقوم على أدلة قوية واضحة، ولكن نستفيد من الآيات القرآنية الأخرى أنّ «السلطان المبين» يعني - في العادة - الدليل الواضح القوي الذي يؤدي إلى السلطة الواضحة، كما نرى ذلك واضحاً في الآية (٢١) من سورة «التمل» أثناء الحديث عن قصة سليمان ﷺ والهدهد حيث يقول تعالى على لسان سليمان: ﴿وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ فالسلطان المبين هنا هو الدليل الواضح للغيبة.

وفي الآية (١٥) من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿لو لا يأتون عليه بسُلطان بين﴾.

أما «الآيات» فقد وردت في القرآن مراراً بمعنى المعاجز. وبناء على هذا فإنّ «آيات» في الآية التي نحن بصددّها تشير إلى «معجزات موسى» بينما يشير «سلطان مبين» إلى منطوق موسى ﷺ وأدلتها القاطعة في مقابل الفراعنة.

إنّ موسى ﷺ كان يزواج بين منطق العقل، وبين الأعمال الإعجازية التي تعتبر علامة كافية على ارتباطه بعالم الغيب وبالله تعالى، ولكن في المقابل لم يكن للفراعنة من منطق سوى اتهامه بالسحر أو الكذب. لقد اتهموه بالسحر في مقابل الآيات والمعجزات التي أظهرها، وكذبوه مقابل منطقهم واستدلّاه العقلاني على الأمور. وهذا ما يؤيد الرأي الذي اخترناه في تفسير «آيات» و«سلطان مبين». وبالنسبة للطواغيت والفراعنة لا يملكون أصلاً سوى منطق الإتهام، وأسلوب إطلاق الشبهات على رجال الحق ودعائه.

والذي يلفت النظر في الآية الكريمة إشارتها إلى ثلاثة أسماء، كلّ واحد منها يرمز لشيء معين في سياق الحالة السائدة آنذاك، والتي يمكن أن تجد مماثلاتها في أي عصر.

«فرعون» نموذج للطغاة والعصاة وحكّام الظلم والجور.
«هامان» رمز للشيطنة والخطط الشيطانية.

«قارون» نموذج للأثرياء البغاة، والمستغلين الذين لا يهمهم أي شيء في سبيل الحفاظ على ثرواتهم وزيادتها.

وبذلك كانت دعوة موسى ﷺ تستهدف القضاء على الحاكم الظالم، والمخططات الشيطانية لرموز السياسة في حاشية السلطان الظالم، وبتجاوزات الأثرياء المتستكبرين، وبناء مجتمع جديد يقوم على قواعد العدالة الكاملة في

المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية. ولكن من وقعت مصالحة اللامشروعة في خطر! قصدوا لمقاومة هذه الدعوة الإلهية.

الآية التي بعدها تعرض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمة في مقابل دعوة النبي موسى ﷺ: «فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم».

وما نستفيدة من الآية هو أن قضية قتل الأبناء والإبقاء على النساء فقط لم يقتصر - كأسلوب طاغوتي - على الفترة التي سبقت ولادة موسى ﷺ فحسب، وإنما تمّ تكرار هذه الممارسة أثناء نبوة موسى ﷺ، فالآية (١٢٩) من سورة الأعراف تؤيد هذا الرأي، حيث تحكي على لسان بني إسرائيل قولهم لموسى ﷺ: «أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا».

لقد صدر هذا القول عن بني إسرائيل بعد أن قام فرعون بقتل أبناء المؤمنين منهم بدعوة موسى ﷺ.

وفي كل الأحوال، يعبر هذا الأسلوب عن واحدة من الممارسات والخطط المشؤومة الدائمة للقدرات الشيطانية الظالمة التي تستهدف إبادة وتعطيل الصاقات الفعالة، وترك غير الفاعلين للإفادة منهم في خدمة النظام.

لقد كان «بنو إسرائيل» قبل موسى ﷺ عبداً للفراعنة، لذلك لم يكن من العجيب أن تبادر سلطات فرعون بعد بعثة موسى ﷺ وشيوع دعوته إلى اعتماد الخطة المعادية في قتل الأبناء واستحياء النساء، بهدف الانتقام والإبادة الشديدة لبني إسرائيل كي تتعطل فيهم عوامل الصمود والمقاومة.

ولكن ما هي نتيجة كل هذا الكيد؟

القرآن يجيب: «وما كيد الكافرين إلا في ضلال».

أعمالهم سهام تطلق في ظلام الجهل والضلال فلا تصيب سوى الحجارة! لقد قضى الله تعالى بمشيئته أن ينتصر الحق وأهله، وأن يزهد الباطل وأنصاره.

لقد اشتد الصراع بين موسى ﷺ وأصحابه من جانب، وبين فرعون وأنصاره من جانب آخر. ووقعت حوادث كثيرة، لا يذكر القرآن عنها كثيراً في هذه الفقرة، ولتحقيق هدف خاص يذكر القرآن أن فرعون قرّر قتل موسى ﷺ لمنع انتشار دعوته وللحيلولة دون ذبوعها، لكنّ المستشارين من «الملا» من القوم عارضوا الفكرة.

يقول تعالى: ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾.

نستفيد من الآية أن أكثرية مستشارية أو بعضهم على الاقل كانوا يعارضون قتل موسى، لخوفهم أن يطلب ﷺ من ربه نزول العذاب بساحتهم، لما كانوا يرون من معجزاته وأعماله غير العادية، إلا أن فرعون - بدافع من غروره - يصّر على قتله مهما تكن النتائج.

وبالطبع، فإنّ سبب امتناع «الملا» عن تأييد فكرة فرعون في قتل موسى غير معلوم، فهناك احتمالات كثيرة قد يكون بعضها أو كلّها صحيحة ...

فقد يكون الخوف من العذاب الإلهي - كما احتملنا - هو السبب.

وقد يكون السبب خشية القوم من تحوّل موسى ﷺ بعد استشهاده إلى حالة مقدّسة، وهو ممّا يؤدي إلى زيادة عدد الأتباع والمؤمنين بدعوته، خاصة إذا ما وقعت حادثة قتله بعد قضية لقاء موسى مع السحرة وانتصاره الإعجازي عليهم. وما يؤكّد هذا المعنى هو أن موسى جاء في بداية دعوته بمعجزتين كبيرتين (العصا واليد البيضاء) وقد دعا هذا الأمر فرعون إلى أن يصف موسى ﷺ بالساحر، وأن يدعو للمنازلة مع السحرة في ميقات يوم معلوم (يوم الزينة) وكان يأمل الإنتصار على موسى ﷺ عن هذا الطريق، لذا بقي في انتظار هذا اليوم.

وبمشاهدة هذا الوضع ينتفي احتمال أن يكون فرعون قد صمّم على قتل

موسى قبل حادث يوم الزينة خشية من تبدل دين أهل مصر^(١).

خلاصة القول: إن هؤلاء يعتقدون أن موسى ﷺ مجرد حادث صغير ومحدود، بينما يؤدي قتله في مثل تلك الظروف إلى أن يتحول إلى تيار... تيار كبير يصعب السيطرة عليه.

البعض الآخر من المقربين لفرعون ممن لا يعيل إليه، كان يرغب ببقاء موسى ﷺ حياً حتى يشغل فكر فرعون دائماً، كي يتمكن هؤلاء من العيش بارتياح بعيداً عن عيون فرعون، ويفعلون ما شاؤوا من دون رقابته.

وهذا الأمر يعبر عن «سليقة» في بلاط السلاطين، إذ يقوم رجال الحاشية - من هذا النوع - بتحريك بعض أعداء السلطة حتى ينشغل الملك أو السلطان بهم، وليأمنوا هم من رقابته عليهم، كي يفعلوا ما يريدون!

وقد استدل فرعون على تصميمه في قتل موسى ﷺ بدليلين، الأول ذو طابع ديني ومعنوي، والآخر ذو طابع دنيوي ومادي، فقال الأول، كما يحكي القرآن ذلك: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾.

وفي الثاني: ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾.

فإذا سكنت أنا وكففت عن قتله، فسيظهر دين موسى وينفذ في أعماق قلوب أهل مصر، وستبدل عبادة الأصنام التي تحفظ منافعكم ووحدةكم؛ وإذا سكنت اليوم فإن الزمن كفيل بزيادة أنصار موسى ﷺ وأتباعه، وهو أمر تصعب معه مجاهدته في المستقبل، إذ ستجر الخصومة والصراع معه إلى إراقة الدماء والفساد وشيوع القلق في البلاد، لذا فالمصلحة تقتضي أن أقتله أسرع ما يمكن.

بالطبع، لم يكن فرعون يقصد من الدين شيئاً سوى عبادته أو عبادة الأصنام،

١ - ورد في تفسير الميزان عند الحديث عن الآية (٣٦) من سورة الشعراء: ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ إن الآية دليل على أن هناك مجموعة منتمت فرعون من قتل «موسى ﷺ» إلا أن التدقيق في الآيات الخاصة بقصة موسى تظهر أنه لم تكن هناك نية لقتله في ذلك الوقت، وإنما كان الهدف اختيار النوايا لمعرفة الصادق من الكاذب، أما التصميم على القتل فقد كان بعد حادثة السحرة وانتصار موسى ﷺ عليهم ونفوذ تأخره في أعماق قلوب أهل مصر، حيث خشي فرعون العواقب.

وهذا الأسلوب في استخدام لباس الدين واسمه وتبني شعاراته، يستهدف منه السلطان (فرعون) تحذير الناس وتجهيلهم من خلال إعطاء طابع الدين على مواقفه وكيانه وسلطته.

أما الفساد فهو من وجهة نظر فرعون يعني الثورة ضد استكبار فرعون من أجل تحرير عامة العباد، ومحو آثار عبادة الأصنام، وإحياء معالم التوحيد، وتشبيد الحياة على أساسها.

إن استخدام لباس الدين ورفع شعاراته، وكذلك «التدليس» على المصلحين بالإتهامات، هما من الأساليب التي يعتمدهما الظلمة والطغاة في كل عصر ومصر، وعالمنا اليوم يموج بالأمثلة على ما نقول!

والآن لتر كيف كان رد فعل موسى ﷺ والذي يبدو أنه كان حاضر المجلس؟ يقول القرآن في ذلك: «وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب».

قال موسى ﷺ هذا الكلام بقاطعية واطمئنان يستمدان جذورهما من إيمانه القوي واعتماده المطلق على الله تعالى، وأثبت بذلك بأنه لا يهتز أو يخاف أمام التهديدات.

ويستفاد من قول موسى ﷺ أيضاً أن من تحل فيه صفتا «التكبر» و«عدم الإيمان بيوم الحساب» فهو إنسان خطر، علينا أن نستعيذ بالله من شره وكيده.

فالتكبر يصبح سبباً لأن لا يرى الإنسان سوى نفسه وسوى أفكاره، فهو يعتبر كما في حال فرعون - الآيات والمعجزات الإلهية سحراً، ويعتبر المصلحين مفسدين، ونصيحة الأصدقاء والمقربين ضعفاً في النفس.

أما عدم الإيمان بيوم الحساب فيجعل الإنسان حراً طليقاً في أعماله وبرامجه، لا يفكر بالعواقب، ولا يرى لنفسه حدوداً يقف عندها، وسيقوم بسبب

انعدام الضوابط وفقدان الرقابة بمواجهة كل دعوة سالحة ويحارب الأنبياء.

ولكن ماذا كان عاقبة تهديد فرعون؟

الآيات القادمة تنبئنا بذلك، وتكشف كيف استطاع موسى عليه السلام أن يفلت من

مخالب هذا الرجل المتكبر المغرور.



الآيات

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ
كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَنْقُومِ لَكُمْ الْمَلِكُ
الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا
قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

التفسير

أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!

مع هذه الآيات تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ موسى عليه السلام وفرعون، لم تطرح في أي مكان آخر من القرآن الكريم. المرحلة التي نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذي كان من المقربين إلى فرعون، ولكنه اعتنق دعوة موسى التوحيدية من دون أن يفصح عن إيمانه الجديد هذا، وإنما تكتم عليه واعتبر نفسه.

من موقعه في بلاط فرعون - مكلفاً بحماية موسى ﷺ من أي خطر يمكن أن يتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعندما شاهد أن حياة موسى في خطر بسبب غضب فرعون، بادر بأسلوبه المؤثر للقضاء على هذا المخطط.

يقول تعالى: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾.

أتقتلوه في حين أنه: ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾.

هل فيكم من يستطيع أن ينكر معاجزه، مثل معجزة العصا واليد البيضاء؟ ألم تشاهدوا بأعينكم انتصاره على السحرة، بحيث أن جميعهم استسلموا له وأذعنوا لعقيدته عن قناعة تامة، ولم يرضخوا لتهديدات فرعون ووعيده، ولا لإغراءاته وأمنيته، بل استرخصوا الأرواح في سبيل الحق؛ في سبيل دعوة موسى، وإله موسى... هل يمكن أن نسّمى مثل هذا الشخص بالساحر؟

فكروا جيداً، لا تقوموا بعملٍ عجول، تحسّبوا لعواقب الأمور وإلا فالندم حليفكم.

ثم إنّ للقضية بعد ذلك جانبين: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾.

إنّ حبل الكذب قصير - كما يقولون - وسينفذ أمره في النهاية إذا كان كاذباً، وينال جزاء الكاذبين، وإذا كان صادقاً ومأموراً من قبل السماء فإنّ توعده لكم بالعذاب حاصل شتّم أم أبيتم، لذا فإنّ قتله في كلا الحالين أمر بعيد عن المنطق و الصواب.

ثم تضيف الآيات: ﴿إنّ الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذّابٌ﴾.

فإذا كان موسى سائراً في طريق الكذب والتجاوز فسوف لن تشملته الهداية الإلهية، وإذا كنتم كذلك فستحرمون من هدايته.

ولنا أن نلاحظ أن العبارة الأخيرة برغم أنها تحمل معنيين إلا أن «مؤمن آل فرعون» يهدف من خلالها إلى توضيح حال الفراعنة.

والتعبير الذي يليه يفيد أن فرعون، أو بعض الفراعنة - على الأقل - كانوا يؤمنون بالله، وإلا فإن تعبير «مؤمن آل فرعون» في خلاف هذا التأويل سيكون دليلاً على إيمانه بإله موسى ﷺ وتعاونه مع بني إسرائيل، وهذا ما لا يتطابق مع دوره في تكمته على إيمانه، ولا يناسب أيضاً مع أسلوب «التقية» التي كان يعمل بها.

و بالنسبة للتعبير الآنف الذكر «و إن يك كاذباً...» فقد طرح المفسرون سؤالين:

الأول: إذا كان موسى ﷺ كاذباً، فإن عاقبة كذبه سوف لن تقتصر عليه و حسب، وإنما سوف تنعكس العواقب السيئة على المجتمع برمته.

الثاني: أما لو كان صادقاً، فستتحقق كل تهديداته ووعيده لا بعض منها، كما في تعبير «مؤمن آل فرعون»؟

بالنسبة للسؤال الأول، نقول: إن المراد هو معاقبة جريمة الكذب التي تشمل شخص الكذاب فقط ويكفيها العذاب الإلهي لدفع شره. وإلا فكيف يمكن لشخص أن يكذب على الله، ويتركه سبحانه لشأنه كي يكون سبباً لإضلال الناس وإغوائهم؟

وبالنسبة للسؤال الثاني، من الطبيعي أن يكون قصد موسى ﷺ من التهديد بالعذاب، هو العذاب الدنيوي والأخروي، والتعبير بـ «بعض» إنما يشير إلى العذاب الدنيوي، وهو الحد الأدنى المتيقن حصوله في حالة تكذيبكم إياه.

وفي كل الأحوال تبدو جهود «مؤمن آل فرعون» واضحة في النفود بشتى الوسائل والطرق إلى أعماق فرعون وجماعته لتثنيهم عن قتل موسى ﷺ.

ونستطيع هنا أن نلخص الوسائل التي اتبعتها بما يلي:

أوضح لهم أولاً أن عمل موسى ﷺ لا يحتاج إلى ردة فعلٍ شديدة كهذه. ثم عليكم أن لا تنسوا أن الرجل يملك «بعض» الأدلة، ويظهر أنها أدلة معتبرة، لذا فإن محاربة مثل هذا الرجل تعتبر خطراً واضحاً.

والموضوع برمته لا يحتاج إلى موقفٍ منكم، فإذا كان كاذباً فسنبال جزاءه من قبل الله، ولكن يحتمل أن يكون صادقاً، وعندها لن يتركنا الله لحالنا.

ولم يكتب «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، وإنما استمرّ يحاول معهم بلينٍ وحكمة، حيث قال لهم كما يحكي ذلك القرآن من أنه قال لهم أن بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها و نعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الالهي. «يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا». ويحتمل أن يكون غرضه: إنكم اليوم تملكون كل أنواع القوة، وتستطيعون اتخاذ أي تصميم تريدونه اتجاه موسى ﷺ، ولكن لا تفرنكم هذه القوة، ولا تنسوا النتائج المحتملة وعواقب الأمور.

ويظهر أن هذا الكلام أثر في حاشية فرعون وبطانته، فقلل من غضبهم وغيظهم، لكن فرعون لم يسكت ولم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: «قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى» وهو إني أرى من المصلحة قتل موسى ولا حل لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثم إني: «و ما أهديكم إلا سبيل الرشاد».

وهذه هو حال كافة الطواغيت و الجبارين على طول التاريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره، ولا يسمحون لأحد في إبداء وجهة نظر مخالفة لما يقولون، فهم يظنون أن عقولهم كامل، وأن الآخرين لا يملكون علماً ولا عقلاً... وهذا هو منتهى الجهل والحماقة.

بحوث

أولاً: من هو مؤمن آل فرعون؟

نستفيد من الآيات القرآنية أنّ «مؤمن آل فرعون» هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السلام، وظلّ يتكتم على إيمانه، ويعتبر نفسه مكلفاً بالدفاع عنه عليه السلام. لقد كان الرجل - كما يدل عليه السياق - ذكياً ولبقاً، يقدر قيمة الوقت، ذا منطق قوي، حيث قام في اللحظات الحساسة بالدفاع عن موسى عليه السلام وإنقاذه من مؤامرة كانت تستهدف حياته.

تتضمن الروايات الإسلامية وتفسير المفسرين أوصافاً أخرى لهذا الرجل سنتعرض لها بالتدرّج.

البعض مثلاً يعتقد أنّه كان ابن عم - أو ابن خالة - فرعون، ويستدل هذا الفريق على رأيه بعبارة (آل فرعون) إذ يرى أنّها تطلق على الأقرباء، بالرغم من أنّها تستخدم أيضاً للأصدقاء والمقربين. والبعض قال: إنّ أحد أنبياء بني إسرائيل كان يعرف اسم «حزقيل» أو «حزقييل»^(١).

فيما قال البعض الآخر: إنّ خازن خزائن فرعون، والمسؤول عن الشؤون المالية^(٢).

وينقل عن ابن عباس أنّه قال: إنّ هناك ثلاثة رجال من بين الفراعنة آمنوا بموسى عليه السلام، وهم آل فرعون، وزوجة فرعون، والرجل الذي أخبر موسى قبل نبوته بتصميم الفراعنة على قتله، حينما أقدم موسى على قتل القبطي، ونصحه بالخروج من مصر بأسرع وقت: «وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا

١ - يستفاد هذا المعنى من رواية عن رسول الله ﷺ (تلاحظ في أمالي الصدوق طبغاً لنقل نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ٥١٩) ولكن بما أنّ الشائع أنّ «حزقييل» هو أحد أنبياء بني إسرائيل، فنحنها سيضعف هذا الاحتمال، إلا إذا كان «حزقييل» هذا غير النبي المعروف في بني إسرائيل. ثم إنّ الرواية ضعيفة السند.

٢ - ورد هذا المعنى في تفسير علي بن إبراهيم، كما نقل صاحب نور الثقلين في المجلد الرابع، صفحة ٥١٨.

موسى إن الملائكة يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين»^(١).
 لكن القرائن تفيد أن ثمة مجموعة قد أمنت بموسى ﷺ بعد مواجهة موسى مع
 السحرة، ويظهر من السياق أن قصة مؤمن آل فرعون كانت بعد حادثة السحرة.
 والبعض يحتمل أن الرجل كان من بني إسرائيل، لكنّه كان يعيش بين الفراعنة
 ويعتمدون عليه، إلا أن هذا الإحتمال ضعيف جداً، ولا يتلاءم مع عبارة «آل
 فرعون» وأيضاً نداء «يا قوم».
 ولكن يبقى دوره مؤثراً في تاريخ موسى ﷺ وبني إسرائيل حتى مع عدم
 وضوح كل خصوصيات حياته بالنسبة لنا.

ثانياً: التقية أداة مؤثرة في الصراع

(التقية) أو (كتمان الاعتقاد) ليست من الضعيف أو الخوف كما يظن البعض،
 بل غالباً ما توظف كأسلوب مؤثر في إدارة مع الظالمين والجبارين والطغاة، إذ أن
 كشف أسرار العدو لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الأشخاص الذين يعملون
 بأسلوب التقية.

وكذلك الضربات الموجهة والمباغته للعدو، لا تتم إلا عن طريق التقية
 وكتمان الخطط وأساليب الصراع.

لقد كانت «تقية» مؤمن آل فرعون من أجل خدمة دين موسى ﷺ، والدفاع
 عنه في اللحظات الصعبة. ثم هل هناك أفضل من أن يحظى الإنسان بشخص
 مؤمن بقضيته ودعوته يزرعه في جهاز عدوه بحيث يستطيع من موقعه أن ينفذ إلى
 أعماق تنظيمات العدو، ويحصل على المعلومات والأسرار ليفيد بها قضيته
 ودعوته، ويخبر بها أصحابه وقد تقضي الضرورة النفوذ في ذهينة العدو أيضاً
 وتغييرها لمصالح قضيته ودعوته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الآن نسأل: هل كان بوسع مؤمن آل فرعون إسداء كل هذه الخدمات لدعوة موسى ﷺ لو لم يستخدم أسلوب التقية؟

لذلك كله ورد في حديث عن الإمام الصادق قوله ﷺ: «التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية ترس الله في الأرض، لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»^(١).

إن فاعلية هذا المبدأ تكتسب أهمية استثنائية في الوقت الذي يكون فيه المؤمنون قلة خاضعة للأكثرية التي لا ترحم ولا تتعامل وفق المنطق، فالعقل لا يسمح بإظهار الإيمان (باستثناء الضرورات) والتفريط بالطاقات الفعالة، بل الواجب يقضي بكتمان العقيدة والتخفي على المعتقد في مثل هذا الوضع لكي يصار إلى تجميع الطاقات والقوى والإفادة منها لتسديد الضربة النهائية والقاصمة في الوقت والظرف المناسبين.

إن الرسول الأعظم ﷺ التزم بنفسه هذا المبدأ، حينما أبقى دعوته سرية لبضع سنوات، وحينما ازداد أتباعه وتشكلت النواة الإيمانية القادرة للحفاظ على الدعوة الجديدة صدع ﷺ بأمره تعالى أمام القوم.

ومن بين الأنبياء الآخرين نرى إبراهيم ﷺ الذي استخدم أسلوب التقية، ووظف هذا المبدأ في عمله الشجاع الذي حطم فيه الأصنام، وإلا فلولا التقية لم يكن بوسعه أن ينجح في عمله أبداً.

كذلك استفاد أبو طالب عم الرسول من أسلوب التقية في حماية رسول الله ودعوته الناشئة، إذ لم يعلن عن صريح إيمانه برسول الله وبالإسلام إلا في فترات ومواقف خاصة، كي يستطيع من خلال ذلك لنهوض بأعباء دوره المؤثر في حفظ حياة رسول الله ﷺ حيال مكائد وطغيان الشرك القرشي.

من هنا يتبين خطأ رأي من يعتقد بأن «التقية» كمبدأ وكأسلوب، تختص

بالشيعة دون غيرهم، أو أنها كدليل على الضعف والجبن، فيما هي موجودة في جميع المذاهب دون استثناء.
ولمزيد من التوضيح، باستطاعة القارئ الكريم أن يرجع إلى بحثنا في تفسير الآية ٢٨ من آل عمران والآية ١٠٦ من النحل.

ثالثاً: من هم الصديقون؟

في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصديقون ثلاثة: (حبيب النجار) مؤمن آل يس الذي يقول: «فاتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً» و(حزقيل) مؤمن آل فرعون و(علي بن أبي طالب وهو أفضلهم».

والملاحظ في هذا الحديث أنه يروى في مصادر الفريقين^(١).

إن تاريخ النبوات يظهر مكانة هؤلاء في دعوات الرسل، إذ صدقوهم في أخرج اللحظات، وكانوا في المقدمة، فاستحقوا لقب «الصديق» خاصة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي وقف منذ مطلع عمره الشريف وحتى نهايته مناصراً لرسول الله ﷺ في حياته وبعد رحلته و ذاباً عن الدعوة الجديدة، واستمر في كل المراحل والأشواط في تقديم التضحيات بمنتهى الاخلاص.



١- يلاحظ الصدوق في «الأمالي» وابن حجر في الفصل الثاني الباب التاسع من «المصواعق».

الآيات

وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَسْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ
الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن
بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَسْقُومُ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مآلِكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن
عَاصِمٍ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُ هَادٍ ﴿٣٣﴾

التفسير

التحذير من العاقبة!

كان الشعب المصري آنذاك يمتاز نسبياً بمواصفات التمدن والثقافة، وقد
اطلع على أقوال المؤرخين بشأن الأقسام السابقة، أمثال قوم نوح وعاد وشمود
الذين لم تكن أرضهم تبعد عنهم كثيراً، وكانوا على علم بما آت إليه مصيرهم.
لذلك كلّه فكر مؤمن آل فرعون بتوجيه أنظار هؤلاء إلى أحداث التاريخ
وأخذ يحذرهم من تكرار العواقب الأليمة التي نزلت بغيرهم، عساهم أن يتقظوا
ويتجنبوا قتل موسى ﷺ يقول القرآن الكريم حكاية على لسانه: «وقال الذي آمن
يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب».

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأنتي خائف عليكم عن العادات والتقاليد السيئة التي كانت منقشية في الاقوام السالفة. «مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم»^(١).

لقد نالت هذه الأقوام جزاء ما كانت عليه من الكفر والطغيان، إذ قتل من قتل منهم بالطوفان العظيم، وأصيب آخرون منهم بالريح الشديدة، وبعضهم بالصواعق المحرقة، ومجموعة بالزلازل المخزبة.

واليوم يخاطبهم مؤمن آل فرعون: ألا تخشون أن تصيبكم إحدى هذه البلايا العظيمة بسبب إصراركم على الكفر والطغيان؟ هل عندكم ضمان بأنكم لستم مثل أولئك؛ أو أن العقوبات الإلهية لا تشملكم؛ ترى ماذا عمل أولئك حتى أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا على دعوة الأنبياء الإلهيين، وفي بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم ... لذلك كلّه فإني أخاف عليكم مثل هذا المصير المؤلم!؟

ولكن ينبغي أن تعلموا أنّ ما سيصيبكم ويقع بساحتكم هو من عند أنفسكم وبما جنت أيديكم: «وما الله يريد ظلماً للعباد».

لقد خلق الله الناس بفضله وكرمه، ووهبهم من نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل أنبياءه لهدايتهم، ولصدّ طغيان العتاة عنهم، لذلك فإنّ طغيان العباد وصدّهم عن السبيل هو السبب فيما ينزل بهم من العذاب الأليم.

ثم تضيف الآية على لسانه: «ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد» أي يوم تطلبون العون من بعضكم البعض، إلّا أصواتكم لا تصل إلى أي مكان.

«التناد» مأخوذة أصلاً من كلمة «نداء» وتعني «المناداة» (وهي في الأصل «التنادي») وحذفت الياء ووضعت الكسرة في محلّها) والمشهور بين المفسرين أنّ

١ - «دأب» على وزن (ضرب) تعني في الأصل الإستمرار في السير، و (دائب) تطلق على الكائن الذي يستمر في سيره ثم أصبحت بعد ذلك تستعمل لأي عادة مستمرة ... والمقصود هنا من (دأب قوم نوح) هو قيامهم واستمرارهم واعتيادهم على الشرك وظنهم وظلم والكفر.

(يوم التناد) هو من أسماء يوم القيامة، وقد ذكروا أسباباً لهذه التسمية متشابهة تقريباً، فمنهم من يقول: إن ذلك يعود إلى مناداة أهل النار لأهل الجنة، كما يقول القرآن: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ فجاءهم الجواب: ﴿إن الله حرّمها على الكافرين﴾^(١). أو أن التسمية تعود إلى مناداة الناس بعضهم لبعض طلباً للعون والمساعدة.

وهناك من قال: إن سبب التسمية يعود إلى أن الملائكة تناديهم للحساب، وهم يطلبون العون من الملائكة.

أو لأن منادي المحشر ينادي: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾^(٢).

وقال بعضهم: إن السبب يعود إلى أن المؤمن عندما يشاهد صحيفة أعماله ينادي برضى وشوق: ﴿هاؤم اقرؤا كتابيه﴾^(٣) بينما الكافر من شدة خوفه وهول ما يحلّ به يصرخ وينادي: ﴿ياليتني لم أوت كتابيه﴾^(٤).

ولكن يمكن تصور معنى أوسع للآية، بحيث يشمل «يوم التناد في هذه الدنيا أيضاً، لأنّ المعنى - كما رأينا - يعني (يوم مناداة البعض للبعض الآخر) وهذا المعنى يعبر عن ضعف الإنسان وعجزه عندما تنزل به المحن وتحيطه المصاعب والملمات، وينقطع عنه العون وأسباب المساعدة، فيبدأ بالصراخ ولكن بغير نتيجة. وفي عالمنا هذا ثمة أمثلة عديدة على «يوم التناد» مثل الأيام التي ينزل فيها العذاب الإلهي، أو الأيام التي يصل فيها المجتمع إلى طريق مسدود لكثرة ما ارتكب من ذنوب وخطايا، وقد نستطيع أن نتصور صوراً أخرى عن يوم التناد في حياتنا من خلال الحالات التي يمرّ بها الناس بالمشاكل والصعاب المختلفة حيث

١- الأعراف، الآية ٥٠.

٢- ورد هذا المعنى أيضاً في حديث للإمام الصادق عليه السلام في كتاب «معاني الأخبار» للصدوق.

٣- هود، الآية ١٨.

٤- العاقبة، الآية ١٩.

٥- العاقبة، الآية ٢٥.

يصرخ الجميع عندها طالبين للحل والنجاة!

الآية التالية تفسّر يوم التناد بقولها: «يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من

عاصم».

ومثل هؤلاء حق عليهم القول: «ومن يضلّل الله فما له من هاد» إنّ هؤلاء

الذين ضلّوا في الحياة الدنيا بابتعادهم عن سبل الرشاد والهداية وتنكبيهم عن

الطريق المستقيم، سيظلّون في الآخرة عن الجنّة والرضوان والنعم الإلهية الكبرى.

وقد يكون في التعبير القرآني إيحاءة خفيفة إلى قول فرعون: «ما أهديكم إلا سبيل

الرشاد».



الآيتان

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا
جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ
فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٦٧﴾

التفسير

عجز المتكبرين عن الادراك الصحيح!

هذا المقطع من الآيات الكريمة يستمر في عرض كلام مؤمن آل فرعون، ومن خلال نظرة فاحصة في سياق الآيات، يظهر أن مؤمن آل فرعون طرح كلامه في خمسة مقاطع، كل منها اكتسب بلون من المخاطبة، وشكل من الدليل، الذي يستهدف النفوذ إلى قلب فرعون والمحيطين به، بغية محو الصدا وأثار الكفر السوداء منها كي تدعن لله ورسالاته وأنبيائه، وتترك التكبر والطغيان:

المقطع الأول: راعى فيه مؤمن آل فرعون الإحتياط، ودعا القوم إلى الحذر من الأضرار المحتملة من جهتين: (قال لهم: لو كان موسى كاذباً فسينال جزاء

كذبه، أمّا لو كان صادقاً فيشملنا العذاب، إذأ عليكم أن لا تتركوا العمل بالإحتياط).

المقطع الثاني: وفيه وجّه مؤمن آل فرعون الدعوة إلى التأمّل بما حلّ بالأقوام السابقة وما نال الأمم الدائرة من المصير والجزاء، كي يأخذوا العبرة من ذلك المصير!

المقطع الثالث: كأمن في الآيات القرآنية التي بين أيدينا، إذ تذكرهم الآيات - من خلال خطاب مؤمن آل فرعون - بجزء من تاريخهم، هذا التاريخ الذي لا يبعد كثيراً عنهم، ولم تمحى بعد أو اصر الإرتباط الذهني والتأريخي فيما بينهم وبينه؛ وهذا الجزء يتمثل في نبوة يوسف عليه السلام، الذي يعتبر أحد أجداد موسى، حيث يبدأ قصة التذكير معهم بقوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾^(١) وبالدلّاتل الواضحة لهدايتكم ولكنكم: ﴿فمازلتم في شك مما جاءكم به﴾.

وشككم هنا ليس بسبب صعوبة دعوته أو عدم اشتغالها على الأدلة والعلامات الكافية، بل بسبب غروركم حيث أظهرتم الشك والتردد فيها. ولأجل أن تتصلوا من المسؤولية، وتعطوا لأنفسكم الذرائع والمبررات، قلتم: ﴿حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾. بناء على ذلك كلّه لم تشملكم الهداية الإلهية بسبب أعمالكم ومواقفكم: ﴿كذلك يضل الله من هو مصرف مرتاب﴾.

لقد سلكتم سبيل الأسراف والتعدي على حدود الله تعالى كما قمتم بالتشكيك في كلّ شيء، حتى غدا ذلك كلّه سبباً لحرمانكم من اللطف الإلهي في الهداية، فسدرتم في وادي الضلال والغي، كي تنتظرتم عاقبة هذا الطريق الغاوي. واليوم - والسياق ما زال يحكي خطاب مؤمن آل فرعون لهم - اتبعتم نفس

١ - تعتبر هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تشير صراحة إلى نبوة يوسف عليه السلام، وإن كنا لا نعدم إشارات متفرقة لهذه النبوة في سياق آيات قرآنية أخرى.

الأسلوب حيال دعوة موسى ﷺ، إذ تركتم البحث في أدلة نبوته وعلائم بعثته ورسالته، فابتعدت عنكم أنوار الهداية، وظلت قلوبكم سوداء محجوبة عن إشعاعاتها الهداية الوضاء.

الآية الكريمة التي تليها تعرّف «المسرف المرتاب» بقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم﴾^(١).

هؤلاء يرفضون آيات الله البينات من دون أي دليل واضح من عقل أو نقل، بل يستجيبون في ذلك إلى أهوائهم المغرضة ووساوسهم المضلة الواهية، كي يستمروا في رفع راية الجدل والمعارضة.

وللكشف عن قبح هذه المواقف عند الله وعند الذين آمنوا، تقول الآية: ﴿كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾^(٢).

ذلك لأنّ الجدل بالباطل (الجدال السليبي) واتخاذ المواقف ضدّ الوقائع والآيات القائمة على أساس الدليل المنطقي، يعتبر أساساً لضلال المجادلين وتكبيهم عن جادة الهداية والصواب، وكذلك في اغواء للآخرين، حيث تنطفيء أنوار الهداية في تلك الأوساط، وتقوى أسس ودعائم حاكمية الباطل. في النهاية، وبسبب عدم تسليم هؤلاء أمام الحق، تقرّر الآية قوله تعالى: ﴿كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبر جبار﴾^(٣).

أجل، إنّ العناد في مقابل الحق يشكّل ستاراً مظلماً حول فكر الإنسان، ويسلب منه قابليته على التشخيص الهادي الصحيح، بحيث ينتهي الأمر إلى أن

١ - (الذين) هنا يدل عن «مسرف مرتاب» إلا أنّ الجدل عنه مفرد، في حين أنّ الجدل جاء على صيغة الجمع السبب في ذلك أنّ الخطاب لا يستهدف شخصاً معيّنًا وإنما يشتمل على النوع.

٢ - فاعل «كبر» هو (الجدال) حيث نستفيد ذلك من الجملة السابقة، أما «مقتاً» فهي تمييز. فيما يرى بعض المفسرين أنّ الفاعل هو «مسرف مرتاب» إلا أنّ الرأي الأوّل أفضل.

٣ - «متكبر جبار» وصف للقلب، وليست وصفاً لشخص، بالرغم من أنها مضافة. إشارة إلى أنّ أساس التكبر والتجبر إنما ينبع من القلب، ولأنّ القلب يسيطر على كلّ أعضاء وجود الإنسان، فإنّ كلّ الوجود الإنساني سيكتسي هذا الطابع الفاسد البذيء.

يتحول القلب إلى مثل الإناء المغلق، الذي لا يمكن إفراغه من محتواه الفاسد، ولا ادخال المحتوى الهادي الصحيح.

إن الأشخاص الذين يقفون في وجه الحق وأهله بسبب اتصاف بصفتي التكبر والتجبر، فإن الله تعالى سوف يسلب منهم روح طلب الحقيقة الى درجة أن الحق سيكون مرأ في مذاقهم، والباطل حلواً.

وفي كل الأحوال، لقد قام مؤمن آل فرعون بعمله من خلال الوسائل التي وقفنا عليها آنفاً، فانهى - كما سيظهر في الآية اللاحقة - إلى أجهاض مخطط فرعون في قتل موسى ﷺ، أو على الأقل وقر الوقت الكافي في تأخير تنفيذ هذا لمخطط إلى أن استطاع موسى ﷺ أن يفلت من الخطر.

لقد كانت هذه مهمة عظيمة أنجزها هذا الرجل المؤمن الشجاع، الذي انصب جهده في هذه المرحلة الخطيرة من الدعوة الموسوية على إنقاذ حياة كليم الله ﷺ: وكما سيتضح لاحقاً من احتمال أن هذا الرجل ضحى بحياته أيضاً في هذا السبيل.



الآيتان

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ ابْنَ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿١٦﴾
أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا
وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿١٧﴾

التفسير

أريد أن أطلع إلى إله موسى!!

بالرغم من النجاح الذي أحرزه مؤمن آل فرعون في أثناء عزم فرعون عن قتل الكليم ﷺ، إلا أنه لم يستطع أن يثنيه عن غروره وتكبره وتعاليه إزاء الحق، لأن فرعون لم يكن ليملك مثل هذا الاستعداد أو اللياقة الكافية للهداية، لذلك نراه يواصل السير في نهجه الشرير، إذ يأمر وزيره هامان ببناء برج للمصعود إلى السماء (!!) كي يجمع المعلومات عن إله موسى، يقول تعالى في وصف هذا الموقف: «وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب». أي لعلي أحصل على وسائل وتجهيزات توصلني إلى السماوات.

«أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وإنِّي لِأَظُنُّهُ كاذباً».

ولكن ماذا كانت النتيجة؟! «كذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب».

«الصرح» في الأصل تعني الوضوح، و«التصريح» بمعنى التوضيح، ثم عُمِّمَ معنى الكلمة على الأبنية المرتفعة والقصور الجميلة العالية، وذلك لأنها واضحة ومميّزة بشكل كامل، وقد ذكر هذا المعنى العديد من المفسرين واللغويين.

«تباب» تعني الخسارة والهلاك.

إنّ أول ما يظالنا هنا هو السؤال عن الهدف الذي كان فرعون يرغب بتحقيقه من خلال عمله هذا.

هل كان فرعون بهذا المقدار من الغباء والحماقة والسذاجة بحيث يعتقد أن إله موسى موجود فعلاً في مكان ما من السماء؟ وإذا كان موجوداً في السماء، فهل يستطيع الوصول إليه بواسطة إقامة بناء مرتفع يعتبر ارتفاعه تافهاً إزاء جبال الكرة الأرضية؟

إنّ هذا الاحتمال ضعيف للغاية، ذلك لأنّ فرعون بالرغم من غروره و تكبره، فقد كان يمتاز بالذكاء والقدرة السياسية التي أهلته للسيطرة على شعب كبير لسنين مديدة من خلال أساليب القهر والقوة والخداع.

لذلك كلّه نرى الموقف يدعونا إلى تحليل هذا التصرف الفرعوني لمعرفة دواعيه وأهدافه الشيطانية.

فمن خلال عملية التأمل والتمحيص، يمكن أن تنتهي إلى ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرف والأهداف هذه هي:

أولاً: أراد فرعون أن يخلق وضعاً يعمد من خلاله إلى إلهاء الناس وصرف أذهانهم عن قضية نبوة موسى ﷺ وثورة بني إسرائيل. وقضية بناء مثل هذا الصرح المرتفع يمكن أن تحوز على اهتمام الناس، وتهمين على اهتماماتهم الفكرية، وبالتالي إلى صرفهم عن القضية الأساسية.

وفي هذا الإطار يلاحظ بعض المفسرين أن فرعون خصص لبناء صرحه مساحة واسعة من الأراضي، ووظف في إقامته خمسين ألفاً من العمال والبنائين المهرة، بالإضافة إلى من انشغل بتهيئة وسائل العمل والتمهيد لتنفيذ المشروع، وكلما كان البناء يرتفع أكثر كلما ازداد تأثيره في الناس، وأخذ يجلب إليه الإهتمام والأنظار أكثر، إذ أصبح الصرح حديث المجالس، والخبر الأوّل الذي يتناقله الناس، وفي مقابل ذلك يتناسون قضية انتصار موسى ﷺ على السحرة - ولو مؤقتاً - خصوصاً مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الإهتزاز العنيف الذي ألحق بجهاز فرعون وأساط الناس.

ثانياً: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطاع من الناس، وعلى الأخص العاطلين منهم، لكي يجد هؤلاء في هذا الشغل عزاءً - ولو مؤقتاً - عن مظالم فرعون وينسون جرائمه وظلمه. ومن ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدي إلى ارتباطهم بخزانة فرعون وأمواله، وبالتالي ارتباطهم بنظامه وسياساته!

ثالثاً: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلى أعلى نقطة فيه، ويرمق السماء ببصره، أو يرمي سهماً نحو السماء، ويرجع إلى الناس فيقول لهم: لقد انتهت كل شيء بالنسبة لإله موسى. والآن انصرفوا إلى أعمالكم براحة بال!!

أما بالنسبة إلى فرعون نفسه، فقد كان يعلم أنه حتى لو ارتقى الجبال الشامخات التي تتناول في علوها على صرحه، فإنّه سوف لن يشاهد أي شيء آخر يفترق عمّا يشاهده وهو يقف على الأرض المستوية يتطلع نحو السماء! والظريف في الأمر هنا أنّ فرعون بعد قوله: «فاطلع إلى موسى» رجع خطوة إلى الوراء فنزل عن يقينه إلى الشك، حيث قال بعد ذلك: «وإني لأظنه كاذباً» إذ استخدم تعبير «أظن»!

والجدير بالإشارة هنا أنّ القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿كذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ ذكر ثلاث قضايا ذات محتوى كبير بجملٍ قصيرة، حيث قال أولاً: إن السبب الرئيسي في انحراف فرعون عن جادة الصواب يعود إلى تزيين عمله القبيح في نظره بسبب غروره وتكبره.

ثم تناول بعد ذلك نتيجة ذلك متمثلةً بالضلال عن طريق الحق والهدى والنور. وفي الجملة الثالثة لخصت الآية مال مخططات فرعون، هذا المال الذي تمثل بالفشل الذريع والتباب والخسران.

طبعاً، يمكن للمخطط السياسية والمواقف المضللة أن تخدع الناس شطراً من الزمان، وتؤثر فيهم لفترة من الوقت، إلا أنها تنتهي بالفشل على المدى البعيد. فقد ورد في بعض الروايات أنّ «هامان» قد زاد في ارتفاع الصرح الفرعوني إلى الدرجة التي باتت الرياح الشديدة مانعاً عن الإستمرار بالعمل وعندها اعتذر هامان لفرعون عن الإستمرار بالبناء.

ولكن لم تمض فترة وجيزة من الزمن حتى حطمت الرياح الشديدة ذلك البناء^(١).

واتضح أن قوة فرعون متعلقة في ثباتها بالرياح.



الآيات

وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ
الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
يُزْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

التفسير

اتبعوني اهدكم سبيل الرشاد:

أشرنا آنفاً إلى أن مؤمن آل فرعون أوضح كلامه في مجموعة من المقاطع، وفي هذه المجموعة من الآيات الكريمة نقف أولاً على المقطع الرابع، بعد أن أشرنا في الآيات السابقة إلى ثلاثة منها.

إن هذا المقطع من كلام مؤمن آل فرعون ينصب في مضمونه على إلفات نظر القوم إلى الحياة الدنيوية الزائلة، وقضية المعاد والحشر والنشر، إذ أن تركيز هذه القضايا في حياة الناس له تأثير جذري في تربيتهم.

يقول تعالى: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد﴾.

لقد قرأنا سابقاً أنّ فرعون كان يقول: إنَّ ما أقوله هو طريق الرشد والصلاح،
 إلّا أنّ مؤمن آل فرعون أبطل هذا الادّعاء الفارغ، وأفهم الناس زوره، وحذّرهم
 أن يقعوا فريسة هذا الإدّعاء، إذ أنّ خططه ستفشل وسيصاب بسوء العاقبة؛
 فالطريق هو ما أقوله؛ إنّه طريق التقوى وعبادة الله.

ثم تضيف الآية: ﴿يا قوم إنّما هذه الحياة الدنيا متاع وإنّ الآخرة هي دار
 القرار﴾.

يريد أن يقول لهم: لنفرض أنّنا انتصرنا ببذل الحيل والتوسّل بوسائل الخداع
 والمكر، وتركنا الحق وراء ظهورنا، وار تكبنا الظلم وتورطنا بدماء الأبرياء؛ ترى
 ما مقدار عمرنا في هذا العالم؟ إنّ هذه الأيّام المعدودة ستنتهي وسنقع في قبضة
 الموت الذي يجرنا من القصور الفخمة إلى تحت التراب وتكون حياتنا في مكان
 آخر.

إنّ القضية ليست فناء هذه الدنيا وبقاء الآخرة وحسب، بل الأهم من ذلك هي
 قضية الحساب والجزاء، حيث يقول تعالى: ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلّا مثلها
 ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون
 فيها بغير حساب﴾.

إنّ مؤمن آل فرعون - بكلامه هذا - آثار أولاً قضية عدالة الله تبارك وتعالى،
 حيث يقاضي الإنسان بما اكتسبت يده خيراً أو شراً.

و من جهة ثانية أشار في كلامه إلى الثواب والفضل الالهي لذوي العمل
 الصالح، إنّه الجزاء الذي لا يخضع لموازن الحساب الكمية، إذ يهب الله تبارك
 وتعالى للمؤمنين بغير حساب، ممّا لم تره عين أو تسمعه أذن ولا يخطر على فكر
 إنسان.

ومن جهة ثالثة أشار للتلازم القائم بين الإيمان والعمل الصالح.
 ورابعة يشير أيضاً إلى مساواة الرجل والمرأة في محضر الله تبارك وتعالى،

وفي القيم الإنسانية.

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذكر في أن الحياة الدنيا وإن كانت متاعاً لا يغني شيئاً عن الحياة الأخرى، إلا أنه يمكن أن يكون وسيلة للجزاء اللامتناهي هي والعطايا التي تصدر عن المطلق جلّ وعلا. إذن هل هناك تجارة أربح من هذا؟

كما ينبغي أن نقول: إن عبارة «مثلها» تشير إلى أن العقاب في العالم الآخر يشبه نفس العمل الذي قام به الإنسان في هذه الدنيا، متشابهة كاملة بكل ما للكلمة من دلالة ومعنى

أما تعبير «غير حساب» فيمكن أن يكون إشارة إلى حساب العطايا يختص بالاشخاص من ذوي المواهب المحدودة، أما المطلق (جلّ وعلا) الذي لا تنقص خزائنه مهما بذل للآخرين (لأن كل ما يؤخذ من اللانهاية يبقى بلانهاية) لذلك فهو عطاء لا يحتاج إلى حساب.

وبقيت مسألة بحاجة إلى جواب، وهي: هل ثمة تعارض بين هذه الآية وما جاء في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام، حيث قوله تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون».

في الجواب على هذا التساؤل نقول: إن «عشر أمثالها» إشارة للحد الأدنى من العطاء الإلهي، إذ هناك الجزاء الذي يصل إلى (٧٠٠) مرة وأكثر، ثم قد يصل العطاء الإلهي إلى مستوى الجزاء بـ «غير حساب» وهو ممّا لا يعلم حدّه ولا يمكن تصوّره.

الآيات

وَيَنْقُومِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿١١﴾
 تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا
 أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿١٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ
 لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
 الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١٣﴾ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
 وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ
 سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾ النَّارُ
 يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
 آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾

التفسير

الكلام الأخير:

في خامس - وآخر - مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب والأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتّم ممّا فعل، فقد قال كلّ ما هو ضروري، أمّا القوم من ملأ

فرعون، فكان لهم - كما سنرى ذلك - قرارهم الخطير بشأنه!

يفهم من خلال القرائن أنّ أولئك المعاندين والمغرورين لم يسكتوا حيال كلام هذا الرجل الشجاع المؤمن، وإنما قاموا بطرح «مزايا» الشرك في مقابل كلامه، ودعوه كذلك إلى عبادة الأصنام.

لذا فقد صرخ قائلاً: ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة و تدعونني إلى النار﴾. إنني أطلب سعادتكم وأنتم تطلبون شقائي؛ إنني أهديكم إلى الطريق الواضح الهادي وأنتم تدعونني إلى الإنحراف والضلال!

نعم، إنكم: «تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار».

نستفيد من الآيات القرآنية المختلفة، و من تاريخ مصر، أنّ هؤلاء القوم لم يقتصروا في عبادتهم و شركهم و ضلالهم على الفراعنة وحسب، وإنما كانت لهم أصنام يعبدونها من دون الواحد القهار، كما نستفيد ذلك بشكل مباشر من قوله تعالى في الآية (١٢٧) من سورة «الأعراف» حيث قوله تعالى: «أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهلك» والآية تحكي خطاب أصحاب فرعون والملأ من قومه لفرعون.

وقد تكرر نفس المضمون على لسان يوسف عليه السلام، إذ قال لرفاقه في سجن الفراعنة: «أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار»^(١).

لقد ذكرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنة واضحة أنّ دعوتهم إلى الشرك لا تستند على دليل صحيح، والشرك طريق وعر مظلم محفوف بالمخاطر وسوء العاقبة والمصير، بينما دعوته (مؤمن آل فرعون) دعوة للهدى والرشاد وسلوك طريق الله العزيز الغفار.

إنّ عبارة (العزيز) و (الغفار) تشير من جانب إلى مبدأ (الخوف والرجاء) ومن

جانب ثانٍ تشير إلى إلغاء ألوهية الأصنام والفراعنة، حيث لا يملكون العزة ولا العفو.

ينتقل الخطاب القرآني - على لسان مؤمن آل فرعون - إلى قوله تعالى: ﴿لا جرم انما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾^(١) فهذه الأصنام لم ترسل الرسل إلى الناس ليدعوهم إليهم، وهي لا تملك في الآخرة الحاكمة على أي شيء.

إن هذه الموجودات لا تملك الحس والشعور، إنها أصنام لا تتكلم ولا تضر ولا تتفع، وإن عليكم أن تعلموا: ﴿وإن مردنا إلى الله﴾.

فهو سبحانه وتعالى الذي أرسل رسله إلى الناس لأجل هدايتهم، وهو الذي يشيهم ويعاقبهم على أعمالهم.

ويجب أن تعلموا أيضاً: ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾.

وهكذا كشف مؤمن آل فرعون ما كان يخفي من إيمانه، وبذلك فقد انكشف هنا خطئه الإيماني التوحيدي، وانفصل علناً عن خط الشرك الملوث الذي يصيغ بآثامه وأحواله الحكام الفراعنة ومن يلف حولهم، لقد رفض الرجل دعوتهم ووقف لوحده إزاء باطلهم وانحرفهم.

في آخر كلامه - وبتهديد ذي مغزى - يقوله لهم: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾. إن ما قلته لكم ستذكرونه في الدنيا والآخرة، وستعلمون صدقي عندما تصيبكم المصائب، وينزل بساحتكم الغضب الإلهي، لكن سيكون ذلك كله بعد فوات الأوان، فإن كان في الآخرة فلا طريق للرجوع، وإن كان في الدنيا فهو لا يتم إلا حين يحل بكم العذاب الإلهي، وعندها ستغلق جميع أبواب التوبة.

١ - قلنا سابقاً: إن «لا جرم» مركبة من (لا) و(جرم) على وزن (حرم) وهي في الأصل تعني القطع واقتطاف الثمر. وهي ككلمة مركبة تعني: لا يستطيع أي شيء أن يقطع هذا العمل أو يمنعه. لذلك تستخدم بشكل عام بمعنى (حتماً) وتأتي أحياناً بمعنى القسم.

ثم تضيف الآية على لسان الرجل المؤمن: ﴿وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾.

لهذا كلّه لا أخشى تهديداتكم، ولا أرهب كثرتكم وقوتكم، ولا تخيفني وحدتي بين أيديكم، لأنني وضعت نفسي بين يدي المطلق ذي القدرة اللامتناهية، والمحيط علمه بكل شيء، وبأحوال عباده أينما كانوا وحلّوا.

إنّ هذا التعبير يستبطن في طياته دعاء مهذباً انطلق من الرجل المؤمن الذي وقع أسيراً في قبضة هؤلاء الأشقياء الظالمين. لذلك طلب بشكل مؤدب من خالقه (جلّ وعلا) أن يحميه بحمايته وينقذه ممّا هو فيه .

الله تبارك وتعالى لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيداً وإنما: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾.

إنّ التعبير بـ «سيئات ما مكروا» يفيد أنّهم وضعوا خططاً مختلفة ضدّه... ترى ما هي هذه الخطط؟

في الواقع، إنّ القرآن لم يذكرها بل تركها مجهولة، لكنّها - حتماً - لا تخرج عن ألوان العقاب والتعذيب ينزلونه بالرجل قبل أن يحل به القتل والإعدام، إلّا أنّ اللطف الإلهي أبطل مفعولها جميعاً وأنجاه منهم.

تفيد بعض التفاسير أنّ مؤمن آل فرعون انتهز فرصة مناسبة فالتحق بموسى عليه السلام، وعبر البحر مع بني إسرائيل. وقيل أيضاً: أنّه هرب إلى الجبل عندما صدر عليه قرار الموت، وبقي هناك مختفياً عن الأنظار^(١).

ومن الطبيعي أن لا يكون هناك تعارض بين الرأيين، إذ يمكن أن يكون قد هرب إلى الجبل أولاً، ثمّ التحق ببني إسرائيل.

وقد يكون من مؤامراتهم عليه، محاولتهم فرض عبادة الأصنام عليه وإخراجه من خط التوحيد، إلّا أن الله تبارك وتعالى أنجاه من مكرهم ورسخ قدمه

في طريق الإيمان والهدى.

أمّا القوم الظالمون فقد كان مصيرهم ما يرسمه لنا القرآن الكريم: ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾^(١).

إنّ العذاب والعقاب الإلهي أليم بمجمله، إلا أنّ تعبير «سوء العذاب» يظهر أنّ الله تبارك وتعالى انتخب لهم عذاباً أشدّ إبلاماً من غيره، وهو ما تشير إليه الآية التي بعدها، حيث قوله تعالى: ﴿النّار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾^(٢) ثم: ﴿ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾.

وهنا نلقت النظر إلى الملاحظات الثلاث الآتية:

أولاً: استخدام تعبير (آل فرعون) إشارة إلى العائلة والأُنصار والأصحاب الضالين، وعندما يكون هذا هو مصير الآل، ترى ماذا يكون مصير نفس فرعون؟ ثانياً: تقول الآية: إنهم يعرضون على النّار صباحاً ومساءً، ثم تقول: في يوم القيامة يكون العذاب أشدّ ما يمكن. وهذا دليل على أنّ العذاب الأوّل يختص بعالم البرزخ، وهو ممّا يلي موت الإنسان ومغادرة روحه جسده، ويقع قبل يوم القيامة ... إنّ العرض على نار جهنّم يهز الإنسان ويجعله يرتعد خوفاً وهلعاً.

ثالثاً: إن تعبير بـ (الغدو) و (العشي) قد تكون فيه إشارة إلى استمرار العذاب. أو قد يفيد انقطاع العذاب البرزخي ليقصر على (الغدو) و (العشي) أي الصبح والمساء، وهو الوقت الذي يقترن في حياة الفراغة وأصحابهم مع أوقات لهوهم واستعراضهم لقوتهم وجبروتهم في حياتهم الدنيا.

وينبغي أن لا نتعجب هنا من كلمتي (الغدو) و (العشي) فنسأل: وهل في البرزخ ثمة صباح ومساء؟ لأنّ الصبح والليل موجودان حتى في يوم القيامة، كما

١- (حاق) بمعنى أصاب ونزل، ولكن احتسبوا أيضاً أن يكون أصلها (حق) لتبخرت إحدى القافين فيها إلى ألف فأصبحت (حاق) [يلاحظ ذلك في مفردات الراسب كلمة حاق]. ضمناً فإنّ (سوء العذاب) من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف. إذ كانت في الأصل (العذاب السوء).

٢- «النّار» بدل عن (سوء العذاب).

تقرأ في قوله تعالى: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيّاً﴾^(١).

وهذا الأمر لا يتعارض مع دوام نعم الجنة واستمرارها، كما جاء في الآية (٣٥) من سورة (الرعد) حيث قوله تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ حيث يمكن أن تشمل الألفاظ الإلهية أهل الجنة في خصوص هذين الوقتين، بينما تكون نعم الجنة دائمة باقية.



بحوث

أولاً: مؤمن آل فرعون والدرس العظيم في مواجهة الطواغيت

إنَّ القليل من الناس يؤمنون بالأديان الإلهية والمذاهب السماوية في بداية الامر ويقومون بتحدي الجبابرة والطواغيت، وإذا توجست هذا القلّة المخلصة خوفاً من أعدائها، أو أنها شككت بأن كثرة دليل على حقانيتهم، فلن يكون بمقدور الأديان الإلهية أن تمتد وتنتشر في الدنيا.

إنَّ الأساس الذي يتحكم في منطلق هذه البرامج الهادية والأطروحات الوضّاءة، هو قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «أيها الناس، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله»^(٢).

لقد كان مؤمن آل فرعون نموذجاً لهذه المدرسة، وكان من الأوائل في هذا الطريق، وأثبت أنّ الإنسان المؤمن يستطيع بعزمه وإرادته القوية - النابعة من إيمانه بالله تعالى - التأثير حتى في إرادة الفراعنة الجبابرة؛ بل وأن يوفّر سبل النجاة لنبي كبير من أنبياء أولي العزم.

إنَّ تاريخ حياة هذا الرجل الشجاع الذكي، يثبت ضرورة أن تكون خطوات

أهل الدعوة والحق على غاية قصوى من الدقة والحذر، إذ يجب أحياناً التكتّم على الإيمان وإخفاء القناعات الحقّة؛ كما يجب في أحيان أخرى الجهر بدعوة الحق وإظهار الإيمان.

إنّ التقيّة ليست سوى إخفاء اعتقاد الإنسان والتكتّم عليه في فترة معينة في سبيل الأهداف المقدّسة.

وكما يعتبر التسلّح بالسلاح المادي الظاهري من ضرورات المنعة وأسباب دحر العدو، كذلك فإنّ المنطق القوي والحجّة البالغة هي سلاح ضروري قد يعادل في تأثيره السلاح المادي عدة مرّات. لذا فإنّ العمل الذي قام به (مؤمن آل فرعون) بواسطة منطقهم وقوة حجّتهم وحكمة تصرفه لم يكن ليعادله أي سلاح آخر. ثم إنّ قصة هذا الرجل المؤمن تظهر أنّ الله جلّ وعلا لا يترك عباده المؤمنين وحيدين، بل يحميهم بلطفه عن الأخطار.

وأخيراً فإنّ من الضروري أن نشير إلى حياة مؤمن آل فرعون انتهت كما في بعض الروايات إلى الإستشهاد، وأنّ ما يقوله القرآن من حفظ الله له ووقايته له يمكن تأويله بأنقاده من براثن خطّتهم الشيطانية في إغوائه وجزّره إلى ساحة الضلال والشرك، وأنّ الله أنجاه من سوء المنقلب وانحراف العقيدة^(١).

ثانياً: تفويض الأمور إلى الله

فيما يخصّ التفويض إلى الله تبارك وتعالى يكفي أن نفتح الحديث بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جاء فيه: «الإيمان له أربعة أركان: التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله عزّ وجلّ والرضى بقضاء الله، والتسليم لأمر

١- جاء في كتاب (محاسن البرقي): عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى:

﴿وقاه الله سيئات ما مكروا﴾ قوله عليه السلام: «أما لقد سطرا عليه وقتلوه ولكن أتدرون ما وقاه؟ وقاه أن يفتنوه في دينه» نور

الله»^(١).

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق أنه عليه السلام قال: «المفوض أمره إلى الله في راحة الأبد، والعيش الدائم الرغد، والمفوض حقاً هو العالي عن كل همة دون الله»^(٢).

«التفويض» كما يقول الراغب في مفرداته، يعني «التوكل، لذا فإن تفويض الأمر إلى الله يأتي بمعنى توكيل الأعمال إليه، وهذا لا يعني أن يترك الإنسان الجهد، إذ أن هذا السلوك ينطوي على فهم محرف لمعنى التفويض، بل عليه أن يبذل كل جهده ولا يتخوف الصعاب التي تواجهه، أو يترك العمل إذعائاً لها، بل عليه أن يسلم أمره وعمله إلى الله، ويستمر في بذل الجهد بعزم راسخ وهمة عالية. وبالرغم من أن «التفويض» يشبه «التوكل» إلى حد كبير، إلا أنه يعتبر مرحلة أفضل منه. لأن حقيقة (التوكل) هي أن يعتبر الإنسان الله تبارك وتعالى وكليلاً عنه، لكن التفويض يعني التسليم المطلق لله تعالى. وفي حياتنا العملية نرى أن الإنسان الذي يتخذ لنفسه وكليلاً يواصل إشرافه على عمله. إلا أنه في حالة التفويض لا يبقى أي مجال لإشراف من أي نوع، بل تترك الأمور إلى من فوّضت إليه.

ثالثاً: عالم البرزخ

«البرزخ» - كما يدل عليه اسمه - هو عالم يتوسط بين عالمنا هذا والعالم الآخر. وفي القرآن الكريم يكثر الحديث عن العالم الآخر، ولكنه قليل عن عالم البرزخ. ولهذا السبب هناك هالة من الغموض والإبهام تحيط بالبرزخ، وبالتالي لانعرف الكثير من خصائصه وجزئياته، ولكن عدم معرفة التفاصيل الجزئية لا تؤثر على أصل الاعتقاد بالبرزخ الذي صرح القرآن بأصل وجوده.

١ - بحار الأنوار، المجلد ٦٨، صفحة ٣٤١.

٢ - سفينة البحار، المجلد الثاني، صفحة ٣٨٤، مادة «فوض».

إِنَّ الآيَاتِ أَعْلَاهُ تَعْتَبِرُ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي عَبَّرَتْ بِصِرَاحَةٍ عَنْ وَجُودِ هَذَا الْعَالَمِ، حِينَمَا قَالَتْ: إِنَّ آلَ فِرْعَوْنَ يَعْضُونَ صَبَاحاً وَمَسَاءً عَلَى النَّارِ قَبْلَ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ كِنُوعٍ مِنَ الْعِقَابِ الْبَرَزَخِيِّ لَهُمْ.

مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، فَإِنَّ الآيَاتِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ حَيَاةِ الشَّهَدَاءِ الْخَالِدَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ الَّتِي يَنَالُهَا، تَدُلُّ هِيَ الْآخِرَى عَلَى وَجُودِ (الْبَرَزَخِ).

وَفِي حَدِيثٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عَرَضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْفِدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَيْثُ يَبْعَثُكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

أَمَّا الْإِمَامُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ ﷺ فَيَقُولُ عَنِ الْبَرَزَخِ: «ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ فِي نَارِ الْقِيَامَةِ لَا يَكُونُ غَدُوٌّ وَعَشِيٌّ» ثُمَّ قَالَ: «إِنْ كَانُوا يَعْذِبُونَ فِي النَّارِ غَدُوًّا وَعَشِيًّا فَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ هُمْ مِنَ السَّعْدَاءِ، لَا وَلَكِنْ هَذَا فِي الْبَرَزَخِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»^(٢).

الْإِمَامُ ﷺ لَمْ يَقُلْ بِعَدَمِ وَجُودِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ فِي الْقِيَامَةِ، بَلْ يَقُولُ: إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ أَبَدِيَّةٌ خَالِدَةٌ لَا تَعْرِفُ الصَّبَاحَ وَالْمَسَاءَ. أَمَّا الْعِقَابُ الَّذِي لَهُ مَوَاقِيْتُ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ فَهُوَ عَالَمُ الْبَرَزَخِ، ثُمَّ يَدُلُّ ﷺ عَلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا وَالَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنِ الْقِيَامَةِ؛ عَلَى أَنَّهَا قَرِينَةٌ بِإِخْتِصَاصِ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ بِالْبَرَزَخِ. لَقَدْ تَعَرَّضْنَا إِلَى عَالَمِ الْبَرَزَخِ مَفْصَلاً أَتَيْنَاهُ الْحَدِيثَ عَنِ الْآيَةِ (١٠٠) مِنْ سُورَةِ «الْمُؤْمِنُونَ».



١- ينقل هذه الرواية كل من البخاري ومسلم في صحيحهما (طبقاً كما يذكره الطبرسي وصاحب الدر المنثور والقرطبي، أثناء حديثهم عن الآية المذكورة أعلاه)، أما صحيح مسلم فيقدم باباً حول الروايات المتعلقة بالبرزخ، إذ يمكن مراجعته في المجلد الرابع، صفحة ٢١٩٩.

الآيات

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دَعَا الضُّعَفَاءُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ظُلْمٍ ﴿٢٠﴾

التفسير

نقاش الضعفاء والمستكبرين في جهنم:

لقد لفت مؤمن آل فرعون في نهاية كلامه نظر القوم إلى القيامة والعذاب وجهنم، لذلك جاءت هذه المجموعة من الآيات الكريمة وهي تقف بشكل رائع دقيق على تحاجج وتخاصم أهل النار فيما بينهم، وبالذات تحاجج المستضعفين مع المستكبرين.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا

لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عتاً نصيباً من النار»^(١).

المراد من «الضعفاء» هنا هم أولئك الذين يفتقدون العلم الكافي والإستقلال الفكري، إذ كان هؤلاء يتبعون زعماء الكفر الذي يطلق عليهم القرآن اسم المستكبرين، وكانت التبعية مجرد انقياد أعمى بلا تفكير أو وعي.

ولكن هؤلاء الأتباع يعلمون أن العذاب سيُشمل زعماءهم ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فلماذا إذن يستغيثون بهم ويلجأون إليهم كي يتحملوا عنهم قسطاً من العذاب.

ذهب البعض إلى أن ذلك يحصل تبعاً لعادتهم في الإنقياد إلى زعمانهم في هذه الدنيا، لذلك تكون استغاثتهم بهم في الآخرة كنوع من الإنقياد اللأ إرادي وراء قادتهم.

ولكن الأفضل أن نقول: إن الإستغاثة هناك هي نوع من السخرية والإستهزاء واللوم، يوم يثبت أن كل ادعاءات المستكبرين مجرد تقولات زائفة عارية عن المضمون والحقيقة^(٢).

(وفي الحقيقة فإن الإمام أمير المؤمنين - يحذر بهذا الكلام أولئك الذين سمعوا وصايا رسول الله ﷺ في يوم الغدير - أو أنها وصلتهم بطريق صحيح - ثم اعتذروا بأنهم نسوها ليتبعوا أناساً آخرين).

إن المستكبرين لم يسكتوا على هذا الكلام وذكروا جواباً يدل على ضعفهم الكامل وذلتهم في ذلك الموقف المهول، إذ يحكي القرآن على لسان قولهم: «قال الذين استكبروا إنا كلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد».

يريدون أن يقولوا: لو كان بمستطاعتنا حل مشاكلكم فالأحرى بنا والأجدر

١ - يتصور البعض أن الضمير في «يتحاجون» يعود إلى آل فرعون، إلا أن القرائن تدل أن الآية تنطوي على مفهوم عام يشمل جميع الكفار.

٢ - «تبعاً» جمع تابع، والبعض يحتمل أن تكون مصدرأ، خصوصاً وأن إطلاق المصدر على الأشخاص الموصوفين بصفة معينة أمر متعارف. والمعنى في هذه الحال هو: إنا كنا لكم عين النجعة.

أن نحل مشاكلنا وما حلّ بنا، ولكننا لا نستطيع أن نمنع العذاب عن أنفسنا ولا عنكم، ولا أن نتحمل عنكم جزءاً من العقاب!

والملاحظ هنا أن الآية (٢١) من سورة «إبراهيم» تتضمن نفس هذا الاقتراح من قبل الضعفاء إزاء المستكبرين، الذين قالوا جواباً على هذا: «لو هدانا الله هديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص».

والمقصود بالهداية هنا هي الهداية التي طريق الخلاص من العذاب. وهكذا يظهر أن هذين الجوابين لا يتعارضان فيما بينهما، بل يكمل أحدهما الآخر.

وعندما تغلق في وجههم السبل، سبل النجاة والخلاص، يتوجه الجميع إلى خزنة النار: «وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب»^(١).

إنهم يعلمون أن العذاب الإلهي لا يرتفع، لذلك يطلبون أن يتوقف عنهم ولو ليوم واحد كي يرتاحوا قليلاً... إنهم قانعون بهذا المقدار! لكن إجابة الخزنة تأتي منطقية واضحة: «قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات»؟

وفي الجواب قالوا: «قالوا بلى».

فيستطرد الخزنة: «قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال». إنكم بأنفسكم اعترفتم بأن الأنبياء والرسل جاءوا بالدلائل الواضحة، ولكنكم كفرتم بما جاءكم وكذبتم الأنبياء. لذلك لا ينفعكم الدعاء، لأن الله لا يستجيب لدعاء الكافرين.

بعض المفسرين يرى في تفسير الجملة الأخيرة أن المراد هو أننا لا نستطيع الدعاء لكم بدون إذن من الله تعالى، فادعوا انتم بذلك، وذلك إشارة إلى انغلاق

سبل النجاة أمامكم.

صحيح أن الكافر يصبح مؤمناً في يوم القيامة، إلا أن هذا الإيمان لا يقلل من آثار كفره، لذلك يلزمه لقب الكافر.

لكن يبدو أن التفسير الأول أفضل وأكثر قبولاً.



الآيات

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ الْكِتَابِ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾

التفسير

الوعد بنصر المؤمنين :

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن تحاجج أهل التار وعجزهم عن أن ينصر أحدهم الآخر، وبعد أن تحدثت الآيات التي سبقتها عن مؤمن آل فرعون وحماية الله له من كيد فرعون وآل فرعون، عادت هذه المجموعة من الآيات البيئات تتحدث عن شمول الحماية والنصر الإلهي لأنبياء الله ورسله وللذين آمنوا، في هذه الدنيا وفي الآخرة.

إنها تتحدث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآية الكريمة: ﴿إنا لننصر رسلنا

والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد».

إنها الحماية المؤكدة بأنواع التأكيد، والتي لا ترتبط بقيد أو شرط، والتي يستتبعها الفوز والنصر، النصر في المنطق والبيان؛ وفي الحرب والميدان؛ وفي إرسال العذاب الإلهي على القوم الظالمين، وفي الإمداد الغيبي الذي يقوي القلوب ويشد الأرواح ويجذبها إلى بارئها جلّ وعلا.

إن الآية تواجهنا باسم جديد ليوم القيامة هو: «يوم يقوم الأشهاد».

«أشهاد» جمع «شاهد» أو «شهيد» (مثل ما أن أصحاب جمع صاحب، وأشرف جمع شريف) وهي تعني الذي يشهد على شيء ما. لقد ذكرت مجموعة من الآراء حول المقصود بالأشهاد، نستطيع اجمالها بما يلي:

١- الأشهاد هم الملائكة الذين يراقبون أعمال الإنسان.

٢- هم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم.

٣- هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون الذين يشهدون على أعمال الناس.

أما احتمال أن تدخل أعضاء الإنسان ضمن هذا المعنى، فهو أمر غير وارد، بالرغم من شمولية مصطلح «الأشهاد» لأنّ تعبير «يوم يقوم الأشهاد» لا يتناسب وهذا الاحتمال.

إنّ التعبير يشير إلى معنى لطيف، حيث يريد أن يقول أن: «يوم الأشهاد» الذي تنبسط فيه الأمور في محضر الله تبارك وتعالى، وتتكشف السرائر والأسرار لكافة الخلائق، هو يوم تكون الفضيحة فيه أقطع ما تكون، ويكون الانتصار فيه أروع ما يكون ... إنّه اليوم الذي ينصر الله فيه الأنبياء والمؤمنين ويزيد في كرامتهم.

إنّ يوم الأشهاد يوم افتضاح الكافرين وسوء عاقبة الظالمين، هو: «يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار».

فمن جهة هو يوم لا تنفع المعذرة فيه، ولا يحول شيء دون افتضاح الظالمين أمام الأشهاد.

ومن جهة أخرى هو يوم تشمل اللعنة الإلهية فيه الظالمين، واللعنة هنا البعد عن الرحمة.

ومن جهة ثالثة هو يوم ينزل فيه العذاب الجسماني على الظالمين، ويوضعون في أسوأ مكان من نار جهنم.

سؤال:

إن الآية تفتح المجال واسعاً للسؤال التالي: إذا كان الله (تبارك وتعالى) قد وعد حتماً بانتصار الأنبياء والمؤمنين، فلماذا نشاهد، - على طول التاريخ - مقتل مجموعة من الأنبياء والمؤمنين على أيدي الكفار؟ ولماذا ينزل بهم الضيق والشدة من قبل أعداء الله، ثم لماذا تلتحق بهم الهزيمة العسكرية؟ وهل يكون ذلك نقضاً للوعد الإلهي الذي تتحدث عنه الآية الكريمة؟

الجواب على كل هذه الأسئلة المتشعبة يتضح من خلال ملاحظة واحدة هي: إن أكثر الناس ضحية المقاييس المحدودة في تقييم مفهوم النصر، إذ يعتبرون الانتصار يتمثل فقط في قدرة الإنسان على دحر عدوه، أو السيطرة على الحكم لفترة وجيزة!

إن مثل هؤلاء لا يرون أي اعتبار لانتصار الهدف وتقدم الغاية، أو تفوق وانتشار المذهب والفكرة؛ هؤلاء لا ينظرون إلى قيمة المجاهد الشهيد الذي يتحول إلى نموذج وقدوة في حياة الناس وعلى مدى الأجيال. ولا ينظرون إلى القيمة الكبرى التي يستبطنها مفهوم العزة والكرامة والرفعة التي ينادي بها أحرار البشر والقرب من الله تعالى ونيل رضاه.

ويدهي إن الإنجاس في إطار هذا التقييم المحدود يجعل من العسير الجواب

على ذلك الاشكال، أما الإنطلاق إلى أفق المعاني الواسعة الوضّاء لمفهوم النصر الإلهي والاخذ بنظر الاعتبار القيم الواقعية للنصر سيؤدى بنا الى معرفة المعنى العميق للآية.

نمّة كلام لطيف لسيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» يناسب هذا المقام، إذ يورد فيه ذكرى بطل كربلاء الإمام الحسين عليه السلام كمثال على المعنى الواسع لمفهوم النصر فيقول: «... والحسين - رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب، أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد في الأرض تهتر له الجوانح بالحب والعطف وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه، يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين وكثير من غير المسلمين»^(١).

وينبغي أن نضيف إلى هذا الكلام أن شيعة أهل البيت عليهم السلام يشاهدون كل يوم بأعينهم آثار الخير من حياة سيد الشهداء الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام ويلمسون آثار استشهاده واستشهاد صحبه البررة من أهل بيته وأصحابه؛ إن مجالس العزاء التي تقام للحديث عن مناقب الحسين وصحبه الكرام هي ينبوع الخير لحركة عظيمة ثرة ما زال عطاؤها لم ولن ينضب!

لقد شاهدنا بأعيننا ومن خلال النموذج الثوري الذي شهدته أرض إيران المسلمة، كيف استطاع الملايين من أبناء الإسلام أن يتحركوا في أيام عاشوراء للقضاء على الظلم والطغيان والإستكبار.

لقد شاهدنا بأعيننا كيف استطاع هذا الجيل المضحي الذي تربى في مدرسة أبي الشهداء الحسين عليه السلام وتقضى مما تدره مجالس عزائه، أن يحطم بأيدي خالية عرش أقوى السلاطين الجبارين.

نعم، لقد شاهدنا دم الحسين الشهيد وقد سرى في العروق عزةً و حركةً وانتفاضة، غيرت الحسابات السياسية والعسكرية للدول الكبرى. بعد كل ذلك، ومع كل العطاء الثر الهادي الذي استمدته كل الأجيال - خلال التاريخ - من ذكرى الطف و سيد الشهداء، ألا يعتبر الحسين عليه السلام منتصراً حتى باتت آثار نصره الظافر حاضرة فينا بالرغم من مرور أكثر من ثلاثة عشر قرناً على استشهاده!؟

سؤال آخر

ثمة سؤال آخر يتبلور من المقابلة بين الآية التي بين أيدينا والآية (٣٦) من سورة «المرسلات» إذ تقرأ الآية التي نحن بصدها أن اعتذار الظالمين لا يؤثر ولا ينفعهم يوم القيامة، فيما تنص الآية من سورة المرسلات على أنه لا يسمح لهم بالإعتذار أصلاً، حيث قوله تعالى: «ولا يؤذن لهم فيعتذرون» فكيف ياترى نوفق بين الإثنين؟

قبل الإجابة ينبغي الإنتباه إلى ملاحظتين:

الأولى: أن ليوم القيامة مواقف معينة تختلف شرائطها، ففي بعضها يتوقف اللسان عن العمل وتنطق الأرجل والأيدي والجوارح، وتقوم بالشهادة على عمل الإنسان. وفي مواقف أخرى ينطق اللسان بالنطق والكلام (كما تحكي ذلك الآية ٦٥ من سورة «يس» والآيات السابقة في هذه السورة التي تحدثت عن تحاجج أهل النار).

بناءً على هذا، فلا مانع من عدم السماح لهم بالإعتذار في بعض المواقف، في حين يسمح لهم في مواقف أخرى، وإن كان الإعتذار لا يجدي شيئاً ولا يغير من المصير.

الملاحظة الثانية: إن الإنسان يتحدث في بعض الأحيان بكلام لا فائدة منه،

ففي مثل هذه الموارد يكون الشخص كمن لم يتكلم أصلاً. بناءً على هذا يمكن أن تكون الآية الدالة على عدم السماح لهم بالإعتذار تقع وفق هذا المعنى، أي أن اعتذارهم برغم خروجه من أفواههم، إلا أنه لا فائدة ترجى منه.

تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك للحديث عن أحد الموارد التي انتصر فيها الرسل نتيجة الحماية الإلهية والدعم الرباني لهم، فتحدث عن النبي الكريم ﷺ: «ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب».

إن هداية الله لموسى تنطوي على معاني واسعة، إذ تشمل مقام النبوة والوحي، والكتاب السماوي (التوراة) والمعاجز التي وقعت على يديه ﷺ أثناء تنفيذه لرسالات ربه وتبليغه إياها.

إن استخدام كلمة «ميراث» بالنسبة إلى التوراة يعود إلى أن بني إسرائيل توارثوه جيلاً بعد جيل، وكان بإمكانهم الاستفادة منه بدون مشقة؛ تماماً مثل الميراث الذي يصل إلى الإنسان بدون عناءٍ وتعب، ولكنهم فرطوا بهذا الميراث الإلهي الكبير.

الآية التي بعدها تضيف: «هدى وذكرى لأولي الألباب»^(١).

الفرق بين «الهداية» و «الذكرى» أن الهداية تكون في مطلع العمل وبدايته، أما التذكير فهو يشمل تشبيه الإنسان بأمر سمعها مسبقاً وآمن بها لكنه نسيها.

وبعبارة أخرى: إن الكتب السماوية تعتبر مشاعل هداية ونور في بداية انطلاق الإنسان، وترافقه في أشواط حياته تبث من نورها وهداها عليه.

ولكن الذي يستفيد من مشاعل الهدى هذه هم «أولو الألباب» وأصحاب العقل، وليس الجهلة والمعاندون المتعصبون.

الآية الأخيرة - من المقطع الذي بين أيدينا - تنطوي على وصايا وتعليمات

١ - يمكن أن تكون «هدى وذكرى» مفهولاً لأجله أو مصدرأ بمعنى الحال، أي (هادياً ومذكراً لأولي الألباب) لكن البعض احتل أن تكون بدلاً أو خيراً لمبتدأ محذوف، إلا أن ذلك غير مناسب كما يبدو.

مهمة للرسول ﷺ وهي في واقعها تعليمات عامة للجميع، بالرغم من أن المخاطب بها هو شخص الرسول الكريم ﷺ.

يقول تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾.

عليك أن تصبر على عناد القوم ولجاجة الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء والمعارف، وتحمل أحياناً أذاهم

وتخاذلهم.

وعليك أيضاً أن تصبر إزاء العواطف النفسية.

إن سر انتصارك في جميع الأمور يقوم على أساس الصبر والإستقامة.

ثم اعلم أن وعد الله بنصرك وأمتك لا يمكن التخلف عنه، وإيمانك - وإيمانهم

- بحقانية الوعد الإلهي يجعلك مطمئناً ومستقيماً في عملك، فتتهون الصعاب عليك

وعلى المؤمنين.

لقد أمر الله تعالى رسوله مرّات عديدة بالصبر، والأمر بالصبر جاء مطلقاً في

بعض الموارد، كما في الآية التي بصددها، وجاء مقيداً في موارد أخرى ويختص

بأمر معين، كما في الآيتين (٣٩-٤٠) من سورة «ق»: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾.

وكذلك يخاطبه تعالى في الآية (٢٨) من سورة الكهف بقوله تعالى: ﴿وإصبر

نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك

عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه

وكان أمره فرطاً﴾.

إن جميع انتصارات الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل إنما تمت بفضل الصبر

والإستقامة واليوم لا بد أن نسير على خطى رسول الله ونصبر كما صبر الرسول

وأصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقرة الأخرى من التعليمات الربانية تقول: ﴿واستغفر لذنبك﴾.

واضح أن رسول الله ﷺ معصوم لم يرتكب ذنباً ولا معصية، لكننا قد أشرنا

في غير هذا المكان إلى أن أمثال هذه التعبيرات في القرآن الكريم، والتي تشمل في خطابها الرسول الأكرم وسائر الأنبياء، إنما تشمل ما نستطيع تسميته بـ «الذنوب النسبية» لأن من الأعمال ما هو عبادة وحسنة بالنسبة للناس العاديين، بينما هي ذنب للرسول والأنبياء لأن: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

فالفلة - مثلاً - لا تليق بمقامهم، ولو للحظة واحدة. وكذلك الحال بالنسبة لترك الأولى، إذ أن منزلتهم الرفيعة ومعرفتهم العالية تتوجب أن يحذروا هذه الأمور ويستغفروا منها متى ما صدرت عنهم.

وما ذهب إليه البعض من أن المقصود بالذنوب هي ذنوب المجتمع، أو ذنوب الآخرين التي ارتكبوها بشأن رسول الله ﷺ أو أن الإستغفار تعبدي فهو بعيد. الفقرة الأخيرة في الآية الكريمة تقول: «وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار».

«العشي» فترة ما بعد الظهر إلى قبل غروب الشمس، أما «الإبكار» فهو ما بين الطلوعين.

ويمكن أن تطلق لفظتا (العشي والإبكار) على الوقت المعين بالعصر والصباح، حيث يكون الإنسان مهياً للحمد وتسبيح خالقه تبارك وتعالى بسبب عدم شروعه بعد بعمله اليومي، أو أنه قد انتهى منه.

وقد اعتبر البعض أن هذا الحمد والتسبيح إشارة إلى صلاة الصبح والعصر، أو الصلوات اليومية الخمس، في حين أن ظاهر الآية ينطوي على مفهوم أوسع من ذلك الصلوات هي إحدى مصاديقها.

في كل الأحوال تعتبر التعليمات الثلاث الآتية الذكر شاملة بناء الإنسان وإعداده للرفي في ظل اللطف والرعاية الإلهية، وهي إلى ذلك زاده في سيره للوصول نحو الأهداف الكبيرة.

فهنالك أولاً - وقبل كل شيء - التحمل والصبر على الشدائد

والصعوبات، ثم تطهير النفس من آثار الذنوب. وأخيراً تكليل كل ذلك بذكر الله، حيث تسبيحه وحمده يعني تنزيهه من كل عيب ونقص، وحمده فوق كل حسن وكمال.

إن الحمد والتسبيح الذي يكون لله تعالى يؤثر في قلب الإنسان ويظهره من جميع العيوب، ومن سيئات الغفلة واللهو، ويجعله يتصف باليقظة والكمال.

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿٦٦﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءِ
قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾

التفسير

ما يستوي الأعمى والبصير!

دعت الآيات السابقة رسول الله ﷺ إلى الصبر والإستقامة أمام المعارضين
وأكاذيبهم ومخططاتهم الشيطانية، والآيات التي نحن بصدد هاتذكر سبب
مجادلتهم للحق.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي

صدورهم إلا كبر».

«المجادلة» - كما أشرنا سابقاً - تعني العناد في الكلام وإطالته بأحاديث غير منطقية، وإن كانت تشمل أحياناً في معناها الواسع الحق والباطل.

أما قوله تعالى: «بغير سلطان آتاهم» فهي للتأكيد على ما يستفاد من معنى المجادلة حيث تعني «سلطان» الدليل والبرهان الذي يكون سبباً لهيمنة الإنسان على خصمه.

أما «آتاهم» فهي إشارة إلى الأدلة والبراهين التي أوحى الله بها إلى أنبيائه عليهم السلام، ولا ريب أن الوحي هو أفضل الطرق وأكثرها اطمئناناً لإثبات الحقائق.

أما المقصود بـ «آيات الله» التي كانوا يجادلون فيها، فهي معجزات وآيات القرآن والأحاديث المختصة بالمبدأ والمعاد، حيث كانوا يعتبرونها سحراً، أو أنها علامات الجنون، أو أساطير الأولين!

من ذلك يتبين أن ليس لهؤلاء من دليل حي ومنطقي في المجادلة سوى التعالي والغرور والتكبر عن الإنصياع إلى الحق، لذلك كانوا يرون أن أفكار الآخرين وعقائدهم باطلة وأن عقائدهم وأفكارهم حقّة!

تشير كلمة (إن) إلى أن السبب الوحيد لعنادهم في هذه الموارد هو الغرور والتكبر، وإلا كيف يصّر الإنسان على كلامه وموقفه دون دليل أو برهان.

«الصدور» تشير هنا إلى القلوب، والمقصود بالقلب هو الفكر والروح، حيث ورد هذا المعنى مرّات عدّة في آيات الكتاب المبين.

أما كلمة (كبر) في الآية فقد فسّرها بعض المفسّرين بالحسد.

وبذلك اعتبر هؤلاء أن سبب مجادلتهم لرسول الله ﷺ هو حسدهم له ولمنزلة ومقامه المعنوي الظاهري.

لكن «كبر» لا تعني في اللغة المعنى الآنف الذكر، لكنّه يمكن أن يلازمها، لأنّ

من يتكبر يحسد، إذ لا يرى المتكبر المواهب إلا لنفسه، ويتألم إذا انصرفت لغيره حسداً منه وجهلاً.

ثم تضيف الآية: «ما هم بباليغية».

إن هدفهم أن يروا أنفسهم كباراً، يفاخرون بذلك و يفتخرون على غيرهم، لكنهم لن يحصدوا سوى الذلة والخسران، ولن يصلوا بطريق التكبر والغرور والعلو والمجادلة بالباطل إلى ما يبتغونه^(١).

في نهاية الآية تعليمات قيمة لرسول الله ﷺ بأن يستعذ بالله من شر هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم، حيث يقول تعالى: «فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير».

فهو - تعالى - يسمع أحاديثهم الباطلة الواهية، وينظر إلى مؤامراتهم وأعمالهم القبيحة وخططهم الشريرة.

والاستعاذة بالله لا تبغي لرسول الله ﷺ وحده وحسب، وإنما تجب على كل السائر في طريق الحق عندما تتعاطم الحوادث ويستعر الصدام مع المتكبرين عديمي المنطق!

لذلك نرى استعاذة يوسف ﷺ عندما تواجهه العاصفة الشديدة المتمثلة بشهوة «زليخا» يقول: «معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي» فكيف أخون عزيز مصر الذي أكرمني وأحسن وقادتي.

وفي آيات سابقة من نفس هذه السورة نقرأ أن كلم الله موسى ﷺ قال: «إني

١ - نثت بين المفسرين كلام حول مرجع الضمير في قوله: «باليغية» أشهره قولان:

الأول: أن يعود الضمير إلى «كبر» وتكون «ما هم بباليغية» جملة وصفية لـ (كبر) ويكون المعنى هكذا: إنهم لا يصلون إلى مقتضى وهدف تكبرهم (في الواقع حذف هنا المضاف والتقدير «ما هم بباليغية مقتضى كبرهم»).

الثاني: أن يعود الضمير إلى «جدال» الذي يستفاد من جملة «بجادلون» والمعنى أنهم لن يصلوا إلى هدف جدالهم المتمثل بإبطال الحق. ولكن في هذه الحالة لا نستطيع أن نقول: إن الجملة صفة لا كبر) بل ينبغي أن نطلقها على ما سبقها مع حذف الماطف.

عذت بربي و ربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»^(١).

إن قضية المعاد وعودة الروح للإنسان بعد موته، تعتبر من أكثر القضايا التي يجادل فيها الكفار، ويعاندون بها رسول الله ﷺ لذلك تنتقل الآية التسالية إلى التذكير بهذه القضية، وإعادة طرحها وفق منطق قرآني آخر، إذ يقول تعالى: «خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

إن خالق هذه المعجزات العظيمة ومدبرها يستطيع - بصورة أولى - أن يحيي الموتى، وإلا كيف يتسق القول بخلقه السماوات والأرض وعجزه من إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت؟

إن هذا المنطق يعبر عن جهل هؤلاء الذين لا يستطيعون إدراك هذه الحقائق الكبرى!

أغلب المفسرين اعتبر هذه الآية ردأً على مجادلة المشركين بشأن قضية المعاد، بينما احتل البعض أنها رد على كبر المتكبرين والمغرورين الذين كانوا يتصورون أن ذواتهم وأفكارهم عظيمة غير قابلة للردأ أو النقص، في حين أنها تافهة بالقياس إلى عظمة عالم الوجود^(٢).

هذا المعنى غير مستبعد، ولكن إذا أخذنا بنظر الاعتبار الآيات التي بعدها يكون المعنى الأوّل أفضل.

لقد تضمنت الآية الكريمة سبباً آخر من أسباب المجادلة متمثلاً بـ «الجهل» في حين طرحت الآيات السابقة عامل «الكبر». والعاملان يرتبطان مع بعضهما، لأن أصل وأساس «الكبر» هو «الجهل» وعدم معرفة الإنسان لحدوده وقدره، ولعدم تقديره لحجم علمه ومعرفته.

الآية التي بعدها، وفي إطار مقارنته واضحة تكشف عن الفرق بين حال

١ - المؤمن - ٢٧.

٢ - يلاحظ الرأي الأوّل في مجمع البيان، تفسير الفخر الرازي، الكشاف، روح المعاني، الصافي وروح البيان.

المتكبرين الجهلة إزاء المؤمنين الواعين، حيث يقول: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾^(١).

إلا أنكم بسبب جهلكم وتكبركم: ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾^(٢).

إن المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمة العالم المحيط بهم، وبذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم ومعرفتهم وموقعهم، إلا أن الأعمى لا يدرك موقعه أو حجمه في الزمان والمكان وفي عموم الوجود المحيط به. لذلك فهو يخطيء دائماً في تقييم أبعاد وجوده، ويصاب بالكبر والغرور والوهم الذي يدفعه إلى ما هو قبيح وسيء.

ونستفيد أيضاً من خلال ارتباط الجملتين ببعضهما البعض أن الإيمان والعمل الصالح يتوزع بصائر القلب والفكر بنور المعرفة والتواضع والإستقرار، بعكس الكفر والعمل الطالح الذي يجعل الإنسان أعمى فاقداً لبصيرته، مشوهاً في رؤيته للأشياء والمقاييس.

الآية الأخيرة في المجموعة القرآنية التي بين أيدينا تتعرض إلى وقوع القيامة وقيام الساعة حيث يقول تعالى: ﴿إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾

«إن» و «اللام» في (لا تية) و جملة (لا ريب فيها) كلها للتأكيد المكرر الذي يستهدف تأكيد المضمون والمعنى المراد، وهو قيام القيامة.

لقد عالجت الرؤية القرآنية قضية القيامة في أكثر من مكان ومورد، بمختلف الأدلة ووسائل الإقناع، ذلك نرى بعض الآيات تذكر قيام الساعة والقيامة بدون مقدمات أو دليل، مكتفية بما ورد من أدلة ومقدمات في أماكن أخرى من الكتاب

١ - النظرة الأولية في الآية قد لا توجب معنى لـ «لا التافية» في قوله تعالى: ﴿ولا المسيء﴾ ولكن تأكيد النبي من ناحية، وتجلية المقصود من الجملة من ناحية ثانية، أوجب تكرار النبي، مضافاً إلى أن طول الجملة قد يؤدي إلى نسيان الإنسان للنفي الأول، الأمر الذي يوجب التكرار.

٢ - «ما» في قوله تعالى: ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ زائدة، وهي للتأكيد.

المبين .

«الساعة» كما يقول «الراغب» في «المفردات» هي بمعنى: أجزاء من أجزاء الزمان.

إنَّ الإشارة التي يطويها هذا الإستخدام لكلمة (الساعة) يشير إلى السرعة التي يتم فيها محاسبة الناس هناك.

لقد استخدمت الكلمة عشرات المرّات في القرآن الكريم، لتدل بشكل عام على المعنى الآنف الذكر، لكنّها تعني في بعض الأحيان نفس القيامة، فيما تعني في أحيان أخرى الإشارة إلى انتهاء العالم ومقدمات البعث والنشور. وبسبب من الإرتباط القائم بين الحديثين والقضيتين، وأنّ كلاهما يحدث بشكل مفاجيء، لذا تمّ استخدام كلمة «الساعة». (يمكن للقارئ الكريم أن يعود إلى بحث مفصل حول «الساعة» في تفسير سورة الروم).

أما سبب القول: بـ «ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون» فلا يعود إلى أن قيام القيامة من القضايا المجهولة والمبهمة، بل ثمة ميل في الإنسان نحو «الحرية» في الإستفادة غير المشروطة أو المقيدة من ملذات الدنيا وشهواتها، بالإضافة إلى الأمل الطويل العريض الذي يلزم الإنسان فينساق مع الحياة، ويغفل عن التفكير بالقيامة، أو الإستعداد لها.

* * *

ملاحظه

اليهود المغرورون:

لقد ذكر بعض المفسّرين في سبب نزول الآية الأولى - من مجموعة الآيات التي بين أيدينا - بحثاً مفاده أن اليهود كانوا يقولون: سيخرج المسيح الدجال فتعيّنه على محمّد وأصحابه ونستريح منهم، ونعيد الملك إلينا (مجمع البيان - الجزء

الثامن - صفحة (٨٢٢) طبعة دار المعرفة).

يمكن أن يشمل هذا السبب فيما يتضمّن من ادعاءات اليهود معينين: الأول: أنهم أرادوا أن ينتصر المسيح على الدّجال، من خلال ادعائهم أنّ «المسيح المنتظر» هو منهم وتطبيق الدّجال، والعياذ بالله، على النبي الأكرم ﷺ.

أو أنهم كانوا حقاً في انتظار الدّجال الذي كانوا يعتبرونه من أنفسهم.

ذلك أنّ المسيح وكما ذكر «الراغب» في «المفردات» وابن منظور في «لسان العرب» تطلق على «عيسى» ﷺ بسبب سيره وسياحته في الأرض، أو بسبب شفائه للمرضى بأمر الله عندما كان يمسح بيده عليهم. وكانت تطلق أيضاً على «الدجال» لأنّ الدجال له عين واحدة، بينما كان مكان العين الأخرى ممسوحاً.

ويحتمل أن يكون اليهود ينتظرون خروج الدجال ليتعاونوا معه في دحر المسلمين الذين هزموهم مراتٍ عديدة ممّا أثار غضبهم على رسول الله ﷺ.

وقد يكونوا في انتظار المسيح، كما يستفاد من قاموس الكتاب المقدس حيث يظهر أنّ المسيحيين واليهود ينتظرون خروج المسيح، لأنهم يعتقدون بأنّ المسيح سيحارب الدجال ويقضي عليه. لذلك أرادوا تطبيق هذا المعنى على ظهور الإسلام.

وقد استنتج بعض المفسّرين من سبب نزول هذه الآية على أنها مدنية دون غيرها من آيات السورة المكية. ولكن عدم ثبوت سبب النزول، كما أن عدم وضوح مفاد الآية وإبهامها تستوجب ضعف هذا الإستنتاج.



الآيات

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٦﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَسَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَتَّقُونَ ﴿٦٨﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْحَدُونَ ﴿٦٩﴾

التفسير

ادعوني أستجب لكم:

لقد تضمنت الآيات السابقة ألوان الوعيد والتهديد لغير المؤمنين من المتكبرين والمغرورين، المجموعة التي بين أيدينا من الآيات الكريمة تفيض حباً إلهياً ولطفاً، وتنبجس بالرحمة الشاملة للتائبين.

يقول تعالى أولاً: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم».

لقد فسر الكثير من المفسرين «الدعاء» بمعناه المعروف، وما يؤكد ذلك هو جملة «استجب لكم» بالإضافة إلى ما تفيده الروايات العديدة الواردة بخصوص

هذه الآية وثواب الدعاء، والتي سنشير إلى بعض منها فيما بعد.

ولكن بعض المفسرين تبع (ابن عباس) في رأيه بأن الدعاء هنا بمعنى التوحيد وعبادة الخالق جلّ وعلا، أي «اعبدوني واعترفوا بوحدايتي» إلا أن التفسير الأوّل هو الأظهر.

ونستفيد من الآية أعلاه مجموعة ملاحظات هي:

١- أن الله يحب الدعاء ويريده ويأمر به.

٢- لقد وعد الله بإجابة الدعاء، لكن هذا الوعد مشروط وليس مطلقاً. فالدعاء واجب الإجابة هو ما اجتمعت فيه الشروط اللازمة للدعاء والداعي وموضوع الدعاء.

وفي هذا الإطار شرحنا ما يتعلق بهذا الموضوع في تفسير الآية (١٨٦) من سورة البقرة.

٣- الدعاء في نفسه نوع من العبادة، لأن الآية أطلقت في نهايتها صفة العبادة على الدعاء.

تتضمّن الآية في نهايتها تهديداً قوياً للذين يستكفون عن الدعاء، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

* * *

أهمية الدعاء وشروط الإستجابة

ثمّة تأكيد كبير على أهمية الدعاء في الروايات المنقولة عن رسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام:

١- في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة»^(٢).

١- داخر من «دخور» وتعني الذلة، وهذه الذلة هي عقوبة ذلك التكبر والإستعلاء.

٢- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ٥٢٨.

٢- في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل: ما تقول في رجلين دخلا المسجد جميعاً، كان أحدهما أكثر صلاة، والآخر دعاءً فأيهما أفضل؟ قال «كلّ حسن».

لكن السائل عاد وسأل الإمام عليه السلام: قد علمت، ولكن أيهما أفضل؟ أجاب الإمام عليه السلام: «أكثرهما دعاء، أما تسمع قول الله تعالى: «ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين». ثم أضاف بعد ذلك: «هي العبادة الكبرى»^(١).

٣- في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه أجاب عن أفضل العبادات بقوله: «ما من شيء أفضل عند الله من أن يسأل ويطلب ممّا عنده، وما أحد أبغض إلى الله عزّ وجلّ ممن يستكبر عن عبادته، ولا يسأل ما عنده»^(٢).

٤- في حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «إنّ عند الله عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلاّ بمسألة، ولو أنّ عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فاسأل تعط، إنّه ليس من باب يقرع إلا يوشك أن يفتح لصاحبه»^(٣).

٥- لقد ورد في بعض الروايات أنّ الدعاء أفضل حتى من تلاوة القرآن، كما أشار إلى ذلك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وحفيده من أئمة المسلمين الإمام الباقر و الصادق عليهما السلام، حيث قالوا: «الدعاء أفضل من قراءة القرآن»^(٤). وفي نطاق تحليل قصير نستطيع أن ندرك عمق مفاد هذه الأحاديث، فالدعاء يقود الإنسان من جانب إلى معرفة الله تبارك وتعالى، وهذه المعرفة هي أفضل رصيد للإنسان في وجوده.

ومن جانب آخر يدفع الدعاء الإنسان إلى الإحساس العميق بالفقر والخضوع

١ - مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ٥٢٩.

٢ - الكافي، مجلد ٢، باب: فضل الدعاء والحث عليه، صفحة ٣٣٨.

٣ - الكافي، المجلد الثاني، (باب فضل الدعاء والحث عليه) ص: ٣٣٨.

٤ - مكارم الأخلاق، طبقاً للميزان، المجلد ٢، ص ٣٤.

تجاه خالقه جلّ وعلا ويبعده عن التعالي والغرور اللذين يعدّان الأرضية المناسبة للمجادلة في آيات الله والإنحراف عن جادة الصواب والوقوع في المهالك.

من جانب ثالث يعمق الدعاء لدى الإنسان الشعور بأنّه جلّ وعلا منبع النعم ومصدره ويدفعه إلى العشق والارتباط العاطفي مع الله جلّ جلاله.

ومن جانب رابع يشعر الإنسان بالحاجة الى الله تعالى وانه رهين نعمته، ولذلك فهو موظف بطاعته وتنفيذ أوامره، ويرهف إحساسه بالعبودية لله تعالى.

وخامس بما أنّه يعلم أنّ للإجابة شروطها، ومن شروطها خلوص النية، وصفاء القلب، والتوبة من الذنوب، وقضاء حوائج المحتاجين، والسعي في مسائل الناس من الأقرباء والأصدقاء وغيرهم، فلذلك يهتم ببناء الذات واصلاح النفس وتربيتها.

وسادس يركّز الدعاء في نفس الإنسان الداعي عوامل المنعة والإرادة والثقة، ويجعله أبعد الناس عن اليأس والقنوط أو التسليم للعجز (وقد تحدثنا عن الدعاء وفلسفته وشرائطه ذيل الآيات ٧٧ من سورة الفرقان).

ثمة ملاحظة مهمّة هنا، هي أن الدعاء لا يلغي بذل الوسع والجهد من قبل الإنسان، وإنّما حسبما تفيد الروايات والأحاديث في هذا الشأن - على الإنسان أن يسعى ويبدل ويجهد، ويترك الباقي على الله تعالى. لذا لو جعل الإنسان الدعاء بديلاً عن العمل والجهد فسوف لا يجاب إلى مطلبه حتماً.

لذلك نقرأ في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «أربعة لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس في بيته يقول: اللهم أرزقني، فيقال له: ألم أمرك بالطلب؟. ورجلٌ كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟ ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: اللهم أرزقني، فيقال له: ألم أمرك بالإقتصاد؟ ألم أمرك بالإصلاح؟ ورجل كان له مال فأدانه بغير بيتنة، فيقال له: ألم أمرك

بالشهادة؟!^(١)

ومن الواضح أنّ الموارد التي يتحدّث عنها الحديث الشريف، إنّما مُنِعَ فيها الإنسان عن إجابة دعوته لعدم بذله قصارى جهده وسعيه، فعليه أن يتحمّل تبعه تقصيره وتفريطه.

من هنا يتضح أنّ أحد عوامل عدم استجابة الدعاء يتمثل في التباطؤ وترك الجهد المناسب للعمل واللجوء إلى الدعاء وقد جرت سنة الله تعالى على عدم إجابة مثل هذه الدعوات.

طبعاً، هناك عوامل وأسباب أخرى لعدم استجابة بعض الأدعية. فمثلاً عادة ما يحدث أن يخطيء الإنسان في تشخيص مصالحة ومفاسده، إذ يصر أحياناً على موضوع معين ويطلبه من الخالق جلّ وعلا في حين ليس من مصلحته ذلك. ولكنّه يفهم ذلك فيما بعد.

وهذا الأمر يشبه إلى حدٍ كبير الطفل أو المريض الذي يطلب بعض الأطعمة والأشربة ويشتهيها، فلا يجاب لطلبه ولا تلبّى رغبته، لأنّها قد تؤدي إلى مضاعفة الخطر على صحته أو حتى المجازفة بحياته. ففي مثل هذه الموارد لا يستجيب الله تعالى لدعاء العبد، بل يدخر له الثواب يوم القيامة، مضافاً إلى أن لإجابة الدعاء شروطاً مذكورة في الآيات والروايات الشريفة وقد بحثنا هذا الموضوع مفصلاً في المجلد الأوّل من هذا التفسير^(٢).

موانع استجابة الدعاء

لقد ذكرت بعض الروايات ذنوباً متعدّدة إذا ارتكبتها الإنسان تحول بينه وبين إجابة دعائه، مثل سوء النية، النفاق، تأخير الصلاة عن وقتها، اللسان البذيء الذي

١- أصول الكافي، المجلد الثاني، باب من لا يستجاب له دعوة العبد رقم (٢).

يخشاه الناس، الطعام الحرام، وترك الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى^(١). وفي إطار هذه النقطة بالذات ثمة حديث جامع عن الإمام الصادق عليه السلام ينقله «الشيخ الطبرسي» في «الإحتجاج» أنه سئل: أليس يقول الله: «ادعوني أستجب لكم» وقد نرى المضطر يدعو ولا يجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوه فلا ينصره؟ قال: «ويحك! ما يدعو أحد إلا استجاب له، أما الظالم فدعاؤه مردود إلى أن يتوب، وأما المحق فإذا دعا استجاب له وصرف عنه البلايا من حيث لا يعلمه، أو ادخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خير له إن أعطاه، أمسك عنه»^(٢).

نعود الآن إلى الآية الكريمة... فيما أن الدعاء وطلب الحوائج من الله تعالى يعتبر فرعاً لمعرفته، لذا تتحدث الآية التي تليها عن حقائق تؤدي إلى ارتقاء مستوى المعرفة لدى الإنسان، وتزيد شرطاً جديداً لإجابة الدعاء، متمثلاً بالأمل في الإجابة، بل وانتظار تنجز الحاجة وتامها.

يقول تعالى: «الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه».

إن ظلمة الليل وهدوءه وسكونه يعتبر - من جانب - سبباً قهرياً لتعطيل الحركة اليومية لعمل الإنسان السوي ونشاطه. والظلمة - من ناحية أخرى - تمحو عن الإنسان تعب النهار، وتدفعه إلى الإستقرار والراحة لجسده وأعصابه، في حين يعتبر النور والنهار أساس الحياة والحركة.

لذلك يضيف تعالى قوله تعالى: «والنهار مبصراً».

في النهار المبصر يُضاء محيط الحياة وتدب الحركة والنشاط في روح الإنسان وكيانه.

والطريف أن «مبصراً» تعني الذي يبصر. وعندما يوصف النهار بهذا الوصف،

١ - معاني الأخيار. طبقاً لما أورده نور الثقلين في المجلد الرابع. صفحة (٥٢٤) وأصول الكافي.

٢ - تفسير الصافي أثناء تفسير الآية الكريمة.

فانه في الحقيقة نوع من التأكيد في جعل الناس مبصرين. (ثمة بحث عن فلسفة النور والظلام والليل والنهار، ورد أثناء الحديث عن الآيات^(١).)
ثم تضيف الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ».

إِنَّ النظام الدقيق كتناوب الليل والنهار والظلمة والنور، يعتبر واحداً من مواهب الله تبارك وتعالى وعطاياه لعباده، وسر من أسرار الحركة في الحياة وفي منظومة الوجود الكوني.

فبدون النور ليس ثمة حياة أو حركة، ومن دون أن يتناوب الليل والنهار - أو الظلام والنور - سيؤدي إلى تعطيل حركة الحياة، بل وجعلها مستحيلة. فشدّة النور - مثلاً - ستشل الموجودات وتعطل نمو النباتات، وكذلك الظلمة الدائمة لها أضرارها. ولكن الناس - وبدواعي العادة والألفة - لم يلتفتوا إلى هذه المواهب الإلهية وما تستبطنه من منافع لهم.

والملفت للنظر أن القاعدة تقتضي أن يكون هناك «ضمير» بدل «الناس» الثانية، فيكون القول: لكن أكثرهم لا يشكرون، إلا أن ذكر «الناس» بدلاً عن الضمير كأنه يشير إلى أن طبع الإنسان الجاهل هو كفران النعم وترك الشكر، كما نقرأ ذلك واضحاً في الآية (٣٤) من سورة إبراهيم، في قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ». (يلاحظ هذا المعنى في تفسير الميزان وروح المعاني).

أما إذا ملك الإنسان عيناً بصيرة وقلباً عارفاً بحيث يرى النعم الإلهية اللامتناهية في كل مكان يحل به، وينظر إلى فيض النعم والعطايا والمواهب الربانية، فسيضطر طبيعياً إلى الخضوع والعبودية والشكر، ويرى نفسه صغيراً مديناً إلى خالق هذه العظمة وواهب هذه العطايا. (عن معنى الشكر وأقسامه يمكن مراجعة البحث الخامس في تفسير الآية «٧» من سورة إبراهيم).

الآية التي تليها تبدأ من توحيد الربوبية وتنتهي بتوحيد الخالقية والربوبية. فتقول أولاً: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ و مربيكم الذي من صفاته أنه: ﴿خالق كل شيء﴾. ولا معبود إلا الله: ﴿لا إله إلا هو﴾.

في الواقع إن وجود كل هذه النعم دليل على الربوبية والتدبير، وخالق كل شيء عنوان لصفة التوحيد في الربوبية، لأن الخالق هو المالك والمربي. ومن المعلوم أن الخلق يستدعي الرعاية الدائمة لأن الخالق لا تعني أن الله يخلق الخلق ويتركها وشأنها، بل لا بد وأن يكون الفيض الإلهي مستمراً في كل لحظة على جميع الموجودات. ولذلك فهذه الخالقية لا تفصل عن الربوبية. ومن الطبيعي أن هذا الإله هو الوحيد الذي يستحق العبادة، وأن ترجع إليه الأشياء.

لذا فإن جملة ﴿خالق كل شيء﴾ تعتبر الدليل لـ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وإن ﴿لا إله إلا هو﴾ هي النتيجة لذلك.

وتساءل الآية في نهايتها: كيف يسوغ الإنسان لنفسه الإنحراف والتسكّب عن الجادة المستقيمة؟ فيقول تعالى: ﴿فَأَنى تَوْفُكُونَ﴾^(١). ولماذا تتركون عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة الأصنام؟

والملاحظ أن «تؤفكون» صيغة مجهول، بمعنى أنها تحرفكم عن طريق الحق، وكأن المراد هو أن المشركين فاقدون للارادة الى درجة أنهم يساقون في هذا المسير دون اختيار أي نسبة من الحرية والإرادة والاختيار في هذا المجال. الآية الأخيرة - من مجموعة الآيات التي نبهت عليها - تأتي وكأنها تأكيد لمواضيع الآيات السابقة، فيقول تعالى: ﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمجحدون﴾. «يمجحدون» مشتقة من مادة «جحد» وهي في الأصل تعني إنكار الشيء

١ - «تؤفكون» من «إفك» وتعني الإنحراف والرجوع عن طريق الحق وجادة الصواب. ولهذا السبب يقال للمرياح المضادة «المؤفكات». ويتر عن «الكذب» به «الإفك» بسبب ما فيه من انحراف عن بيان الحق.

الموجود في القلب والنفس. بمعنى أن الإنسان يقر في نفسه وقلبه بعقيدة أو نسيء ما، وفي نفس الوقت ينفيه ويتظاهر بعكسه أو يعتقد بعدمه في نفسه ويثبته في لسانه.

ويطلق وصف الجحود على البخلاء والذين لا يؤمل منهم الخير ويتظاهرون بالفقر دائماً. أما «الأرض الجحدة» فهي التي لا ينبت فيها النبات إلا قليلاً^(١).
بعض علماء اللغة أوجز في تفسير «جحود» و«جحود» بقولهم: الجحود الإنكار مع العلم^(٢).

وبناءً على ما تقدم فإن الجحود يتضمّن في داخله نوعاً من معاني العناد في مقابل الحق، ومن الطبيعي أن من يتعامل مع الحقائق بهذا المنظور لا يمكن أن يستمر في طريق الحق، فما لم يكن الإنسان باحثاً عن الحقيقة وطالباً لها ومذعناً أمام منطقتها فسوف لن يصل إليها مطلقاً.

لذا فإن الوصول إلى الحق يحتاج مسبقاً إلى الإستعداد والبناء الذاتي، أيّ التقوى قبل الإيمان، وهو الذي أشار إليه تعالى في مطلع سورة البقرة: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين».



١- الراغب في المفردات مادة «جحود».

٢- لسان العرب تلاً عن «الجوهري»

الآيات

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾

التفسير

ذلكم الله ربكم:

تستمر هذه المجموعة من الآيات الكريمة بذكر المواهب الإلهية العظيمة وشمولها للعباد، كي تهب لهم المعرفة، وتربي في نفوسهم الأمل بالدعاء والتسليم وطلب الحوائج من الله تعالى.

والطريف في الأمر هنا أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن «النعم الزمانية» من ليل ونهار، بينما تتحدث هذه المجموعة عن «النعم المكانية» أي الأرض القرار، والسقف المرفوع (السماء) حيث تقول: «الله الذي جعل لكم الأرض

قراراً».

لقد خلق الله للإنسان الأرض كي تكون مقرّاً هادئاً ومستقراً آمناً له إنه المكان الخالي من المعوقات الصعبة، متناسق في تشكيلته مع تكوين الإنسان الروحي والجسدي، حيث تتوفر في الأرض المصادر المختلفة للحياة والوسائل المتنوعة والمجانية التي يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآية: «والسمااء بناءاً» أي كالسقف والقبة فوقكم.

و «بناءاً» كما يقول «ابن منظور» في لسان العرب، تعني البيوت التي كان عرب البادية يستفيدون منها ويستظلون تحتها كالخيم وما يستظل الإنسان تحته.

إنه تعبير جميل ودال حيث يصوّر السماء كالخيمة التي تغطي أطراف الأرض ولا تنقص منها شيئاً. والمقصود بالسماء هنا الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض. إن الخيمة الإلهية الكبيرة هذه تقلل من شدة أشعة الشمس، وعدمها يعرض الأرض إلى الأشعة الكونية الحارقة القاتلة لجميع الكائنات الحية الموجودة على الأرض، لذلك نرى أن رواد الفضاء مضطرين لارتداء ملابس خاصة تحميهم من هذه الإشاعات.

إضافة إلى ما تقدم، تمنع الخيمة السماوية سقوط الأحجار التي تنجذب من السماء نحو الأرض، حيث تقوم بإحراقها بمجرد وصولها إلى غلاف الأرض ليصل رمادها بهدوء إلى الأرض.

وإلى هذا المعنى تشير الآية (٣٢) من سورة الأنبياء، حيث يقول تعالى: «وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً».

ثم ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فيقول تعالى: «وصوركهم فأحسن صوركهم». القامة متوازنة خالية من الإنحراف، وجهه في تقاطع جميلة لطيفة وفي منتهى النظم والإستحكام، إذ يمكن بلمحة واحدة التمييز بين الكائن البشري وبين الموجودات والكائنات الأخرى.

إن الهيكل الإنساني الخاص يؤهل الإنسان لإنجاز مختلف الأعمال من الصناعة والزراعة والتجارة والإدارة، وهو بامتلاكه للأعضاء المختلفة يعيش مرتاحاً مستفيداً من مواهب الحياة وعطايا الخالق.

الإنسان على خلاف أغلب الحيوانات التي تشرب الماء بضمها، فإنه يحمل المشروبات والمأكولات بيديه، ويقوم بشرب الماء في منتهى الدقة واللطف، وهذا الأمر يجعل الإنسان أقدر على انتخاب ما يشاء من الأشربة والأطعمة. ويجعل ما يتناوله نظيفاً غير مخلوط مع غيره. فهو مثلاً يقشر الفاكهة ويهذبها قبل تناولها، ويرمي الأجزاء الزائدة.

لقد ذهب بعض المفسرين في تفسير: «وصوركم فأحسن صوركم» إلى معنى أوسع من الصورة والشكل الظاهري والتكوين الداخلي، فقال: إن المعنى يتضمن كل الإ استعدادات والأذواق التي خلقها الله في الإنسان وأودعها فيه، فضله بها على كثير ممن خلق.

وفي آخر الحديث عن سلسلة هذه العطايا والمواهب الإلهية، تحدث الآية عن النعمة الرابعة، وهي الرزق الطيب بقوله تعالى: «ورزقكم من الطيبات».

«الطيبات» تشتمل على معنى واسع جداً، وهي تشمل الجيد من الطعام واللباس والزوجة والمسكن والدواب، وهي أيضاً تشمل الكلام والحديث الطيب الزكي النافع.

الإنسان يقوم بسبب جهله وغفلته بتلويث هذه المواهب الطاهرة والطيبات اللذيذة، إلا أن الله أبقى على نقائها وطهرها في عالم الوجود.

بعد بيان هذه المجموعة الرباعية من النعم الإلهية التي تتوزع بين الأرض والسماء وبين خلق الإنسان، تعود الآية للقول: «ذلكم الله ربكم فتيارك الله رب»

العالمين﴾^(١).

إنّ هذه المواهب تعود لله مدبر الكون خالق السماوات والأرض، لذلك فهو الذي يليق بمقام الرّبوبية لا غير.

الآية التي بعدها تستمر في إثارة قضية توحيد العبودية من طريق آخر. فتؤكد انحصار الحياة الواقعية بالله تعالى وتقول: ﴿هو الحي﴾.

إنّ حياته عين ذاته، ولا تحتاج إلى الغير. حياته (جلّ وتعالى) أبدية لا يخالها الموت، بينما جميع الكائنات الحية تتمتع بحياة مقرونة بالموت وحياتها محدودة وموقته تسترقد هذه الحياة من الذات المقدسة.

لذلك ينبغي للإنسان الفاني المحدود المحتاج أن يرتبط في عبادته بالحي المطلق، من هنا تنتقل الآية مباشرة إلى تقرير معنى الوحدانية في العبودية من خلال قوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾.

وعلى اساس هذه الوحدانية تقرّر قضية أخرى يتضمنها قوله تعالى: ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ واركوا جانبا كلّ شيء غيره. لأنّها جميعاً فانية، وحتى في حال حياتها فهي في تغير دائم «فالذي لا يتغير هو الله تعالى فقط. والذي لم يمت ولن يموت هو سبحانه فحسب».

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾. والتعبير القرآني درس للعباد بأن يتوجهوا بالشكر والحمد إلى الخالق جلّ وعلا دون غيره، فهو جزيل العطايا كثير المواهب مطلق النعم على عباده، خاصّة نعمة الحياة والوجود بعد العدم.

الآية الأخيرة من المجموعة القرآنية، هي في الواقع خلاصة لكل البحوث

١- «ذلكم» اسم إشارة للبعد. واستخدامها في مثل هذه الموارد كناية على العظمة وعلو المقام.

التوحيدية الآتفة، وجاءت لكي تقضي على أدنى بارقة أمل قد يحتمل وجودها في نفوس المشركين، إذ يقول تعالى موجهاً كلامه إلى النبي الأكرم ﷺ: «قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي».

ولم ينهاني ربي عن عبادة غيره فحسب، بل: «وأمرت أن أسلم لرب العالمين». نهى عن عبادة الأصنام يتبعه - مباشرة - بدليل منطقي من البراهين والبيانات ومن العقل والنقل، في أن يسلم لـ: «رب العالمين» وفي هذه العبارة أيضاً دليل آخر على المقصود لأن كونه رب العالمين دليل كافٍ على ضرورة التسليم في مقابله.

ومن الضروري أن نشير إلى افتراق الأمر والنهي في هذه الآية، فهناك أمر بالتسليم لله جلّ وعلا، ونهي عن عبادة الأصنام، وقد يعود السبب في التفاوت بين النهي والأمر إلى أن الأصنام قد تختص بصفة «العبادة» وحسب، لذلك جاء النهي عن عبادتها. أما بالنسبة لله تعالى فبالإضافة إلى عبادته يجب التسليم له والإنصياع والإنقياد إلى أوامره وتعليماته.

لذلك نقرأ في الآيتين (١١-١٢) من سورة «الزمر» قوله تعالى: «قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين».

إن أمثال هذه الصيغ والأساليب المؤثرة يمكن أن نلمسها في كل مكان من كتاب الله العزيز، فهي تجمع الليونة والأدب حتى إزاء الأعداء والخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابلية لقبول الحق فسيثأثرون بالأسلوب المذكور.

ينبغي أن نلاحظ أيضاً التعبير في قوله تعالى: «إني أمرت ... إني نهيته» أي عليكم أنتم أن تحاسبوا أنفسكم من دون أن يشير فيهم حسّ اللجاجة والعناد.

الكلام الأخير في هذه المجموعة من الآيات هو أنها أعادت وصف الخالق بـ «رب العالمين» في ثلاث آيات متتالية:

تقول أولاً: ﴿فتبارك الله رب العالمين﴾.

ثم: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

وأخيراً: ﴿أمرت أن أسلم لرب العالمين﴾.

إنه نوع من أنواع الترتيب المنطقي الذي يصل بين أجزائها وجوانبها فالآية الأولى تشير إلى البركة وديموميتها، والثانية إلى اختصاص الحمد والثناء بذاته المقدسة دون غيره، وأخيراً تخصيص العبودية وحصرها به دون غيره عزاً اسمه.



الآيات

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ
مَنْ يَتُوفَىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾
هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴿١٨﴾

التفسير

المراحل السبع لخلق الإنسان:

تتبعاً لما تحدثت به الآيات السابقة عن قضية التوحيد، تستمر الآيات التي
بين أيدينا في إثارة نفس الموضوع من خلال الحديث عن «الآيات الأنفسية»
والمراحل التي تطوي خلق الإنسان وتطوره، من البدء إلى النهاية.
الآية الكريمة تتحدث عن سبع مراحل تكشف عن عظمة الخالق جلّ وعلا
وجزيل مواهبه ونعمه على العباد.

يقول تعالى: «هو الذي خلقكم من ترابٍ ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ يخرجكم
طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدكم ثمّ لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً

مستى ولعلكم تعقلون».

يتضح من سياق الآية الكريمة أن المرحلة الأولى أو بداية الإنسان في مسيرة الخلق والوجود تكون من التراب، حيث خلق الله أبانا الأول آدم ﷺ من تراب، أو أن جميع البشر خلقوا من التراب، ذلك أن المواد الغذائية التي تشكل قوام الإنسان ووجوده، بما في ذلك النطفة، سواء كانت حيوانية أم نباتية كلها تستمد أساسها وأصولها من التراب.

المرحلة الثانية، هي مرحلة النطفة التي تشمل جميع البشر كأصل ثان في وجودهم عدا آدم وزوجته حواء.

المرحلة الثالثة التي تتكامل فيها النطفة وتنمو بشكل مستمر وتتحول إلى قطعة دم والمسمى بمرحلة «العلقة».

بعد ذلك تتحول «العلقة» إلى «مضغة» أشبه ما تكون باللحم «المضوغ» مرحلة ظهور الأعضاء، ثم مرحلة الحس والحركة، والآية لا تشير هنا إلى هذه المراحل الثلاث، لكن الآيات الأخرى أشارت إلى ذلك بشكل واضح.

المرحلة الرابعة تتمثل في ولادة الجنين. بينما تتمثل المرحلة الخامسة في تكامل القوة الجسمية التي قيل إنها تتم في سن الثلاثين، حيث سيحرز الجسم الإنساني أكبر قدر ممكن من نموه وتكامل قواه.

وقال البعض: إن الإنسان يصل هذه المرحلة قبل هذا السن، ومن الممكن أن تختلف هذه المرحلة عند الأشخاص إلى أن يحرز الإنسان فيها مرحلة «بلوغ الأشد» حسب التعبير القرآني.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الرجوع القهقري إلى الوراء، فيفقد الإنسان قواه تدريجياً، فيصل إلى الشيب الذي يعتبر المحطة السادسة من محطات الإنسان.

أخيراً، تنتهي حياة كل إنسان في الأرض بالموت والانتقال إلى العالم الآخر. بعد كل هذه التغيرات والتطورات، هل ثمة من شك في قدرة وعظمة مبدئ

عالم الوجود، وألطف الله ومواهبه على الخلق؟!!

الطريف أن الآية تستخدم في الإشارة إلى المراحل الأربع الأولى تعبير «خلقكم» لأن ليس للإنسان أي دور فيها، حيث يتطور من التراب إلى النطفة ثم إلى العلقة فطفلاً صغيراً من دون أن يكون له أي دور في هذه التحولات. لكن في المراحل الثلاث التي تلي الولادة، أي مرحلة الوصول إلى أقصى القوة الجسمية ثم مرحلة الشيب وانتهاء العمر، استخدمت الآية تعبير «تبلغوا» و «لتكونوا» وفيها إشارة إلى كيان الإنسان الحرّ وفيها أيضاً ما يشير إلى الحقيقة التي تقول: إن نمو الإنسان ووجوده عبّر هذه المراحل الثلاث، وتقدمه باطّراد أو تأخره، يرتبط بشكل أو بآخر بحسن تدبير الإنسان أو سوء تدبيره، حيث يبلغ من الشيخوخة أو يموت مبكراً، وهذا يدل على مدى الدقّة في استخدام التعابير القرآنية الأنفة الذكر.

وسبق أن أشرنا إلى أن التعبير بـ«يتوفى» الذي يتضمن معنى الموت، لا يعني الفناء التام وفق المنطق القرآني، بل إن ملك الموت يمسك الروح ويقبضها بإذنه تعالى وبحسب الأجل الإلهي المحتوم، فتنتقل الأرواح إلى عالم آخر ألا وهو عالم «البرزخ».

إن تكرار مفاد هذا التعبير في القرآن الكريم، يبيّن بوضوح نظرة الإسلام تجاه الموت، هذا المفهوم الذي يخرج عن نطاق الفهم المادي الضيق الذي يقرب الموت بالفناء والعدم، بينما الموت لا يعبر إلا عن انتقال الروح من هذا العالم إلى عال آخر هو عالم البقاء.

وقوله تعالى: «ومنكم من يتوفى من قبل» قد يكون إشارة إلى حصول الموت قبل مرحلة الشيخوخة، أو قد يعني الإشارة إلى المراحل السابقة بأجمعها؛ بمعنى أن الموت قد يصيب الإنسان قبل أن يبلغ إلى مرحلة من المراحل السابقة. ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن جميع المراحل، عدا المرحلة الأخيرة (أي بلوغ نهاية العمر وحلول الوفاة) قد عطفت بـ«ثم» وهي إشارة إلى السياق

التسلسلي الترتيبي في سياق وجودها في حياة الإنسان، فمرحلة «المضغة» لا تسبق - مثلاً - مرحلة «النطفة» وهكذا. وفي هذا النوع من العطف إشارة أيضاً إلى وجود الفاصلة بين مرحلة وأخرى.

أما عطف المرحلة الأخيرة بـ (الواو) فقد يكون السبب فيه أن نهاية العمر لا تكون بالضرورة بعد انتهاء مرحلة الشيخوخة، إذ كثيراً ما يموت الإنسان قبل بلوغه إلى مرحلة الشيخوخة (هناك بحث عن «الأجل المسمى» ذيل الآية ٢ سورة الأنعام والآية ٣٤ من سورة الأعراف والآية ٦١ من سورة النحل).

الآية الأخيرة في هذا البحث تتحدث عن أهم مظهر من مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى متمثلة بقضية الحياة والموت، هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان بالرغم من تقدم العلم وتطوره في نطاق الأمور الغامضة والمجهولة في معرفة الإنسان وعلمه.

قول تعالى: «هو الذي يحيي ويميت».

إن الحياة والموت - بالمعنى الواسع للكلمة - بيد الله، سواء تعلق ذلك بالإنسان أو النبات أو أنواع الحيوان والموجودات الأخرى التي تتجلى فيها الحياة بأشكال متنوعة.

إن نماذج الحياة تعتبر أكثر النماذج تنوعاً في عالم الوجود وكل الكائنات تنتهي بأجل معين إلى الموت، سواء في ذلك الكائن ذو الخلية الواحدة أو الحيوانات الكبيرة، أو التي تعيش في الأعماق المظلمة للمحيطات والبحار، أو الطيور التي تعانق السماء، ومن الأحياء أحادية الخلية السابحة في أمواج المحيطات إلى الأشجار التي يبلغ طولها عشرات الأمتار، فإن لكل واحد منها حياة خاصة وشرائط معينة، وبهذه النسبة تتفاوت عملية موتها، وبدون شك فإن أشكال الحياة هي أكثر أشكال الخلق تنوعاً وأعجبها.

إن الانتقال من عالم إلى آخر؛ من الوجود المادي إلى الحياة، ومن الحياة في

هذه الدنيا الى ما بعد الموت يستبطن أسراراً وعجائب بليغة تحكي عظمة الخالق ومدى قدرته في هذه الخليقة العجيبة المتنوعة وكل واحدة من هذه القضايا المعقدة والمتنوعة لا تعتبر مشكلة وعسيرة في تناول قدرة الخالق جلّ وعلا، حيث تتحقق بمجرد إرادته.

لذلك تقول الآية في نهايتها بياناً لهذه الحقيقة: ﴿فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾.

إن كلمة «كن» وبعدها «فيكون» هي من باب عدم قدرة الألفاظ على استيعاب حقيقة الإرادة والقدرة الإلهية، وإلا فليس ثمة من حاجة إلى هذه الجملة، لأن إرادة الله هي نفسها حدوث الكائنات ووجودها^(١) بدون فصل



١- راجع تفسير قوله تعالى: ﴿كن فيكون﴾ في أثناء الحديث عن الآية (١١٧) من سورة البقرة.

الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضَرَّفُونَ ﴿٦٦﴾
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٦٨﴾
 فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
 تُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا
 مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ
 تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٢﴾ أَذْخُلُوا
 أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾

التفسير

عاقبة المعاندين المغرورين:

مرة أخرى تعود آيات الله البيّنات للحديث عن الذين يجادلون في آيات الله
 ولا يخضعون إلى منطق الحق ودلائل النبوة ومضامين دعوات الأنبياء والرسل.
 هذه الآيات تتحدث عن مصير هؤلاء، فتقول: «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات

الله أَنِّي يَصْرَفُونَ».

إنَّ هذه المجادلة بالباطل المقترنة مع التعصب الأعمى جعلتهم يحدون عن الصراط المستقيم، لأنَّ الحقائق لا تظهر أو تبين إلا في الروح الباحثة عن الحقيقة ومن ثمَّ الإذعان لمنطقها.

إنَّ طرح هذه القضية من قبل رسول الله ﷺ بصيغة الإستفهام يؤكد أنَّ من يتمتع بذوق سليم ومنطق قويم يشيره العجب من إنكار هذه الفئة لكل هذه الآيات البينات والدلائل والمعجزات.

ثم تتقل الآيات إلى بيان أمرهم عندما تقول: «الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا».

من الضروري أن نشير أولاً إلى أنَّ السورة التي بين أيدينا تحدت أكثر من مرّة عن «الذين يجادلون في آيات الله» جاء ذلك في الآيتين (٣٥) و(٥٦) وهذه الآية. ونستفيد من القرائن أنَّ المقصود بـ «آيات الله» هي دلائل النبوة وعلائمها على الأكثر، بالإضافة إلى ما تحويه الكتب السماوية. وطالما تتضمَّن الكتب السماوية آيات التوحيد، والمسائل الخاصة بالمبدأ والمعاد، لذا فإنَّ هذه القضايا مشمولة بجداول القوم وخصومتهم للحق.

وهل يستهدف التكرار تأكيد قضية هذا الموضوع، أم أنَّ كلَّ آية تختص بطرح وموضوع يختلف عن أختها؟

الأحتمال الثاني أقرب إلى المراد. إذ يلاحظ أنَّ لكل آية موضوع خاص. فالآية (٥٦) تتحدث عن دواعي المجادلة وأهدافها أي الكبر والغرور في حين تتحدث الآية (٣٥) عن عقابهم الدنيوي متمثلاً بأن ختم الله على قلوبهم. أما الآية التي نتحدث عنها الآن فهي تتحدث عن العقاب الأخروي، وأوصافهم في النار ذات السعير.

من الضروري أن نشير أيضاً إلى أنَّ «يجادلون» فعل مضارع يدل على

الإستمرار. وهذه إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد الذين يكذبون بآيات الله لتبرير عقائدهم وأعمالهم السيئة المشينة، إنّما يقومون بالمجادلة بشكلٍ مستمر من خلال الأقوال والذرائع الواهية.

وتنتهي الآية بتهديد من خلال قوله تعالى: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وعاقبة أعمالهم السيئة وذلك في وقت ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم﴾ أي يلقي بهم في الماء المغلي ثم ﴿في النار يسجرون﴾^(١).

«يسجرون» من كلمة «سجر» على وزن «فجر» وتعني إشعال النار وزيادة لهيبها - كما ذهب إليه الراغب في مفرداته -
أما الآخرون من أرباب اللغة والتفسير فيقولون: إنها تعني ملء التنور بالنار^(٢).

لذلك يذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه المجموعة من الكفّار تصبح وقوداً للنار، كما نقرأ ذلك في الآية (٢٤) من سورة البقرة: ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾.

البعض الآخر يقول: إنّ معنى الآية هو أنّ هؤلاء ستملاً النار كلّ وجودهم وتستوعب كامل كياناتهم. (طبعاً ليس ثمة تعارض بين المعنيين).

هذا النوع من العقاب للمعاندين والمتكبرين والمجادلين يعتبر في الواقع انعكاس لأعمالهم في هذه الدنيا، حيث كذبوا بآيات الله بسبب كبرياتهم

١ - «الأغلال» جمع «غل» وتعني الطوق حول العنق أو الرجل. وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «غلل» على وزن «أجل» بمعنى الماء الذي يجري بين الأشجار. ويطلق على «الخبانة» (غلول) وعلى الحرارة الناشئة من العطش «غليل» وذلك بسبب تقودها تدريجياً إلى داخل أعماق الإنسان.

«السلاسل» فهي جمع «سلسلة»، و«يسحبون» من كلمة «سحب» على وزن (سهو).

٢ - يلاحظ ذلك في «تفسير الصافي» و«روح المعاني» و«الكشاف» في نهاية الآيات التي نتجت. وفي لسان العرب: المعنى الأصلي ل«سجر» هو الملهاء. فيقال «سجرت النهر» أي ملأته ماء.

وغرورهم، وقيدوا أنفسهم بسلاسل التقليد الأعمى، وفي يوم الجزاء والقيامة ستطوقهم السلاسل من الأعناق بمنتهى الذلّة، وسيسحبون أذلاء إلى نار جهنم وبئس المصير.

إضافة إلى هذا العذاب الجسماني سيعاقبون بمجموعة من أنواع العذاب الروحي والنفسي كما تشير إليه الآية التالية، حيث يقول تعالى: ﴿ثم قيل لهم أيّما كنتم تشركون من دون الله؟!﴾

أي أين شركاؤكم من دون الله كي ينقذوكم من هذا العذاب الأليم وأمواج النار المتلاطمة؟ ألم تقولوا: إنكم تعبدونهم وتطيعونهم وتتخذونهم أرباباً ليشفوا لكم، إذا أين شفاعتهم الآن؟!﴾

فيجيبون بخضوع يغشاهم وذل يعلوهم: ﴿قالوا ضلوا عنّا﴾^(١) أيّ اختفوا وهلكوا وأبيدوا بحيث لم يبق منهم أثر.

ولا ريب، فإنّ من كانوا يدعونه من دون الله هم في نار جهنم، وقد يكونون بجانبهم، إلا أنّهم لا ينفعون ولا يؤثرون وكأنّهم قد اختلفوا!

وعندما يرى هؤلاء أنّ اعترافهم بعبادة الأصنام أصبح عاراً عليهم وعلامة تمييزهم، فإنّهم يبدأون بالإنكار فيقولون: ﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً﴾.

لقد كانت الأصنام مجرد أوهام، لكنّا كنّا نظن أنّها تمثل حقائق ثابتة، لكنّها أصبحت كالسراب الذي يتصوره العطشان ماء. أمّا اليوم فقد ثبت لنا أنّها لم تكن سوى أسماء من غير معنى وألفاظ ليس لها معنى، وأنّ عبادتها لم تنفعنا بشيء سوى الضلال. لذلك فهؤلاء اليوم بمواجهة الواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره.

هناك احتمال آخر في تفسير الآية، هو أنّهم سيكذبون لينقذوا أنفسهم من الفضيحة، كما نقرأ ذلك في الآيتين (٢٣) و(٢٤) من سورة الأنعام: ﴿ثم لم تكن

١ - لقد ذكر المفترسون معنيين لكلمة «ضلوا» فالبيض اعتبرها بمعنى ضاعوا وهلكوا، بينما قال البعض الآخر: إنّها بمعنى «غابوا» كونها «ضلت الدابة» أي غابت فلم يعرف مكانها.

فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون».

وأخيراً يقول تعالى: «كذلك يضل الله الكافرين».

إن كفرهم وعنادهم سيكون حجاباً على قلوبهم وعقولهم، ولذلك سيتركون طريق الحق ويسلكون سبيل الباطل، فيحرمون يوم القيامة من الجنة وينتهي مصيرهم إلى النار. وهكذا يضل الله الكافرين.

الآية التي بعدها تشير إلى علة مصائب هذه المجموعة، حيث يقول تعالى: «ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم ترحون».

كانوا يفرحون بمعارضة الأنبياء وقتل المؤمنين والتضييق على المحرومين، وكانوا يشعرون بالعظمة عند ارتكاب الذنوب وركوب المعاصي. واليوم عليهم أن يتحملوا ضريبة كل ذلك الفرح والغفلة والغرور من خلال هذه النيران والسلاسل والسعير.

«تفرحون» من «فرح» وتعني السرور والإبتهاج. وقد يكون الفرح ممدوحاً ومطلوباً في بعض الأحيان، كما تفيد الآيتان (٤) و(٥) من سورة «الروم» في قوله تعالى: «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله».

وفي بعض الأحيان يكون الفرح مذموماً وباطلاً، كما ورد في قصة قارون، الآية (٧٦) من سورة «القصص» حيث نقرأ قوله تعالى: «إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين».

طبعاً ينبغي التفريق بين الموردتين من خلال القرائن، ولا ريب من أن «الفرح» في الآية التي نببحثها من النوع الثاني.

«تفرحون» مشتقة من «مرح» على وزن «فرح» وهي كما يقول اللغويون والمفسرون، تأتي بمعنى شدة الفرح، وقال آخرون: إنها تعني الفرح بسبب بعض القضايا الباطلة.

في حين ذهبت جماعة ثالثة إلى اعتبارها حالة من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب والإستفادة من النعم الإلهية في طريق الباطل.

والظاهر أن هذه المعاني جميعاً تعود إلى موضوع واحد، ذلك أن شدة الفرح والإفراط فيه يشمل جميع المواضيع والحالات السابقة. وفي نفس الوقت فهو يتزامن مع أنواع الذنوب والآثام والفساد والشهوة^(١).

إن هذه الأفراح المتزامنة مع الغرور والغفلة والشهوة، تبعد الإنسان بسرعة عن الله تبارك وتعالى وتمنعه من إدراك الحقيقة، فتكون الحقائق لديه غامضة والمقاييس معكوسة.

ولمثل هؤلاء يصدر الخطاب الإلهي: «ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين».

هذه الآية تؤكد مرة أخرى على أن التكبر هو أساس المصائب، ذلك أن التكبر هو قاعدة الفساد، ويحجب البصائر عن رؤية الحق ويجعل الإنسان يخالف دعوة الأنبياء ﷺ.

ثم تشير الآية إلى أبواب جهنم بقوله تعالى: «أبواب جهنم».

ولكن هل الدخول من أبواب جهنم يعني أن لكل مجموعة باب معين تدخل منه، أو أن كل مجموعة منهم تدخل من أبواب متعددة؟

أي أن جهنم تشبه السجون المخيفة التي تتداخل فيها الأبواب والدهاليز والممرات والطبقات، فبعض الضالين المعاندين يجب أن يسلكوا كل هذه الأبواب والممرات والطبقات قبل أن يستقروا في قعر جهنم.

ومتما يؤكد هذا التفسير ما يروى عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه أجاب عن سؤال في تفسير قوله تعالى: «لها سبعة أبواب بكل باب

١- يقول الراغب في المفردات: «الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية. والصرح شدة للفرح والتوسع فيه».

منهم جزء مقسوم»^(١) أنه قال: إن جهنم لها سبعة أبواب، أطباق بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأخرى، فقال هكذا^(٢).

وثمة تفسير آخر نستطيع أن نقف على خلاصته بالشكل الآتي: إن أبواب جهنم - كأبواب الجنة - إشارة إلى العوامل المختلفة التي تؤدي بالإنسان إلى دخولها، فكل نوع من الذنوب أو نوع من أعمال الخير يعتبر باباً.

وثمة ما يشير إلى ذلك في الروايات الإسلامية، ووفق هذا المعنى فإن العدد (٧) هو كناية عن الكثرة، وما ورد في القرآن الكريم من أن للجنة ثمانية أبواب هو إشارة إلى ازدياد عوامل الرحمة على عوامل العذاب (راجع ذيل الآية ٤٤ سورة الحجر).

وهذان التفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

* * *

١- الحجر، الآية ٤٤.

٢- مجمع البيان، المجلد ٥-٦، صفحة ٣٣٨، نهاية الآية ٤٤ من سورة الحجر. هناك روايات أخرى ذكرها العلامة المجلسي في المجلد ٨ من بحار الأنوار، صفحة ٢٨٩ و٣٠١ و٢٨٥.

الآياتن

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ
لِرُسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

التفسير

فاصبر... حتى يأتيك وعد الله:

بعد سلسلة البحوث السابقة عن جدال الكافرين وغرورهم وتكذيبهم
الآيات الإلهية والدلائل النبوية، تأتي هاتان الآياتن لمواساة النبي الأكرم ﷺ
وتأمرانه بالصبر والإستقامة فى مواجهة المشاكل والصعاب.
يأتي الأمر أولاً فى قوله تعالى: «فاصبر إن وعد الله حق».

إن وعده بالنصر حق، ووعده بمعاقبة المستكبرين المغرورين حق، وكلاهما
سيتحققان، على أعداء الحق أن لا يظنوا بأنهم يستطيعون الهروب من العذاب
الإلهي بسبب تأخر عقابهم، لذلك تضيف الآية: «فإمّا تُرينك بعض الذي نعدهم أو

نتوفينك فالينا يرجعون»^(١).

إنّ مسؤوليتك هي التبليغ البليغ وإتمام الحجة على الجميع، حتى تتنور القلوب اليقظة ببلاغك، ولا يبقى للمعاندين عذراً عليك أن تهتم بإنجاز مهمتك ولا تنتظر أن تحقق الوعيد عاجلاً بإنزال العقاب على هذه الفئة الضالة.

والكلام يتضمّن تهديداً إلى تلك الفئة لكي يعلموا أنّ العذاب لا بدّ مصيبيهم، ونازل بساحتهم، فكما نال بعضهم العقاب الذي يستحقونه في هذه الدنيا في «بدر» وغيرها، فهناك أيضاً يوم القيامة والعذاب المنتظر.

ثم تشير الآية الكريمة إلى الوضع المشابه الذي واجهه الرسل والأنبياء قبل رسول الله ﷺ كي تكون في هذه الذكرى مواساة أكثر للرسول الكريم، حيث واجه الانبياء السابقين مثل هذه المشاكل، إلا أنّهم استمروا في طريقهم واحتفظوا بمسارهم المستقيم.

يقول تعالى: «وولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك».

لقد واجه كلّ منهم ما تواجهه أنت اليوم، فصبروا وكان حليفهم النصر والغلبة على الظالمين.

ومن جهة ثانية كان الجميع يطلبون من الرسل الإتيان بالمعجزة، ومشركو مكة لم يشدوا على غيرهم في طلب المعاجز من رسول الله ﷺ لذلك يخاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بقوله: «وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله». إنّ جميع المعاجز هي من عند الله وبيده، وبذلك فهي لا تخضع إلى أمزجة الكفار والمشركين، بل إنّ رسول الله ﷺ لا ينبغي له الإستسلام أمام «معجزاتهم المقترحة» بل ما يكون من المعجزة ضرورياً لهداية الناس وإحقاق الحق يظهره

الله على أيدي الأنبياء.

ثم تهدّد الآية من كان يقول: لماذا لا يشملنا العذاب الإلهي إذا كان هذا الرسول صادقاً؟ فتقول الآية: «فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون».

في ذلك اليوم المهول تغلق أبواب التوبة، ولا تنفع الآهات والصرخات، ويخسر أهل الباطل صفتهم، ويشملهم العذاب الإلهي الأليم، إذا فلماذا كل هذا الأصرار على مجيء ذلك اليوم؟!

وفقاً لهذا التفسير ينصرف معنى الآية والمقصود بالعذاب فيها إلى «عذاب الإستئصال».

ولكن بعض المفسرين اعتبر هذه الآية بمثابة بيان للعذاب في يوم القيامة. فهناك يكون القضاء الحق بين الجميع، ويشاهد أنصار الباطل خسرانهم المرعب. إن فيما تضمنته الآية (٢٧) من سورة «الجاثية» يؤكّد هذا التفسير، إذ يقول تعالى: «ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون».

ولكن تمّ استخدام «أمر الله» وما شابهها في الآيات المتعدّدة التي تختص بعذاب الدنيا^(١).

ويحتمل أن يكون للآية معنى أوسع يشمل عذاب الدنيا والآخرة، وفي المشهدين يتوضح خسران المبطلين.

ومن الضروري هنا الإشارة إلى الحديث الذي رواه الشيخ الصدوق عليه السلام في أماليه بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام «قال: كان في المدينة رجل يضحك الناس، فقال: قد أعياني هذا الرجل أن أضحكه - يعني علي بن الحسين عليه السلام - قال: فمرّ عليه السلام وخلفه موليان له، فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبته، ثم مضى فلم يلتفت إليه الإمام عليه السلام فاتبعوه وأخذوا الرداء منه، فجاءوا به فطرحوه عليه فقال لهم: من

هذا؟ فقالوا: هذا رجل بطل يضحك أهل المدينة، فقال: قولوا له إن الله يوماً يخسر فيه المبطلون»^(١).



ملاحظة في عدد الأنبياء؟!

للمفسرين كلام كثير حول عدد أنبياء الله ورسله.

والرواية المشهورة في هذا المجال تذكر أن عددهم مائة وعشرون ألف نبي، في حين تقتصر روايات أخرى على ثمانية آلاف، أربعة آلاف منهم هم أنبياء بني إسرائيل، والباقون من غيرهم^(٢).

وقد جاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أن النبي ﷺ قال: «خلق الله عز وجل مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، أنا أكرمهم على الله ولا فخر، وخلق الله عز وجل مائة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي، وعلي أكرمهم على الله وأفضلهم»^(٣).

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك أن رسول الله قال: «بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل»^(٤).

هذان الحديثان لا يتناقضان فيما بينهما، إذ يمكن أن يكون الحديث الثاني قد أشار إلى الأنبياء العظام، كما يذكر ذلك العلامة المجلسي في توضيح هذا الكلام. وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ أجاب على سؤال لأبي ذر رضي الله عنه عن عدد الأنبياء قائلاً بأنهم (١٢٤) ألف نبي، وعن سؤال حول عدد الرسل منهم، أنهم

١- نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٢٧، حديث ١١٨.

٢- مجمع البيان: أثناء الحديث عن هذه الآية.

٣- بحار الأنوار، مجلد ١١، صفحة ٣٠، حديث رقم ٢١.

٤- بحار الأنوار، مجلد ١١، صفحة ٣١، حديث رقم ٢٢.

(٣١٣) رسول فقط^(١).

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ بعد أن ذكر العدد (١٢٤) ألف قال: خمسة منهم أولوالعزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ^(٢).

وهناك روايات أخرى في هذا المجال تؤيد العدد المذكور أعلاه.

من هنا يتضح أن هذه الرواية (حول عدد الأنبياء) ليست خبراً واحداً كما يقول «برسوتي» نقلاً عن بعض العلماء في تفسير «روح البيان»، بل هناك روايات متعددة ومستفيضة تؤكد أن عدد الأنبياء الإلهيين كان (١٢٤) ألف نبي. وأن مثل هذه الروايات موجودة في المصادر الإسلامية المختلفة.

والطريف في الأمر أن عدد الأنبياء الذين صرح القرآن بأسمائهم هو (٢٦) نبي فقط هم: آدم - نوح - إدريس - صالح - هود - إبراهيم - إسماعيل - إسحق - يوسف - لوط - يعقوب - موسى - هارون - زكريا - شعيب - يحيى - عيسى - داود - سليمان - إلياس - اليسع - ذوالكفل - أيوب - يونس - عزيز - ومحمد (عليهم الصلاة والسلام).

ولكن هناك أنبياء آخرون أشار إليهم القرآن وإن لم يذكر أسماءهم صراحة مثل «أشمونيل» الذي ورد ذكره في الآية (٢٤٨) من سورة «البقرة» في قوله تعالى: «وقال لهم نبيهم».

والنبي «أرميا» الوارد في الآية (٢٥٩) من سورة البقرة في قوله تعالى: «أو كالذي مر على قرية ...»^(٣).

و «يوشع» المذكور في الآية (٦٠) من سورة «الكهف» في قوله تعالى: «وإذ قال موسى لفتاه».

١- بحار الأنوار، مجلد ١١، صفحة ٣٢، حديث رقم ٢٤.

٢- بحار الأنوار، مجلد ١١، صفحة ٤١، حديث رقم ٤٣.

٣- تمة بحث بين المفسرين عن اسم هذا النبي، إذ فهم من قال: إنه «أرميا» والبعض قال: إنه «الخضر» وقال جمع: إنه «عزيز».

و «الخضر» الوارد ذكره إشارة في الآية (٦٥) من سورة الكهف في قوله تعالى: «فوجدنا عبداً من عبادنا».

وورد ذكر لأسباط بني إسرائيل، وهم زعماء قبائل بني إسرائيل كما في قوله تعالى: «و أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط»^(١). وإذا كان هناك أنبياء من بين إخوة يوسف عليه السلام فقد أشير إليهم مرات عديدة في سورة يوسف.

وخلاصة القول هنا أن القرآن أشار إلى قصص وحوادث ترتبط بأكثر من (٢٦) نبياً وهم المصرح بأسمائهم مباشرة في القرآن الكريم. ويستفاد من بعض الروايات الواردة في مصادر السنة والشيعة أن الله بعث بعض الأنبياء من ذوي البشرة السوداء، كما يقول العلامة الطبرسي مثلاً في «مجمع البيان» روي عن علي أنه قال: «بعث الله نبياً أسود لم يقص قصته»^(٢).



١- النساء - ١٦٣.

٢- مجمع البيان نهاية الآية التي تبينها. وفي هوامش تفسير الكشاف هناك روايات عديدة في هذا المجال. بلا حظ المجلد الرابع، صفحة ١٨٠، طبعة دار الكتاب العربي.

الآيات

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا
وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ
تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

التفسير

منافع الأنعام المختلفة:

تعود الآيات التي بين أيدينا للحديث مرّة أخرى عن علانم قدرة الخالق (جلّ وعلا) ومواهبه العظيمة لبني البشر، وتشرح جانباً منها كي تزيد من وعي الإنسان ومعرفته بالله تعالى، وليندفع نحو الثناء والشكر فيزداد معرفة بخالقه. يقول تعالى: «اللّٰه الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون». بعضها يختص بالغذاء كالأغنام، وبعضها للركوب والغذاء كالجمال التي تعتبر بحق سفن الصحاري.

«أنعام» جمع «نعم» على وزن «قلم» وتطلق في الأصل على الجمال، لكنّها توسعت فيما بعد لتشمل الجمال والبقر والأغنام، والمصطلح مشتق من «النعمة»

بسبب أن أحد أكبر النعم على الإنسان هي هذه الأنعام. وفي يومنا هذا - بالرغم من تقدم التكنولوجيا في مجال النقل البري والجوي - إلا أن الإنسان ما زال يستفيد من الأنعام، خصوصاً في الأماكن الصحراوية الرملية، التي يصعب فيها استخدام وسائل النقل الأخرى. ويتم استخدام الأنعام والحيوانات في بعض المضائق والمناطق الجبلية، حيث يتعذر استخدام غيرها من وسائل النقل الحديث.

لقد خلق الله الأنعام بأشكال مختلفة، وبروح تستسلم للإنسان وتنصاع إليه وتخضع لأوامره وتليي له احتياجاته، في حين أن بعضها أقوى من أقوى الناس، وهذا الإنصياع في حد ذاته دليل من أدلة الخالق العظيم الذي سخر لعباده هذه الأنعام.

إن من الحيوانات الصغيرة ما يكون خطره مميتاً للإنسان، في حين أن قافلة من الجمال يكفي صبي واحد لقيادها!
إضافة لما سبق تقول الآية التي بعدها: إن هناك منافع أخرى: «ولكم فيها منافع».

الإنسان يستفيد من لبنها وصوفها وجلدها وسائر أجزائها الأخرى، بل يستفيد حتى من فضلاتها في تسميد الأرض وإخصاب الزرع. وخلاصة القول: إنه لا يوجد شيء غير نافع في وجود هذه الأنعام، فكل جزء منها مفيد ونافع، حتى أن الإنسان بدأ يستخلص بعض الأدوية من امصال هذه الحيوانات، والملفت أن «منافع» جاءت نكرة في الآية لتبين أهمية ذلك).

ثم تضيف الآية: «ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم».

احتمل بعض المفسرين أن معنى الآية ينصرف إلى حمل الأثقال الذي يتم بواسطة الأنعام، لكن يحتمل أن يكون المقصود بقوله تعالى: «حاجة في صدوركم» الإشارة إلى بعض المقاصد والأهداف والرغبات الشخصية، إذ يستفاد من الإنعام

في الترفيه والهجرة والسياحة والتسابق والتفاخر، وما إلى ذلك من رغبات تطوي عليها نفس الإنسان.

ولأن الأنعام تعتبر وسيلة سفر على اليابسة، لذلك تقول الآية في نهايتها: «وعليها وعلى الفلك تحملون» هناك بحث عن منافع الحيوانات يمكن مراجعته أثناء الحديث عن الآية الخامسة من سورة النحل).

لقد جاء التعبير القرآني «عليها» (أي الأنعام) بالرغم من الإشارة المباشرة إليها سابقاً، ليكون مقدمة لذكر (الفلك). والمعنى أن الله جلّ وعلا سخر لكم الوسائل في البر والبحر للانتقال ولحمل الأثقال كي تستطيعوا أن تبلغوا مقاصدكم بسهولة.

لقد جعلت للسفينة صفة خاصة بحيث تستطيع أن تبقى على سطح الماء بالرغم من الأثقال والأوزان الكبيرة التي عليها، وجعل الله تعالى الحركة في الريح بحيث تستطيع الفلك الاستفادة منها لتحديد وجهة سفر الإنسان ومقصده.

الآية الأخيرة هي قوله تعالى: «ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون» هل تستطيعون إنكار آياته في الآفاق وفي أنفسكم؟ أم هل تنكرون آياته في خلقكم من تراب وتحويلكم عبر مراحل الخلق إلى ما أنتم عليه، أم أنكم تنكرون آياته في الحياة والموت والمبدأ والمعاد؟ وهل يمكنكم إنكار آياته في خلق السماء والأرض أو الليل والنهار، أو خلقه لأمر تساعد في استمرار حياتكم كالأنعام وغيرها؟

أينما تنظر وتمد البصر فثمة آيات الله وآثار العظمة في خلقه سبحانه وتعالى: «عميت عين لا تراك».

يقول المفسر الكبير العلامة «الطبرسي» في تفسيره «مجمع البيان» في جوابه على هذا السؤال: ما هو سبب مثل هذا الإنكار مع وضوح الدلائل والعلامات؟ يقول: إن ذلك يمكن أن يعود إلى ثلاثة أسباب هي:

١- عبادة الأهواء والإتيقادات إليها، لأنَّ ذلك يؤدي إلى حجب الإنسان عن رؤية الحق، (وينساق وراء غرائزه، لأنَّ الحق يحدّد هذه الغرائز من خلال فرض التكاليف والوظائف الربانية. لذلك يعمد هؤلاء إلى إنكار الحق برغم دلالاته الواضحة).

٢- التقليد الأعمى للآخرين - خصوصاً السابقين - وهذا أمر يحجب الإنسان عن الحق.

٣- الأحكام والإعتقادات الباطلة المترسخة في وعي الإنسان، فيدعن لها وتحجبه عن دراسة الحق والأفتتاح على آيات الله تبارك وتعالى.



الآيات

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى
 عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٨﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعَهُ
 وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٩﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا
 سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٩٠﴾

التفسير

لا ينفع الإيمان عند نزول العذاب:

هذه الآيات هي آخر مجموعة من سورة المؤمن، ونستطيع أن نعتبرها نوعاً
 من الإستنتاج للبحوث السابقة، فبعد بيان كل الآيات الإلهية في الآفاق والأنفس،
 وكل تلك المواعظ اللطيفة التي تحدثت عن المعاد، ومحكمة البعث الكبيرة،
 هدت هذه الآيات الكافرين المستكبرين والمنكرين المعاندين تهديداً شديداً،

وواجهتهم بالمنطق والإستدلال، وأوضحت لهم عاقبة أعمالهم.
فأولاً تقول: «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من
قبلهم».

فإذا كان عندهم شك في صحة التأريخ المدون على الأوراق، فهل عندهم
شك فيما يلمسونه من الآثار الموجودة على سطح الأرض، من القصور الخربة
للملوك، والعظام النخرة تحت التراب، أو المدن التي أصابها البلاء والعذاب وبقيت
آثارها شاهدة على ما جرى عليها؟!!

فأولئك: «كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض». حيث يمكن معرفة
عددهم وقوتهم من آثارهم المتمثلة في قبورهم وقصورهم ومدنهم.

عبارة: «آثاراً في الأرض» - سبق تفسيرها في الآية (٢١) من نفس السورة -
فعلها إشارة إلى تقدمهم الزراعي، كما جاء في الآية (٩) من سورة الروم، أو
إشارة إلى البناء العظيم للأقوام السابقين في قلب الجبال والسهول^(١).

ومع هذه القوة والعظمة التي كانوا يتمتعون بها، فإنهم لم يستطيعوا مواجهة
العذاب الإلهي: «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون»^(٢).

بل إن كل قواهم وقدراتهم أهدت خلال لحظات قصيرة، حيث خربت
القصور وهلكت الجيوش التي كان يلوذ بها الظالمون... وسقطوا كما تسقط أوراق
الخريف، أو أغرقوا في خضم الأمواج العاتية.

فإذا كان هذا هو مصير أولئك السابقين مع كل ما لديهم، فبأي مصير - يا ترى -
يفكر مشركو مكة وهم أقل من أولئك؟!!

الآية التي بعدها تنتقل للحديث عن تعاملهم مع الأنبياء ومعجز الرسل البينة،

١- كما تذكر الآيات (١٢٨) و(١٢٩) من سورة الشعراء.

٢- هناك احتمالان في (ما) في جملة «ما أغنى» فإما نافية أو استنهاية. لكن يظهر أن الأول هو الصحيح. وهناك أيضاً
احتمالان في «ما» في جملة (ما كانوا يكسبون) فإما موصولة أو مصدرية ولكن الأول هو المرجح

حيث يقول تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾^(١) أي إنهم فرحوا بما عندهم من المعلومات والأخبار، وصرخوا وجوههم عن الأنبياء وأدلتهم. وكان هذا الأمر سبباً لأن ينزل بهم العذاب الالهي: ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

وذكر المفسرون احتمالات عديدة عن حقيقة العلم الذي كان عندهم، والذي اغتروا به وشعروا معه بعدم الحاجة إلى تعليمات الأنبياء، والإحتمالات هذه هي: أولاً: لقد كانوا يظنون أن الشبهات الواهية والفسفسطة الفارغة هي العلم، ويعتمدون عليها. لقد ذكر القرآن الكريم أمثلة متعددة لهذا الاحتمال، كما في قوله تعالى: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾^(٢) والآية حكاية على لسانهم. ومما حكاها القرآن عنهم أيضاً، قوله تعالى: ﴿أنذا ضللنا في الأرض أننا لني خلق جديد﴾^(٣).

وقولهم في الآية (٢٤) من سورة الجاثية: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾. وهناك أمثلة أخرى لإعاءاتهم.

ثانياً: المقصود بها العلوم المرتبطة بالدنيا وتدير أمور الحياة، كما كان يدعي «قارون» مثلاً، كما يحكي عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾^(٤).

ثالثاً: المقصود بها العلوم ذات الأدلة العقلية والفلسفية، حيث كان يعتقد البعض ممن يمتلك هذه العلوم أن لا حاجة له للأنبياء، وبالتالي فهو لا ينصاع لنبواتهم

١ - إحتمل البعض أن يعود الضمير في (جاءتهم) إلى الأنبياء، لذا يكون المقصود بالعلوم علوم الأنبياء، بينما المقصود من (فرحوا) هو ضحك واستهزاء الكفار بعلوم الأنبياء، لكن هذا التفسير احتماله بعيد.

٢ - سورة يس، الآية ٧٨.

٣ - السجدة، الآية ١٠.

٤ - القصص، الآية ٧٨.

ودلائل إعجازهم.

التفاسير الآتفة الذكر لا تتعارض فيما بينها، لأنها جميعاً تقصد اعتماد البشر على ما لديهم، واستعلاءهم بهذه «المعرفة» على دعوات الرسل ومعاجز الأنبياء. بل واندفع هؤلاء حتى إلى السخرية بالوحي والمعارف السماوية.

لكن القرآن الكريم يذكر مآل غرور هؤلاء وعلوهم وتكبرهم إزاء آيات الله، حينما يقول: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾. ثم تأتي النتيجة سريعاً في قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾.

لماذا؟ لأنه عند نزول «الإستئصال» تغلق أبواب التوبة، وعادة ما يكون مثل هذا الإيمان إيماناً اضطرارياً ليس له ثمرة الإيمان الإختياري، إذ أنه تحقق في ظل شروط غير عادية، لذا من المحتمل جداً أن يعود هؤلاء إلى سابق وضعهم عندما ترتفع الشروط الإستثنائية التي حلت بهم.

لذلك لم يقبل من «فرعون» إيمانه وهو في الأنفاس الأخيرة من حياته وعند غرقه في النيل.

وهذا الحكم لا يختص بقوم دون غيرهم، بل هو: «سنة الله التي قد خلت في عباده».

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾.

ففي ذلك اليوم عندما ينزل العذاب بساحتهم سيفهم هؤلاء بأن رصيدهم في الحياة الدنيا لم يكن سوى الفرور والظنون والأوهام، فلم يبق لهم من دنياهم سوى التبعات والعذاب الإلهي الأليم، وهل ثمة خسران أكبر من هذا؟! وهكذا تنتهي السورة المباركة (المؤمن) التي بدأت بوصف حال الكافرين المغرورين، ببيان نهاية هؤلاء وما آل إليه مصيرهم من العذاب والخسران.

المغرورون بالعلم!

في الآيات المختلفة لهذه السورة المباركة - كما أوضحنا ذلك - يتبين أن أساس انحراف قسم كبير من الناس هو التكبر والغرور. قد يكون امتلاك المال من أسباب العلو والتكبر، أو كثرة الأفراد وامتلاك القدرات العسكرية. أو كمية محدودة من المعلومات في فرع من فروع المعرفة، يظن الإنسان أنها كبيرة وكثيرة، فتدفعه إلى العلو والاستغناء السخرية. إن حالة عصرنا الراهن تعكس نموذج «الغرور العلمي» بشكل جلي واضح، ففي ظل التقدم السريع الذي أحرزته المجتمعات المادية في المجالات العلمية والتقنية، نراها عمدت إلى إلغاء دور الدين من الحياة، وقد سيطر الغرور العلمي على بعض علماء الطبيعة إلى درجة أنهم تصوروا أن لا يوجد في هذا العالم شيء خارج إطار علومهم و معارفهم، وبما أنهم لم يروا الله في مختبراتهم أنكروا وجوده وجحدوا نعمته.

لقد ذهب بهم الغرور إلى أكثر من ذلك عندما أصبحوا يجهرون أن الدين ووحى الأنبياء إنما كانا بسبب الجهل أو الخوف، أما وقد حل عصر التقدم العلمي فإن الحاجة إلى مثل هذه المسائل انعدمت تماماً، بل وعمدوا إلى فرض تفسير معين لتطور الحياة يماشي ادعاءهم هذا، فقالوا: إن الحياة الفكرية للبشر مرت عبر المراحل الآتية:

١- مرحلة الأساطير.

٢- مرحلة الدين.

٣- مرحلة الفلسفة.

٤- مرحلة العلم، والمقصود بها العلوم الطبيعية.

بالطبع، نحن لا ننكر أن السلطة الديكتاتورية للكنيسة على عقول الناس في أوروبا، وشيوع الخرافات وأنواع التفكير الأسطوري لقرون مديدة في تاريخ تلك

القارة، بالإضافة إلى القمع الذي كانت تمارسه طبقة رجال الدين الكنسي (الإكليروس) هناك؛ كل هذه العوامل ساهمت - إلى درجة كبيرة - في نمو المذاهب التي تقوم على أساس رفض الدين والإيمان والغيب، والإعتماد بدلاً عنها على أسس المادة والتجربة والإلحاد.

ولحسن الحظ لم تستمر هذه المرحلة طويلاً، إذ اجتمعت مجموعة عوامل وساعدت للقضاء على مثل هذه التصورات المنحرفة، وكأنّ العذاب قد مسهم عندما ركبهم الغرور والعلو.

فمن ناحية أظهرت الحرب العالمية الأولى والثانية أنّ التقدم العلمي والصناعي قد جعل البشرية على حافة السقوط والدمار.

ومن ناحية ثانية، فإنّ ظهور المفاصد الأخلاقية والاجتماعية والقتل والإبادة وأنواع الأمراض النفسية، وسلسلة الإعتداءات المالية والجنسية، كل ذلك كشف عن عجز العلوم وقصورها لوحدها عن بناء الحياة الإنسانية بشكل سليم صحيح. من جانب ثالث، عملت المساحات المجهولة في وعي الإنسان العلمي وقصوره عن الأحاطة بكافة أسباب الظواهر الطبيعية والحياتية إلى اعترافه بالعجز عن إدراك مطلق لأسباب المعرفة من خلال العلم وحده، فعاد الكثير من العلماء إلى ساحة الإيمان وجادة الدين، وضعفت نوازع الدعاوى الإلحادية.

وفي المعترك الصعب هذا تألقت الإسلام بتعليماته الشاملة والجامعة، وبدأت موجات العودة نحو الإسلام الأصيل.

ونأمل أن تكون هذه اليقظة عميقة شاملة قبل أن يشمل البأس الإلهي مرّة أخرى أجزاء من هذا العالم، ونأمل أن تزول آثار ذلك الغرور باسم العلم حتى لا يكون مدعاةً للخسران الكبير.

اللهم احفظنا من الغرور ومن التكبر والعناد وحبّ الذات الذي يقودنا إلى الهلاك وسوء العاقبة والإفتضاح.

إلهي، اهد المجتمعات البشرية في عصرنا الحاضر إلى ظل تعليمات أنبيائك،
قبل أن يشملهم بأسك الشديد أناس هذا العصر.

اللهم، اجعلنا ممن يأخذ العبرة من مصير الاقوام السالفة لكي لا نمسي عبرة
للآخرين....

أمين رب العالمين

نهاية سورة المؤمن



سورة

فصلت

مكيّة

وعدد آياتها أربع وخمسون آية

«سورة فصلت»

نظرة في المحتوى العام للسورة:

سورة «فصلت» من السور المكية، وهي بذلك لا تخرج في مضامينها الأساسية عن مثيلاتها، بل تعكس في محتواها كامل خصائص السور المكية، من التأكيد على المعارف الإسلامية التي تتصل بالعقيدة والحساب والجزاء، والوعيد والإنذار، وبالشرى للذين آمنوا.

لكن كون السورة مكية لا يعني عدم اختصاصها بمواضيع معينة قد لا نجدها فيما سواها من السور القرآنية الأخرى.

بشكل عام يمكن الحديث عن محتويات السورة من خلال الخطوط

العريضة الآتية:

أولاً: التركيز على موضوع القرآن وما يتصل به من بحوث، كالإشارة الصريحة إلى حاكمية القرآن في جميع الأدوار والعصور، وصيانتها من أي تحريف، وقوة منطقه وتماسكه بحيث رأينا أعداء الله يخشون حتى من الإستماع إلى آياته، بل ويمنعون الناس من مجرد الإنصات إليه.

الآيتان (٤١) و(٤٢) من السورة يتحدثان عن هذه النقطة بوضوح كامل، إذ يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾.

ثانياً: إثارة قضية خلق السماء والأرض، خاصة ما يتعلق ببداية العالم الذي

خلق من مادة (الدخان) ثم مراحل نشوء الكرة الأرضية والجبال والنباتات الحيوانات.

ثالثاً: ثمة في السورة إشارات إلى عاقبة الأقوام المغرورين الأشقياء من الأمم السابقة، مثل قوم عاد وثمود، وهناك إشارة قصيرة إلى قصة موسى عليه السلام.

رابعاً: تتضمن السورة تهديد المشركين وإنذار الكافرين، مع ذكر آيات القيامة وما يتعلق بشهادة أعضاء جسم الإنسان عليه، وتوبيخ الله تبارك وتعالى لأمثال هؤلاء.

خامساً: تتناول السورة قسماً من أدلة البعث والقيامة وخصوصياتهما.

سادساً: المواعظ والنصائح المختلفة التي تبعث في الروح الحياة من خلال الدعوة إلى الإستقامة في طريق الحق، وتوجيه المؤمن نحو أسلوب التعامل المنطقي مع الأعداء وكيفية هدايتهم نحو الله.

سابعاً: تنتهي السورة ببحثٍ لطيف قصير عن آيات الآفاق والأنفس، وتعود كرةً أخرى إلى قضية المعاد.

فضيلة تلاوة السورة:

ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قوله: «من قرأ «حم السجدة» أعطى بكل حرف منها عشر حسنات»^(١).

وفي حديث آخر حول فضيلة قراءة هذه السورة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ «حم السجدة» كانت له نوراً يوم القيامة مد بصره وسروراً، وعاش في هذه الدنيا مغبوطاً محموداً»^(٢).

وفي حديث عن «سنن البيهقي» أن «خليل بن مرة» كان يقول: إن النبي لم ينم

١- مجمع البيان مطلع الحديث عن السورة، المجلد ٩، صفحة ٢.

٢- مجمع البيان مطلع الحديث عن السورة، المجلد ٩، صفحة ٢.

ليلة من الليالي قبل أن يقرأ سورتي «تبارك» و «حم السجدة».^(١)
و طبعي أن هذه السورة المباركة بكل ما تتضمن في مضامينها العالية من
أنوار و معارف و مواظب إنما تكون مؤثرة فيما لو تحولت تلاوتها الى نور ينفذ إلى
أعماق النفس، فتحول في حياة الإنسان المسلم إلى دليل من نور يقوده في يوم
القيامة نحو الصراط و الخلاص، لأن التلاوة مقدمة للتفكير، و التفكير مقدمة
للعمل. إن تسمية السورة بـ «فصلت» مشتق من الآية الثالثة فيها. و إطلاق «حم
السجدة» عليها لأنها تبدأ بـ «حم» و الآية (٣٧) فيها هي آية السجدة.



الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا أَقُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي
ءَاذَانِنَا وَقْرٍ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ ٥

التفسير

عظمة القرآن:

تذكر الروايات أن رسول الله ﷺ كان لا يكف عن عيب آلهة المشركين،
ويقرأ عليهم القرآن فيقولون: هذا شعر محمد. ويقول بعضهم: بل هو كهانة. ويقول
بعضهم: بل هو خطب.

وكان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً، وكان من حكام العرب يتحاكمون إليه في
الأمور، وينشدونه الأشعاره فما اختاره من الشعر كان مختاراً، وكان له بنون
لا يبرحون من مكة، وكان له عبيد عشرة عند كل عبد ألف دينار يتجر بها، وملك
القنطار في ذلك الزمان (القنطار: جلد ثور مملوء ذهباً) وكان من المستهزئين
برسول الله ﷺ.

وفي يوم سأل أبو جهل الوليد بن المغيرة قائلاً له:

يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمّد؟ أسحر أم كهان أم خطب؟

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ وهو جالس في الحجر،

فقال: يا محمّد أنشدني من شعرك.

قال ﷺ: ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث أنبياءه ورسله.

فقال: اتل عليّ منه.

فقرأ عليه رسول الله «بسم الله الرحمن الرحيم» فلما سمع (الوليد) الرحمن

استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمّى الرحمن، قال: لا، ولكنني أدعو إلى

الله وهو الرحمن الرحيم.

ثم افتتح سورة «حم السجدة»، فلما بلغ إلى قوله تعالى: «فإن أعرضوا فقل

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فلما سمعه اقشعر جلده، وقامت كلّ

شعرة في رأسه ولحيته، ثمّ قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم، صبأ أبو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم

يرجع إلينا؟ وقد قبل قوله ومضى إلى منزله، فاغتمت قريش من ذلك غمّاً شديداً.

وغدا عليه أبو جهل فقال: يا عم، نكست برؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذلك يا ابن أخ؟

قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال: ما صبوت، وإني على دين قومي وآبائي، ولكنني سمعت كلاماً صعباً

تقشعر منه الجلود.

قال أبو جهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب هي؟

قال: إنّ الخطب كلام متصل، وهذا كلام منشور، ولا يشبهه بعضه بعضاً، له

طلاوة.

قال: فكهانة هي؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعني أفكر فيه.

فلما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟

قال: قولوا هو سحر، فإنه آخذ بقلوب الناس، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبينين شهوداً﴾ إلى قوله: ﴿عليها تسعة عشر﴾ (٢٣١).

إن هذه الرواية الطويلة تكشف بوضوح مدى تأثير آيات هذه السورة، بحيث أن أكثر المتعصبين من مشركي مكة أبدى تأثره بآياتها، وذلك يظهر جانباً من جوانب العظمة في القرآن الكريم.

نعود الآن إلى المجموعة الأولى من آيات هذه السورة المباركة، التي تطالعنا بالحروف المقطعة في أولها ﴿حم﴾.

لقد تحدثنا كثيراً عن تفسير هذه الحروف، ولا نرى حاجة للإعادة سوى أن البعض اعتبر ﴿حم﴾ اسماً للسورة. أو أنّ (ح) إشارة إلى «حميد» و (م) إشارة إلى «مجيد» وحميد و مجيد هما من أسماء الله العظمى.

ثم نتحدث عن عظمة القرآن فتقول: ﴿تغزىل من الرحمن الرحيم﴾.

إنّ «الرحمة العامة» و«الرحمة الخاصة» لله تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمة التي هي رحمة للعدو والصديق. ولها بركات خاصة للأولياء.

١- المدثر، الآية ١١-٣٠.

٢- بحار الأنوار، المجلد ١٧، صفحة ٢١١ فما فوق، ويمكن ملاحظة النص في كتب أخرى منها: تفسير القرطبي في سطر حديثه عن السورة. المجلد الثامن، صفحة ٥٧٨٢.

في الواقع إن الرحمة هي الصفة البارزة لهذا الكتاب السماوي العظيم، التي تتجسد من خلال آياته العطرة التي تفوح بشذاها ونورها فتضيء جوانب الحياة، وتسلك بالإنسان مسالك النجاة والرضوان.

بعد التوضيح الاجمالي الذي أبدته الآية الكريمة حول القرآن، تعود الآيات التالية إلى بيان تفصيلي حول أوصاف هذا الكتاب السماوي العظيم، وذكرت له خمسة صفات ترسم الوجه الأصلي للقرآن:

فتقول أولاً: إنه كتاب ذكرت مطالبه ومواضيعه بالتفصيل كل آية في مكانها الخاص، بحيث يلبي احتياجات الإنسان في كل المجالات والأدوار والعصور، فهو: «كتاب فصلت آياته»^(١).

وهو كتاب فصيح وناطق «قرآناً عربياً لقوم يعلمون». وهذا الكتاب بشير للصلحين نذير للمجرمين: «بشيراً ونذيراً» إلا أن أكثرهم: «فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون»^(٢).

بناء على ذلك فإن أول خصائص هذا الكتاب هو أنه يتضمن في تشريعاته وتعاليمه كل ما يحتاجه الإنسان وفي جميع المستويات، ويلبي ميوله ورغباته الروحية.

الصفة الثانية أنه متكامل، لأن «قرآن» مشتق من القراءة، وهي في الأصل بمعنى جمع أطراف وأجزاء الكلام.

الصفة الثالثة تتمثل بفصاحة القرآن وبلاغته، حيث يذكر الحقائق بدقة بليغة دون أي نواقص. وفي نفس الوقت يعكسها بشكل جميل وجذاب.

الصفتان الرابعة والخامسة تكشفان عن عمق التأثير التربوي للقرآن الكريم، عن طريق أسلوب الإنذار والوعيد والتهديد والترغيب، فأية تقوم بتشويق

١- «كتاب» خبر بمد الخبر. وهذا الترتيب لأن «تنزيل» خبر لمبتدأ معذوف و «كتاب» خبر بمد الخبر.

٢- «لقوم يعلمون» يمكن أن تكون متعلقة بـ «فصلت» أو بـ «تنزيل».

الصالحين والمحسنين بحيث أنّ النفس الإنسانية تكاد تطير وتتماوج في أشواق الملكوت والرحمة. وأحياناً تقوم آية بالتهديد والإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصورة وعنف المشهد.

إنّ هذين الأصلين التربويين (الترغيب والتهديد) متلازمان في الآيات القرآنية ومرابطان في أسلوبه.

ومع ذلك فإنّ المتعصين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، وكأنّهم لا يسمعونها أبداً بالرغم من السلامة الظاهرية لأجهزتهم السمعية، إنهم في الواقع يفتقدون لروح السماع وإدراك الحقائق، ووعي محتويات النذير والوعيد القرآني.

وهؤلاء - كمحاولة منهم لثني الرسول ﷺ عن دعوته، وإيغالاً منهم في الغي وفي زرع العقبات - يتحدثون عند رسول الله بعناد وعلو وغرور حيث يحكي القرآن عنهم: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾.

مادام الأمر كذلك فاتركنا وشأننا، فاعمل ما شئت فإننا عاكفون على عملنا: ﴿فاعمل إنّنا عاملون﴾.

حال هؤلاء كحال المريض الأبله الذي يهرب من الطبيب الحاذق، ويحاول أن يبعد نفسه عنه بشتى الوسائل والأساليب. إنهم يقولون: إنّ عقولنا وأفكارنا موضوعة في علب مغلقة بحيث لا يصلها شيء.

«أكنة» جمع «كنان» وتعني الستار. أي أن الأمر لا يقتصر هنا على ستار واحد، بل هي ستائر من العناد والتقليد الأعمى، وأمثال ذلك مما يحجب القلوب ويطبّع عليها.

وقالوا أيضاً: مصافاً إلى أنّ عقولنا لا تدرك ما تقول، فإنّ آذاننا لا تسمع لما

تقول أيضاً، وهي منهم إشارة إلى عطل المركز الأصلي للعمل والوسائل المساعدة الأخرى.

وبعد ذلك، فإن بيننا وبينك حجاب سميك، بحيث حتى لو كانت آذاننا سالمة فإننا لا نسمع كلامك، فلماذا - إذاً - تتعب نفسك، لماذا تصرخ، تحزن، تقوم بالدعوة ليلاً ونهاراً؟ أتركنا وشأننا فأنت على دينك ونحن على ديننا. هكذا... بمنتهى الوقاحة والجهل، يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جادة الحق.

والطريف أنهم لم يقولوا: «وبيننا وبينك حجاب» بل أضافوا للجملة كلمة «من» فقالوا: «ومن بيننا وبينك حجاب» وذلك لبيان زيادة التأكيد، لأنّ بزيادة هذه الكلمة يصبح مفهوم الجملة هكذا: إن جميع الفواصل بيننا وبينك مملوءة بالحجب، وطبيعي أن يكون حجاب مثل هذا سميكاً عازلاً للغاية ليستوعب كلّ الفواصل بين الطرفين، وبذلك سوف لا ينفع الكلام مع وجود هذا الحجاب. وقد يكون الهدف من قول المشركين: «فاعمل إننا عاملون» محاولتهم زرع اليأس عند النبي ﷺ. أو قد يكون المراد نوعاً من التهديد له، أي اعمل ما تستطيعه ونحن سوف نبذل ما نستطيع ضدك وضدّ دينك، والتعبير يمثل منتهى العناد والتحدي الاحمق للحق ولرسالاته.



الآيات

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ
لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

التفسير

من هم المشركون؟

الآيات التي بين أيدينا تستمر في الحديث عن المشركين والكافرين، وهي في الواقع إجابة لما صدر عنهم في الآيات السابقة، وإزالة لأي وهم قد يلصق بدعوة النبي ﷺ.

يقول تعالى لرسوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ

واحد﴾.

فلا أدعي أنني ملك، ولست إنساناً أفضل منكم، ولست بربكم، ولا ابن الله بل أنا إنسان مثلكم، وأختلف عنكم بتعليمات التوحيد والنبوة والوحي، لا أريد أن

أفرض عليكم ديني حتى تقفوا أمامي وتقاوموني أو تهددونني، لقد أوضحت لكم الطريق، وإليكم يعود التصميم والقرار النهائي.

ثم تستمر الآية: «فاستقيموا إليه واستغفروه»^(١).

ثم تضيف الآية محذرة: «وويل للمشركين».

الآية التي تليها تقوم بتعريف المشركين، وتسلب الضوء على جملة من صفاتهم وتختص هذه الآية بذكرها، حيث يقول تعالى: «الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون».

إن هؤلاء يعرفون بأمرين: ترك الزكاة، وإنكار المعاد.

لقد أثارت هذه الآية كلاماً واسعاً في أوساط المفسرين، وذكروا مجموعة احتمالات تفي بتفسيرها، والسبب في كل ذلك هو أن الزكاة من فروع الدين، فكيف يكون تركها دليلاً على الكفر والشرك؟

البعض أخذ بظاهر الآية وقال: إن ترك الزكاة يعتبر من علائم الكفر، بالرغم من عدم تلازمه مع إنكار وجوبه.

البعض الآخر اعتبر الترك مع تلازم الإنكار دليلاً على الكفر، لأن الزكاة من ضروريات الإسلام ومنكرها يعتبر كافراً.

وقال آخرون: الزكاة هنا بمعنى التطهير والنظافة، وبذلك يكون المقصود بترك الزكاة، ترك تطهير القلب من لوث الشرك، كما جاء في الآية (٨١) من سورة الكهف في قوله تعالى: «خيراً منه زكاة».

إلا أن كلمة (لا يؤتون) لا تناسب المعنى أعلاه، لذلك يبقى الإشكال على حاله.

١ - «فاستقيموا» مأخوذة من «الإستقامة» وهي هنا بمعنى التوجه بشكل مستقيم نحو شيء معين، لذا فإنها تعدت بواسطة الحرف (إلى) لأنها تحيط مفهوم (استواء).

لذلك لا يبقى من مجال سوى أن يكون المقصود منها هو أداء الزكاة.

المشكلة الأخرى التي تواجهنا هنا، هي أن الزكاة شرّعت في العام الثاني من الهجرة المباركة، والآيات التي بين أيدينا مكية، بل يذهب بعض كبار المفسرين إلى أن سورة «فصلت» هي من أوائل السور النازلة في مكة، لذلك كلّه - وبغية تلافي هذه المشكلة - فسّر المفسرون الزكاة هنا بأنها نوع من الإنفاق في سبيل الله، أو أنهم تأولوا المعنى بقولهم: إن أصل وجوب الزكاة نزل في مكة، إلا أن حدودها ومقدارها والنصاب الشرعي لها نزل تحديده في العام الثاني من الهجرة المباركة. يتبيّن من كلّ ما سلف أن أقرب مفهوم لمقصود الزكاة في الآية هو المعنى العام للإنفاق، أما كون ذلك من علائم الشرك، فيكون بسبب أن الإنفاق المالي في سبيل الله يعتبر من أوضح علامات الإيثار والحب لله، لأنّ المال يعتبر من أحبّ الأشياء إلى قلب الإنسان ونفسه، وبذلك فإنّ الإنفاق - وعدمه - يمكن أن يكون من الشواخص الفارقة بين الإيمان والشرك، خصوصاً في تلك المواقف التي يكون فيها المال بالنسبة للإنسان أقرب إليه من روحه ونفسه، كما نرى ذلك واضحاً في بعض الأمثلة المنتشرة في حياتنا.

بعبارة أخرى: إنّ المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذي يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ وعلا، والأمر من هذه الزاوية بالذات يقترن بشكل متساوي مع عدم الإيمان بالمعاد، أو يكون ترك الزكاة ملازماً لإنكار وجوبه.

وثمة ملاحظة أخرى تساعد في فهم التفسير، وهي أن الزكاة لها وضع خاص في الأحكام والتعاليم الإسلامية، وإعطاء الزكاة يعتبر علامة لقبول الحكومة الإسلامية والخضوع لها، وتركها يعتبر نوعاً من الطغيان ولمقاومة في وجه الحكومة الإسلامية، ونعرف أن الطغيان ضدّ الحكومة الإسلامية يوجب الكفر. والشاهد على هذا المطلب ما ذكره المؤرخون من «اصحاب الردّة» وأنهم من

«بني طي» و«غطفان» و«بني اسد» الذين امتنعوا عن دفع الزكاة لعمال الحكومة الإسلامية في ذلك الوقت، وبهذا رفعوا لواء المعارضة فقاتلهم المسلمون وقضوا عليهم.

صحيح أن الحكومة الإسلامية لم يكن لها وجود حين نزول هذه الآية ولكن هذه الآية يمكنها أن تكون إشارة مجملة الى هذه القضية.

وقد ذكر في التواريخ أن أهل الردة قالوا بعد وفاة النبي ﷺ: «أما الصلاة فنصلي، وأما الزكاة فلا يقصب أموالنا» وهكذا رأى المسلمون ضرورة قتالهم وقمع الفتنة.

الآية الأخيرة تقوم بتعريف مجموعة تقف في الجانب المقابل لهؤلاء المشركين البخلاء، وتعرض إلى جزائهم حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

«ممنون» مشتق من «من» وتعني هنا القطع أو النقص، لذا فإن غير ممنون تعني هنا غير مقطوع أو منقوص.

وقيل إن مصطلح «ممنون» -على وزن «زبون»- ويعني الموت مشتق من هذه المفردة، وكذلك المنّة باللسان، لأنّ الأوّل يعني القطع ونهاية العمر، بينما الثاني يعني قطع النعمة والشكر^(١).

وذهب بعض المفسرين إلى القول بأنّ المقصود بـ«غير ممنون» أنه لا توجد أيّ منّة على المؤمنين فيما يصلهم من أجر وجزاء وعطاء. لكن المعنى الأوّل أنسب.



ملاحظة

الأهمية الإستثنائية للزكاة في الإسلام:

الآية أعلاه تعتبر تأكيداً مجدداً وشديداً حول أهمية الزكاة كفرضة إسلامية، سواء كانت بمعنى الزكاة الواجبة أو بمفهومها الواسع، وينبغي أن يكون ذلك، لأنّ الزكاة تعتبر أحد الأسباب الرئيسية لتحقيق العدالة الإجتماعية، ومحاربة الفقر والمحرومية، وملء الفواصل الطبقيّة، بالإضافة إلى تقوية البنية الماليّة للحكومة الإسلاميّة، وتطهير النفس من حبّ الدنيا وحبّ المال، والخلاصة: إنّ الزكاة وسيلة مثلى للتقرب إلى الله تبارك وتعالى:

وقد ورد في الروايات الإسلاميّة أن ترك الزكاة يعتبر بمنزلة الكفر، وهو تعبير يشبه ماورد في الآية التي نحن بصددّها.

وفي هذا المجال نستطيع أن نقف مع الأحاديث الآتية:

أولاً: في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ من وصايا رسول الله لأمر المؤمنين على بن أبي طالب قوله له: «يا علي كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة، وعدّ منهم مانع الزكاة... ثمّ قال: يا علي من منع قيراطاً من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة، يا علي: تارك الزكاة يسأل الله الرجعة إلى الدنيا، وذلك قوله عزّ وجلّ: «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون...»^(١).

ثانياً: في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها، وهي الزكاة، بها حقنوا دماءهم وبها سموا مسلمين»^(٢).

١- وسائل الشريعة، المجلد السادس، الصفحات ١٨ و ١٩ «باب ثبوت الكفر والإرتداد والقتل بمنع الزكاة استعمالاً ووجوداً» وقد اعتبر بعض الفقهاء كصاحب الوسائل مثلاً، أنّ الروايات أعلاه تختص بإنكار الزكاة.

ثالثاً: أخيراً نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»^(١).

وتقدم بحث مفصل عن أهمية الزكاة في الإسلام وفلسفتها وتاريخ وجوب الزكاة في الإسلام، وكل ما يتعلق به من أمور، في تفسير الآية (٦٠) من سورة التوبة.



الآيات

قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوِيسًا مِنْ
فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً
لِلنَّاسِ لَيْلٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٨﴾
فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سِنِينَ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٩﴾

التفسير

مراحل خلق السماوات والأرض:

الآيات أعلاه نماذج للآيات الآفاقية، وعلائم العظمة، وقدرة الخلق جل وعلا
في خلق الأرض والسما، وبداية خلق الكائنات، حيث يأمر تعالي النبي
الأكرم ﷺ بمخاطبة الكافرين والمشركين وسؤالهم: هل يمكن إنكار خالق هذه

العوالم الواسعة العظيمة؟

لعلّ هذا الأسلوب يوظف فيهم إحساسهم ووجدانهم فيحتكمون للحق.
يقول تعالى: ﴿قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾. وتجعلون
لله تعالى شركاء ونظائر: ﴿وتجعلون له أنداداً﴾.
إنّه لخطأ كبير، وكلام يفتقد إلى الدليل. ﴿ذلك رب العالمين﴾.
إنّ الذي يدبّر أمور هذا العالم، أليس هو خالق السماء والأرض؟ فإذا كان
سبحانه وتعالى هو الخالق، فلماذا تعبدون هذه الأصنام وتجعلونها بمنزلة؟!
إنّ الذي يستحق العبادة هو الذي يقوم بالخلق والتدبير، ويملك هذا العالم
ويحكمه.

الآية التي تليها تشير إلى خلق الجبال والمعادن وبركات الأرض والمواد
الغذائية، حيث تقول: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها
في أربعة أيام﴾ وهذه المواد الغذائية هي بمقدار حاجة المحتاجين: ﴿سواء
للسائلين﴾^(١).

وبهذا الترتيب فإنّ تبارك وتعالى قد دبر لكل شيء قدره وحاجته، وليس ثمّة
في الوجود من نقص أو عوز، كما في الآية (٥٠) من سورة «طه» حيث قوله
تعالى: ﴿ربّنا أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى﴾.
المقصود من «السائلين» هنا هم الناس، أو أنّها تشمل بشكل عام الإنسان
والحيوان والنبات [وإذا ذكرت بصيغة الجمع للعاقل فهي من باب التغليب].
ووفق هذا التفسير فإنّ الله تعالى لم يحدّد احتياجات الإنسان لوحده منذ
البداية وحسب، وإنّما فعل ذلك للحيوانات والنباتات أيضاً.

١ - هناك احتمالات متعدّدة حول محل (سواء) و (السائلين) من الأعراب وبما تختص.

الأوّل: أنّ (سواء) حال بـ (أقوات) و (السائلين) متعلق بـ (سواء) ويكون النتيجة هي التفسير الذي أوردهنا أعلاه.
القائي: أنّ (سواء) صفة للأيام، يعني أنّ هذه المراحل الأربع تساوي فيما بينها. وأما (السائلين) فإما أن تتعلق بـ (القدر) أو
بمعدّوف ويكون التقدير (كائنة للسائلين) يعني أنّ الأيام الأربع هذه تعتبر جواباً للسائلين. لكن التفسير الأوّل أوضح.

وهنا يثار هذا السؤال: تذكر الآيات القرآنية - أعلاه - أن خلق الأرض تمّ في يومين، وخلق الجبال والبركات والطعام في أربعة أيام. وبعد ذلك خلق السماوات في يومين، وبذا يكون المجموع ثمانية أيام، في حين أن أكثر من آية في كتاب الله تذكر أن خلق السماوات والأرض تمّ في ستة أيام، أو بعبارة أخرى: في ستة مراحل^(١)؟

سلك المفسرون طريقان في الإجابة على هذا السؤال:

الطريق الأول: وهو المشهور المعروف، ومفاده أن المقصود بأربعة أيام هو تنمة الأربعة أيام، بأن يتم في اليومين الأولين من الأربعة خلق الأرض، وفي اليومين الآخرين خلق باقي خصوصيات الأرض. مضافاً إلى ذلك اليومين لخلق السماوات، فيكون المجموع ستة أيام أو ست مراحل.

وشبيه ذلك ما يرد في اللغة العربية من القول مثلاً بأن المسافة من هنا إلى مكة يستغرق قطعها عشرة أيام، وإلى المدينة المنورة (١٥) يوماً، أي إن المسافة بن مكة والمدينة تكون خمسة أيام ومن هنا إلى مكة عشرة أيام^(٢).

وهذا التفسير صحيح لوجود مجموعة الآيات التي تتحدث عن الخلق في ستة أيام، وإلا ففي غير هذه الحالة لا يمكن الركون له، من هنا تتبين أهمية ما يقال من أن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

الطريق الآخر الذي اعتمده المفسرون للإجابة على الإشكال أعلاه هو قولهم: إن أربعة أيام لا تختص ببداية الخلق، بل هي إشارة إلى الفصول الأربعة للسنة، والتي هي بداية ظهور الأرزاق ونمو المواد الغذائية التي تنفع الإنسان

١- يمكن مراجعة الآيات (٥٤) من سورة الأعراف و(٣) من سورة هود و(٥٩) من سورة الفرقان و(٤) من سورة السجدة و(٣٨) سورة ق و(٤) من سورة العنكبوت.

٢- في ضوء هذا التفسير يكون للأية تقديرها بالصيغة الآتية... وقدّر فيها أقواتها في تنمة أربعة أيام أو يكون التقدير كما جاء في تفسير «الكشاف»: «كل ذلك في أربعة أيام».

والحيوان^(١).

لكن هذا التفسير فضلاً عن أنه لا يلائم الآيات أعلاه، فإنه أيضاً يقصر «اليوم» فيما يتعلق بالأرض ولمواد الغذائية وحسب، لأنّ معناه يتعلق بالفصول الأربعة فقط، بينما لاحظنا أن «يوم» في معنى خلق السماوات والأرض يعني بداية مرحلة!

مضافاً لذلك تكون النتيجة اختصاص يومين من الأيام الستة لخلق الأرض، ويومين آخرين لخلق السماوات، أمّا اليومان الباقيان اللذان يتعلقان بخلق الكائنات بين السماء والأرض «ما بينهما» فليس هناك إشارة إليهما! من كلّ ذلك يتبيّن أنّ التفسير الأوّل أجود.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول بأنّ «اليوم» في الآيات أعلاه هو حتماً غير اليوم العادي، لأنّ اليوم بالمعنى العادي لم يكن قد وجد قبل خلق السماوات والأرض، بل المقصود بذلك هو مراحل الخلق التي استنفذت من الزمن أحياناً ملايين بل وبلايين السنين.^(٢)

* * *

ملاحظات

تبقى أمامنا ملاحظتان ينبغي أن نشير إليهما:

أولاً: ما هو المقصود من قوله تعالى: «بارك فيها»؟

الظاهر أنّها إشارة إلى المعادن والكنوز المستودعة في باطن الأرض، وما على الأرض من أشجار وأنهار ونباتات ومصادر للماء الذي هو أساس الحياة والبركة، حيث تستفيد منها جميع الاحياء الأرضية.

١ - ثمة حديث بهذا المضمون في تفسير علي بن إبراهيم.

٢ - راجع الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

ثانياً: بما تتعلق الايام الاربعة في عبارة: «في أربعة أيام؟»

بعض المفسرين يعتقد أنها تخص «الأقوات» فقط. لكنّها ليست كذلك، بل تشمل الأقسام الثلاثة المذكورة في الآية (أي خلق الجبال، خلق المصادر وبركات الأرض، خلق الموارد الغذائية) لأنّه - خلافاً لذلك - فإنّ بعض هذه الأمور سوف لا تدخل في الأيام الواردة في الآيات أعلاه، وهذا أمر لا يتناسب مع نظم الآيات ونظامها.

بعد الإنتهاء من الكلام عن خلق الأرض ومراحلها التكاملية، بدأ الحديث عن خلق السماوات حيث تقول الآية: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً».

فكانت الإجابة: «قالتا أتينا طائعين».

وفي هذه الأثناء: «فقضاهن سبع سموات في يومين» ثم: «وأوحى في كلّ سماء أمرها» وأخيراً: «وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً» نعم: «ذلك تقدير العزيز العليم».

في الآيتين المتقدمتين تستلفت النظر عشر ملاحظات سنقف عليها خلال النقاط الآتية، التي نهي من خلالها البحث في هذه المجموعة من الآيات، وهي: أولاً: كلمة «ثم» تأتي عادة للإشارة إلى التأخير في الزمان، وتأتي أحياناً للدلالة على التأخير في البيان. فإذا كان المعنى الأول هو المقصود فسيكون المفهوم هو أنّ خلق السماوات تمّ بعد خلق الأرض وخلق الجبال والمعادن والمواد الغذائية. أما إذا كان المعنى الثاني هو المقصود، فليس هناك مانع من أن تكون السماوات قد خلقت وبعدها تمّ خلق الأرض، ولكن عند البيان ذكرت الآية أولاً خلق الأرض والأرزاق ومصادرهما التي يحتاجها البشر، ثمّ عرجت إلى ذكر قضية خلق السماء.

المعنى الثاني بالإضافة إلى أنّه أكثر تناسقاً وانسجاماً مع الإكتشافات العلمية،

فهو أيضاً يتفق مع الآيات القرآنية الأخرى، كقوله تعالى في الآيات (٢٧-٣٣) من سورة «النازعات»: «أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها واغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبيل أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم».

إن هذه المجموعة من الآيات الكريمة تكشف بوضوح أن دحو وتوسيع الأرض وتفجر العيون ونبات الأشجار والموارد الغذائية، قد تمّ جميعاً بعد خلق السماوات. أما لو فسرنا معنى «ثم» بالتأخير في الزمان، فعلينا أن نقول: إن كلّ تلك قد تكونت قبل خلق السماء، وهذا يتنافى مع المعنى الواضح للمراد من قوله تعالى: «بعد ذلك» أي أن كلّ ما ذكر قد تم خلقه بعد ذلك (أي بعد السماوات). وبذلك نفهم أن (ثم) هنا قد استخدمت للتدليل على التأخير البياني^(١).

ثانياً: «استوى» من «استواء» وتعني الإعتدال أو مساواة شيئين ببعضهما، ولكن ذهب علماء اللغة والتفسير إلى أن هذه الكلمة عندما تعدى بـ «علني» يصبح معناها الإستيلاء والتسلط على شيء ما مثل «الرحمن على العرش استوى»^(٢). وعندما تعدى بـ «إلني» فهي تعني القصد، كما في الآية التي نبحثها «ثم استوى إلى السماء» أي قصد إلى السماء.

ثالثاً: جملة «هي دخان» تبيّن أن بداية خلق السماوات كان من سحب الغازات الكثيفة الكثيرة، وهذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصلت إليه البحوث العلمية بشأن بداية الخلق والعالم.

والآن فإن الكثير من النجوم السماوية هي على شكل سحب مضغوطة من الغازات والدخان.

١ - أما ما نقل عن ابن عباس من قوله: إن خلق الأرض كان قبلاً، وأما «دحو الأرض» فجاء بعد ذلك، فهو لا يحل المشكلة. وكان ابن عباس لم يهتم عما بعد الآية من حديث عن خلق الجبال والمواد الغذائية

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً﴾ لا تعني أن كلاماً قد جرى باللفظ، وإنما قول الخالق وأمره هو نفسه الأمر التكويني، وهو عين إرادته في الخلق. أما التعبير بـ «طوعاً أو كرهاً» فهو إشارة إلى أن الإرادة الإلهية الحتمية قد ارتبطت يتكوّن السماوات والأرض. والمعنى أنه يجب أن يحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

خامساً: الجملة في قوله تعالى: ﴿أتينا طائعين﴾ تشير إلى أن المواد التي تتشكل منها السماء والأرض من ناحية التكوين والخلقة، كانت مستسلمة تماماً لإرادة الله وأمره، فتقبلت شكلها المطلوب ولم تعترض أمام هذا الأمر الإلهي مطلقاً.

ومن الواضح أن هذا الأمر وهذا الإمتثال ليس لهما طبيعة تكليفية وتشريعية، بل حدثت بمحض التكوين فقط.

سادساً: قوله تعالى: ﴿ففضاهن سبع سماوات في يومين﴾ يشير إلى وجود مرحلتين في خلق السماوات، كلّ مرحلة استمرت لملايين أو مليارات السنين، وكل مرحلة تتضمن مراحل أخرى، ومن المحتمل أن تكون هاتان المرحلتان هما مرحلة تبديل الغازات المضغوطة إلى سوائل ومواد مذابة، ثمّ مرحلة تبديل المواد المذابة إلى مواد جامدة.

كلمة «يوم» استخدمت هنا - كما أشرنا سابقاً - بمعنى مرحلة، وهو ممّا يشبع استخدامه في عدّة لغات، ويشبع استخدامه أيضاً في كلامنا اليومي، فعندما نقول مثلاً: يوم لك ويوم عليك، إنّما تشير إلى مراحل الحياة المختلفة. (هناك بحث مفصل حول هذا الموضوع في نهاية تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف).

سابعاً: إنّ العدد «سبع» ربّما جاء هنا للكثرة، بمعنى أن هناك سماوات كثيرة وأجرام كثيرة. ومن المحتمل أن يكون الرقم للعدد، أي إن عدد السماوات هي سبع بالتحديد. ومع هذا التقييد فإنّ جميع ما نرى من كواكب ونجوم ثابتة وسيارة هي

من السماء الأولى، وبذلك يكون عالم الخلق متشكلاً من سبع مجموعات كبرى، واحدة منها فقط أمام أنظار البشرية، وإنّ الأجهزة العلمية الفلكية الدقيقة وبحوث الإنسان، لم تتوصل إلى ما هو أبعد من السماء الأولى.

ولكن كيف تكون العوالم الستة لأخرى؟ وممّ تتشكّل؟ فهو أمر لا يعلمه إلا الله تعالى.

والمعتقد هنا أنّ هذا التفسير هو الأصح. (في هذا الموضوع يمكن مراجعة نهاية تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة).

ثامناً: قوله تعالى: «وأوحى في كلّ سماء أمرها» تشير إلى أنّ المسألة لم تنته بخلق السماوات وحسب، بل إنّ في كلّ منها مخلوقات وكائنات ونظام خاص وتديبر معين، بحيث أنّ كلّ واحدة تعتبر بحد ذاتها دليلاً على العظمة والقدرة والعلم.

تاسعاً: قوله تعالى: «وزينا السماء الدنيا بمصابيح» تدل على أنّ جميع النجوم زينة للسماء الأولى، وتبدو في نظر الإنسان كالمصابيح المعلقة في سقف هذه السماء الزرقاء، وهي ليست للزينة وحسب، حيث تجذب بتألؤها الخاص المتعاقب قلوب عشاق أسرار الخلق، بل في الليالي المعتمة تكون مصابيح اللثامين وأدلة لمن يسير في الطريق، تعينهم على تعيين اتجاه الحركة.

أمّا «الشهب» التي تظهر كنجوم سريعة تظهر في السماء بوميض سريع قبل أن تنطفئ، فهي في الواقع سهام تستقر في قلوب الشياطين وتحفظ السماء من نفوذهم. (راجع تفسير الآية ١٧ من سورة الحجر ونهاية الآية السابعة من سورة الصافات).

عاشراً: قوله تعالى: «ذلك تقدير العزيز العليم» تكملة للجمل التسع السابقة، وتشكل بمجموعها عشرة كاملة، تقول: إنّ ما حدث في السماء والأرض منذ بداية الخلق إلى مرحلة التشكّل والنظام الدقيق، كان وفق برنامج محسوب ومقدّر، تمّ

تنظيمه من قبل المبدأ الأزلي ذي العلم والقدرة المطلقتين، وإن أي تفكير في أي بحر من هذه البحور يقودنا نحو المبدأ العظيم جلّت قدرته.



الآيات

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
 وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
 تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
 بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
 وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ
 مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
 صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

التفسير

أحذركم صاعقة مثل صاعقة عادٍ و ثمود!

بعد البحث المهم الذي تضمنته الآيات السابقة حول التوحيد ومعرفة الخالق
 جلّ وعلاه تنذر الآيات - التي بين أيدينا - المعارضين والمعاندين الذين تجاهلوا
 كل هذه الدلائل الواضحة والآيات البيّنات، وتحذّرهم أن نتيجة الإعراض نزول

العذاب بهم، يقول تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾^(١).

عليكم أن تخافوا هذه الصاعقة المميّنة المحرقة التي إذا نزلت بساحتكم تفنيكم وتحل بداركم الدمار.

لاحظنا في بداية هذه السورة المباركة أن بعض زعماء الشرك في مكة مثل (الوليد بن المغيرة) ورواية أخرى «عتبة بن ربيعة» جاءوا إلى النبي ﷺ للتحقيق حول القرآن ودعوة الرسول و طرحوا عليه بعض الأسئلة وفي سياق إجابة رسول الله ﷺ لهم تلا عليهم الآيات الأولى من هذه السورة، وعندما وصل النبي في تلاوته إلى الآيات أعلاه وهدّدهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، ارتعشت أجسادهم وأصيبوا بالخوف بحيث أنهم لم يكونوا قادرين على الإستمرار في الكلام، لذلك عادوا إلى قومهم وذكروا لهم تأثرهم العميق واضطرابهم ووجلهم من هذه الكلمات.

«الصاعقة» كما يقول الراغب في المفردات، تعني الصوت المهبب في السماء، ويشتمل على النار أو الموت أو العذاب. (ولهذا السبب تطلق الصاعقة على الموت أحياناً، وعلى النار في أحيانٍ أخرى).

والصاعقة - وفقاً للتحقيقات العلمية الراهنة - هي شرارة كهربائية عظيمة تحدث بين مجموعة من الغيوم التي تحمل الشحنات الكهربائية الموجبة، وبين الأرض التي تكون شحنتها «سالبة» وتصيب عادة قمم الجبال والأشجار وأي شيء مرتفع، وفي الصحاري المسطحة تصيب الإنسان والأنعام، كما أن حرارتها شديدة للغاية بحيث أنّها تحيل أي شيء تصيبه إلى رماد، وتحدث صوتاً مهيباً وهزة أرضية قوية في المكان الذي تضربه.

١ - «الفاء» في ﴿فإن أعرضوا﴾ هي «فاء النفرع» كما قيل. بناءً على ذلك فإن هذا الإنذار العاسم بمحتر هرعاً ونسجة للإعراض عن الآيات التوحيدية السابقة.

الله تبارك وتعالى - كما تنص على ذلك آيات القرآن - عاقب بعض الأقسام
الأشقياء من الأمم السابقة بالصاعقة.

والطريف هنا أنّ عالم اليوم برغم التقدم الهائل في العلوم، بقي عاجزاً عن
اكتشاف وسيلة لمنع الصاعقة.

وسيقى هذا السؤال: لماذا ذكرنا قوم عاد وثمود من بين جميع الأقسام
السابقة؟

السبب يعود إلى أنّ العرب كانوا على اطلاع بخبر أولئك الأقسام، وكانوا قد
شاهدوا بأعينهم آثار مدنهم المدمرة، إضافة إلى أنّهم كانوا يعرفون أخطار
الصواعق، لأنّهم يعيشون في الصحراء والبادية.

يوصل الحديث القرآني سياقه بالقول: ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم
ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله﴾.

إنّ استخدام تعبير ﴿من بين أيديهم و من خلفهم﴾ هو إشارة إلى ما ذكرناه
أعلاه من أنّ الأنبياء قد استخدموا جميع الوسائل والأساليب لهدايتهم، وحاولوا
طرق كلّ الأبواب حتى ينفذوا إلى قلوبهم المظلمة.

وقد يكون التعبير إشارة إلى الأنبياء الذين بعثوا خلال أزمنة مختلفة إلى
هؤلاء الأقسام، وطرحوا عليهم نداء التوحيد.

لكن لئري ماذا كان جوابهم حيال هذه الجهود العظيمة الواسعة لرسول الله
تعالى؟

يقول تعالى: ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ لإبلاغ رسالته بدلاً من إرسال
الناس.

والآن وما دام الأمر كذلك: ﴿فإنما بما أرسلتم به كافرون﴾. وما جستم به لا
نعتبره من الله!

إنّ مفهوم هذا الكلام لا يعني إيمان هؤلاء بأنّ هؤلاء رسل الله حقاً، وأنّهم

لا يؤمنون بهم، وإنما مفهوم الكلام رفض هؤلاء دعوة الرسل في أنهم مبلغوا رسالات الله من الأساس، حيث حملوهم على الكذب والإدعاء. (ذلك فإن جملة «بما أرسلتم به» هي للإستهزاء أو السخرية، أو أن يكون المقصود بها هو: طبقاً لإدعائكم بأنكم رسل الله تبلغون عنه).

إنها نفس الذريعة التي ينقلها القرآن مراراً على لسان منكري النبوات ورسالات الله ومكذبي الرسل، من الذين كانوا يتوقعون أن يكون الأنبياء دائماً ملائكة، وكأنما البشر لا يستحقون مثل هذا المقام.

مثال ذلك قولهم في الآية (٧) من سورة الفرقان: «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً».

إن قائد البشر يجب أن يكون من صنف البشر، كي يعرف مشاكل الإنسان واحتياجاته ويحس آلامهم ويتفاعل مع قضاياهم، وكي يستطع أن يكون القدوة والأسوة، لذلك يصرح القرآن في الآية (٩) من سورة «الأنعام» بقوله تعالى: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً».

بعد المجمل الذي بينته الآيات أعلاه، تعود الآيات الآن - كما هو أسلوب القرآن الكريم - إلى تفصيل ما أوجز من خبر قوم عاد وثمود، فتقول: «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة».

إن هؤلاء القوم كانوا يعيشون في أرض «الأحقاف» من (حضر موت) جنوب الجزيرة العربية، وكانوا يتصفون بوضع استثنائي فريد من حيث القوة الجسمانية والمالية والتمدن المادي، فكانوا يبنون القصور الجميلة والقلاع المحكمة، خاصة في الأماكن المرتفعة حيث يرمز ذلك إلى قدرتهم ويكون وسيلة لإستعلائهم.

لقد كانوا رجالاً مقاتلين أشداء، فأصيبوا بالغرور بسبب قدراتهم الظاهرية ومجدهم المادي، حتى ظنوا أنهم أفضل من الجميع، وأن قوتهم لا تقهر، ولذلك قاموا بتكذيب الرسل والإنكار عليهم، وتكالبوا على نبيهم «هود».

لكن القرآن يرد على هؤلاء ودعواهم بالقول: «أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة».

ليس الذي خلقهم خلق السماوات والأرض؟ بل هل يمكن المقايسة بين هاتين القدرتين، فأين القدرة المحدودة الفانية من القدرة المطلقة اللامتناهية الأزلية؟! من القدرة المطلقة اللامتناهية الأزلية؟!!

ما للتراب وربّ الأرباب (١)؟!!

تضيف الآية في النهاية قوله تعالى: «وكانوا بآياتنا يجحدون».

نعم، إن الإنسان الضعيف المحدود سوف يطغى بمجرد أن يشعر بقليل من القدرة والقوّة، وأحياناً بدافع من جهله، فيتوهم أنه يصارع الله جلّ وعلا!! لكن ما أسهل أن يبذل الله عوامل حياته إلى موت ودمار، كما تخبرنا الآية عن مآل قوم عاد: «فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا».

إنّ هذه الريح الصرصر، وكما تصرّح بذلك آيات أخرى، كانت تقتلعهم من الأرض بقوّة ثمّ ترطمهم بها، بحيث أصبحوا كأعجاز النخل الخاوية. (يلاحظ الوصف في سورة «القمر» الآية ١٩-٢٠ وسورة الحاقة الآية ٦ فما بعد).

لقد استمرت هذه الريح سبع ليالٍ وثمانية أيّام، وحطمت كيانهم وكل وسائل عيشهم، نكالا بما ركبوا من حماقة وعلو وغرور، ولم يبق منهم سوى أطلال تلك القصور العظيمة، وآثار تلك الحياة المرفهة.

هذا في الدنيا، وهناك في الآخرة: «ولعذاب الآخرة أخزى».

إنّ العذاب الأخروي هو في الواقع كالشرارة في مقابل بحر لجي من النار.

١- إنّ هذا التعبير يشبه في الواقع جملة: «الله أكبر» حيث تقوم بتعريف الله (جلّ وعلا) بأنه أعظم وأكبر من جميع الموجودات. ذلك أنّنا نعلم أن لا قياس بين الإثنين (التراب وربّ الأرباب) ولكن الله يتحدث إليها بلساننا، لذلك نرى أمثال هذه الألفاظ والتعابير في كلامه تعالى

والأنكى من ذلك أن ليس هناك من ينصرهم: «وهم لا ينصرون».

فبعد عمر من الجد والعمل في سبيل التظاهر بالعظمة والعلو، يصيبهم الله تعالى بعذاب أذلهم في هذه الدنيا، وفي العالم الآخر ينتظرهم ما هم أشد وأصعب!

«صرصر»: على وزن (دقتر) مشتقة في الأصل من كلمة «صُرَّ» على وزن «شُرَّ» وتعني الغلق بإحكام، لذا تستعمل كلمة «صره» للكيس الذي يحتوي على المال وهو مغلق بشكل جيد. ثم أطلقت على الرياح الباردة جداً، أو التي فيها صوت عال، أو الرياح المسمومة القاتلة. وقد تكون الرياح العجيبة التي شملت قوم «عاد» تحمل كل هذه الصفات جميعاً.

«أيام نحسات» تعني الأيام المشؤومة التي اعتبرها البعض بأنها الأيام المليئة بالتراب والغبار، أو الأيام الباردة جداً، وهذه المعاني يمكن أن تكون مرادة من الآيات التي نحن بصدددها.

لقد أشار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطب نهج البلاغة إلى قصة عاد، كي تكون درساً أخلاقياً تربوياً يتعظ منه الآخرون. يقول عليه السلام: «واتعظوا فيها بالذين قالوا: من أشدّ منا قوّة؟ حملوا إلى قبورهم، فلا يدعون ركبناً، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفاناً، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران»^(١).

* * *

ملاحظتان

أولاً: ما هي وسيلة فناء قوم عاد؟

وفقاً للآية (١٣) من هذه السورة، فإنّ قوم عاد وثمود أهلكوا بالصاعقة. في حين أنّ الآيات التي نبحتها تقول: إنهم أبيدوا بالريح الصرصر العاتية، فهل هناك

تعارض بين الاثنين؟

في الجواب ذكر المفسرون وعلماء اللغة معنيين للصاعقة، أحدهما عام، والآخر خاص.

فالصاعقة بمعناها العام تعني أي شيء يهلك الإنسان، وهي كما يقول العلامة الطبرسي في مجمع البيان: «المهلكة من كل شيء».

أما المعنى الخاص، فالصاعقة شرارة عظيمة من النار تنزل من السماء، وتحرق كل ما يوجد في طريقها، كما وضعنا ذلك أنفاً.

بناءً على هذا، لو كانت الصاعقة بالمعنى الأول فلا تعارض بينها وبين الرياح القوية.

يقول الراغب في المفردات: «قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه: الموت كقوله: ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ وقوله: ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ والعذاب كقوله: ﴿أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ والنار كقوله: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ وما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجوّ، ثم يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد وهذه الأشياء تأثيرات منها».

وثمة احتمال آخر، هو أن قوم عاد قد شملهم نوعان من العذاب: الأول الرياح الشديدة التي دمّرت كل شيء، والتي سلطها الله عليهم أياماً عديدة، ثم جاء بعد ذلك دور الصاعقة النارية المميّنة التي شملتهم بأمر الله.

لكن المعنى الأول يبدو أكثر تناسباً مع الموضوع، خصوصاً إذا لاحظنا الآيات الأخرى التي تتحدث عن عقاب قوم عاد وهلاكهم. (راجع الآيات في سورة الذاريات - آية ٤١، وسورة الحاقة - آية ٦، والقمر الآيتان «١٨» و«١٩»).

ثانياً: أيام قوم عاد النحسة

البعض يعتقد أن أيام السنة نوعان: أيام نحسة مشؤومة، وأيام سعيدة مباركة. ويستدلون على ذلك بالآيات أعلاه، فيقولون: هناك تأثيرات مجهولة تؤثر في الليالي والأيام، ونشعر نحن بآثار ذلك، بينما أسبابها ما تزال مبهمة بالنسبة لنا. وقال البعض: إنَّ الأيام النحسة في الآية التي نبحثها هي الأيام المملوءة بالتراب والغبار.

وقوم عاد قد أصيبوا بمثل هذه الرياح الشديدة بحيث باتوا لا يرى أحدهم الآخر، كما تفيد ذلك الآيتان (٢٤-٢٥) من سورة «الأحقاف» في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مِّمَطْرنا بَل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء، بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين﴾.

وسوف نقوم ببحث مفصل حول مفهوم الأيام النحسة والأيام السعيدة، في نهاية حديثنا عن الآية (١٩) من سورة القمر، إن شاء الله تعالى.



الآيتان

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ
صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾

التفسير

عاقبة قوم ثمود:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قوم عاد، تبحث هاتان الآيتان في قضية قوم ثمود ومصيرهم، حيث تقول: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ الرَّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ لَهُمْ مَعَ الدَّلَائِلِ الْبَيِّنَةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ». لذلك: «فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وهؤلاء مجموعة تسكن «وادي القرى» (منطقة بين الحجاز والشام) وقد وهبهم الله أراضي خصبة خضراء مغمورة، وبساتين ذات نعم كثيرة، وكانوا يبذلون الكثير من جهودهم في الزراعة. ولقد وهبهم الله العمر الطويل والأجسام القوية، وكانوا مهرة في البناء القوي المتماسك، حيث يقول القرآن عنهم في ذلك: «وكانوا

ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين»^(١).

لقد جاءهم نبيهم بمنطق قوي وقلب ملؤه الحب، ومعه المعاجز الإلهية، إلا أن هؤلاء القوم المغرورين المستعدين لم يرفضوا دعوته - وحسب - بل آذوه وأتباعه القليلين، لذلك شملهم الله بعقابه في الدنيا، ولن يغني ذلك عن عذاب الآخرة شيئاً. نقرأ في الآية (٧٨) من سورة الأعراف أنهم أصيبوا بزلزلة عظيمة، فبقيت أجسادهم في المنازل بدون حراك: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين».

وفي الآية (٥) من سورة الحاقة قوله تعالى بشأنهم: «فأمّا ثمود فأهلكوا بالطاغية».

أما الآية (٦٧) من سورة هود فتقول عنهم: «و أخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين».

أما الآية التي نحن بصددتها فقد استخدمت تعبير «صاعقة».

قد يتصور البعض أن هناك تعارضاً بين هذه التعابير، ولكن عند التدقيق يظهر أن الكلمات الأربع أعلاه (رجفة، طاغية، صيحة، صاعقة) ترجع جميعاً إلى حقيقة واحدة، لأن الصاعقة - كم قلنا سابقاً - لها صوت مخيف، بحيث يمكن أن نسميها بالصيحة السماوية، ولها أيضاً ناراً محرقة، وهي عندما تسقط على منطقة معينة تحدث هزة شديدة، وكذلك هي وسيلة للتخريب.

في الواقع إن البلاغة القرآنية تستوجب أن تبين الأبعاد المختلفة للعذاب الإلهي بتعابير مختلفة وفي سياق آيات عديدة كيما تخلف أثراً عميقاً في نفس الإنسان.

وهؤلاء القوم قد واجهتهم عوامل مختلفة للموت في إطار حادثة واحدة، بحيث أن كل عامل لوحده يكفي لإبادتهم كالصيحة المميتة مثلاً، أو الهزة الأرضية

القاتلة، أو النار المحرقة، وأخيراً الصاعقة المخيفة.

ولكن قد يتساءل عن مصير الاشخاص الذين آمنوا بصالح عليه السلام بين هذه الأمواج القاتلة من الصواعق، فهل احترقوا بنيران غيرهم؟ القرآن يجيبنا على ذلك بقول الله عز وجل: «ونحنينا الذين آمنوا وكانوا يتقون».

لقد أنجى هذه المجموعة إيمانها وتقواها، بينما شمل العذاب تلك الكثرة الطاغية بسبب كفرها وعنادها، والمجموعتان يمكن أن تكونا نموذجاً لفئات من هذه الأمة.

قال بعض المفسرين: لقد آمن بنبي الله صالح (١١٠) أشخاص من بين مجموع القوم، ولقد أنقذ الله هؤلاء وأنجاهم في الوقت المناسب.

* * *

ملاحظة

أنواع الهداية الإلهية:

الهداية على نوعين: أولاً «الهداية التشريعية» وهي تشمل إبانة الطريق والكشف عنه بجميع العلائم. ثم هناك «الهداية التكوينية» التي هي في واقعها إيصال إلى المطلوب أو الوصول إلى الهدف.

لقد تجمعت الهديتان معاً في الآيات التي نبهتھا، فالآيات تتحدث أولاً عن هداية ثمود وهذه هي الهداية التشريعية التي استبانوا من خلالها الطريق. ثم أضافت الآية عن وصف حالهم بأنهم استحبوا العمى على الهدى، وهذه هي عين الهداية التكوينية والتوصل نحو الهدف.

وهكذا فإن الهداية بمعناها الأول قد تمت من خلال بعثة الرسل والأنبياء، أما الهداية بمعناها الثاني والتي ترتبط بإرادة واختيار أي إنسان، فلم تتم بسبب غرور

القوم وتكبرهم وعلوهم، لأنهم: «فاستحيوا العمى على الهدى».

إن هذا - بحد ذاته - دليل على مبدأ «حرية الإرادة الإنسانية» وعدم الجبر.
ولكن - برغم صراحة ووضوح الآيات - نرى أن بعض المفسرين كالفخر
الرازي يصرون على إنكار دلالة الآية، وذكروا كلاماً لا يليق بمنزلة الباحث
المحقق، وذلك بسبب ميولهم نحو عقيدة الجبر^(١)!!



١ - يلاحظ الفخر الرازي في التفسير الكبير في نهاية حديثه عن هذه الآية.

الآيات

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا
جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلِدْنَا لَهُمْ لَمْ شَهِدْنَا عَلَيْهِمْ أَنَّا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ
الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا
أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾

التفسير

كانت الآيات السابقة تتحدث عن الجزاء الدنيوي للكفار المغرورين
والظالمين والمجرمين. أما الآيات التي نبحثها الآن فتتحدث عن العذاب
الأخروي، وعن مراحل مختلفة من عقاب أعداء الله.
يقول تعالى: «ويوم يحشر أعداء الله إلى النار».

وكي تتصل الصفوف ببعضها يتم تأخير الصفوف^(١) حتى تلتحق بها الصفوف الأخرى: «فهم يوزعون».

وحينذاك: «حتى إذا ما جاءها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون»^(٢).

يا لهم من شهود؟ فأعضاء الإنسان تشهد بنفسها عليه ولا يمكن إنكار شهادتها، لأنها كانت حاضرة في جميع المشاهد والمواقف وناظرة لكل الأعمال، وهي إذ تتحدث فبأمر الله تعالى.

وهنا يثار سؤال: هل تعني شهادة هذه الأعضاء من جسم الإنسان أن الله تبارك وتعالى يخلق فيها قدرة الإحساس والإدراك والشعور، وبالتالي القدرة على الكلام؟

أم أن آثار الذنوب سوف تظهر في ذلك اليوم (يوم البروز) لأنها مطبوعة عليها طوال عمر الإنسان، كما نقول في تعبيراتنا الشائعة: إن صفحة وجهه تحكي وتخبر ما يخفيه فلان في سرّه؟

أو أن الأمر يكون كما في حال الشجرة التي أوجد الله تعالى فيها الصوت وأسمعه موسى ﷺ؟

في الواقع يمكن قبول كل هذه التفاسير، وقد جاءت مبثوثة في تفاسير المفسرين.

طبعاً لا يوجد مانع من أن يقوم تعالى بخلق الإدراك والشعور في الأعضاء، فتشهد في محضر الله تعالى عن علم ومعرفة، خصوصاً وأن ظاهر الآيات يشير للوهلة الأولى إلى هذا المعنى. وهو ما يعتقد البعض فيما يخص تسبيح وحمد

١ - «يوزعون» من «وزع» وهي بمعنى المنع. وعندما تستخدم للجنود أو الصفوف الأخرى، فإن مفهومها يعني أن يبقى المجموع إلى أن يلتحق بهم آخر نفر.

٢ - «ما» في قوله تعالى: «إذا ما جاءوها» زائدة. وهي هنا للتأكيد.

وسجود ذرات العالم وكائنات الوجود بين يدي الله تبارك وتعالى.

والمعنى الثاني محتمل أيضاً لإتنا نعلم أن أي كائن في هذا العالم لا يفنى من الوجود، وأن آثار أقوالنا وأفعالنا سوف تبقى في أعضائنا وجوارحنا، ومن الطبيعي أن تعتبر «الشهادة التكوينية» هذه من أوضح الشهادات وأجلها، إذ لا مجال لإنكارها، كما في إصرار الوجه - الذي يعتبر عادةً دليلاً - على الخوف لا يمكن إنكاره، واحمراره دليل على الغضب أو الخجل. وإطلاق النطق على هذا المعنى يكون مقبولاً أيضاً.

أما الإحتمال الأخير في أن تنطق الأعضاء بإذن الله تعالى دون أن يكون لها شعور بذلك أو يظهر منها اثر تكويني، فإن ذلك بعيد ظاهراً، لأنه في مثل هذه الحالة لا تعتبر الحالة مصداقاً للشهادة التشريعية ولا مصداقاً للشهادة التكوينية، فلا عقل هناك ولا شعور ولا الأثر الطبيعي للعمل، وسوف تفقد قيمة الشهادة في المحكمة الإلهية الكبرى.

ومن الضروري الانتباه إلى أن قوله تعالى: «حتى إذا ما جاءوها» يبيّن أن شهادة أعضاء الإنسان تتم في محكمة النار، فهل مفهوم ذلك أن الشهادة تتم في النار، في حين أن النار هي نهاية المطاف، أم أن المحكمة تتعقد بالقرب من النار؟ الإحتمال الثاني هو الأقرب كما يظهر.

ثم ما هو المقصود من (جلود) بصيغة الجمع؟
الظاهر أن المقصود بذلك هو جلود الأعضاء المختلفة للجسم، جلد اليد والرجل والوجه وغير ذلك.

أما الروايات التي تفسّر ذلك بـ «الفروج» فهي في الحقيقة من باب بيان المصداق، وليس حصر مفهوم الجلود في ذلك.

ومن جانب آخر ربّ سائل يسأل: لماذا تشهد العين والأذن والجلود فقط، دون أعضاء الجسم الأخرى؟ وهل الشهادة مقتصرة على هذه الأعضاء، أو أن

هناك أعضاء أخرى تشهد؟

ما نستفيدة من الآيات القرآنية الأخرى أن هناك أعضاء أخرى في جسم الإنسان تشهد عليه، إذ نقرأ في الآية (٦٥) من سورة «يس» قوله تعالى: «وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون».

وفي الآية (٢٤) من سورة «النور» قوله تعالى: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم».

وهكذا يتضح أن هناك أعضاء أخرى تقوم بالإدلاء بالشهادة، إلا أن ما تذكره الآية التي بين أيدينا من أعضاء تعتبر في الدرجة الأولى، لأن معظم أعمال الإنسان تتم بمساعدة العين والأذن، وإن الجلود هي أول من يقوم بملامسة الأعمال.

المجرمون يستغربون هذه الظاهرة، وآية استغرابهم قوله تعالى: «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا».

لسان حالهم يقول: لقد كنا لسنين مديدة نحافظ عليكم من الحر والبرد ونعتني بنظافتكم، فلماذا أنتم هكذا؟
وفي الجواب يقولون: «قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء».

لقد أعطانا الله مهمة القيام بالشهادة على أعمالكم في هذه المحكمة العظيمة، ولا نملك نحن سوى الطاعة، فالذي أعطى غيرنا من الكائنات قابلية النطق أعطانا - أيضاً - هذه القابلية^(١).

والطريف هنا أن أولئك يسألون جلودهم دون باقي الأعضاء من الشهود كالعين والأذن.

١ - هذا التفسير وارد عندما يكون معنى الآية: «أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ناطق» ولكن يحتمل أن يكون معنى أنطق كل شيء بالمعنى المطلق، بمعنى أن الله الذي أنطق جميع الموجودات وهو يكشف عن جميع الأسرار اليوم، هو الذي أنطقنا، فلا تتعجبوا من كلامنا فجميع كائنات العالم ستنطق في هذا اليوم.

قد يكون السبب في ذلك أنّ شهادة الجلود هي أغرب وأعجب من جميع الأعضاء الأخرى، وأوسع منها جميعاً، فتلك الجلود التي يجب عليها أن تذوق طعم العذاب الإلهي - قبل غيرها من الأعضاء - تقوم بمثل هذه الشهادة، وهذا الأمر محير حقاً!

ثم تستمر الآية بقوله تعالى: «وهو خلقكم أول مرّة وإليه ترجعون». ومرة أخرى تضيف: «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم».

وإنّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: «ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً ممّا تعملون».

كنتم غافلين عن أنّ الله يسمع ويرى، يشهد أعمالكم في كلّ حال ومكان، ويعلم أسراركم ما بطن منها وما ظهر، ثمّ هناك عناصر الرقابة التي ترافقكم وهي معكم في كلّ مكان، فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفي عن أعينكم وآذانكم وجلودكم؟

إنّكم في قبضة القدرة الإلهية وتحت نظر الشهود المستترين والظاهرين حتى أدوات ذنبكم تشهد ضدكم؟!

يروى المفسرين أنّ الآية أعلاه نزلت في ثلاثة نفر من كفار قريش وطائفة من بني ثقيف ذوي بطون كبيرة ورؤوس صغيرة اجتمعوا بجوار الكعبة وهم يتسارون، فقال أحدهم: أتظنون أنّ الله يسمع كلامنا وحدثنا هذا؟

فأجاب آخر: تكلمم بهدوء واخفض صوتك، فإذا تحدثنا بصوت عالٍ فهو (أي الله جلّ جلاله) يسمعه، وإذا خفضنا أصواتنا فلا يسمعنا.

فقال الثالث: إذا كان الله يسمع الكلام العالي فهو حتماً يسمع الصوت الضعيف أيضاً.

وهنا نزلت الآية الكريمة: ﴿وما كنتم تستترون أن...﴾^(١).

ثم يقول تعالى: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾^(٢).

هل أن هذا الحديث هو من قبل الله تعالى، وأن كلام الأعضاء والجوارح ينتهي إلى قوله تعالى: ﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾، أم أنّ ما يليه استمرار له؟ المعنى الثاني يبدو أكثر توافقاً، وعبارات الآية تتلاءم معه أكثر، بالرغم من أن أعضاء الجسم وجوارحه إنّما تتحدث هنا بأمر الله تعالى وبإرادته، والمعنى في الحالتين واحد تقريباً.



بحثنان

الأول: حسن الظن وسوء الظن بالله تعالى

توضح الآيات بشكل قاطع خطورة سوء الظن بالله تعالى، ومآل ذلك إلى الهلاك والخسران.

وبعكس ذلك فإنّ حسن الظن بالله تعالى سبب للنجاة في الدنيا والآخرة. وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار، ويرجوه رجاءً كأنه من أهل الجنة، إنّ الله تعالى يقول: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم﴾... ثم قال: إنّ الله عند ظن عبده، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(٤).

١- نقل هذه العادة (باختلاف) الكثير من المفسرين. منهم: القرطبي، الطبرسي، الفخر الرازي، الأوسمي، المراغي. وكذلك نقل العادة كل من البخاري ومسلم والنسائي، وما أوردهناه أعلاه مأخوذة عن القرطبي مع التصرف. المجلد الثامن، صفحة ٥٧٩٥.

٢- «ذلكم» مبتدأ و «ظنكم» خبر له. لكن البعض احتمل أنّ «ظنكم» بدل و «أرداكم» خبر (ذلكم).

٣- «أرداكم» من «ردى» على وزن «رأى» وتعني الهلاك.

٤- عن مجمع البيان نهاية تفسير الآية مورد البحث.

وروي عن الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ إِذَا حَاسَبَ الْخَلْقَ يَبْقَى رَجُلٌ قَدْ فَضَلَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، فَتَأْخُذُهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى النَّارِ وَهُوَ يَلْتَفِتُ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ بِرَدِّهِ، فَيَقُولُ لَهُ: لِمَ لَيْتُ؟ - وَهُوَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ - فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا كَانَ هَذَا ظَنِّي بِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا مَلَائِكَتِي! وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَالْإِنْسِي وَعُلُوِّي وَارْتِفَاعَ مَكَانِي، مَا ظَنَّ بِي عَبْدِي هَذَا سَاعَةً مِنْ خَيْرٍ قَطُّ، وَلَوْ ظَنَّ بِي سَاعَةً مِنْ خَيْرٍ مَا وَدَعْتَهُ بِالنَّارِ، أَجِيزًا لَهُ كَذِبُهُ وَأَدْخَلُوهُ الْجَنَّةَ». ثُمَّ أَضَافَ رَسُولُ اللَّهِ: لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَظُنُّ بِاللَّهِ عِزَّوَجَلَّ خَيْرًا إِلَّا كَانَ عِنْدَ ظَنِّهِ بِهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عِزَّوَجَلَّ: «وَذَلِكَمَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^(١).

الثاني: الشهود في محكمة القيامة

عندما نقول: إن جميع الناس سيحاكمون في العالم الآخر، فقد يتبادر إلى الذهن أن المحكمة هناك تشبه محاكم هذه الدنيا، إذ سيحضر كل فرد أمام القاضي ويبيده ملفه، وثمة شهود في القضية، ثم يبدأ السؤال والجواب قبل أن يصدر الحكم النهائي.

وقد أشرنا مراراً إلى أن الألفاظ سيكون لها مفهوم أعمق في ذلك العالم بحيث يصعب أو يستحيل علينا تصوّر مداليلها، لأننا سجناء هذه الدنيا ومقاييسها. ولكن نستطيع - مع ذلك - أن نقرب من بعض حقائق العالم الآخر من خلال ما نستفيده من الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ وأئمة المسلمين من أهل بيته عليهم السلام، وتبيّن لنا آثار عن عظمة وعمق الحياة في ذلك العالم ومحكمة يوم البعث، ولو بشكل إجمالي.

فمثلاً عندما يقال: «ميزان الأعمال» قد ينصرف الذهن إلى المعنى الذي نتصوّر فيه أعمالنا في ذلك اليوم خفيفة أو ثقيلة، حيث توزن في ميزان ذي كفتين.

ولكن عندما نقرأ في روايات المعصومين عليهم السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام هو ميزان الأعمال، بمعنى أن قيمة الأعمال وشخصية الأفراد ستقاس بمقياس يكون مركزه شخصياً الإمام العظيم وبمقدار مشابهة الإنسان لسلوك هذا الإمام العظيم واقتربه منه سيكون له وزن أكثر، وبمقدار بعده عنه سيكون خفيفاً في ميزان أعماله وحسابه.

ومن خلال هذا المعنى نفهم ماذا يعني ميزان الأعمال هناك. وفي مسألة «الشهود» فإن الآيات القرآنية تكشف لنا الستار - كذلك - عن حقائق أخرى، إذ يتبين أن مفهوم الشهود هناك يختلف عن شهود محاكم هذه الدنيا.

وفي قضية الشهود - بالذات - نستفيد من آيات القرآن الكريم أن هناك ستة أنواع من الشهود في تلك المحكمة:

١- أن أول الشهود وأعلام شأنها هو الذات الإلهية الطاهرة: «وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه»^(١).

إن شهادة الله تكفي لكل شيء، إلا أن مقتضى اللطف الإلهي والعدالة الربوبية تستوجب أن يضع تعالى شهوداً آخرين.

٢- الأنبياء والأوصياء: يقول القرآن الكريم: «كيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً»^(٢).

ونقرأ في حديث ورد في (الكافي) عن الإمام الصادق عليه السلام حول نزول هذه الآية وهو قوله عليه السلام: «نزلت في أمة محمد خاصة، في كل قرن منهم إمام منّا، شاهد

١- يونس، الآية ٦١.

٢- قنساء، الآية ٤١.

عليهم ومحمد شاهد علينا»^(١).

٣- شهادة اللسان واليد والرجل والعين والأذن: كما في قوله تعالى: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون»^(٢).

ومن الآية التي نحن بصددنا نستفيد أن العين والأذن هما من قائمة الشهود أيضاً، ونستفيد كذلك من بعض الروايات أن كل أعضاء الجسم ستقوم بدورها بالشهادة على الأعمال التي قامت بها^(٣).

٤- شهادة الجلود: لقد تحدثت الآيات التي نحن بصددنا عن هذا الموضوع بصراحة، بل وأضافت أن المذنبين لم يكونوا يتوقعون أن تشهد عليهم جلودهم، فخطبوها بالقول: «لم شهدتم علينا؟» فيأتي الجواب من جلودهم: «أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون»^(٤).

٥- الملائكة: يقول تعالى: «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد»^(٥). ومفهوم الآية الكريمة أن كل إنسان يحشر إلى القيامة، يكون معه ملك يسوقه نحو الحساب وتشهد الملائكة عليه.

٦- الأرض: إن الأرض التي تحت أقدامنا، وتؤمن لنا مختلف البركات والنعم، تقوم أيضاً بمراقبتنا بدقة، وتحدث في ذلك اليوم ما كان منا عليها، يقول تعالى: «يومئذ تحدث أخبارها»^(٦).

٧- شهادة الزمان: بالرغم من عدم إشارة نصوص الآيات القرآنية إلى هذه الشهادة، ولكن نستفيد هذه الشهادة من أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام، فعن أمير

١- أصول الكافي، المجلد الأول، صفحة ١٩٠.

٢- النور، الآية ٢٤.

٣- تنالي الأخبار، صفحة ٤٦٢.

٤- فصلت، الآية ٢١.

٥- سورة ق، الآية ٢١.

٦- الزلزال، الآية ٤.

المؤمنين علي بن أبي طالب قوله ﷺ: «ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم! أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً، أشهد لك يوم القيامة»^(١).

ما أعجب هذه الشهود التي تشهد علينا في تلك المحكمة! إنّه خليط عجيب من الملائكة وأعضاء الجسم والأنبياء والأوصياء، والأعظم من ذلك هي شهادة الله تبارك وتعالى علينا الذي يسمع ويرى ويحيط علمه بكل شيء، فيراقب أعمالنا ويشهد علينا... لكننا لا نبالي!!؟

ألا يكفي الإيمان بوجود مثل هؤلاء الشهود أن يسير الإنسان في طريق الحق والعدالة والتقوى والنزاهة؟



الآيتان

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِّنَ
الْمُعْتَبِينَ ﴿١٦﴾ وَقَبِيضًا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْتُمْ أَنَّهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقًّا عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدِ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ
الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٧﴾

التفسير

قرناء السوء:

في أعقاب البحث السابق الذي تحدثت في الآيات الكريمة عن مصير
«أعداء الله» جاءت الآيتان أعلاه لتشيران إلى نوعين من العقاب الأليم الذي
ينتظر هؤلاء في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: «فإن يصبروا فالنار مَثْوًى لهم»^(١) ولا يمكنهم الخلاص منها
لأنها مصيرهم سواء صبروا أو لم يصبروا.

«مَثْوًى» من «ثوى» على وزن «هوى» وتعني المقروم محل الإستقرار.
والآية الكريمة هذه تشبه الآية (١٦) من سورة «الطور» حيث قوله تعالى:

١- يكون للتقدير هكذا: «فإن يصبروا أو لا يصبروا فالنار مَثْوًى لهم».

﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾.

وكذلك تشبه الآية (٢١) من سورة «إبراهيم» حيث قوله تعالى: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص».

وللتأكيد على هذا الأمر تضيف الآية: «وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين».

«يستعتبون» مأخوذة في الأصل من (العتاب) وتعني إظهار الخشونة، ومفهوم ذلك أن الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كي يعفو عنه ويرضى عنه، لذلك فإن كلمة (استعتاب) تعني الإسترضاء وطلب العفو^(١).

ثم تشير الآية الثانية إلى العذاب الدنيوي لهؤلاء فتقول: «وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم» حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساويء لهم حسنات.

«قيضنا» من (قيض) على وزن (فيض) وتعني في الأصل قشرة البيضة الخارجية، ثم قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل، كسيطرة القشرة على البيضة.

وهذه إشارة إلى أن أصدقاء السوء والرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان، حيث يصادرون أفكارهم، ويهيمنون عليهم بحيث يفقدون معه قابلية الإدراك والإحساس المستقل، وعندها ستكون الأمور القبيحة السيئة جميلة حسنة في نظرهم، وبذلك ينتهي الإنسان إلى الوقوع في مستنقع الفساد وتغلق بوجهه أبواب النجاة.

في بعض الأحيان تستخدم كلمة «قيضنا» لتبديل شيء مكان شيء آخر، ووفقاً لهذا المعنى سيكون مقصود الآية، هو أننا سنأخذ منهم الأصدقاء الصالحين ونسلب منهم رفاق الخير، لنبدلهم بأصدقاء السوء والقرناء الفاسدين.

لقد ورد هذا المعنى بشكل أوضح في الآيتين (٣٦-٣٧) من سورة «الزخرف»

في قوله تعالى: ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنتهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾.

إنَّ التمعّن بالمجتمعات الفاسدة والفئات المنحرفة الضالة ينتهي بنا - بسهولة - إلى اكتشاف آثار أقدام الشياطين في حياتهم، إذ يحاصرهم رفاق السوء وقرناء الشر من كلِّ جانب وصوب، وسيطرون على أفكارهم ويقلبون لهم الحقائق.

قوله تعالى: ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ لعله إشارة لإحاطة الشياطين من كل جانب وتزيين الأمور لهم.

وقيل أيضاً في تفسيرها أنّ ﴿ما بين أيديهم﴾ إشارة إلى لذات الدنيا وزخارفها، ﴿وما خلفهم﴾ هو إنكار القيامة والبعث.

وقد يكون ﴿ما بين أيديهم﴾ إشارة إلى وضعهم الدنيوي ﴿وما خلفهم﴾ إلى المستقبل الذي سينظرهم وأبناءهم، إذ عادة ما يرتكب هذه الجرائم تحت شعار تأمين المستقبل.

وبسبب هذا الوضع تضيف الآية بأن الامر الالهي صدر بعذابهم وان مصيرهم هو مصير الأمم السالفة: ﴿وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾^(١).

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾.

إنَّ هذه الآيات تعتبر - في الواقع - الصورة المقابلة والوجه الآخر، وسوف تتحدث الآيات القادمة عن المؤمنين الصالحين المنصورين في الدنيا والآخرة بالملائكة التي تبشرهم بكل خير، وتكشف عنهم الغم والحزن.



١ - «في أمم» متعلقة بفعل محذوف، وفي التقدير تكون الجملة: «كائنين في أمم قد خلت». ومن المحتمل أن تكون «في» هنا بمعنى «مع».

الآيات

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ
فِيهَا دَارٌ خَالِدِينَ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضِلَّاتْنَا مِنَ الْجِبْنِ وَالْإِنْسِ
نَجْعَلَهُمْ تَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

التفسير

الضحيج في مقابل صوت القرآن!!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الماضين كقوم عاد وثمود، وتحدثت عن جلساء السوء وقرناء الشر، تتحدث المجموعة التي بين أيدينا من الآيات البينات عن جانب من جوانب الإنحراف لمشركي عصر رسول الله ﷺ لقد ورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ ما أن يرفع صوته في مكة لiestلو القرآن بصوته الجميل وأسلوبه الخاشع، حتى كان المشركون يقومون بإبعاد الناس

عنه ويقولون: أطلقوا الصفيير وارفعوا أصواتكم بالشعر حتى لا تسمعوا كلامه^(١)!
القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى في هذه الآيات، حيث يقول: «وقال
الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون».

هذا الأسلوب في مواجهة تأثير الحق ونفوذه بالرغم من كونه أسلوباً قديماً،
إلا أنه يستخدم اليوم بشكلٍ أوسع وأخطر لصرف أفكار الناس وخلق أصوات
المنادين بالحق والعدالة، فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسمع
صوت الحق. ومع الالتفات إلى أن معنى كلمة «والغوا» المشتقة من «لغو» لها معنى
واسع يشمل أي كلام فارغ، ندرك جيداً سعة هذا المنهج المتبع.

فتارة يتمّ اللغو بواسطة الضجة والضوضاء والصفيير.

وأخرى بواسطة القصص الكاذبة والخرافية.

وثالثة بواسطة قصص الحب والعشق المثيرة للشهوات!

وقد يتجاوز مكرهم مرحلة القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصة بالفساد
وأشكال الأفلام المبتذلة والمطبوعات المنحرفة الرخيصة، والألاعيب السياسية
الكاذبة والمثيرة، إنهم يعمدون إلى الاستعانة بأي أسلوب يؤدي إلى حرق أفكار
الناس واهتماماتهم عن الحق.

والانكى من ذلك طرح بعض البحوث والقضايا الفارغة التافهة في الاوساط
العلمية لتثار حولها ضجة تهيمن على اهتمامات الناس ووعيمهم، وتصدهم عن
التفكير بالقضايا الأساسية والأمر المهمة.

لكن... هل استطاع المشركون التغلب على القرآن الكريم بأعمالهم هذه؟! لقد
عمتهم الفناء وذهبت أساليهم الشريرة ادراج الرياح، وامتد القرآن واتسع في
تأثيره حتى استوعب أرجاء الدنيا.

الآية الأخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: «فلنذيقن الذين كفروا عذاباً

شديداً خاصة أولئك الذين يمنعون الناس من سماع آيات الله. وهذا العذاب يمكن أن يشملهم في الدنيا بأن يقتلوا على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ أو يقعوا في أسرهم، وقد يكون في الآخرة، أو يكون العذاب في الدنيا والآخرة معاً.

قوله تعالى: ﴿ولنجزيهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾. فهل لهؤلاء عمل أسوأ من الكفر والشرك وإنكار آيات الله ومنع الناس وصدّهم عن سماع كلام الحق؟

لكن لماذا أشارت الآية إلى «أسوأ» بالرغم من أنهم يرون جزاء كلّ أعمالهم؟ قد يكون هذا التعبير للتأكيد على موضوع الجزاء والتهديد به بيان حديثه، وفيه إشارة لمنعهم الناس عن سماع كلام النبي ﷺ.

كما أن قوله تعالى: ﴿كانوا يعملون﴾ دليل على أنه سيتمّ التأكيد على الأعمال التي كانوا يقومون بها دائماً، وبعبارة أخرى: إن ما يعملونه لم يكن أمراً مؤقتاً بل كانت سنتهم وسيرتهم الدائمة.

وللتأكيد على قضية العذاب، يأتي قوله تعالى: ﴿ذلك جزاء أعداء الله النَّار﴾^(١).

وهذه النَّار ليست مؤقتة زائلة بل: ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ نعم، فذلك: ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يمجحدون﴾^(٢).

إنهم لم ينكروا الآيات الإلهية وحسب، بل منعوا الآخرين من سماعها. «يمجحدون» من «جحد» على وزن «عهد» وتعني في الأصل كما يرى «الراغب» في «المفردات»: إلغاء ونفي شيء ثابت في القلب، أو إثبات شيء منفي في القلب. أو هو بعبارة أخرى: إنكار الحقائق مع العلم بها، وهذا من أسوأ أنواع

١- «النَّار» يمكن أن تكون «عطف بيان» أو «بدل» لـ «جزاء» أو أن تكون (خبراً لمبتدأ محذوف) والتقدير هو النَّار.

٢- «جزاء» يمكن أن تكون مفعولاً للفعل محذوف تقديره «يجزون جزاء» أو أن تكون مفعولاً لأجله.

الكفر (راجع نهاية الآية (١٤) من سورة النمل).

إنَّ الإنسان عندما يصاب ببلاء معين، خاصة إذا كان بلاءً شديداً، فإنه يفكر بمسببه الأصلي كي يعثر عليه وينتقم منه، وأحياناً يود تقطيعه قطعة قطعة إذا استطاع ذلك.

لذلك تشير الآية التالية إلى هذا المعنى الذي يشمل الكفار وهم في الجحيم فيقول: ﴿وقال الذين كفروا ربنا أأرنا للذين أضلانا من الجن والإنس نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾.

إنَّ أولئك كانوا يهونوا عن سماع قول النبي وكانوا يقولون: إنه ساحر مجنون، ثم كانوا يكثر من اللغو حتى لا نسمع صوته وكلامه، وبدلاً عن ذلك كانوا يشغلوننا بأساطيرهم وأكاذيبهم.

أما الآن وقد فهمنا أن كلامه ﷺ هو روح الحياة الخالدة، وأن نغامت صوته حياة النفوس الميتة، ولكن «ولات ساعة ندم».

لا ريب أن المقصود من الجن والإنس - في الآية هم الشياطين، والناس الذين يقومون بالقواية مثل الشياطين، وليس هما شخصان معينان.

ولا مانع من تثنية الفعل عندما يكون الفاعل مجموعتان، كما في قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ليكونا من الأسفلين﴾: المقصود أن المضلين من الجن والإنس سيكونون في أسفل درك من الجحيم، ولكن الأظهر منه أن شدة غضبهم يدفعهم إلى وضع من أغواهم تحت أقدامهم ليركلونهم ويكونوا في أدنى مقام في مقابل ما كان لهم من مقام ومكانة عليا في الحياة الدنيا.

الآيات

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾
نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣٦﴾ نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ
رَّحِيمٍ ﴿٣٧﴾

التفسير

نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين:

يعتمد القرآن الكريم في أسلوبه وضع صور متقابلة ومتعارضد للحالات التي يتناولها كي يوضحها بشكل جيد من خلال المقايسة والمقارنة فبعد أن تحدث عن المنكرين المعاندين الذين يصدون عن آيات الله، وأبان جزاءهم وعقوبتهم، بدأ الآن (في الصورة المقابلة) في الحديث عن المؤمنين الراسخين في إيمانهم، وأشار إلى سبعة أنواع من الثواب الذي يشملهم جزاء ومثوبة لهم.

يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا».

إنه تعبير جميل وشامل يتضمّن كلّ الخير والصفات الحميدة، فأولاً يوجّه القلب إلى الله ويوثق الإيمان به تعالى ويقويه، ثمّ سيطرة هذا الإيمان وهيمته على كلّ مرافق الحياة، وثبات السير في هذا الطريق؛ طريق الاستقامة^(١). هناك الكثير من الذين يدعون محبة الله، إلّا أنّنا لا نرى الاستقامة واضحة في عملهم وسلوكهم، فهم ضعفاء وعاجزون بحيث عندما يشملهم طوفان الشهوة يودعون الإيمان ويشركون في عملهم؛ وعندما تكون منافهم في خطر يتنازلون عن إيمانهم الضعيف ذلك.

ففي حديث عن رسول الله ﷺ أنه بعد أن تلا الآية قال: «قد قالها الناس ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها»^(٢).

وفي نهج البلاغة يفسّر الإمام عليّ عليه السلام هذه الآية بعبارات حيّة وناطقة عميقة المعنى يقول عليه السلام: «وقد قلت «ربنا الله» فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثمّ لا تمرقوا منها، ولا تبدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها»^(٣).

وفي مكان آخر نرى أنّ الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أجاب في تفسير معنى الاستقامة بقوله: «هي والله ما أنتم عليه»^(٤).

وهذا لا يعني أنّ الاستقامة تختص بالولاية فقط، بل إنّ قبول قيادة أئمة أهل البيت عليه السلام سيضمّن بقاء خط التوحيد، والطريق الإسلامي الأصيل، واستمرار العمل الصالح، وهذا هو تفسيره عليه السلام لمعنى الاستقامة.

وخلاصة القول أنّ قيمة الإنسان هي بالإيمان والعمل الصالح، وهذه القيمة

١ - «استقاموا» من «الإستقامة» وتعني الثبات على الطريق المستقيم الخط الصحيح. وفسرها بعض علماء اللغة بمعنى «الإعتدال» ولا يستبعد الجمع بين المعنيين.

٢ - مجمع البيان في نهاية الحديث عن الآية.

٣ - نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٦.

٤ - مجمع البيان في نهاية الحديث عن الآية.

يتحدث عنها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

لذلك فقد روي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: أخبرني بأمر اعتصم به؟ فقال رسول الله: «قل ربِّي الله ثم استقم».

ثم سأل الرجل رسول الله ﷺ عن أخطر شيء ينبغي عليه أن يخشاه. فمسك رسول الله لسانه وقال: هذا^(١).

والآن لزمًا هي المواهب الإلهية التي سيشمل من يتمسك بهذين الأصلين؟ القرآن الكريم يشير إلى سبع مواهب عظيمة تبشرهم ملائكة الله بها عندما تهبط عليهم. ففي ظل الإيمان والاستقامة يصل الإنسان إلى مرحلة بحيث تنزل عليه الملائكة وتعلمه.

فبعد البشارتين الأولى والثانية والتمثلتين بعدم (الخوف) و(الحزن) تصف الآية المرحلة الثالثة بقوله تعالى: ﴿وَابشروا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

والبشارة الرابعة تتضمنها قوله تعالى: ﴿فَنَحْنُ أُولِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم في الخير وتعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنة.

والبشارة الخامسة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أي في الجنة. أما البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادية وما تريدهونه. بل الاستجابة إلى العطايا والمواهب المعنوية: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾.

أما البشارة السابعة والأخيرة فهي أنكم ستحلون ضيوفاً لدى الباري عز وجل وفي جنته الخالدة، وستقدم لكم كل النعم تماماً مثلما يتم الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: ﴿نَزَلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾.



ملاحظات

في طيات هذه الآيات المبيّنة، والتعابير القرآنية القصيرة البليغة ذات المعاني الكبيرة؛ ثمة ملاحظات دقيقة ولطيفة نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

١- هل نزول الملائكة على المؤمنين المستقيمين يتمّ أثناء الموت والانتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر، كما يحتمل ذلك بعض المفسرين، أم أن نزولهم يكون في ثلاثة مواطن؛ عند (الموت) وعند (دخول القبر) وعند (الإحياء والبعث والنشور)، أو إنّ هذه البشائر تكون دائمة ومستمرة، وتتمّ بواسطة الإلهام المعنوي، حيث تستقر الحقائق في أعماق المؤمنين بالرغم من أنّها في لحظة الموت ولحظة الحشر تكون بشائر الملائكة أجلى وأوضح؟

يبدو أن المعنى الأخير أنسب، وذلك لعدم وجود قيد أو شرط في الآية. ويؤيد ذلك أنّ الملائكة تقول في البشارة الرابعة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وهذا دليل على أنّ المؤمنين من ذوي الاستقامة يسمعون هذا الكلام من الملائكة في الدنيا عندما يكونون أحياء، إلّا أنّ ذلك لا يكون باللسان واللفظ، بل يسمعون ذلك بأذان قلوبهم بما يشعرون به من هدوء واستقرار وسكينة وإحساس كبير بالراحة عند المشاكل والصعاب.

صحيح أنّ بعض الروايات قيدت نزول الملائكة وحضورهم عند الموت، إلّا أنّ ثمة روايات أخرى أشارت إلى معنى أوسع يشمل الحياة أيضاً^(١). ويمكن أن نستنتج من مجموع الروايات أنّ ذكر خصوص الموت هو بعنوان المصداق لهذا المفهوم الواسع، ونعرف هنا أنّ التفاسير الواردة في الروايات غالباً ما توضح المصداق.

إنّ بشائر الملائكة ستشع في أرواح المؤمنين وأعماق ذوي الاستقامة حتى تهبهم القوّة والقدرة على مواجهة أعاصير الحياة ومشقاتها، وتثبت أقدامهم من

١- يمكن ملاحظة ذلك في نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحات ٥٤٦ و٥٤٧ للروايات رقم: ٣٨-٤٠-٤٤-٤٦.

السقوط والإنحراف.

٢- قال بعض المفسرين في التفريق بين الخوف والحزن، أن (الخوف) يختص بالحوادث التي تثير القلق لدى الإنسان لكنها تقع في المستقبل، فيبقى الإنسان قلقاً حذراً إزاءها ومنتظراً وقوعها. أما (الحزن) فهو مما يختص بالحوادث المؤسفة التي وقعت في الماضي.

وعلى أساس هذا المعنى يأتي خطاب الملائكة: أن لا تقلقوا من الصعوبات التي تنتظركم، سواء في هذه الدنيا أو عند الموت أو في مراحل البعث، ولا تحزنوا على ذنوبكم الماضية أو الأبناء الذين سيقون بعدكم.

وتقديم (الخوف) على (الحزن) قد يكون بسبب أن المؤمن أكثر ما يكون قلقاً إزاء حوادث المستقبل، خاصة ما يتعلق منها بالحشر والجزاء واليوم الآخر.

وقال البعض أيضاً: إن (الخوف) من العذاب، بينما (الحزن) على ما فات من الثواب، والملائكة تقوم بزرع الأمل عندهم في الحالتين بواسطة الألفاظ الإلهية والمواهب والعطايا الربانية.

٣- قوله تعالى: ﴿كنتم توعدون﴾ هو تعبير جامع تداعى فيه كل صفات الجنة في ذهن المؤمنين ذوي الاستقامة، بمعنى أن الجنة كلها وبكل ما سمعتم عنها وعن نعيمها مسخرة لكم، من حورها وقصورها إلى مواهبها الكثيرة وعطاياها المعنوية التي لا يدركها الإنسان، ولم تخطر ببال أحد: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾^(١).

٤- في البشارة الرابعة تعرف الملائكة نفسها بأنها تلتزم جانب المؤمنين في الدنيا والآخرة؛ تقوم بنصرهم وإنزال السكينه عليهم، وهي صورة تقابل الآيات السابقة من هذه السورة المباركة عندما وصفت أعداء الله من الكفار من المعاندين والمكذبين، وكيف أنهم يتأوهون من عذاب النار ويمتلئون غيظاً وغضباً على من

أضلّهم في الحياة الدنيا، ويريدون الانتقام منهم.

٥- الفرق بين البشارة الخامسة والسادسة، أنّ في الخامسة يقال لهم: إنّ ما ترغبونه وتريدونه موجود هناك، فإن مجرد رغبتكم في شيء ما يتزامن مع مثوله أمامكم.

ولكن قوله تعالى في «تشتهي أنفسكم»: يستخدم للإشارة إلى الرغبات واللذات المادية، وإنّ قوله تعالى في «ما تدعون»: يشير إلى ما تريدونه من المواهب المعنوية والعطايا والملاذات الروحانية.

وخلاصة الكلام: أنّ كلّ شيء موجود هناك، سواء كان مادياً أم معنوياً.

٦- «نزل» تعني كما أشرنا سابقاً، ما يقدمه المضيف إلى ضيفه، بينما فسرها البعض بأوّل ما يقدم إلى الضيف. والتعبير في كلّ الأحوال يكشف عن أن جميع المؤمنين ذوي الاستقامة هم ضيوف الله ونزل رحمته وجنته ومائدته.

٧- إنّ التدقيق في هذه البشائر وعود الحق من قبل الباري، جلّ وعلا، والتي تعطى للمؤمنين بواسطة ملائكة الله الكرام، سوف تحرك في وجود الإنسان الدوافع نحو الإيمان والاستقامة، تجعل الروح البشرية تتعشق السير في هذا الطريق.

وفي ظل هذه الأجواء المضيئة بالطاعة والبشرى، استطاع الإسلام العزيز أن يصنع من عرب الجاهلية مجموعة نموذجية لا تتوانى عن الإيثار والتضحية بالغالي والعزير في سبيل منعة الإسلام والمسلمين وانتصارهم على كلّ المشاكل والعقبات.

وينبغي أن نتنبه هنا إلى أنّ «الاستقامة» مثلها مثل «العمل الصالح» هي ثمرة لشجرة الإيمان، إذ الإيمان يدعو الإنسان إلى الاستقامة متى ما نفذ إلى عمق الإنسان، وتأسست قواعد وجوده النفسي على التقوى، مثلما تعمق الاستقامة في طريق الحق والإيمان.

وهكذا يكون لهذين العاملين أثران متبادلان متقابلان. والذي نستفيده، من الآيات القرآنية الأخرى، أن الإيمان والاستقامة لا يجلبان البركات المعنوية والروحية وحسب، وإنما يرفل الإنسان من خلالهما بالبركات المادية التي تسود عالمنا هذا، إذ نقرأ في الآية (١٦) من سورة الجن قول الله تعالى: «وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً» وستشملهم فيما يشملهم سنوات ملأى بالخير والعطاء والبركة.



الآيات

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾
وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أَلٌ ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾
وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

التفسير

ادفع السيئة بالحسنة:

ما زالت هذه المجموعة من الآيات الكريمة تتحدث عن الصورة الأخرى؛
عن المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول.
يقول تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من
المسلمين﴾.

وبالرغم من أن الآية استفهامية، إلا أن الاستفهام هنا إنكاري، بمعنى أنه ليس
هناك أفضل من كلام الشخص الذي يدعو إلى الله وينادي بالتوحيد، ثم يؤكد

دعوته اللفظية هذه ويقرنها بالفعل والعمل الصالح.

إنَّ اعتقاد هؤلاء بالإسلام وتسليمهم للباري جلَّ وعلا، يدعم عملهم الصالح.

إنَّ الآية الكريمة هذه ترسم ثلاث صفات لذي القول الحسن هي: الدعوة إلى

الله، والعمل الصالح، والتسليم، حيال الحق.

إنَّ أمثال هؤلاء فضلاً عن تمسكهم بالأركان الإيمانية الثلاثة (الإقرار

باللسان؛ والعمل بالأركان، والإيمان بالقلب) فإنَّهم تمسكوا بركن رابع هو التبليغ

والدعوة ونشر دين الحق، وإقامة الدليل على أصول الدين، ودفع آثار الشرك

والتردد من قلوب عباد الله.

إنَّ هؤلاء المنادين، بصفاتهم الأربع، يعتبرون أفضل المنادين والدعاة في

العالم.

وبرغم ما ذهب إليه بعض المفسرين من قولهم بانطباق الصفات السابقة على

شخص رسول الله ﷺ أو هو والأئمة الذين يدعون إلى الحق، أو المؤذنين

خاصة. لكن من الواضح أنَّ للآية مفهوماً أوسع بحيث يشمل كلَّ المنادين

بالتوحيد ممن تشملهم الصفات المذكورة. بالرغم من أن أفضل مصداق لذلك هو

الرسول ﷺ [خاصة في فترة نزول الآية] ثم يأتي بعد ذلك الأئمة من أهل

البيت ﷺ، وبعدهم جميع العلماء والمجاهدين في طريق الحق، والأميرين

بالمعروف والناهين عن المنكر، والداعين للإسلام من أي طائفة كانوا.

إنَّ هذه الآية فخر عظيم وعزَّ كبير لكل أولئك، كي تتقوى عزائمهم ويربط

على قلوبهم.

وإذا قيل بأن الآية مدح لبلال الحبشي المؤذن الخاص لرسول الله ﷺ فذلك

بسبب أنَّه أطلق نداء التوحيد في فترة من أحلك الفترات وأوحشها في تاريخ

الدعوة الإسلامية، وعزَّض روحه للخطر.

ثم كتمل هذه الأوصاف بإيمانه الراسخ، واستقامته التي لا نظير لها، وأعماله

الصالحة، والاستمرار على نهج الإسلام الصحيح.

أما قوله تعالى: «وقال إنني من المسلمين» فللمفسرين فيه قولان:

الأول: أن (قال) هنا من (قول) وتعني الاعتقاد، ويكون المعنى: الذي عنده الاعتقاد الراسخ بالإسلام.

الثاني: أن (قول) بمعنى الحديث والتحدّث، وحين ذلك يكون المعنى: الذي يفخر ويتباهى بالدين الإلهي، وينادي بصوت مرتفع إنني من المسلمين.

المعنى الأول يبدو أكثر قبولاً بالرغم من أن مفهوم الآية يتحمل المعنيين. بعد بيان الدعوة إلى الله وأوصاف الدعاة إلى الله، شرحت الآيات أسلوب الدعوة وطريقتها، فقال تعالى: «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة»^(١).

في الوقت الذي لا يملك فيه أعداؤكم سوى سلاح الأفتراء والاستهزاء والسخرية والكلام البذيء وأنواع الضغوط والظلم؛ يجب أن يكون سلاحكم - أتم الدعاة - التقوى الطهر وقول الحق واللين والرفق والمحبة. إن المذهب الحق يستفيد من هذه الوسائل، بعكس المذاهب المصطنعة الباطلة.

وبالرغم من أن (الحسنة) و(السيئة) تنطويان على مفهومين واسعين، إذ تشمل الحسنة كل إحسان وجميل وخير وبركة، والسيئة تشمل كل انحراف وقبح وعذاب، إلا أن الآية تقصد ذلك الجانب المحدد من السيئة والحسنة، الذي يختص بأساليب الدعوة.

لكن بعض المفسرين فسّر الحسنة بمعنى الإسلام والتوحيد، والسيئة بمعنى الشرك والكفر.

وقال البعض: (الحسنة) هي الأعمال الصالحة. و(السيئة) الأعمال القبيحة. وهناك من قال: إن (الحسنة) هي الصفات الإنسانية النبيلة، كالصبر والحلم

والمدارة والعمو، بينما السيئة بمعنى الغضب والجهل والخشونة.

ولكن التفسير الأوّل هو الأفضل حسب الظاهر.

في حديث عن الإمام الصادق أنه ﷺ قال في تفسير الآية أعلاه: «الحسنة التقية، السيئة الأذاعة»^(١). وطبعاً فإن هذا الحديث الشريف ناظر الى الموارد التي تكون فيها الاذاعة سبباً في اتلاف الطاقات والكوادر الجيدة وانشاء الخطط للاعداء.

ثم تضيف الآية: «ادفع بالتي هي أحسن».

إدفع الباطل بالحق، والجهل والخشونة بالحلم والمدارة، وقابل الإساءة بالإحسان، فلا ترد الإساءة بالإساءة، والقبح بالقبح، لأنّ هذا أسلوب من همّة الانتقام، ثم إنّ هذا الأسلوب يقود إلى عناد المنحرفين أكثر.

وتشير الآية في نهايتها إلى فلسفة وعمق هذا البرنامج في تعبير قصير، فتقول: إنّ هذا التعامل سيقود إلى: «فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم».

إنّ ما يبيّنه القرآن هنا، مضافاً إلى ما يشبهه في الآية (٩٦) من سورة المؤمنين في قوله تعالى: «ادفع بالتي هي أحسن السيئة» يعتبر من أهم وأبرز أساليب الدعوة، خصوصاً حيال الأعداء والجهلاء والمعاندين. ويؤيد ذلك آخر ما توصلت إليه البحوث والدراسات في علم النفس.

لأنّ كلّ من يقوم بالسيئة ينتظر الرد بالمثل، خاصة الأشخاص الذين هم من هذا النمط؛ وأحياناً يكون جواب السيئة الواحدة عدّة سيئات. أمّا عندما يرى المسيء أنّ من أساء إليه لا يرد السيئة بالسيئة وحسب، وإنّما يقابلها بالحسنة، عندها سيحدث التغيير في وجوده، وسيؤثر ذلك على ضميره بشدّة فيوقفه، وستحدث ثورة في أعماقه، سيخجل ويحس بالحقارة وينظر بعين التقدير والأكبار إلى من أساء إليه.

وهنا ستزول الأحقاد والعداوات من الداخل وتترك مكانها للحبّ والمودة. ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنّ هذا الأمر لا يمثل قانوناً دائماً، وإنّما هو صفة غالبية، لأنّ هناك أقلية تحاول أن تسيء الاستفادة من هذا الأسلوب، فما لم ينزل بها ما تستحق من عقاب فإنّها لا تترك أعمالها الخاطئة.

ولكن في نفس الوقت الذي نستخدم العقوبة والشدة ضدّ هذه الأقلية، علينا أن لا ننفل عن أنّ القانون المتحكّم بالأكثرية هو قانون: «ادفع السيئة بالحسنة». لذلك رأينا أنّ رسول الإسلام ﷺ والقادة من أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يستفيدون دائماً من هذا الأسلوب القرآني العظيم، ففي فتح مكّة مثلاً كان الأعداء - وحتى الأصدقاء - ينتظرون أن تسفك الدماء وتؤخذ الثارات من الكفار والمشرّكين والمنافقين الذين أذاقوا المؤمنين ألوان الأذى والعذاب في مكّة وخارجها، من هنا رفع بعض قادة الفتح شعار «اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشاً» لكن ما كان من رسول الله ﷺ وتنفيذاً لأخلاقية «ادفع السيئة بالحسنة» إلا أن عفا عن الجميع وأطلق كلمته المشهورة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ثمّ أمر ﷺ أن يستبدل الشعار الإنتقامي بشعار آخر يفيض إحساناً وكرماً هو: «اليوم يوم الرحمة، اليوم أعزّ الله قريشاً»^(١).

لقد أحدث هذا الموقف النبوي الكريم عاصفة في أرض مشركي مكّة حتى أنّه على حدّ وصف كتاب الله تعالى بدأوا: «يدخلون في دين الله أفواجا»^(٢).

لكن برغم ذلك، نرى أنّ النبي ﷺ استثنى بعض الأشخاص من العفو العام هذا، كما نقله أصحاب السيرة، لأنّهم كانوا خطيرين ولم يستحقوا العفو النبوي الكريم الذي عبّر فيه رسول الله ﷺ عن خلق الإسلام ومنطق التبيين حينما قال: «لا أقول لكم إلا كما قال يوسف لإخوته: لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو

١- بحار الأنوار، المجلد ٢١، صفحة ١٠٩.

٢- سورة النصر، آية ٢.

أرحم الراحمين»^(١).

«ولي» هنا بمعنى الصديق. و(حميم) تعني في الأصل الماء الحار المغلي، وإذا قيل لعرق جسم الإنسان (حميم) فذلك لحرارته، ولهذا السبب يطلق اسم «الحمام» على أماكن الغسل، ويقال أيضاً للأصدقاء المخلصين والمحبين للشخص «حميم» والآية تقصد هذا المعنى.

وضروري أن نشير إلى أن قوله تعالى: «كأنه ولي حميم» حتى وإن لم تكن تعني أن الشخص لم يكن كذلك حقاً، إلا أن ظاهره سيكون كذلك على الأقل. إن هذا الأسلوب من التعامل مع المعارضين والأعداء ليس بالأمر العادي السهل، والوصول إليه يحتاج إلى بناء أخلاقي عميق، لذلك فإن الآية التي بعدها تبين الأسس الأخلاقية لمثل هذا التعامل في تعبير قصير ينطوي على معاني كبيرة، حيث يقول تعالى: «وما يلقاها إلا الذين صبروا»^(٢).

وكذلك: «وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم».

على الإنسان أن يجاهد نفسه مدة طويلة حتى يستطيع أن يسيطر على غضبه، يجب أن تكون روحه قوية في ظل الإيمان والتقوى حتى لا يستطيع أن يتأثر بسرعة وبسهولة بإيذاء الأعداء، ولا يطفئ عنده حب الانتقام، فتلزمه الروح الواسعة وانسراح الصدر بالمقدار الكافي، حتى يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الكمال بحيث يقابل السيئات بالإحسان. وعليه أن يتجاوز مرحلة العفو ليصل إلى منزلة «دفع السيئة بالحسنة» وأن يحتسب كل ذلك في سبيل الله تعالى بغية تحقيق الأهداف المقدسة.

وهنا أيضاً - كما تلاحظون - تواجهنا قضية «الصبر» بوصف هذه الخصلة الأساس المتين لكل الملكات الأخلاقية الفاضلة، وهي شرط في التقدم المعنوي

١- بحار الأنوار، المجلد ٢١، صفحة ١٢٢.

٢- يرجع ضمير (يلقاها) إلى (الخصلة) أو (الوصية) المستفادة من الجملة السابقة.

والمادي^(١).

إنّ هناك - بلا شك - موانع تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، وإنّ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من تحقيق ذلك بوسائل مختلفة، لذلك نرى الآية الأخيرة تخاطب الرسول ﷺ بوصفه الأسوة والقدوة فتقول له: ﴿وإِذَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢)

«نزغ» تعني الدخول في عملٍ ما لإفساده، ولهذا السبب يطلق على الوسواس الشيطانية «نزغ» وهذا التحذير بسبب ما يراود ذهن الإنسان من مفاهيم مغلوطة خطيرة، إذ يقوم بعض أدعياء الصلاح بتوجيه النصائح على شاكلة قولهم: لا يمكن إصلاح الناس إلّا بالقوّة. أو يجب غسل الدم بالدم. أو الترحم على الذئب ظلم للخراف وأمثال ذلك من الوسواس التي تنتهي إلى مقابلة السيئة بالسيئة.

القرآن الكريم يقول: يَاكُمْ وَالسَّقُوطَ فِي مَهَاوِي هَذِهِ الْوَسْوَاسِ، وَلَا تَلْجَأُوا إِلَى الْقُوَّةِ إِلَّا فِي مَوَارِدٍ مَعْدُودَةٍ، وعندما يواجهكم أمثال هذا الكلام فاستعينوا بالله واعتمدوا عليه لأنّه يسمع الكلام ويعلم النيات.

وأخيراً، تتضمّن الآية الدعوة إلى الاستعاذة بالله على مفهوم واسع، وما ذكر هو أحد المصاديق لذلك.

* * *

ملاحظتان

أولاً: برنامج الدعاء إلى الله

لقد تضمّنت الآيات الأربع - أعلاه - أربعة بحوث بالنسبة الى كيفية الدعوة

١ - اعتقد بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إشارة إلى الثواب العظيم لمثل هؤلاء الأشخاص العالين الذي ينالهم في الآخرة، لكن هذا التفسير مستبعد بسبب أن الآية تريد أن تبين الأساس الأخلاقي لهذا العمل العظيم.

٢ - «نزغ» في الآية الكريمة يمكن أن تكون بنفس معناها المصدرى أو أن تكون «اسم فاعل».

إلى الله تعالى. والخطوات الأربع هي:

أولاً: البناء الذاتي للدعاة من حيث الإيمان والعمل الصالح.

ثانياً: الاستفادة من أسلوب «دفع السيئة بالحسنة».

ثالثاً: تهيئة الأرضية الأخلاقية لإنجاز هذا الأسلوب والعمل به.

رابعاً: رفع الموانع من الطريق ومحاربة الوسواس الشيطانية.

لقد قدّم لنا رسول الله ﷺ والأئمة من أهل بيته ﷺ خير أسوة وقدوة في

تنفيذ هذا البرنامج والإلتزام به، و الإلتزام بهذا البرنامج يعتبر أحد الأسباب التي

أدت بالاسلام في ذلك العصر المظلم الى الأتساع والانتشار.

واليوم يشهد علم النفس العديد من البحوث والدراسات حول وسائل التأثير

على الآخرين، إلا أنها تعتبر شيئاً تافهاً في مقابل عظمة الآيات أعلاه، خصوصاً

وأن البحوث هذه عادة ما تتعامل مع ظواهر الإنسان وتستهدف الكسب السريع

العاجل ولو من خلال التمويه والخداع، لكن البرنامج القرآني يخوض في أعماق

النفس البشرية ويؤسس قواعد تأثيره على مضمون الإيمان والتقوى.

واليوم؛ ما أحلنى أن يلتزم المسلمون ببرنامج دينهم، ويعمدون إلى نشر

الإسلام في عالم متلهف إلى قيم السماء.

أخيراً تنهي هذه الفقرة بإضاءة نبوية نقتبسها عن تفسير «علي بن إبراهيم»

الذي ورد فيه: «أدب الله نبيه فقال: «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي

أحسن»، قال: ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك، حتى يكون «الذي بينك وبينه

عداوة كأنه ولي حميم»^(١).

ثانياً: الإنسان في مواجهة عواصف الوسواس:

ثمة منعطفات صعبة في حياة المؤمنين يكمن فيها الشيطان، ويحاول أن ينزغ

ويحيد بالإنسان عن طريق السعادة وكسب رضا الله تعالى.

وعلى الإنسان في مقابل وسواس الشيطان أن يعتمد في تجاوزها على الله، وإلا فإنه لا يستطيع ذلك لوحده، فعليه أن يتوكل على الله ليجتاز عقبات الطريق ومخاطره، ويتمسك بحبل الله المتين.

لقد ورد في الحديث أن شخصاً أساء لآخر في محضر رسول الله ﷺ فنار الغضب في قلبه واشتعلت فيه هواجس النار، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فقال الرجل: أمجنوناً تراني؟

فاستند رسول الله ﷺ إلى القرآن وتلا قوله تعالى: ﴿وإِذَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(١).

وهذه إشارة إلى أن ثورة الغضب من وسواس الشيطان، مثلما تعتبر ثورة الشهوة والهوى من وسواسه أيضاً.

ونقرأ في كتاب «الخصال» أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام علم أصحابه أربعمائة باب تنفع المسلمين في الدين والدنيا، من ضمنها قوله عليه السلام لهم: «إذا وسوس الشيطان إلى أحدكم فليستعذ بالله وليقل: آمنت بالله مخلصاً له الدين»^(٢).



١- روح المعاني، المجلد ٢٤، صفحة ١١١.

٢- نور الثقلين، المجلد ٤، صفحة ١٥٥١.

الآيات

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا
لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنكَ تَرَى
الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

التفسير

السجدة لله تعالى:

تعتبر هذه الآيات بداية فصل جديد في هذه السورة، فهي تختص بقضايا التوحيد والمعاد، ودلائل النبوة وعظمة القرآن، وهي في الواقع مصداق واضح للدعوة إلى الله في مقابل دعوة المشركين إلى الأصنام. تبدأ أولاً من قضية التوحيد، فتدعو الناس إلى الخالق عن طريق الآيات

الآفاق^(١): «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر» فالليل وظلمته للراحة، والنهار وضوءه للحركة.

وهذان التوأمان يقومان بإدارة عجلة حياة الناس بشكل متناوب ومنظم، بحيث لو كان أحدهما دائماً أو استمر لمدة أطول، فستصاب جميع الكائنات بالفناء، لذا فإن الحياة تعتمد على سطح القمر حيث تعادل ليلاليه (١٥) ليلة أرضية ونهاره بهذا المقدار أيضاً.

إن ليلاليه المظلمة الباردة تجعل كل شيء جامداً، أما نهاره الطويل الحار فإنه يحرق كل شيء، لذلك لا يستطيع الإنسان وكائنات أرضنا أن تعيش على القمر. أما الشمس فهي مصدر كل البركات المادية في منظومتنا، فالضوء والحرارة والحركة ونزول المطر، ونمو النباتات ونضج الفواكه، وحتى ألوان الورود الجميلة، كل ذلك يدين في وجوده إلى الشمس.

القمر يقوم بدوره بإضاءة الليالي المظلمة، وضوءه دليل السائرين في دروب الصحراء، وهو يجلب الخيرات بتأثيره على مياه البحار وحدوث الجزر والمد فيه. ولعل البعض قام بالسجود لهذين الكوكبين السماويين وبعبادتهما بسبب الخيرات والبركات الآتفة الذكر، فتأهوا في عالم الأسباب، ولم يستطيعوا الوصول إلى مسبب الأسباب.

ولذلك نرى القرآن بعد هذا البيان يقول مباشرة: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون»^(٢).

فماذا لا تتوجهوا بالسجود والعبادة إلى خالق الشمس والقمر؟

١ - ينفي الإلتهات إلى أن السجدة هنا واجبة في حال سماع الآية أو تلاوتها.

٢ - يرجع ضمير التأنيث في (خلقهن) إلى الليل والنهار والشمس والقمر كما يقول علماء اللغة وأصحاب التفسير. إذ أن ضمير جمع المؤنث العاقل قد يعود أحياناً إلى جمع غير العاقل كما يقال مثلاً (الأقلام يبرهنن)، والبعض يعتقد أن الضمير هنا يرجع للآيات التي هي جمع مؤنث لغير العاقل.

واحتمل البعض أن الضمير يعود على الشمس والقمر فقط باعتبار أنها جنس تشمل جميع الكواكب وكأنها تتمتع بقل وشعور.

ولماذا تعبدون كائنات هي نفسها خاضعة لقوانين الخلقة ونظام الوجود، ولها شروق وغروب وتخضع للتغيرات؟

إنَّ السجود لا ينبغي لإلَّه خالق هذه الموجودات؛ إنَّ خالق هذه الموجودات ومودع النظم والقوانين فيها لا يغرب ولا يأفل ولا تمتد يد التغيير إلى محضر كبريائه عزَّ وجلَّ.

وبهذا الشكل تنفي الآيات أحد الفروع الواسعة لانتشار الشرك وعبادة الأصنام المتمثلة في عبادة الكائنات الطبيعية النافعة، فينبغي للجميع أن يبحثوا عن علة العلل وأن لا يتوقفوا عند المعلول؛ نعم ينبغي البحث عن خالق هذه الموجودات!

إنَّ هذه الآية تستدل - في الواقع - على وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذي يتحكم بالشمس والقمر والليل والنهار، وإن حاكميته تعالى على هذه الموجودات تعتبر دليلاً على وجوب عبادته.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فيه إشارة إلى ملاحظة مؤدَّاها: إذا كنتم تريدون عبادة الخالق فعليكم إلغاء غيره من الشركاء في العبادة، لأنَّ عبادته لا تكون إلى جانب عبادة غيره.

وإذا لم يؤثر هذا الدليل المنطقي في أفكار هؤلاء، واستمروا مع ذلك في عبادة الأصنام والموجودات الأخرى، ونسوا المعبود الحقيقي، فالله تعالى يخاطبهم بعد ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يَسْبَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾^(١).

فليس مهماً أن لا تسجد مجموعة من الجهلة والغافلين حيال جبروت الله

١- «لا يسأمون»: من كلمة (السنامة) وتعني التعب من الإستمرار في العمل أو في موضوع معين.

ضمناً فإنَّ جملة (فإن استكبروا) جملة شرطية جزأها محذوف، والتقدير هو: فإن استكبروا عن عبادة الله وتوحيده فإن ذلك لا يضره شيئاً.

وذاته المقدّسة الطاهرة، فهذا العالم الواسع مليء بالملائكة المقرّبين الذين يركعون ويسجدون ويسبحون له دائماً ولا يفترّون أبداً.

ثم إن هؤلاء هم بحاجة إلى عبادة الله ولا يحتاج تعالى لعبادتهم، لأنّ فخرهم وكما لهم لا يتمّ إلا في ظل العبودية له سبحانه وتعالى.

ولقد ذكرنا أنّ الآيات أعلاه هي من آيات السجدة، وثمة اختلاف بين فقهاء أهل السنة في أنّ السجدة هل تكون واجبة بعد بداية الآية الأولى (تعبدون) أو أنّها تكون كذلك بعد تمام الآيتين (يسأمون)؟

ذهب الشافعي ومالك إلى الاحتمال الأول، بينما رجح آخرون كأبي حنيفة وأحمد بن حنبل الاحتمال الثاني.

إلا أنّ موقع السجدة الواجبة حسب اعتقاد علماء الإمامية، وفقاً للترايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، هي الآية الأولى (تعبدون) والآية الكريمة هي من آيات السجدة الواجبة في القرآن الكريم.

وضروري أن نشير هنا إلى أنّ الواجب هو أصل السجدة، أمّا الذكر فهو مستحب، ونقرأ في رواية أنّ أقلّ هذا الذكر في السجدة هو القول: «لا إله إلا الله حقاً حقاً، لا إله إلا الله إيماناً وتصديقاً، لا إله إلا الله عبودية ورقاً سجدت لك ياربّ تعبداً ورقاً، لا مستكفاً ولا مستكبراً بل أنا عبد ذليل خائف مستجير»^(١).

نعود مرّة أخرى إلى آيات التوحيد التي تعتبر الأرضية للمعاد، وإذا كان الحديث قد شمل في السابق الشمس والقمر والآيات السماوية، فإنّ الحديث هنا يدور حول الآيات الأرضية.

يقول تعالى: «ومن آياته أنّك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت».

هذه الأرض الميتة اليابسة الخالية من الحركة وآثار الحياة، أي قدرة حولتها

١ - وسائل الشريعة، كتاب الصلاة، المجلد الرابع، صفحة ٨٨٤ [باب ٤٦ من أبواب قراءة القرآن. حديث رقم (٢)].

إلى نبض دائم يمور بالحياة والحركة، إنه الماء، وإنه لدليل كبير على قدرة الله الأزلية، وعلامة على وجود ذاته المقدسة.

ثم تنتقل الآية من قضية التوحيد المتمثلة هنا بالحياة التي ما زالت تحيطها الكثير من الأسرار والخفايا والغموض، إلى قضية المعاد، حيث يقول تعالى: «إنّ الذي أحيانا لمحي الموتى».

نعم: «إنه على كلّ شيء قدير».

فدلائل قدرته واضحة في كلّ مكان، ومع هذا الوضع فكيف نشكك بالمعاد ونعتبره محالاً، أليس هذا سوى الجهل والغفلة؟

«خاشعة» من (الخشوع) وتعني في الأصل التضرع والتواضع الملازم للأدب. واستخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميتة اليابسة، يعتبر نوعاً من الكناية. فالأرض اليابسة الفاقدة للماء ستخلو من أي نوع من أنواع الثبات، وستشبه الإنسان الساقط أرضاً أو الميت الذي لا حراك فيه، إلا أن نزول المطر سيهب لها الحياة ويجعلها تتحرك وتنمو.

«ربت» من (ربو) على وزن (غلو) وتعني الزيادة والنمو، والربا مشتق من نفس هذه الكلمة، لأن المرابي يطلب دينه مع الزيادة.

«اهتزت» من «هز» على وزن «حظ» وتعني التحريك الشديد.

وحول «المعاد الجسماني» وأدلته وكيفية الاستدال عليه من عالم النبات تقدم بحث مفصل في نهاية سورة «يس» من هذا التفسير.



الآيات

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنَسَلِقُ فِي
النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيءِ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ
لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٢﴾

التفسير

محرفو آيات الحق:

المجموعة التي بين أيدينا من آيات السورة الكريمة، بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد، وتضليل الناس، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا».

من الممكن لهؤلاء أن يضلوا الناس بأسلوب المغالطة وباستخدام السفسطة الكلامية، ويخفوا ذلك عن الناس. إلا أنه ليس بوسعهم إخفاء ذرة مما يقومون به عن الله تبارك وتعالى.

«يلحدون» من (إلحد) وهي في الأصل من (لحد) على وزن (عهد) وتعني

الحفرة الواقعة في جانب واحد، ولهذا السبب يطلق على الحفرة في جانب القبر اسم «اللحد».

ثم أطلقت كلمة (الإلحاد) على أي عمل يتجاوز الحد الوسط إلى الإفراط أو التفريط، وهي لذلك تطلق لوصف الشرك وعبادة الأصنام، ويقال لمن لا يؤمن بالله تعالى (الملحد).

والمقصود من «الإلحاد في آيات الله» هو إيجاد الوسوس والتمويه في أدلة التوحيد والمعاد التي ذكرتها الآيات السابقة بعنوان «ومن آياته» أو جميع الآيات الإلهية، سواء منها الآيات التكوينية السابقة أو الآيات التشريعية النازلة في القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى.

إن المذاهب المادية والإلحادية في عالمنا اليوم التي تعتبر الدين وليد الجهل أو الخوف أو نتاج العامل الإقتصادي والأُمور الأخرى لإضلال الناس، هي بلا شك من مصاديق الخطاب في هذه الآية الكريمة.

القرآن الكريم أوضح جزاء هؤلاء في إطار مقارنة واضحة فقال تعالى:

﴿أمن يُلقَى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة؟﴾

الاشخاص الذين يحرقون ايمان الناس وعقائدهم بنيران الشبهات والتشكيكات سيكون جزاؤهم نار جهنم، بعكس الذين أوجدوا المحيط الآمن للناس بهدايتهم الى التوحيد والإيمان، فإنهم سيكونون في أمان يوم القيامة أليس ذلك اليوم هو يوم تتجسد فيه أعمال الإنسان في هذه الدنيا؟

وقال بعض المفسرين: إن الآية تقصد «أباجهل» «أبو جهل» كنموذج للغواية ولأهل النار، وفي الجانب المقابل ذكروا «حمزة» عم النبي ﷺ أو «عمار بن ياسر» لكن من الواضح أن هذا القول لا يعدو أن يكون مصداقاً للآية ذات المفهوم الواسع.

والطريف في هذا الجزء من الآية أن التعبير القرآني يستخدم كلمة (إلقاء) في

مخاطبة أهل النار كدليل على عدم امتلاكهم الخيار في أمرهم، بينما يستخدم كلمة «يأتي» في مخاطبة أهل الجنة، كدليل على احترامهم وحریتهم وإرادتهم في اختيار الأمن والهدوء.

وفوق كلّ هذا فقد استخدمت الآية تعبير الأمان من العذاب كناية عن الجنة، بينما استخدمت نار جهنم بشكل مباشر، وفي ذلك إشارة إلى أنّ أهم قضية في ذلك اليوم هي «الأمن».

وعندما ييأس الإنسان من هداية شخص يخاطبه بقوله: افعل ما شئت. لذا فالآية تقول لأمثال هؤلاء: «اعملوا ما شئتم».

لكن عليكم أن تعلموا: «أنّه بما تعملون بصير».

لكن هذا الأمر لا يعني أنّ لهم الحرية في أن يعملوا ما يشاؤون، أو أن يتصرفوا بما يرغبون، بل هو تهديد لهم بأنهم لا يصغون لكلام الحق، إنّ تهديد يتضمّن توعدّ هؤلاء والصبر على أعمالهم إلى حين.

الآية التي بعدها تتحول من الحديث عن التوحيد والمعاد إلى القرآن والنبوة، وتحذّر الكفار المعاندين بقوله تعالى: «إنّ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم»^(١).

إنّ إطلاق وصف «الذكر» على القرآن يستهدف تذكير الإنسان وإيقاظه، وشرح وتفصيل الحقائق له بشكلٍ إجمالي عن طريق فطرته، وقد ورد نظير ذلك في الآية (٩) من سورة «الحجر» في قوله تعالى: «إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون».

ثمّ تعطف الآية لبيان عظمة القرآن فتقول: «وإنّه لكتاب عزيز».

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو أن يتغلب عليه، منطلقه عظيم

١ - لقد ذكر المفسرون عدّة احتمالات حول خبر «إنّ الذين» أنسبها أن نقول بأنّ الخبر هو جملة (لا يصغون علينا) حيث حذف بقرينة الآية السابقة. وقال البعض: إنّ الخبر هو جملة «يلقون في النار» المستفادة من الآية السابقة، بينما قال البعض بأنّه جملة «أو لك ينادون من مكان بعيد» التي ترد في الآيات القادمة. لكن الرأي الأوّل أرجح.

واستدلالة قوي، وتعبيره بليغ منسجم وعميق، تعليماته جذرية، وأحكامه متناسقة متوافقة مع الاحتياجات الواقعية للبشر في أبعاد الحياة المختلفة.

ثم تذكر الآية صفة أخرى مهمة حول عظمة القرآن وحيويته، فيقول تعالى: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ لآته: ﴿تزيل من حكيم حميد﴾. أفعال الله عز وجل لا تكون إلا وفق الحكمة وفي غاية الكمال. لذا فهو أهل للحمد دون غيره.

لقد ذكر المفسرون عدة احتمالات حول قوله تعالى: ﴿لا يأتيه الباطل...﴾ إلا أن أشملها هو أن أي باطل لا يأتيه، من أي طريق كان، ومهما كان الأسلوب، وهذا يعني عدم وجود تناقض في مفاهيمه، ولا ينقض بشيء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقة، ولا يعارض كذلك بالإكتشافات العلمية المستقبلية.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقايقه، ولا يمكن أن ينسخ في المستقبل. لا يوجد أي تعارض في معارفه وقوانينه ووصاياه وأخباره، ولا يكون ذلك في المستقبل أيضاً.

لم تصل إليه يد التحريف بزيادة أو نقص في آية أو كلمة، ولن يطاله ذلك مستقبلاً.

إن هذه الآية تعبير آخر لمضمون الآية (٩) من سورة «الحجر» حيث قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(١).

ومن خلال ما قلناه نستنتج أن قوله تعالى: ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ كناية عن جميع الجوانب والجهات، بمعنى أنه لن يصيبه البطلان أو الفساد من جميع الأوجه والجوانب، وما ذهب إليه البعض من أن ذلك كناية للحال والمستقبل، فإن

١ - لقد اختار هذا التفسير الرمخسري في كشفه، وللملأمة الطباطبائي حديث يشبه هذا في تفسير الميزان، في حين حذد بعض المفسرين مصطلح الباطل بالشيطان أو المعرفين، أو الكذب، وما شابه. وقد ورد في حديث عن الباقر والصادق قولهما عليهما السلام: «إنه ليس في أخباره عما مضى باطل، ولا في أخباره عما يكون في المستقبل باطل»، كما نقل عنهما عليهما السلام صاحب مجمع البيان. وواضح أن ما ذكر هو مصاديق لمفهوم الآية.

قولهم هذا مصداق للمفهوم الأول.

«الباطل» كما يرى الراغب في مفرداته: هو ما يقابل الحق، ولكن قد يفسر أو يراد به أحياناً أحد مصاديقه كالشرك والشيطان والمعدوم والساحر. ويطلق على الشجاع بـ «البطل» لأنه يبطل أعداءه ويقتلهم أو يلقي بهم خارجاً.

لكن «باطل» في الآية تنطوي على مفهوم مطلق غير محدد بمصداق معين. والتعبير الأخير في الآية «تنزيل من حكيم حميد» دليل واضح على عدم وصول الباطل بأي طريق من الطرق إلى القرآن الكريم، فالباطل قد يسري إلى الكلام الذي يصدر من الأفراد ذوي العلم المحدود والقدرات النسبية. أما الذي يتصف بالعلم المطلق والحكمة المطلقة ويجمع كل الصفات الكمالية التي تجعله أهلاً للحمد، فلا يطرأ على كلامه التناقض والاختلاف، ولا ينسخ أو ينقض، أو تمتد إليه يد التحريف، ولا يتناقض كلامه مع الكتب السماوية والحقائق السابقة، ولا يعارض بالمكتشفات العلمية الراهنة، أو تلك التي يكشفها المستقبل. وأخيراً، الآية واضحة الدلالة على نفي التحريف عن القرآن الكريم، سواء من جهة الزيادة أو النقصان (هناك بحث مفصل حول نفي التحريف أوردناه في نهاية الحديث عن الآية (٩) من سورة «الحجر».

سؤال:

قد يقال: إذا كان الباطل هو ما أشرنا إليه، أي كل ما يتصف بأنه «المخالف للحق» فإننا في تفسير الآية (وكذلك المفسرين الآخرين) فسرناه بمعنى «المبطل» فكيف يتسق ذلك؟

الإجابة على هذا السؤال تكمن في ملاحظة دقيقة في الأسلوب القرآني، فالقرآن لا يقول: سوف لا يأتي باطل بعد هذا الكتاب السماوي، بل يقول لا يأتي الباطل إلى هذا الكتاب (أي القرآن) [ينبغي الإلتباه إلى ضمير جملة: يأتيه].

ومعنى الكلام أن لا شيء يستطيع أن يصل إليه ويبطله. (فدقق في ذلك).



الآيات

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى
وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى
أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ
أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٦﴾

التفسير

كتاب الهداية والشفاء:

قام الكفار والمشركون بمحاربة رسول الله ﷺ وتكذيبه، والتصدي للإسلام
والقرآن والآيات السابقة كانت تحكي عن الحادهم وكفرهم بآيات الله لذلك
جاءت الآية الأولى من الآيات التي بين أيدينا لمواساة النبي ﷺ وارشاد

المسلمين الذين يواجهون الأذى بأن لا محيص لهم عن الاستقامة والصبر.

يقول تعالى: «ما يقال لك إلا ما قد قبل للرسل من قبلك».

فإذا كانوا يتهمونك بالجنون والكهانة والسحر، فقد أطلقوا هذه الأوصاف

علني من قبلك من الأنبياء والمرسلين.

إنّ دعوتك لدين الحق ليست جديدة، وإنّ ما تواجهه وأنت تدعو للدين

الجديد ليس جديداً أيضاً، لذلك ما عليك - يا رسول الله - إلا أن ترابط بقوة وتلزم

ما أنت عليه ولا تهتم بكلام هؤلاء، لأنّ الله معك.

احتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من الآية هو: أنّ الكلام الذي قيل لك

من قبل الله هو نفس الكلام الذي قيل لمن قبلك من الأنبياء^(١).

لكن المعنى الأوّل أنسب في المقام، خاصة مع ملاحظة سياق الآيات

القادمة.

يقول الله تبارك وتعالى في نهاية الآية: «إنّ ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم».

فرحمته ومغفرته للمصدّقين، وعذابه للمكذّبين والمعارضين.

وهذا الجزء من الآية هو بشارة للمؤمنين وتشويق لهم، وإنذاراً للكفار

وتهديد لهم.

إنّ تقديم (المغفرة) على (العقاب) يشبه - في الواقع - الموارد الأخرى، وهو

دليل على تقدّم رحمته تعالى على غضبه، كما جاء في المأثور من الدعاء: «يامن

سبقت رحمته غضبه»^(٢).

الآية التي بعدها تتحدث عن ذرائع هؤلاء المعاندين، وترد على واحدة منها،

إذ هم كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر

ويستفيد منه غير العرب؟

١- هذا الإحتمال يمكن ملاحظته في تفسير «مجمع البيان» و «التفسير الكبير» ولكن كليهما رجح التفسير الأوّل.

٢- عن دعاء الجوشن الكبير. الفصل (١٩) الجملة الثامنة.

إنَّها حجةٌ عجيبة!

ولعلَّهم كانوا يستهدفون منها عدم فهم الناس القرآن حتى لا يضطروا إلى منعهم عنه، كما حكى القرآن عن سلوكهم هذا في آية سابقة في قوله تعالى: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾^(١).

وهنا يجيب القرآن على هذا القول بقوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجيباً لقالوا لولا فصلت آياته﴾.

ثم يضيفون: يا للعجب قرآن أعجمي من رسول عربي؟: ﴿أأعجمي وعربي﴾. أو يقولون: كتاب أعجمي لأمة تنطق بالعربية؟! والآن وبالرغم من نزوله بلسان عربي، والجميع يدرك معانيه بوضوح ويفهم عمق دعوة القرآن، إلا أنَّهم ومع ذلك نراهم يصرخون: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾.

إنَّ الآية تتحدث في الواقع عن المرض الكامن في نفوس هؤلاء وعجزهم عن مواكبة الهدى والنور الذي أنزل عليهم من ربِّهم، فإذا جاءهم بلسانهم العربي قالوا: هو السحر والأسطورة، وإذا جاءهم بلسان أعجمي فإنَّهم سيعتبرونه غير مفهوم، وإذا جاءهم مزيجاً من الألفاظ العربية والأعجمية عندها سيقولون بأنَّه غير موزون^(٢)!!

وينبغي الإتيان هنا إلى أنَّ كلمة (أعجمي) من «عجمة» على وزن «لقمة» وتعني عدم الفصاحة والإيهام في الكلام، وتطلق «عجم» على غير العرب لأنَّ العرب لا يفهمون كلامهم بوضوح، وتطلق «أعجم» على من لا يجيد الحديث والكلام سواء كان عربياً أو غير عربي. بناءً على هذا فإنَّ (أعجمي) هي (أعجم) منسوبة بالياء.

١- في تفسير الضمير الرازي قرأ قوله: نقلوا في سبب نزول هذه الآية أنَّ الكفار لأجل التفتت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم.

٢- بعض المفسرين فسَّر قوله تعالى: ﴿أأعجمي وعربي﴾ بتلس مناه المباشر أي مزيج وخليط بين العربي والأعجمي.

ثم يخاطب القرآن الرسول ﷺ بالقول: ﴿قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءً﴾. أما لغيرهم: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرء أي «ثقل» ولذلك لا يدركونه.

ثم إنّه: ﴿وهو عليهم عمى﴾^(١). أي أنهم لا يرونه بسبب عماهم، فهؤلاء كالأشخاص الذين ينادون من بعيد: «أولئك ينادون من مكان بعيد».

ومن الواضح أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لا يسمعون ولا يبصرون. فلأجل العثور على الطريق والوصول إلى الهدف لا يكفي وجود النور وحده، فيجب أن تكون هناك عين تبصر، كذلك يقال في مسألة التعلّم، حيث لا يكفي وجود المبلّغ والداعية الفصيح، بل ينبغي أن تكون هناك أذن تسمع وتعي، فلا شك في بركة المطر وتأثيره في نمو النباتات. ولكن المسألة في الأرض. طيبة أم خبيثة!!

فالذين يتعاملون مع القرآن بروح تبحث عن الحقيقة سيهدون وستشفى نفوسهم وصدورهم به، حيث يعالج القرآن الكريم الأمراض الأخلاقية والروحية، ثم يشدّون الرحال للسفر نحو الآفاق العالية في ظل نور القرآن وهداه.

أما ماذا يستفيد المعاندون والمتعصبون وأعداء الحق والحقيقة وأعداء الأنبياء والرسل من كتاب الله تعالى، فهم في الواقع مثلهم مثل الأعمى والأصم ومن ينادى من مكان بعيد، فهل تراه يسمع النداء أو يستجيب لهداه، إنهم كمن أصيب بالعمى والصمم المضاعف، وهو بعد ذلك في مكان بعيد!!

ونقل بعض المفسرين أنّ أهل اللغة يقولون لمن يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقولون لمن لا يفهم: أنت تنادى من بعيد^(٢).

«وثمة شرح مفصل حول شفاء القرآن ومعالجته لآلام الإنسان الروحية،

١ - بعض المفسرين ذهب إلى القول بأنّ الجملة أعلاه معناها هو: أنّ القرآن هو سبب في عمى هذه الفئة وعدم رؤيتها» في حين أنّ الراغب في المفردات وابن منظور في لسان العرب اعتبروا قول العرب «عمى عليه» بمعنى أنّه «أشبهه حتى صار الإضافة إليه كالأعمى» وبناءً على هذا يكون المراد من الآية هو ما ذهبنا إليه في المتن.

٢ - يلاحظ ذلك في تفسير القرطبي حديثه عن الآية.

يمكن مراجعته ذيل الآية (٨٢) من سورة الإسراء.»

الآية التالية تستمر في مواسة رسول الله ﷺ والمؤمنين معه وتقول لهم: إنَّ للعناد والإنكار تاريخ طويل في حياة النبوات: «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه».

وإذ ترى أننا لا نعجل في عقاب هؤلاء الأعداء المعاندين، فذلك لأنَّ المصلحة تقتضي أن يكونوا أحراراً حتى تتمَّ الحجَّة عليهم: «ولولا كلمة سبقت من ربِّك لقضي بينهم» أي لكان العقاب قد شملهم بسرعة.

إنَّ التأجيل الإلهي إنما يتم هنا لمصلحة الناس ومن أجل المزيد من فرص الهداية والنور، وبغية إتمام الحجَّة عليهم، وهذه السنَّة كانت نافذة في جميع الأقوام السابقة، وهي تجري في قومك أيضاً.

لكنهم لم يصدِّقوا بهذه الحقيقة بعد: «وإنهم لفي شك منه مريب».

«مريب» من «ريب» بمعنى الشك المزوج بسوء الظن والقلق، لذلك فمعنى الآية: إنَّ المشركين لا يشكون في كلامك وحسب، بل يزعمون وجود القرائن على بطلانه والتي تؤدي بزعمهم إلى الريب.

بعض المفسرين احتمل أن مراد الجملة الأخيرة هم اليهود وكتاب موسى ﷺ، بمعنى أن هؤلاء القوم لا يزالون يشكون في التوراة، لكن بعد هذا المعنى يرجح التفسير الأول^(١).

في الآية الأخيرة - من المجموعة - نقف أمام قانون عام يرتبط بأعمال الناس، وقد أكدَّه القرآن مراراً. وهذا القانون يكمل البحث السابق بشأن استفادة المؤمنين من القرآن، بينما يحرم غير المؤمنين أنفسهم من فيض النور الإلهي والهدى الرباني.

يقول تعالى في هذا القانون: «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما

١- ينبغي أن يلاحظ أنَّ الآية بعينها وردت في سورة هود آية (١١٠).

ربك بظلام للعبيد».

لذا فإن من لم يؤمن بهذا الكتاب والدين العظيم فسوف لن يضروا الله تعالى ولا يضروك، لأن الحسنات والسيئات تعود إلى أصحابها، وهم الذين سينالون حلاوة أعمالهم ومرارتها.



مسائل:

أولاً: الإختيار والعدالة

قوله تعالى: «ومرربك بظلام للعبيد» دليل واضح على قانون الإختيار وحرية الإرادة، وفيه حقيقة أن الله لا يعاقب أحداً بدون سبب، ولا يزيد في عقاب أحد دون دليل، فسياسته في عباده العدالة المحضة، لأن الظلم يكون بسبب النقص والجهل والاهواء النفسية، والذات الإلهية المقدسة منزّهة عن كل هذه العيوب والنواقص.

كلمة «ظلام» والتي هي صيغة مبالغة بمعنى «كثير الظلم»، يمكن أن تشير - هنا وفي آيات قرآنية أخرى - إلى أن العقاب دون سبب من قبل الخالق العظيم يعتبر مصداقاً للظلم الكثير، لأنه تعالى منزّه عن هذا الفعل.

وذهب بعضهم الى أن الله تعالى له عباد كثير، فلو أراد أن يظلم كل واحد منهم بجزء يسير قليل، عندها سيكون مصداقاً لـ«ظلام».

وهذان التفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

المهم هنا أن القرآن وفي هذه الآيات البينات نفى الجبر الذي يؤدي الى اشاعة الفساد وارتكاب أنواع القبائح، والاعتقاد به يؤدي الى إلغاء أي نوع من المسؤولية والتكليف، بينما الجميع مسؤولون عن أعمالهم، نتائجها تعود بالدرجة الأولى عليهم.

لذلك نقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في الإجابة على هذا السؤال: هل يجبر الله عباده على المعاصي؟

فقال: «لا، بل يخيرهم ويمهلهم حتى يتوبوا».

فسئل عليه السلام مجدداً: هل كلف عباده ما لا يطيقون؟

أجاب الإمام عليه السلام: «كيف يفعل ذلك وهو يقول: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾».

ثم أضاف الإمام الرضا عليه السلام: «إنَّ أبي موسى بن جعفر نقل عن أبيه جعفر بن محمد من زعم أنَّ الله يجبر عباده على المعاصي أو يكلفهم ما لا يطيقون فلا تأكلوا ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته، ولا تصلوا وراءه ولا تعطوه من الزكاة شيئاً»^(١).

إنَّ هذا الحديث الشريف يشير - ضمناً - إلى هذه الملاحظة الدقيقة. وهي إنَّ الجبريين ينتهون في عقيدتهم إلى القول بـ «التكليف بما لا يطاق» لأنَّ الإنسان إذا كان مجبوراً على الذنب من ناحية، وممنوعاً عنه من ناحية أخرى، فهذا يكون مصداقاً واضحاً للتكليف بما لا يطاق.

ثانياً: الذنوب وسلب النعم

في حديث عميق الدلالة لأمير المؤمنين نقرأ قوله عليه السلام: «وأيُّم الله! ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوبٍ اجترحوها، لأنَّ الله ليس بظلام للعبيد».

ثم أضاف عليه السلام:

«ولو أنَّ الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزَعُوا إلى ربِّهم بصدق من نياتهم، ووله من قلوبهم، لردَّ عليهم كلَّ شارد، وأصلح لهم كلَّ فاسد»^(٢).

١- عيون أخبار الرضا، نقلًا عن نور الثقلين، المجلد ٤، صفحة ٥٥٥.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٨٨.

إنّ هذا النص العلوي الكريم يوضح - بجلاء - علاقة الذنوب بسلب النعم وزوالها.

ثالثاً: لماذا كلّ هذا التحجج؟!

لا شك أنّ اللغة العربية أغنى اللغات وأوسعها، ولكن مع هذا فإنّ عظمة القرآن ليست لأنّه باللغة العربية، بل تعود عربية القرآن إلى أنّ الله يرسل الرسل بلسان قومهم كي يؤمنوا أولاً، ثمّ ينتشر الدين إلى الآخرين.

لكن أصحاب الذرائع والحجج يطرحون في كلّ موقف حجة أو ذريعة غير منطقية، وهم يعلمون أنّهم بأسلوبهم هذا لا يبحثون عن الحقيقة ولا ينشدونها.

إنّهم يقولون مرّة: لماذا نزل القرآن بالعربية؟ ألم يكن من الأفضل أن ينزل كلّه أو جزء منه بلغة أخرى حتى يفهمه الآخرون؟ (في حين أنّهم كانوا يهدفون إلى تحقيق شيء آخر هو أن لا ينجذب عامة العرب نحو القرآن الكريم).

ولو حقّق لهم هذا الطلب فسيقولون: كيف يكون الرّسول عربياً وكتابه غير

عربي؟

هؤلاء إنّما يهربون من الحق من خلال هذا التذرّع. وعادةً ما يكون أسلوب التذرّع وإثارة الحجج دليلاً على وجود علة أخرى وهدف آخر يخفيه الإنسان ويفطّي عليه، وعلة هؤلاء القوم كانت أنّ عامة الناس شغفوا بالقرآن الكريم وانجذبوا إليه، فأصبحت مصالحهم في خطر، لذا فقد استخدموا كلّ الوسائل المتاحة لهم لمواجهة الإسلام دعوة وكتاباً ونبياً.

* * *

بداية الجزء الخامس والعشرون

مِنَ

القرآن الكريم

الآيات

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَّتٍ مِنْ أُمَّمِهَا وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنْقَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَائِي قَالُوا أَدْنَبْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿١٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّجِيصٍ ﴿١٨﴾

التفسير

الله العالم بكل شيء:

الآية الأخيرة - في المجموعة السابقة - تحدثت عن قانون تحمّل الإنسان لمسؤولية أعماله خيراً كانت أم شراً، وعودة آثار أعماله على نفسه، وهي إشارة ضمنية لقضية الثواب والعقاب في يوم القيامة.

وهنا يطرح المشركون هذا السؤال: متى تكون هذه القيامة التي تتحدث عنها؟ الآيتان اللتان نبحتهما تجيبان أولاً عن هذا السؤال، إذ يقول القرآن: إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ يَخْتَصُّ بِعِلْمِ قِيَامِ السَّاعَةِ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

فلا يعلم بذلك نبيّ مرسل ولا ملك مقرب، ويجب أن يكون الأمر كذلك لأغراض تربوية يكون فيها المكلف على استعداد دائم للمحاسبة في أي ساعة.

ثم تضيف الآية: ليس علم الساعة لوحدها من مختصات العلم الإلهي فحسب، بل يندرج معها أشياء أخرى مثل أسرار هذا العالم، وما يختص بالكائنات الظاهرة والمخفية: «وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه»^(١). إن النباتات لا تنمو، والحيوانات لا تتكاثر، ولا يضع الإنسان نقطة إلا بأمر الخالق العظيم، وبمقتضى علمه وحكمته.

«أكمام» جمع «كم» على وزن «جم» وتعني الغلاف الذي يغطي الفاكهة و«كم» على وزن «قَم» تعني الجزء من الرداء الذي يغطي اليد. أما «كمة» على وزن «قبة» فهي القلنسوة على الرأس^(٢).

قال العلامة الطبرسي في مجمع البيان: تكمم الرجل في ثوبه، أي غطى الشخص نفسه بلباسة.

أما الفخر الرازي فيفسر «الأكمام» بمعنى القشرة التي تغطي الفاكهة.

وهناك من المفسرين من فسروها بأنها: «وعاء الثمرة»^(٣).

ويبدو أن جميع هذه الآراء تعود إلى معنى واحد، ولأن أدق المراحل في عالم الكائن الحي هي مرحلة النمو في الرحم والولادة، لذلك أكد القرآن على هاتين القضيتين، سواء في عالم الإنسان والحيوان، أم في عالم النبات.

فإنه هو الذي يعلم بالنطف وزمان انعقادها في الأرحام ولحظة ولادتها، ويعلم متى تشكل الثمار وتنمو، ومتى تخرج من أغلفتها.

ثم يضيف السياق القرآني: إن هذه المجموعة التي تنكر القيامة وتستهزئ بها، ستعرض إلى مشهد يقال لهم فيه: «ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد»^(٤).

١- «من» في «من الثمرات» و «من أتى» وكذلك في «من شهيد» تأتي في نهاية الآية كلها، زائدة جاءت هنا للتأكيد.

٢- يلاحظ الراجح في المفردات.

٣- تفسير الميزان وتفسير المراغي.

٤- «آذناك» من «إهدان» بمعنى الإعلان. وجملة «يوم يناديهم» تعلق بمحذوف. والتقدير: «اذكر يوم يناديهم...».

فما كنّا نقوله هو كلام باطل كان كلاماً نابعاً من الجهل والعناد والتقليد الأعمى، واليوم عرفنا مدى بطلان ادعاء اتنا الواهية.

وهؤلاء في نفس الوقت الذي يسجلون اعترافهم السابق، فهم أيضاً لا يشاهدون أثراً للمعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله من قبل: «ووصلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل».

إنّ مشهد القيامة مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الألباب، فينسبون خواطر تلك الأصنام والمعبودات التي كانوا يعبدونها ويسجدون لها ويذبحون لها القرابين؛ بل وكانوا أحياناً يضحون بأرواحهم في سبيلها، وكانوا يظنون أنّها تحل لهم مشكلاتهم وتتفعمهم يوم الحاجة... إنّ كلّ ذلك أصبح وهماً كالسراب. ففي ذلك اليوم سيعلمون: «وظنوا ما لهم من محيص».

«محيص» من «حيص» على وزن «حيف» وتعني العدول والتنازل عن شيء، ولأنّ (محيص) اسم مكان، فهي تعني هنا الملجأ والمفر.

«ظنوا» من «ظنّ» ولها في اللغة معنى واسع، فهي أحياناً بمعنى اليقين، وتأتي أيضاً بمعنى الظن. وفي الآية مورد البحث جاءت بمعنى اليقين، إذ أنّهم سيحصل لهم في ذلك اليوم اليقين حيث لا مفرّاً ولا نجاة من عذاب الله.

يقول الراغب الأصفهاني في المفردات: «ظنّ» تعني الاعتقاد الحاصل من الدليل والقرينة، وهذا الاعتقاد قد يكون قوياً في بعض الأحيان ويصل إلى مرحلة اليقين، وأحياناً يكون ضعيفاً لا يتجاوز حدّ الظن.



الآيات

لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْتَوْسُقُنَّ قَنُوطٌ ﴿١١﴾ وَلَئِنْ أَدْقَنْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِيحَابِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ لِمَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

التفسير

في نفس الاتجاه الذي تحدثت فيه الآيات السابقة، نلتقي مع مضمون المجموعة الجديدة من الآيات التي بين أيدينا، والتي تواصل حديثها عن صور أخرى حية وناطقة من حياة أناس من عديمي الإيمان وضعافه، الذين يحملون أفكاراً غير ناضجة ومواقف مهزوزة ولا يمتلكون القدرة على تحمل الصعاب.

يقول تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ﴾.

فليس لحرص الإنسان من نهاية، فكلما يحصل على شيء يطالب بالمزيد، ومهما يعطى لا يكتفي بذلك.

ولكنّند: ﴿وَأِنْ مَسَّ الشَّرَّ فَيُؤْسِقْنُوهُ﴾.

والمقصود بالإنسان هنا الإنسان غير المترابي بعد بأصول التربية الإسلامية، والذي لم يتنور قلبه بالمعرفة الإلهية والإيمان بالله، ولم يحسّ بالمسؤولية بشكل كامل. إنّها كناية عن الناس المتفوقين في عالم المادة بسبب الفلسفات الخاطئة، فهم لا يملكون الروح العالية التي تؤهلهم للصبر والثبات، وتجاوز الحدود المادية إلى ما وراءها من القيم العظيمة.

هؤلاء يفرحون إذا أقبلت الدنيا عليهم، ويأسون ويحزنون إذا ما أدبرت عنهم، ولا يملكون ملجأً يلجأون إليه، ولا يدخل نور الأمل والهداية إلى قلوبهم. وينبغي أن نشير أيضاً إلى أنّ «دعاء» تأتي أحياناً بمعنى المناذاة، وأحياناً بمعنى الطلب، وفي الآية التي نبحثها جاءت بالمعنى الثاني.

لذا فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ﴾ يعني لا يمل ولا يتعب الإنسان أبداً من طلب الخير والجميل.

وثمة بين المفسرين اختلاف في الرأي حول «يؤوس» و «قنوط» فيما إذا كانا بمعنى واحد أم لا؟

يرى البعض أنّهما بمعنى واحد، والتكرار للتأكيد^(١).

وقال البعض الآخر: «يؤوس» من «يشس» بمعنى اليأس في القلب، أمّا «قنوط» فتعني إظهار اليأس على الوجه وفي العمل^(٢).

أمّا «الطبرسي» فقد قال في مجمع البيان: إنّ الأوّل هو اليأس من الخير، بينما

١ - تفسير الميزان، المجلد ١٧، صفحة ٤٦٦.

٢ - لفتح الرازي في التفسير الكبير، المجلد ٢٧، صفحة ١١٣٧ وروح المعاني، المجلد ٢٥، صفحة ٤.

الثاني هو اليأس من الرحمة^(١).

ولكن الذي نستفيد، من الاستخدام القرآني أن الاثنين يستخدمان تقريباً للدلالة على معنى واحد، فنقرأ في قصة يوسف - مثلاً - أن يعقوب عليه السلام حذر أبناءه من اليأس من رحمة الله، في حين كانت قلوبهم يائسة من العثور على يوسف، وكانوا أيضاً يظهرهم علامات اليأس^(٢).

وفي حالة إبراهيم عليه السلام نرى أنه عجب من البشارة التي زفتها إليه الملائكة بالولد، لكن الملائكة قالت له: «بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين»^(٣).

الآية التالية تشير إلى صفة أخرى من صفات الإنسان الجاهل البعيد عن العلم والإيمان متمثلة بالغرور: «ولئن اذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي»^(٤) أي إنني مستحق ولا ترق لمثل هذه المواهب والمقام.

إن الإنسان المغرور ينسى أن البلاء كان من الممكن أن يشمل عوذاً عن النعمة، تماماً كما قال قارون: «قال إنما أوتيته على علم عندي»^(٥).

تضيف الآية بعد ذلك أن هذا الغرور يقود الإنسان في النهاية إلى إنكار الآخرة حيث يقول: «وما أظن الساعة قائمة». ولنفرض أن هناك قيامة فإن حالي سيكون أحسن من هذا: «ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى».

إن هذه الحالة تشابه ما استمعنا إليه في سورة الكهف من قصة الرجلين الذين كان أحدهما غنياً مغروراً، والثاني عارفاً مؤمناً، حيث حكى الآية على لسان الشري المغرور قوله: «وما أظن أن تبديد هذه أبدأ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت

١- مجمع البيان، المجلد ٩، صفحة ١٨.

٢- يوسف، الآية ٨٧ فما فوق.

٣- الحجر - ٥٥.

٤- ذهب بعض المفسرين للقول بأن جملة «هذا لي» تعني أن هذه النعمة ستبقى دائماً لي، أي إنها في الحقيقة توضح دوام ذلك، إلا أن التفسير الذي عرضناه أعلاه أنسب بالرغم من إمكان الجمع بين الإيتين، أي إنهم يعتبرون أنفسهم مستحقين للنعمة، وتصورونها دائمة لهم أيضاً.

٥- القصص، الآية ٧٨.

إلى ربِّي لا جِدَنَّ خيراً منها منقلباً»^(١).

لكنَّ الله يحذِّر أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ».

«العذاب الغليظ» هو العذاب الشديد المتراكم.

نفس هذا المعنى لاحظناه في مكان آخر من القرآن، في قوله تعالى في الآية (١٠) من سورة هود: «ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور».

الآية التي بعدها تذكر حالة ثالثة لمثل هؤلاء، هي حالة النسيان عند النعمة والفرح والجزع عند المصيبة.

يقول تعالى: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وناً بجانيه» أما: «وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض».

«ناً» من «نأي» على وزن «رأي» وتعني الابتعاد، وعندما تقترن مع كلمة «بجانيه» فتكون كناية عن التكبر والغرور، لأنَّ المتكبرين يناون بوجوههم دون اهتمام وابتعادون.

«العريض» مقابل الطويل، ويستخدم العرب هاتين الكلمتين للدلالة على الزيادة والكثرة.

وفي الآية (١٢) من سورة يونس نرى معاني شبيهة لما نحنُ بصدده، حيث يقول تعالى: «وإذا مسَّ الإنسان الضرَّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرِّه مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون».

إنَّ الإنسان الذي يفتقد الإيمان والتقوى يكون عرضة لمثل هذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناسٍ لله، وإذا أدبرت عنه قنوط يائس كثير الجزع.

وفي الجانب المقابل نرى أنَّ رجال الحق وأتباع الأنبياء والرسل لا يتغيرون

إذا أقبلت عليهم النعم، ولا بهنون أو ييأسون أو يجزعون عند إدارها، إنهم مصداق قوله تعالى: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» فأربح التجارة لا تتسيهم ربهم، إنهم عارفون حق المعرفة بفلسفة النعمة والبلاء في هذه الدنيا، يعلمون أن الابتلاءات ناقوس خطر لهم، بينما النعم اختبار وامتحان إلهي لهم. ومن الابتلاء ما يكون أحياناً عقوبةً للغفلة والنسيان، والنعم لإثارة دوافع الشكر لدى العباد.

وبلغت النظر هنا طرفة الاستخدام القرآني لكلمتي «أذقنا» و «مسه» والتي تعني أنهم مع قليل جداً من إقبال الدنيا عليهم يتغيرون وينسون ويصابون بالغرور، وهؤلاء مع «مسّة» قليلة من ضرر أو بلاء يصابون باليأس والقنوط.

من هنا تقف على قيمة سعة الروح، وتدفق النفس بالإيمان، واتساع آفاق الفكر، وانسراح الصدر، واستعداد الإنسان لمواجهة المشاكل والصعاب، وتحدي المزلق والأهواء، التي تعتبر جميعاً من ثمار الإيمان والتقى.

يقول شهيد المحراب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في أحد أدعيته التي تعتبر درساً لأصحابه: «نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامة وكتابة»^(١).

الآية الأخيرة تتضمن الخطاب الأخير لهؤلاء، وتبين لهم - بوضوح - الأصل العقلي المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقول: «قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد»^(٢).

ومن الواضح أن هذا الكلام إنما يقال للأشخاص الذين لا ينفع معهم أي دليل منطقي لشدة عنادهم وتعصبهم. فالآية تقول لهؤلاء: إذا كنتم ترفضون حقانية

١- نهج البلاغة، الخطبة رقم ٦٤.

٢- «أرأيتم» تأتي عادة بمعنى «أخبروني» وتشر نفس المعنى.

القرآن والتوحيد ووجود عالم ما بعد الموت وتصرون عليه، فأنتم لا تملكون حتماً دليلاً قاطعاً على هذا الرفض، لذا يبقى ثمة احتمال في أن تكون دعوة القرآن وقضية المعاد حقيقة موجودة، عندها عليكم أن تتصوروا المصير الأسود الموحش الذي ينتظركم لعنادكم وضلالكم ومعارضتكم الشديدة إزاء الدين الإلهي.

إنه نفس الأسلوب الذي نقرأ عنه في محاجة أئمة المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد، كما نرى ذلك واضحاً في الحادثة التي ينقلها العلامة الكليني في «الكافي» حيث يذكر فيه الحوار الذي دار بين الإمام الصادق عليه السلام وابن أبي العوجاء.

فمن المعروف أن «عبد الكريم بن أبي العوجاء» كان من ملاحدة عصره ودهريها، وقد حضر الموسم (الحج) أكثر من مرة والتقى مع الإمام الصادق في مجالس حوار، انتهت إلى رجوع بعض أصحابه عنه إلى الإسلام، ولكن ابن أبي العوجاء لم يسلم، وقد صرح الإمام (ع) بأن سبب ذلك هو أنه أعمى ولذلك لا يسلم.

والحادثة موضع الشاهد هنا، هي أن الإمام بصر بابن أبي العوجاء في الموسم فقال له: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟
فاجاب ابن أبي العوجاء: عادة الجسد، وسنة البلد، ولتنظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة!

فقال له الإمام: أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم ^(١).
وعندما أراد أن يبدأ بالمناقشة والجدال قال له الإمام عليه السلام: لا جدال في الحج.

١- بناديه الإمام بهذا الاسم، وهو اسمه الحقيقي مع كونه منكراً له لكي يشعره مهانة ما هو عليه وهذا اسمه.

ثم قال له: إن يكن الأمر كما تقول، وليس كما نقول، نجونا ونجوت. وإن يكن الأمر كما نقول، وهو كما نقول نجونا وهلكت.

فأقبل عبد الكريم على من معه وقال: وجدت في قلبي حزازة (ألم) فردوني، فردوه فمات^(١).



مسألة :

يثار هنا السؤال الآتي: لقد قرأنا في الآيات التي نبهتها قوله تعالى: «إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فذُو دَعَاءٍ عَرِيضٍ» ولكننا نقرأ في سورة «الإسراء» قوله تعالى: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُؤُوسًا»^(٢)

والسؤال هنا كيف نوفق بين الآيتين، إذ المعروف أن الدعاء دليل الأمل، في حين تتحدث الآية الأخرى عن يأس أمثال هؤلاء؟

أجاب بعض المفسرين على هذا السؤال بتقسيم الناس إلى مجموعتين، مجموعة تياس نهائياً عندما تصاب بالشر والبلاء، وأخرى تصر على الدعاء برغم ما بها من فزع وجزع^(٣).

البعض الآخر قال: إن اليأس يكون من تأمل الخير أو دفع الشر عن طريق الأسباب المادية العادية، وهذا لا يتنافى أن يلجأ الإنسان إلى الله بالدعاء^(٤). ويحتمل أن تكون الإجابة من خلال القول بأن المقصود من «ذو دعاء

١- الكافي، المجلد الأول، ص ٧٧-٧٨. كتاب التوحيد باب حدوث العالم.

٢- الإسراء، الآية ٨٣

٣- تفسير روح البیان، المجلد الثامن، صفحة ٢٨٠.

٤- تفسير العيزان، مجلد ١٧، ص ٤٢٨. لكن هذا التفسير لا يناسب المقام كثيراً، خاصة وإن الآيات أعلاه هي بصدد ذم مثل هؤلاء الأشخاص، في حين أن قطع الأمل من الأسباب الظاهرية والتوجه نحو الله ليس عيباً وحسب، بل يستحق التشويه والمدح.

عريض، هو ليس الطلب من الله، بل الجزع والفرع الكثير، ودليل ذلك قوله تعالى في الآية (٢٠) من سورة المعارج: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً».

أو أن الآيتين تعبران عن حالتين، إذ أن هؤلاء الأفراد يقومون أولاً بالدعاء وطلب الخير من النبي ﷺ وهم فزعون جزعون، ثم لا تتمر فترة قصيرة إلا ويصابون باليأس الذي يستوعب وجودهم كله.



الآيتان

سَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٧﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٨﴾

التفسير

علائم الحق في العالم الكبير والصغير:

الآيتان الختاميتان في هذه السورة تشيران إلى موضوعين مهمين، وهما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الأولى تتحدث عن التوحيد (أو القرآن)، والثانية عن المعاد.

يقول تعالى: «سريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق». «آيات الأفاق» تشمل خلق الشمس والقمر والنجوم والنظام الدقيق الذي يحكمها، وخلق أنواع الأحياء والنباتات والجمال والبحار وما فيها من عجائب وأسرار لا تعد ولا تحصى، وما في عالم الأحياء من عجائب لا تنتهي، إن كل هذه الآيات هي دليل على التوحيد وعلى وجود الله.

أما «الآيات النفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، والنظام المحير الذي

يتحكم بالمخ وحركات القلب المنتظمة والشرايين والعظام والخلايا، وانعقاد النطفة ونمو الجنين في ظلمات الرحم. ثم أسرار الروح العجيبة. إن كل ذلك هي كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

صحيح أن هذه الآيات قد طرقت سابقاً بمقدار كافٍ من قبل الله تعالى، إلا أن هذه العملية والإراءة مستمرة، لأن (سريهم) فعل مضارع يدل على الإستمرار، وإذا عاش الإنسان مئات الآلاف من السنين، فسوف تتكشف له في كل زمان علامات وآيات إلهية جديدة، لأن أسرار العالم لا تنتهي.

إن كافة كتب وبحوث العلوم الطبيعية وما يتصل بمعرفة الإنسان في أبعاده المختلفة (التشريح، فسلجة الأعضاء، علم النفس، والتحليل النفسي) وكذلك العلوم التي تختص بمعرفة النباتات والحيوانات والهيئة والطبيعة وغير ذلك، تعتبر في الواقع كتباً وبحوثاً في التوحيد ومعرفة الخالق (جلّ وعلا) لأنها عادةً ما ترفع الحجب عن الأسرار العجيبة لتبين قدراً من حكمة الخالق العظيم، وقدرته الأزلية، وعلمه الذي أحاط بكل شيء.

أحياناً يستحوذ علم واحد من هذه العلوم، بل فرع من فروع المتعددة على اهتمام عالم من العلماء فيصرف عمره في سبيله، وفي النهاية يقرّر قائلاً: مع الأسف لا زلت لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وما علمته لحد الآن تجعلني أغوص أكثر في أعماق جهلي،

نعود الآن إلى الآية التي تنتهي بجملة ذات مغزى حيث يقول تعالى: «وأولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد»^(١).

وهل هناك شهادة أفضل وأعظم من هذه التي كتبت بخط القدرة التكوينية على ناصية جميع الكائنات، على أوراق الشجر، في الأوراد والزهور، وبين

١ - ذهب الكثير من المفسرين إلى أن «الباء» زائدة و«ربك» توم مقام الفاعل. وجملة «أنه على كل شيء شهيد» بدل ذلك. والمعنى يكون هكذا: «أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد».

طبقات المخ العجيبة، وعلى الأغشية الرقيقة للعين، وفي آفاق السماء وبواطن الأرض، وفي كل شيء من الوجود تجد أثراً يدل على الخالق، وشهادة تكوينية على وحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه (سبحانه وتعالى).

إن ما قلناه أعلاه هو أحد التفسيرين المعروفين للآية، إذ بناءً على هذا التفسير فإن الآية بجميعها تتحدث عن قضية التوحيد، وتجلي آيات الحق في الآفاق والأنفس.

أما التفسير الثاني فيذهب إلى قضية إعجاز القرآن، وخلاصته أن الله يريد أن يقول: لقد عرضنا معجزاتنا ودلائلنا المختلفة لآفي جزيرة العرب وحسب، وإنما في نواحي العالم المختلفة، وفي هؤلاء المشركين أنفسهم، حتى يعلموا بأن هذا القرآن على حق.

فمن آيات الآفاق ما تمثل بانتصار الإسلام في ميادين الحرب المختلفة، وفي ميدان المواجهة الفكرية والمنطقية، ثم انتصاره في المناطق التي فتحها وحكم فيها على أفكار الناس.

ثم إن نفس المجموعة من المسلمين التي كانت في مكة، كيف يشر الله لها أمرها بالهجرة، ثم انطلقت إلى بقاع الدنيا، لتدين لدينها الشعوب في مناطق واسعة من العالم ورفع راية الإسلام.

ومن آيات الأنفس ما تمثل في انتصار المسلمين على مشركي مكة في معركة بدر، وفي يوم فتح مكة، ونفوذ نور الإسلام إلى قلوب العديد منهم.

إن هذه الآيات الآفاقية والأنفسية اثبتت أن القرآن على حق. وهكذا فإن الخالق العظيم الذي يشهد على كل شيء، شهد أيضاً على حقانية القرآن عن هذا الطريق.

وبالرغم من أن لكل واحد من هذين التفسيرين قرائن وأدلة ترجحه، إلا أن

التأمل في نهاية الآية والآية التي تليها يكشف عن رجاحة التفسير الأول^(١).

وثمة أقوال أخرى في تفسير الآية تركناها لعدم جدواها.

الآية الأخيرة في السورة تشير إلى الأساس والسبب في شقاء هذه المجموعة

المشركة الفاسدة، إذ يقول تعالى عنهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾.

ولأنهم لا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، فهم يقومون بأنواع الجرائم

والمعاصي مهما كانت، ومهما بلغت. إنَّ حجب الغفلة والغرور تهيم على هؤلاء

فتنتسيهم لقاء الله، ممَّا يؤدي بهم إلى السقوط عن مصاف الإنسانية.

ولكنهم يجب أن يعلموا: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

إنَّ جميع أعمالهم ونواياهم حاضرة في علم الله، وكل ذلك يسجَّل لمحكمة

القيامة والحشر.

«مريّة» على وزن «جزية» و«قرية» تعني التردُّد في اتخاذ القرار، والبعض

اعتبرها بمعنى الشك والشبهة العظيمة، والكلمة مأخوذة في الأصل من «مريت

الناقة» بمعنى عصر ثدي الناقة بعد حلبها أملاً بوجود بقايا الحليب فيه، ولأنَّ هذا

العمل مع الشك والتردُّد، فقد وردت هذه الكلمة بهذا المعنى.

وعندما نسمع إطلاق كلمة «المراء» على «المجادلة» فذلك لما يحاوله

١ - التفسير الأول له أربعة مرجحات هي:

أولاً: إنَّ أكثر ما تؤكد عليه الآيات هو قضية التوحيد وأدنته.

ثانياً: إنَّ تعبيري «أفاق وأنفس» أكثر تناسباً مع آيات التوحيد.

ثالثاً: تشير نهاية الآية في قوله تعالى: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ إلى قضية التوحيد، وشهادة الله التكوينية على حقانية ذاته المنزهة.

رابعاً: الآية التي تليها تتحدث عن العناد، ونحن نعرف أنَّ العبد والمعاد غالباً ما يقترن أحدهما بالآخر.

أما التفسير الأول فله ثلاثة مرجحات هي:

أولاً: إنَّ ضمير «إنه» مفرد للثائب، في حين أنَّ ضمير «آياتنا» مُتَكَلِّم مع الغير، وهذه إشارة إلى أنَّ كلَّ ضمير من الضميرين يخص بمتابعة موضوع خاص.

ثانياً: إنَّ الآية السابقة كانت حول القرآن بالخصوص.

ثالثاً: إنَّ جملة «سنريهم» التي هي فعل مضارع للإستمرار، تفيد هذا المعنى بالذات، أي أنَّ الآيات المذكورة سنرضها فيما بعد.

الإنسان من إخراج ما في ذهن الطرف الآخر.

والآية - في هذا الجزء منها - رد على شبهات الكفار بخصوص المعاد، فهؤلاء يقولون: كيف يمكن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ينفصل؟ ومن يستطيع أن يجمع أجزاء الإنسان؟ والأكثر من ذلك: من الذي يحيط بنيات الناس وأعمالهم على مدى تاريخ البشرية؟

القرآن يجيب على كل ذلك بالقول: كيف يُمكن للخالق المحيطة بكل شيء أن لا تكون هذه الأمور طوع قدرته وواضحة بالنسبة له؟

ثم إن دليل إحاطة علمه بكل شيء، هو تدبيره لكل هذه الأمور، فكيف يجوز له أن لا يعلم بأمور ما خلق ودبر؟

بعض المفسرين اعتبر أن الآية تختص بالتوحيد وليس بالمعاد، حيث يقول العلامة الطباطبائي في ذلك: «الذي يفيد السياق أن في الآية تشبيهاً على أنهم لا ينتفعون بالإحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيداً على كل شيء، وهو أقوى براهين التوحيد وأوضحها لمن تعقل، لأنهم في مرية وشك من لقاء ربهم، وهو تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه»^(١).

ولكن هذا التفسير مُستبعد نظراً لأنّ تعبير «لقاء الله» عادةً ما يأتي للكناية على يوم القيامة.

* * *

بحوث

أولاً: التوحيد بين دليل «النظم» ودليل «الصدّيقين»

أشار الفلاسفة في بحوثهم حول التوحيد إلى الأهمية الكبيرة لنوعين من الإستدلال على الخالق جلّ وعلا: أحدهما الإستدلال من خلال «النظم».

والآخر دليل «الصدّيقين».

ودليل «النظم» كما يظهر من اسمه، يبدأ من نظام عالم الوجود وأسراره ودقائقه، ليرشد إلى مصدر العلم والقدرة والخلق الذي أوجد ذلك ودبره، والقرآن الكريم مليء بهذا النوع من الإستدلال، فهو يذكر نماذج كثيرة عن آيات الله في السماء والأرض وفي مظاهر الحياة ونظمها وما يمور فيها من كائنات، وينتهي من هذا الطريق إلى إثبات وجود الصانع المدبّر (جلّ وعلا).

إنّ كلّ شخص يستطيع استيعاب هذا النوع من الإستدلال مهما كان مستواه وعلى قدر ما يجمل من علم وإدراك، إذ يستفيد منه أكبر العلماء على قدر استعداده وثقافته استيعابه، في نفس الوقت الذي يستفيد منه الأُمّي وغير المتعلّم وغير المطلع على فنون العلوم والمعرفة.

أمّا دليل «الصدّيقين» فهو نوع من الإستدلال يقوم بالوصول إلى (الذات) بواسطة (الذات) نفسها، ومثل هؤلاء يعرفونه تعالى من خلال وجوب وجوده. بعبارة أخرى: إنّ الممكنات والمخلوقات لا تكون هنا واسطة لإثبات وجوده، بل إنّ ذاته بنفسه تدل على ذاته، ويكون تعالى مصداقاً لـ «يا من دلّ على ذاته بذاته»^(١) ومصداقاً أيضاً لـ «شهد الله أنّه لا إله إلا هو»^(٢).

إنّ هذا الإستدلال استدلال فلسفي معقد بحيث لا يستطيع أن يحيط بكنهه وبأعماقه إلّا من يحيط بمبادئه، وليس من قصدنا هنا تبسيط الدليل فذلك شأن الكتب الفلسفية، وإنّما أردنا من خلال هذا العرض أن نقف على آراء بعض المفسّرين من الذين يعتقدون بأنّ مطلع الآية في قوله تعالى: «سرميم آياتنا في الآفاق» يتضمّن إشارة إلى دليل «النظم» والعلّة والمعلول. بينما اعتبروا نهاية الآية في قوله تعالى: «أو لم يكفّ بربك أنّه على كلّ شيء شهيد» إشارة إلى دليل

١- هذا المنقطع من دعاء الصباح المنقول عن أمير المؤمنين (عليه السلام).

٢- آل عمران، الآية ١٨.

«الصدّيقين».

ولكن ليس ثمة قرائن واضحة من نفس الآية تؤيد فكرة هذا الإستنتاج!

ثانياً: حقيقة إحاطة الله بكل شيء

يجب أن لا نتصور - مطلقاً - أن إحاطة الخالق جلّ وعلا بالموجودات والكائنات تشبه إحاطة الهواء الذي يلف الكرة الأرضية ويغلفها، لأنّ مثل هذه الإحاطة هي دليل المحدودية، بل الإحاطة المعنية هنا تتضمن معنى دقيقاً ولطيفاً يتمثل في ارتباط كلّ الكائنات والموجودات بالذات المقدسة.

وبعبارة أخرى: لا يوجد في عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، وبقية الموجودات والكائنات تعتمد عليه وترتبط به، بحيث لو زال هذا الإرتباط لحظة واحدة فلا يبقى شيء منها.

إنّ هذه الإحاطة تتلمّس كنهها وحقيقتها في الكلمات الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: «مع كلّ شيء لا بمقارنه، وغير كلّ شيء لا بمزايله».

وقد نلمح هذا المعنى بعينه فيما ذكره الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفه ذي المحتوى العميق، إذ يقول فيه: «أبكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»^(١).

ثالثاً: آيات الأفاق والأنفس

لو أتيح للإنسان أن ينكر كلّ ما يستطيع، فهو لا يستطيع أن ينكر وجود نظام دقيق قائم يعم بنسقه عالم الوجود، فأحياناً يقضي عالم معين كلّ عمره بالدرس

١ - منقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفه، وهو ممثلاً تذخراً به كتب الأدعية.

والمطالعة حول تركيب العين وأسرارها أو المخ أو القلب، ويقرأ الكتب الكثيرة ممّا كتب حول الموضوع، إلاّ أنّه أخيراً يعترف بأنّ هناك أسراراً كثيرة حول موضوعه لا تزال مجهولة.

وهنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ علوم علماء اليوم، ليست هي سوى نتيجة متراكمة لجهود ودراسات آلاف العلماء عبر تاريخ البشر. إنّ العالم اليوم ينطق في كلّ جزء من أجزائه بوجود قدرة أزلية تكمن وراءه، فكل شيء يدل على الصانع لمُدبّر، وأي نبات ينبت على الأرض يهتف «وحده لا شريك له».

نستطيع هنا أن نترك الحديث عن القضايا العلمية المعقدة، ونتجه إلى ظواهر عادية ممّا ينتشر حولنا، لتلمّس فيها أدلة واضحة على إثبات الصانع العظيم. ولا بأس هنا من ذكر هذين المثالين:

المثال الأول: الجميع يعرف أنّ هناك تقوّس في أخص قدم كلّ إنسان بحيث لا يبدو الأمر ملفتاً للنظر مطلقاً، ولكننا نسمع في معاملات الفحص الطبي الخاص بأداء الخدمة العسكرية، أنّ الشاب الذي يفتقد مثل هذا التقوّس يعنى من الخدمة العسكرية أو يحال إلى الأعمال المكتبية الإدارية.

إنّ الإنسان الذي يفتقد مثل هذا التقوّس يتعب بسرعة، ولا يملك الإستعداد الكافي لأداء الخدمة العسكرية التي تستدعي المشي الطويل.

وهكذا كلّ شيء في هذا العالم وفي وجود الإنسان مخلوق بدقّة ونظم، حتى التقوّس البسيط في أخص قدم الإنسان!

المثال الثاني: في داخل فم الإنسان وعينه منابع فوّارة منتظمة ودقيقة الإفراز، يخرج من فتحتها الصغيرة على مدى حياة الإنسان سائلان مختلفان تماماً، لولاها لما استطاع الإنسان أن يكون قادراً على الرؤية أو التحدّث أو مضغ الطعام وبلعه.

بعبارة أخرى: إن الحياة مستحيلة بدون هذين السائلين العاديين ظاهراً! فبدون أن يكون سطح العين رطباً بشكلٍ دائم يستحيل دوران الحدقة التي ستصاب بالآلام كثيرة والأذى بمجرد ملامستها لأجسام صغيرة، بل ستمنعها هذه الأجسام عن الحركة.

كذلك إذا لم يكن فم الإنسان وبلعومه رطباً، فإن الكلام يصبح أمراً مستحيلًا بالنسبة له، وكذلك مضغ الطعام وبلعه. بل وحتى التنفس إذا كان الفم جافاً. وكذلك ينبغي أن تكون التجاويف الأنفية رطبة دائماً حتى يسهل دخول الهواء ومروره باستمرار.

والدقيق هنا أن ماء العين ينزل عبر قنوات خاصة من العين إلى الأنف للمحافظة على رطوبته، وإذا قدر لهذا المجرى أن يعلق ليوم واحداً فقط - كما نشاهد ذلك في حال بعض المرضى - فإن الدموع ستسيل على الوجه بشكل دائم وسيكون لها منظر مزعج مؤذ.

ونفس الكلام يقال بالنسبة للغدد اللعابية في الفم، فقلة إفرازاتها تزيد من جفاف اللسان والفم والبلعوم، وكثرته تعوق التحدث وتجعل اللعاب يسيل من الفم إلى الخارج.

ثم إن المذاق الملحي للغدد الدمعية يؤدي إلى حفظ أنسجة العين ضد الأجسام الغريبة بمجرد دخولها إلى العين.

بينما يفتقد اللعاب لأي طعم، كي يستطيع الإنسان أن يشعر بالمذاق الخاص للأطعمة، بينما تساعد الأملاح الموجودة فيه على هضم الطعام.

وإذا تدبرنا في طبيعة التكوين الكيماوي والفيزيائي لسوائل هذه الغدد وأنظمتها الدقيقة ومنافعها، نتبين عندها أن وجودها لا يمكن أن يكون مجرد صدفة عمياء لا تعقل ولا تعي، بل هي من آيات الله الأنفسية ومصداق لقوله الحق جلّ وعلا: ﴿سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

وفي إشارة عابرة لكنها كبيرة الدلالة والمعنى، يتحدث الإمام الصادق في الحديث المعروف بتوحيد المفضل، الذي هو غني جداً في الإشارة إلى الآيات الآفاقية والأنفسية لله في الوجود، يقول عليه السلام: «أي مفضل! تأمل الريق وما فيه من المنفعة، فإنه جعل يجري جرياناً دائماً إلى الفم، ليبل الحلق واللهاوت فلا يجف، فإن هذه المواضع لو جعلت كذلك كان فيه هلاك الإنسان، ثم كان لا يستطيع أن يسيغ طعاماً إذا لم يكن في الفم بلة تنفذه، تشهد بذلك المشاهدة»^(١).

فإذا تجاوزنا جسم الإنسان فإنّ روحه بؤرة للمعائب بحيث حيّرت جميع العلماء. وثمة آلاف الآلاف من هذه الآيات البيّنات التي تشهد جميعاً «أنه الحق». وهنا يلتقي صوتنا - بدون إرادة متنا - مع صوت الحسين عليه السلام، ونقول: «عميت عين لا تراك»!!

نهاية سورة فصلت



سُورَةٌ

الشُّورَىٰ

مَكِّيَّةٌ

وَعَدَدُ آيَاتِهَا ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ آيَةً

«سورة الشورى»

نظرة عامة في محتوى السورة:

إن إطلاق اسم «الشورى» على هذه السورة المباركة يعود إلى محتوى الآية (٣٨) منها والتي تدعو المسلمين إلى المشورة في أمورهم.

ولكن بالإضافة إلى هذا الموضوع، وإلى ما تتضمنه السورة من بحوث ومضامين السور المكية من بحث في المبدأ والمعاد، والقرآن والنبوة، فإنها تتناول قضايا أخرى يمكن الإشارة إليها مختصراً بما يلي من نقاط:

القسم الأول: وهو أهم أقسام السورة، يشتمل البحث فيه على قضية الوحي الذي يمثل طريق ارتباط الأنبياء ﷺ بالله تبارك وتعالى.

والملاحظ أن هذا الموضوع يلقي بظلاله على جميع أجزاء السورة، فالسورة تبدأ بالإشارة إليه وتنتهي به أيضاً.

وكامتداد لهذا الموضوع تثير السورة بحوثاً حول القرآن ونبوة نبي الإسلام وبداية الرسالة منذ أيام نبي الله نوح ﷺ.

القسم الثاني: إشارات عميقة المعنى إلى دلائل التوحيد، وآيات الله في الآفاق والأنفس التي تكمل البحث في موضوع الوحي.

وفي هذا القسم ثمة بحوث حول توحيد الربوبية.

القسم الثالث: في السورة إشارات إلى قضية المعاد ومصير الكفار في القيامة.

وهو محدود قياساً إلى الأقسام الأخرى.

القسم الرابع: تشتمل السورة على مجموعة من البحوث الأخلاقية التي تعكسها السورة بشكل خاص ودقيق. فهي تدعو أحياناً إلى ملكات خاصة مثل الإستقامة والتوبة والعتق والصبر وإطفاء نار الغضب.

وتتهى في المقابل عن الرذيلة، والطغيان في مقابل النعم الإلهية، أو العناد وعبادة الدنيا، وكذلك تهى عن الفزع والجزع عند ظهور المشاكل.

إنَّ السورة تنطوي على مجموعة متكاملة من دروس الهدى هي في الواقع شفاء للصدور ومسالك نور في طريق الحق.

فضيلة تلاوة السورة:

جاء في حديث عن رسول الله ﷺ قوله: «من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة، ويستغفرون له ويترحمون عليه»^(١).

وفي حديث آخر عن الصادق نقراً قوله ﷺ «من قرأ حم عسق بعثه الله يسوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيقول: عبدي أدمنت قراءة حم عسق ولم تدر ما ثوابها، أمأ لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة».

وعندما يدخل الجنة يرفل بأنواع النعم الإلهية التي ذكرها الإمام الصادق في الحديث الآنف بشكل مفصل^(٢).



١- مجمع البيان، المجلد ٩ - ١٠، ص ٣٦، طبعة دار المعرفة.

٢- نواب الأعمال، تقرأ عن تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، صفحة ٥٥٦.

الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ① عَسَقَ ② كَذَلِكَ يُوجِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ
 وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ
 أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤

التفسير

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ!

مرة أخرى تواجهنا الحروف المقطعة في مطلع السورة، وهي هنا تنعكس بشكل مفصل، إذ بين أيدينا خمسة حروف.

«حم» موجودة في بداية سبع سور قرآنية (المؤمن، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف) ولكن في سورة الشورى أضيف إليها مقطع «عسق».

وقد ذكرنا مراراً أن للمفسرين آراءً وبحوثاً كثيرة حول هذه الحروف، يجعلها صاحب مجمع البيان العلامة الطبرسي في أحد عشر قولاً، وقد ذكرنا أهم

تلك الأقوال في مطلع الحديث عن سور: البقرة، آل عمران، والأعراف، ومريم، وغضضنا الطرف عن غير المهم منها.

ونذكر الآن بعضاً لا بأس به من هذه الأقوال بالرغم من عدم قيام دليل قاطع على صحتها.

فمنها قولهم أن هذه الحروف جاءت كأسلوب للفت أنظار الناس إلى القرآن، لأنّ المشركين والمعاندين كانوا قد تواصلوا فيما بينهم على عدم استماع آيات الله، خاصة عندما كان رسول الله يقرؤها عليهم، إذ كانوا يشيرون الضوضاء، لذلك جاءت الحروف المقطعة (في ٢٩ سورة قرآنية) لتكون أسلوباً جديداً في جلب الانتباه.

وقد ذكر العلامة الطباطبائي احتمالاً آخر يمكن أن نضيفه إلى ما استخلصه العلامة الطبرسي من الأقوال الأحد عشر ليكون المجموع اثنا عشر تفسيراً. وما ذكره العلامة الطباطبائي وإن كان مثله مثل غيره من الأقوال ممّا لم يقيم الدليل القاطع عليه، إلا أنه من المفيد أن نستعرضه بإيجاز.

يقول العلامة الطباطبائي: «إنك إن تدبرت بعض التدبّر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتوح بها مثل الميمات والراءات والطواسين والحواميم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين، وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور».

«ويؤكد ذلك ما في مفتوح أغلبها من تقارب الألفاظ، كما في مفتوح الحواميم من قوله: «تنزيل الكتاب من الله» أو ما هو في معناه، وما في مفتوح الراءات من قوله: «تلك آيات الكتاب» أو ما في معناه، ونظير ذلك في مفتوح الطواسين، وما في مفتوح الميمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه».

«ويمكن أن يحسد من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتوحة بها ارتباطاً خاصاً، ويؤيد ذلك ما نجده في سورة الأعراف

المصدرة بـ «المص» في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات و ص [أي ما افتتح بـ «الم» و «ص»] وكذا سورة الرعد المصدرة بـ «الم» في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات والراءات».

«ولعل المتدبر لو تدبر في مشتركات هذه الحروف، وقايس مضامين السور التي وقعت فيها بعضها إلى بعض، لتبين له الأمر أزيد من ذلك»^(١).

وثمة تفسير آخر أشرنا إليه سابقاً، وهو احتمال أن تكون هذه الحروف إشارات ورموزاً لأسماء الخالق ونعمه وقضايا أخرى.

مثلاً، في السورة التي نبحثها اعتبروا الحاء إشارة إلى الرحمن، والميم إلى المجيد، والعين إلى العليم، والسين إلى القدوس، والقاف إلى القاهر^(٢).

يعترض البعض على هذا الكلام بقولهم: لو كان المقصود من الحروف المقطعة أن لا يعلم بها الآخرون فإن ذلك غير صحيح، لأن هناك آيات أخرى تصرح بأسماء الله، ولكن يجب الانتباه إلى أن الرموز والإشارات لا تعني دائماً أن يبقى الموضوع أو المعنى سرياً، بل قد تكون أحياناً علامة للإختصار، وهذا الأمر كان موجوداً سابقاً، وهو مشهور في عصرنا الراهن، بحيث أن أسماء العديد من المؤسسات والمنظمات الكبيرة، تكون على شكل مجموعة مختصرة من الحروف المقطعة التي يرمز كل منها إلى جزء من الاسم الأصيل.

بعد الحروف المقطعة تتحدث الآية الكريمة عن الوحي، فتقول: «كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم».

«كذلك» إشارة إلى محتوى السورة ومضامينها.

ومصدر الوحي واحد، وهو علم الله وقدرته، ومحتوى الوحي في الأصول والخطوط العريضة واحد أيضاً بالنسبة لجميع الأنبياء والرسالات، بالرغم من أن

١- الميزان، للعلامة محمد حسين الطباطبائي، المجلد ١٨، صفحة ٨ - ٩.

٢- يستفاد هذا التفسير عن حديث للإمام الصادق عليه السلام. تراجع تفسير القرطبي، المجلد ٩، صفحة ٥٨٢٢.

هناك خصوصيات بين دعوة نبي وآخر بحسب حاجة الزمان والمسيرة التكاملية للبشر^(١).

وضروري أن نشير إلى أن الآيات التي نبحتها أشارت إلى سبع صفات من صفات الله الكمالية، لكل منها دور في قضية الوحي بشكل معين، ومن ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما في هذه الآية: «العزیز الحكيم».

فجزته تعالی وقدرته المطلقة تقتضي سيطرته على الوحي ومحتواه العظيم. وحكمته تستوجب أن يكون الوحي الإلهي حكيماً متناسقاً مع حاجات الإنسان التكاملية في جميع الأمور والشؤون.

وتعبير «يوحى» دليل على استمرار الوحي منذ خلق الله آدم ﷺ حتى عصر النبي الخاتم ﷺ لأن الفعل المضارع يفيد الإستمرار.

قوله تعالی: «له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم». إن مالكيته تعالی لما في السماء والأرض تستوجب ألا يكون غريباً عن مخلوقاته وما يؤول إليه مصيرها، بل يقوم بتدبير أمورها وحاجاتها عن طريق الوحي، وهذه هي الصفة الثالثة من الصفات السبع.

أما «العليّ» و«العظيم» اللذان هما رابع وخامس صفة له (سبحانه وتعالى) في هذه الآيات، فهما يشيران إلى عدم حاجته لأي طاعة أو عبودية من عباده، وإنما قام تعالی بتدبير أمر العباد عن طريق الوحي من أجل أن ينعم على عباده. الآية التي بعدها تضيف: «تكاد السموات يتفطرن من فوقهن»^(٢) وذلك بسبب نزول الوحي من قبل الله، أو بسبب التهم الباطلة التي كان المشركون والكفار ينسبونها إلى الذات المقدسة ويشركون الأصنام في عبادته.

١- بالرغم من الكلام الكثير للمفسرين حول المشار إليه في اسم الإشارة «كذلك» لكن يظهر أن المشار إليه هو نفس هذه الآيات لتنازله على النبي الأكرم ﷺ لذا يكون مفهوم الآية: إن الوحي هو بهذا الشكل الذي أنزله الله عليك وعلى الأنبياء السابقين، وقد استخدم اسم الإشارة للبعد بالرغم من قرب المشار إليه، وذلك للتعظيم والإحترام.

٢- «يفطرن» من كلمة «فطر» على وزن «سطر» وتعني في الأصل الشق الطولي.

ويَتَضَحُّ مِمَّا سَلَفَ أَنْ لِلجَمَلَةِ مَعْنِيَيْنِ:

الأوّل: أنّها تختص بموضوع الوحي الذي هو حديث الآيات السابقة، وهو في الواقع يشبه ما جاء في الآية (٢١) من سورة «الحشر» في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

إنّه كلام الله الذي يزلزل السماوات عند نزوله وتكاد تتلاشى، فلو أنه نزل على الجبال لتصدّعت، لأنّه كلام عظيم من خالقٍ حكيم. والويل لقلب الإنسان، فهو الوحيد الذي لا يلين ولا يستسلم، ويصر على عناده وتكبره.

التفسير الثاني: أنّ السماوات تكاد تتفطّر وتتلاشى بسبب شرك المشركين وعبادتهم للأصنام من دون الله، بل هم يساوون بين أدنى الكائنات والموجودات وبين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ وعلا.

التفسير الأوّل يناسب الآيات التي نبحثها والتي تنصب حول الوحي والتفسير الثاني يناسب ما نقرؤه في الآيتين (٩٠، ٩١) من سورة «مريم» حيث يقول تعالى بعد أن يذكر قول الكفار - وقبح قولهم - باتخاذهم ولدًا (١١): ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾. ومن الواضح أن ليس ثمة تعارض بين التفسيرين.

أما عن كيفية انفطار السماوات وانهدام الجبال وهي موجودات جامدة، فقد ذكرنا كلاماً وأقوالاً متعدّدة في الموضوع تعرضنا لها في نهاية حديثنا عن الآيتين المذكورتين من سورة مريم.

وإذا أردنا أن نقف على استخلاص عام لما قلناه هناك، فيمكن أن نلاحظ أنّ مجموعة عالم الوجود من جماد ونبات وغير ذلك لها نوع من العقل والشعور، بالرغم من عدم إدراكنا له، وهم على هذا الأساس يسبحون الله ويحمدونه، ويخضعون له ويخشعون لكلامه.

أو أن يكون التعبير كناية عن عظمة وأهمية الموضوع، مثلما نقول مثلاً: إنَّ الحادثة الفلانية كانت عظيمة جداً وكأنَّما انطبقت معها السماء على الأرض.
بقية الآية، قوله تعالى: ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾.

أما الرابطة بين هذا الجزء من الآية والجزء الذي سبقه، فهو - وفقاً للتفسير الأوَّل - أنَّ الملائكة الذين هم حملة الوحي العظيم وواسطته، يسبحون ويحمدون الله دائماً، يمدونه بجميع الكمالات، وينزهونه عن جميع النواقص، وعندما ينحرف المؤمنون أحياناً، تقوم الملائكة بنصرهم ويطلبون المغفرة لهم من الله تعالى.

أما وفق التفسير الثاني، فإنَّ تسبيح الملائكة وحمدهم إنّما يكون لتنزيهه تعالى عنا ينسب إليه من شرك، وهم يستغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا وسلكوا طريق التوحيد ورجعوا إلى بارئهم جلَّ جلاله.
وعندما تستغفر الملائكة لمثل هذا الذنب العظيم لدى المؤمنين، فهي حتماً - ومن باب أولى - تستغفر لجميع ما لهم من ذنوب أخرى. وقد يكون الإطلاق في الآية لهذا السبب بالذات.

نقرأ نظيراً لهذه البشريَّة العظيمة في الآية (٧) من سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كلَّ شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾.

وأخيراً تشير نهاية الآية الكريمة إلى سادس وسابع صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وتنصب حول الغفران والرحمة، وتتصل بقضية الوحي ومحتواه، وبخصوص وظائف المؤمنين، حيث يقول تعالى: ﴿ألا إنَّ الله هو الغفور الرحيم﴾. وبهذا الترتيب أتمَّت الآيات الكريمات الإشارة إلى مجموعة متكاملة من

الأسماء الحسنى المختصة بالله تعالى والمرتبطة بالوحي.
وفي نهاية الآية ثمّة إشارة لطيفة إلى استجابة دعاء الملائكة بخصوص
استغفارهم للمؤمنين، بل أنه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور ممّا يدل على
عظيم فضله.

أما عن مسألة الوحي فسيكون لنا كلام مفصل في نهاية هذه السورة إن شاء الله
عندما نتحدّث عن الآيتين (٥٢، ٥١).

هل تستغفر الملائكة للجميع؟

قد يطرح السؤال الآتي حول قوله تعالى: «ويستغفرون لمن في الأرض»
وهو: الآية تفيد استغفار الملائكة لمطلق أهل الأرض سواء المؤمن منهم أو الكافر،
فهل يمكن ذلك؟

لقد أجابت الآية (٧) من سورة المؤمن على هذا السؤال من خلال قوله
تعالى: «يستغفرون للذين آمنوا».

وبناء على هذا فإن شرط الإستغفار هو الإيمان، إضافة إلى كونهم معصومين،
وهم بذلك لا يطلبون المستحيل للذين يفتقدون إلى أرضية الغفران.



الآيات

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

التفسير

انطلاقة من «أم القرى»:

تحدثت الآيات السابقة عن قضية الشرك، لذلك فإن الآية الأولى في المجموعة الجديدة، تتناول بالبحث نتيجة عمل المشركين وعاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: «والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم». حتى يحاسبهم في الوقت المناسب، ويعاقبهم جزاء أعمالهم. ثم تخاطب الآية رسول الله ﷺ بقوله تعالى: «وما أنت عليهم بوكيل» إن مسؤوليتك هي تبليغ الرسالة وإيصال نداء الله التي جميع العباد.

وثُمَّ في كتاب الله آيات أخرى تشير إلى هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿ما أنت عليهم بجبار﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿ما على الرسول إلاّ البلاغ﴾^(٤).

إنّ هذه الآيات تبين حقيقة حرية العباد واختيارهم الطريق الذي يريدونه بإرادتهم وحريرتهم، لأنّ القيمة الحقيقية للإيمان والعمل الصالح تكمن في حرية الإختيار، وليس للإيمان أو العمل الإجباري أي قيمة معنوية.

يعود القرآن إلى قضية الوحي مرّةً أخرى، وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدّثت عن أصل الوحي، فإنّ الكلام هنا ينصب حول الهدف النهائي له، إذ يقول تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومن حولها و«أمّ القرى» هي مكّة المكرمة، ثمّ تنذر الناس من يوم القيامة وهو يوم الجمع الذي يجتمع فيه الناس للحساب والجزاء: ﴿وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه﴾.

وفي ذلك اليوم ينقسم الناس إلى مجموعتين: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾.

وقد يكون التعبير بـ«كذلك» إشارة إلى أنّه مثلما أوحينا إلى الأنبياء السابقين بلسانهم، فإنّنا كذلك أوحينا إليك بلسانك، هذا القرآن العربي.

وعليه تكون «كذلك» إشارة إلى: ﴿وإلى الذين من قبلك﴾.

ويمكن أن تكون إشارة إلى ما بعدها، يعني أنا أوحينا إليك بهذه الصورة

١- الفاشية، الآية ٢٢.

٢- سورة ق، الآية ٤٥.

٣- الأنعام، الآية ١٠٧.

٤- المائدة، الآية ٩٩.

قرآناً عربياً يهدف إلى الإنذار.

صحيح أننا نستفيد من نهاية الآية أي من قوله تعالى: «فريق في الجنة وفريق في السعير» أن مسؤولية النبي ﷺ هي التبشير والإنذار، ولكن بسبب ما للإنذار من تأثير أعمق في نفوس الأفراد المعاندين والجهلة، لذا فإن الآية استندت إلى «الإنذار» مرتين فقط، مع اختلاف بينهما، إذ أن الكلام شمل في المرحلة الأولى إنذار المستمعين، بينما شمل في الثانية تخويفهم من شيء يجب أن يخافوه، يعني القيامة وما فيها من حساب وفضيحة ستكون مؤلمة وصعبة للغاية، بسبب حضور الأشهاد والملائكة والناس^(١).

وقد يتساءل البعض هنا: إننا نستفيد من قوله تعالى: «لتنذر أم القرى ومن حولها» أن الهدف من نزول القرآن هو لإنذار أهل مكة وأطرافها. أفلا يتنافى هذا المعنى مع مفهوم عالمية الإسلام؟
الجواب على هذا الاستفهام يتم من خلال ملاحظة المعنى الذي تستبطنه «أم القرى».

إن كلمة «أم القرى» وهي أحد أسماء مكة المكرمة، مؤلفة من كلمتين هما: «أم» وتعني في الأصل الأساس والبداية في كل شيء، ولهذا السبب تسمى الأم بهذا الاسم لأنها أساس وأصل الأبناء.
ثم كلمة «قرى» جمع «قرية» بمعنى أي منطقة معمورة أو مدينة، سواء كانت المدينة كبيرة أم صغيرة، أو مجرد قرية.

وفي القرآن الكريم ثمة أدلة كثيرة على هذا المعنى.
والآن لنر لماذا سميت «مكة» بأم القرى؟

١ - ينهي الإتياء، إلى أن (تنذر) تمتد إلى مفعولين. وفي الآية مورد البحث ذكر مفعولها الأول في الجملة الأولى، والثاني في الجملة الثانية. وقد يصحب المفعول الثاني بـ «بإيه»: أنذره بذلك.

الروايات الإسلامية تصرّح بأن الأرض كانت في البداية مغطاة جميعها بالماء، ثم بدأت اليابسة تظهر بشكلٍ تدريجي من تحت هذه المياه. (تؤيد النظريات العلمية الآن هذا المعنى).

ثم تخبرنا الروايات بأن منطقة الكعبة كانت أول منطقة ظهرت من تحت الماء، ثم بدأت اليابسة بالإنساع من جوار الكعبة، ويعرف ذلك بدحو الأرض. وهكذا يتضح أن مكة هي أصل وأساس لجميع القرى والمدن على سطح الأرض، لذا فمتى قيل «أم القرى ومن حولها» فالمعنى سيشمل جميع الناس على سطح الكرة الأرضية^(١).

مضافاً إلى ذلك، نحن نعرف أن الإسلام بدأ بالانتشار تدريجياً، ففي البداية أمر النبي ﷺ بإنذار المقرّبين إليه، كما ورد في قوله تعالى: «وانذر عشيرتك الأقرين»^(٢) كي تقوى قاعدة الإسلام وتصلب نواته، ويكون أكثر قدرة واستعداداً للانتشار.

ثم جاءت المرحلة الثانية المتمثلة بإنذار العرب، كما ورد في قوله تعالى: «قرآناً عربياً لقوم يعلمون»^(٣).

وكذلك في قوله تعالى: «وانته لذكر لك ولقومك».

وعندما ترسخت أعمدة الإسلام بين هؤلاء القوم، وقوي عوده أمر رسول الله ﷺ بأوسع من ذلك، أن ينذر العالم والناس كافة، كما نقرأ في أول سورة الفرقان في قوله تعالى: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» وفي آيات أخرى.

١- جاء هذا التفسير في سورة الأنعام كذلك الآية (٩٢) وقد ذكرنا هناك توضيحاً أوسع، فليراجع.

٢- للشعراء، الآية ٢١٤.

٣- فصلت، الآية ٣، إن ما قلناه هو في حال اعتبارنا كلمة (عربي) بمعنى اللغة العربية، أما إذا فسرناها بالمعنى الفصح فسكون للآية مفهوم آخر.

ويسبب هذا التكليف قام رسول الله ﷺ بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم خارج الجزيرة العربية، ودعا كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم إلى الإسلام. ووفق هذه التعليمات قام أتباعه من بعده بالدعوة إلى الإسلام في مختلف بقاع العالم، ونشروا تعاليم الإسلام في جميع أرجاء المعمورة.

أما لماذا سمّي يوم القيامة بيوم الجمع؟ فهناك أقوال مختلفة منها:
بسبب ما يكون فيه من جمع بين الأرواح والأجساد.
أو بسبب الجمع بين الإنسان وعمله.
أو بسبب الجمع بين الظالم والمظلوم.

ولكن يظهر أنّ السبب يتمثل في الجمع بين الخلائق من الأولين والآخرين كما نقرأ ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾^(١).

وبما أن قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ يقسم الناس إلى فئتين، فإن الآية التي بعدها تضيف: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الهداية.

إلا أن الإيمان الإجباري ليست له قيمة، وكيف يمكن لمثل هذا الإيمان أن يكون معياراً للكمال الإنساني؟

إن التكامل الحقيقي هو أن يسير الإنسان بإرادته وبمنتهى الإختيار والحرية. إن الآيات القرآنية مليئة بأدلة حرية الإنسان، ومثل هذا الإختيار هو ما يميّز الإنسان عادة عن غيره من الكائنات الأخرى، وإذا سلبت منه إرادته واختياره فكأنما سلبت منه إنسانيته.

وكما أن سمة الحرية والإختيار طريق إلى التكامل، فهي أيضاً سنّة إلهية لا قبل التغيير.

ولكن العجيب أمر البعض الذين ما زالوا على عقيدة الجبر، وهم يدعون أتباعهم للأنبياء، في حين أن قبول الجبر يساوي في الواقع نفي مضمون دعوة جميع الأنبياء، فلا معنى للتكليف حينئذٍ، ولا للحساب والسؤال والجواب، ولا النصيحة والموعظة، وبشكل أولي الثواب والعقاب!
ومع عقيدة الجبر لا معنى لتردد الإنسان في أعماله، ولا معنى لندمه وعزيمته على تصحيح الأخطاء!

تشير الآية بعد ذلك إلى وصف أهل الجنة والسعادة حيال أهل النار، فيقول تعالى: ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾. وعندما يشخص أهل النار بوصف «الظلم» فيبين أن المراد من «من يشاء» في الجملة الأولى هم المجموعة التي لا ترتكب الظلم. وعلى هذا الأساس يكون أهل العدل هم أصحاب الجنة في مقابل أهل الظلم الذي هم أهل النار.

ولكن ينبغي الإنتباه إلى أن «ظالم» هنا، وفي العديد من الآيات القرآنية الأخرى لها معنى واسع ولا تشمل الذين يظلمون غيرهم فقط، بل تشمل الذين يظلمون أنفسهم أيضاً، وتشمل المنحرفين عقائدياً، وهل هناك ظلم أعلى من الشرك والكفر؟

يقول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾^(١). وفي آية أخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن

سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون».

وقال بعضهم في الفرق بين «ولي» و «نصير» أن «الولي» الذي يقوم بمساعدة الإنسان دون طلبه. أما النصير فأعم من ذلك^(١).

ويحتمل أن تشير كلمة «ولي» إلى المشرف الذي يقوم بالحماية والمساعدة بحكم ولايته ودون أي طلب.

أما «النصير» فالذي يقوم بنصر الإنسان ومساعدته بعد أن يطلب العون.



الآيات

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٢﴾ فَاطِرُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ
 الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ ﴿٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْبَسُطُ الرِّزْقَ
 لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٤﴾

التفسير

الولي المطلق:

أوضحت الآيات السابقة أن لا ولي ولا نصير سوى الله، والآيات التي بين
 أيدينا تعطي أدلة على هذه القضية، وتنفي الولاية لما دونه سبحانه وتعالى.
 تقول الآية بأسلوب التعجب والإنكار: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ»^(١). إلا

١- اعتبر بعض المفسرين (كالزمخشري في الكشاف والفخر الرازي في التفسير الكبير- أن «أم» هنا بمعنى الإستفهام

أَنَّهُ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

فلو أراد هؤلاء أن يختاروا ولياً، فعليهم أن يختاروا الله، لأن أدلة ولايته واضحة في الآيات السابقة، مع بيان أوصافه الكمالية، فالعزيز والحكيم، والمالك والعلي والعظيم، والغفور والرحيم، هذه الصفات السبع التي مرّت علينا تعتبر - لوحدها - أفضل دليل على اختصاص الولاية به.

ثم تذكر دليلاً آخر فتقول: ﴿وَهُوَ يَحْيِي الْمَوْتَى﴾.

ويجب اللجوء إليه لا لغيره، لأن المعاد والبعث بيده، وأن أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعد الموت.

ثم تذكر دليلاً ثالثاً فتقول: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذه إشارة إلى أن الشرط الرئيسي للولي هو امتلاكه للقدرّة الحقيقية.

الآية التي بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ

فيه من شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾. فهو التوحيد الذي يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إن من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولي إنهاء اختلافات من هم تحت

ولايته بحكمه الصائب، فهل تستطيع الأصنام والشياطين التي تعبدونها أن تقوم

بذلك، أم أن هذا الأمر يختص بالله الحكيم والعالم والقادر على حل مشاكل عباده،

وتنفيذه لحكمه وإرادته دون غيره؟

إذن فالله العزيز الحكيم هو الحاكم لا غيره.

لقد حاول بعض المفسرين حصر مفهوم الإختلاف الذي تشير إليه الآية في

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الإختلاف الوارد في الآيات المتشابهة،

أو في الإختلاف والمخاضات الحقوقية فقط، إلا أن مفهوم الآية أوسع من ذلك،

إذ هي تشمل الإختلاف سواء كان في المعارف الإلهية والعقائد، أم الأحكام

﴿الإبتكارى، أما البعض الآخر - كالطبرسي في «مجمع البيان» والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» - فقد اعتبروها

الشرعية، أم القضايا الحقوقية والقضائية، أم غير ذلك مما يحدث بين الناس لقلّة معلوماتهم ومحدوديتها؛ إنّ ذلك ينبغي أن يحل عن طريق الوحي، وبالرجوع إلى علم الله وولايته.

وبعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية بالله، تقول الآيات على لسان النبي ﷺ: «ذلكم الله ربّي»^(١) فهو الذي يتصف بهذه الأوصاف الكمالية ولهذا السبب: «عليه توكلت وإليه أنيب» أي أعود إليه في المشكلات والشدائد والزلات.

جملة: «ذلكم الله ربّي» تشير إلى الربوبية المطلقة لله بمعنى الحاكمية المتزامنة مع التدبير. ونحن نعلم أنّ للربوبية قسمين: القسم التكويني الذي يعود إلى إدارة نظام الوجود، والقسم التشريعي الذي يقوم بتوضيح الأحكام ووضع القوانين وإرشاد الناس بواسطة الرسل والأنبياء ﷺ.

وعلى أساس ذلك طرحت الآية فيما بعد قضية «التوكل» و«الإنابة» حيث تعني الأولى رجوع جميع الأمور الذاتية في النظام التكويني إلى الخالق جلّ وعلا. والثانية تعني رجوع الأمور التشريعية إليه^(٢).

الآية التي تليها يمكن أن تكون دليلاً خامساً على ولاية الله المطلقة، أو دليلاً على ربوبيته، واستحقاقه دون غيره للتوكل والإنابة، إذ تقول: «فاطر السماوات والأرض».

«فاطر» من مادة «فطر» وتعني في الأصل فتق شيء ما، ويقابلها «قط» التي تعني بقول البعض الشق العرضي.

وكأنّما الآية تشير إلى تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات وخروج

١- هي بداية هذه الجملة تكون كلمة «قل» مقدّرة، فهذه الجملة وما بعدها تحدثت عن لسان النبي فقط، أنا جملة «وما اختلفتم فيه من شيء» فهي استمرار لحدث الخالق جلّ وعلا. والذين اختاروا غير ذلك لم يسلكوا الطريق الصحيح في الظاهر.

الموجودات منه.

وبهذه المناسبة فإنَّ «فُطِرَ» تطلق على «طلاع» التمر عندما يتفتق ويخرج منه التمر.

والمقصود بالسموات والأرض هنا جميع السماوات والأرض وما فيها من كائنات وما بينها، لأنَّ الخالقية تشملها جميعاً.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: «جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه»^(١).

وهذه لوحدها تعتبر إحدى الدلائل الكبيرة على تدبير الله وربوبيته وولايته، حيث خلق سبحانه وتعالى للناس أزواجاً من أنفسهم، وهو يعتبر أساساً لراحة الروح وسكون النفس، ومن جانب آخر يعتبر الزواج أساساً لبقاء النسل واستمراره، وتكاثره.

وبالرغم من أنَّ خطاب الآية موجّه للإنسان، والمعنى منصب عليه من خلال «يذروكم» إلا أنَّ هذا الأمر هو حكم سائد وسنة جارية في جميع الأنعام والموجودات الحية الأخرى التي تسري عليها التكاثر بالمثل.

وفي الواقع إنَّ توجيه الخطاب للإنسان دونها يشير إلى مقامه الكريم، وأما أمر البقية فيتبيّن من خلال الإنسان كمثال.

الصفة الثالثة التي تذكرها الآية هو قوله تعالى: «ليس كمثل شيء». إنَّ هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية في معرفة صفات الله الأخرى، وبدونها لا يمكن التوصل إلى أي صفة من صفات الله، لأنَّ أكبر منزلق يواجه السائر في طريق معرفة الله يتمثل في «التشبيه» حيث يشبهون الخالق جلّ وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدي للسقوط في وادي الشرك!

١ - التفسير في «فيه» يعود إلى «التدبير» أو «جعل الأزواج» و«يذرو» من «ذراء» على وزن «زرع» وتعني «المخلق» لكنّه الخلق الذي يقترن ويتزامن مع إظهار الأفراد. وقد وردت أيضاً بمعنى الإنتشار.

إنَّ وجود الله تعالى ليس له نهاية ولا يحد بحد، وكل شيء غيره له نهاية وحد من حديث القدر والعمر والعلم والحياة والإرادة والفعل...؛ وفي كل شيء. وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

لذا فإنَّ ما يثبت لغيره لا يصح عليه (سبحانه وتعالى) ولا ينطبق على ذاته المنزَّهة، بل ولا معنى له.

فبالنسبة إلينا تكون بعض الأمور سهلة والأخرى صعبة، وبعض الأحداث وقع في الماضي وبعضها يقع الآن، ومنها ما يقع في المستقبل. وبعض الأشياء صغير وبعضها كبير.

إنَّ مقاييس هذه الأشياء ومدلولاتها ومفاهيمها تحتكم إلى وجودنا المحدود، وهي تلائم إدراكنا وحاجتنا إلى مقايسة الأشياء بغيرها.

أما هذه المواصفات والمقاييس والمصطلحات المحدودة، فإنَّ أياً منها لا ينطبق على صفات الله، إذ لا معنى لديه للقرب والبعد، فالكل قريب وفي متناول إرادته، ولا معنى للصعب والسهل، فكل شيء سهل وطوع إرادته المطلقة، ولا يوجد مستقبل وماضي، فكل شيء بالنسبة إليه تعالى حضور وحال. إنَّ إدراك هذه المعاني غير مستطاع من دون تفرغ الذهن وتخليته مما هو فيه.

لهذا السبب يقال: إنَّ من السهل معرفة أصل وجود الخالق جلّ وعلا، لكن من الصعب معرفة صفاته.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الشأن: «وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء»^(١).

تشير نهاية الآية إلى صفات أخرى من صفات الله: «وهو السميع البصير». هو الخالق والمدبّر، والسميع والبصير، وفي نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير

أو مثيل، ولهذا لا ينبغي الإستغلال إلا تحت ولايته، ولا تصح العبودية والربوبية إلا له، وذلك لا يكون إلا بفك قيود عبودية الغير، وتصريفها إليه دون غيره سبحانه وتعالى.

الآية التي بعدها تتحدّث عن ثلاثة أقسام أخرى من صفات الفعل والذات حيث توضح كلّ واحدة منها قضية الولاية والربوبية في بعدٍ خاص.

يقول تعالى: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾.

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه وتعالى، وكل ما يرغب به راغب ينبغي أن يطلبه منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات والأرض وليس «مفاتيحها» وحسب ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾^(١).

«مقاليد» جمع «مقليد» وتعني المفتاح، وهي تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كلّ شيء ما، فيقال مثلاً: إن مفتاح هذا الأمر بيدي، يعني أنّ برنامجه وطريقه وشرائطه كلّها تحت قدرتي وفي يدي.^(٢)

وفي الصفة الأخرى، والتي هي في الواقع ثمرة ونتيجة للصفة السابقة تقول الآية: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات والأرض فإنّ جميع الأرزاق في قبضته، ويقسمها وفقاً لمشيتها التي تصدر بمقتضى حكمته، ويلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، ومكانها وسائر شؤون حياتها الأخرى، لذا تضيف الآية في آخر صفة قوله تعالى: ﴿إنّه بكل شيء عليم﴾.

وهناك ما يشبه هذا الأمر وهو ما جاء في الآية (٦) من سورة «هود» في قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل

١ - المنافقون، آية ٧.

٢ - بهذا الخصوص لدينا بحث مفصل يمكن مراجعته في نهاية الحديث عن الآية (٦٣) من سورة «الزمر».

في كتاب مبين».

وبذلك يتضح أن الآيات الأربع التي بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات الله الكمالية سواء الذاتية منها أو الفعلية.

فقد وصفته بصفات الولاية المطلقة، إحياء الموتى، قدرته على كل شيء، خلقه للسموات والأرض، خلقه للإزواج وتكثير النسل، لا يوجد مثيل له، سميع، بصير، له خزائن السموات والأرض، رزاق، وعليم بكل شيء.

إنها صفات تكمل الواحدة منها الأخرى من حيث البيان، وكلها دليل على ولايته وربوبيته، وبالنتيجة تعتبر طريقاً لإثبات توحيده في العبادة.

* * *

بحوث

١- معرفة صفات الله تعالى

إن علمنا وعلوم الكائنات جميعاً محدود، لذا لا نستطيع أن نصل إلى كنهه وحقيقة ذات الخالق غير المحدودة، لأن المعرفة بحقيقة شيء ما تعني الإحاطة به، فكيف يستطيع الكائن المحدود أن يحيط بالذات غير المحدودة؟

وكذلك الحال بالنسبة لصفات الله، إذ لا يمكن معرفتها بالنسبة لنا، خصوصاً وأن صفاته هي عين ذاته.

لذلك فعلمنا بذات الخالق وصفاته هو علم اجرائي، وأكثر ما يدور حول آثاره جلّ وعلا.

من جانب آخر لا نستطيع ألفاظنا أن تبين ذات الله وصفاته المطلقة غير المحدودة، لأن ألفاظنا موضوعة لتلبية حاجاتنا في حياتنا اليومية، لذلك سوف نصل إلى معاني خاطئة من خلال استخدام ألفاظنا في توصيف صفات الخالق الكمالية، كالعلم والقدرة والحياة والولاية والماكلية، وسائر الصفات الأخرى.

نقول مثلاً: إنَّ الله هو «الأول» وهو أيضاً «الآخر» هو «الظاهر» وهو «الباطن» هو مع كلِّ شيء وليس مع شيء، وبعيد عن كلِّ شيء إلاَّ أنَّه ليس غربياً عنه. قد يبدو في بعض هذه الألفاظ تناقض أو تضاد، لأنَّ معاني الألفاظ نقيسها على الأشياء والموجودات المحدودة، فيمكن أن يكون هو الأول ولا يكون الآخر، والظاهر ولا يكون باطن، ولكن التفكير الدقيق في ذات الله وصفاته يوصلنا إلى إمكانية انطباق معاني هذه الألفاظ عليه، فهو الأول في نفس الوقت الذي هو الآخر، وهو الباطن في نفس الوقت الذي يكون فيه هو الظاهر أيضاً. وعلينا أن نعترف هنا بأنَّ المهم في معرفة أوصافه الجمالية والجلالية هو أن ننتبه إلى حقيقة: «ليس كمثل شيء».

يشير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى هذه الحقيقة بوضوح فيقول: «ما وحده من كیفه، ولا حقیقته أصاب من مثله، ولا إیّاه عنى من شبهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه»^(١).

وفي مكان آخر يقول عليه السلام: «كل مسمّى بالوحدة غير قليل»^(٢). خلاصة القول: يجب ولوج البحث في صفات الخالق على ضوء قوله تعالى: «ليس كمثل شيء» وعلينا أن ننظر إلى ذاته المقدسة من خلال قوله تعالى: «لم يكن له كفواً أحداً» وعبارة «سبحان الله» في العبادات وغيرها تشير إلى هذه الحقيقة.

٢- ملاحظة أدبية

إنَّ الكاف في جملة «ليس كمثل شيء» للتشبيه، وتعني المثل أيضاً. لذا فإنَّ هذا التكرار أصبح سبباً لأنَّ يعتبر الكثير من المفسرين أنَّها زائدة، وأنَّها جاءت

١- الخطبة رقم (١٨٦).

٢- نهج البلاغة، الخطبة رقم ٦٥.

للتأكيد. وأمثال ذلك كثير في الكلمات الفصحى.

ولكن ثمة تفسير أجمل، وهو أن يقال أحياناً: مثلك لا يهرب من ساحة الأحداث. أي أن الذي يملك الشجاعة والعقل والذكاء مثلك، لا ينبغي عليه الهرب (والخلاصة أن من يملك مثل صفاتك يجب أن يكون هكذا وهكذا).

وفي الآية التي نبجتها سيكون المعنى هكذا: مثل الخالق الذي ذكرنا أو صافه - كالعلم الواسع والقدرة العظيمة اللامتناهية ليس له مثل».

ذهب أرباب اللغة وعلماؤها إلى إن هناك بعض المصطلحات لها نفس معنى (مثل) إلا أنها ليست مثلها في - المفهوم من زاوية عموميتها وشموليتها، مثلاً:

«ند» على وزن «ضد» وتقال عندما يكون القصد من التشبيه الإشارة إلى المشابهة في الجوهر والماهية.

«شبه» وتقال عندما يكون الكلام عن الكيفية فقط.

«مساوي» وتقال عندما يكون الكلام عن الكمية فقط.

«شكل» وتقال عندما يكون الكلام في التشبيه عن المقدار والمساحة.

إلا أن «مثل» لها مفهوم أوسع وأكثر عمومية، بحيث تشمل جميع المفاهيم الآتفة الذكر.

لذا فإن الله عندما يريد أن ينفي عن ذاته أي شبيه أو نظير يقول: «ليس كمثله شيء»^(١).

٣- بعض الملاحظات حول الرزق الإلهي:

أ: معيار بسط الرزق وتقديره:

يجب أن لا نتصور أبداً أن بسط الرزق يعني محبة الله لنا، أو أن تضيق المعيشة هي دليل غضبه، لأن الله قد يختبر الإنسان بواسطة البسط في رزقه،

وأحياناً يريد أن يمتحن صبره ومقاومته عن طريق التضييق بالمعيشة عليه.
وعن هذا الطريق يصار إلى تربية الإنسان.

إنّ الثروة الكبيرة قد تكون أحياناً سبباً لعذاب أهلها وتعبهم وسلب
استقرارهم وراحتهم النفسية، حيث يقول القرآن في الآية (٥٥) من سورة التوبة:
﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق
أنفُسهم وهم كافرون﴾.

وفي الآيتين (٥٥ - ٥٦) من سورة المؤمنين، نقرأ قوله تعالى: ﴿أحسبون إنَّما
نُغَدِّمُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِمْ نَسْرَاعٍ لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ب: تحديد الأرزاق لا يتعارض مع بذل الجهود:

إنّ الآيات التي تتحدث عن تحديد مقدار الرزق لا تتنافى مع سعي الإنسان
في مجال تحصيله للرزق. وينبغي أن لا يكون الأمر مبعثاً للخمول والكسل
والهروب من تحمل مسؤوليات الجهاد الفردي الإجتماعي، إذ هناك آيات قرآنية
كثيرة تؤكد أهمية وقيمة السعي الإنساني.

إنّ الهدف هو أن ندرك أننا رغم سعينا وعملنا فهناك يد خفية تقوم أحياناً
بحجب نتائج هذه الجهود، وتقوم في بعض الأحيان بعكس ذلك، حتى لا ينسى
الناس في حياتهم الإجتماعية الطويلة أن ثمة قدرة أخرى هي قدرة مسبب
الأسباب وهي التي تدبر شؤون العالم.

وينبغي هنا أن لا نلقي تبعات الكسل والإهمال والتعاس على مفهوم الرزق
الإلهي المحدود لكل إنسان، لأنّه تعالى صرّح بأن عطاء الرزق يساوي ما يبذله
الفرد من جهدٍ وعناءٍ.

ج: عدم اقتصار الرزق على المفهوم المادي:

للرزق معنى واسع بحيث يشمل الرزق المعنوي، بل إن الرزق الأصلي هو الرزق المعنوي، وفي الأدعية نلتقي مع أمثلة كثيرة تؤكد ذلك، فنقول حول الحج مثلاً: «اللهم ارزقني حج بيتك الحرام».

وفي أدعية طلب الطاعة نقول: «اللهم ارزقني توفيق الطاعة وبعد المعصية». وفي أدعية أيام شهر رمضان نقول: «اللهم ارزقني فيه طاعة الخاشعين» (دعاء اليوم الخامس عشر).

وهكذا بالنسبة للهبات المعنوية الأخرى.

د: القرآن والأسباب التي تؤدي إلى زيادة الرزق:

لقد ذكر القرآن الكريم بعض الأمور التي تعتبر بحد ذاتها درساً لتربية الإنسان وبنائه، ففي الآية «٧» من سورة «إبراهيم» نقراً قوله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم».

وفي الآية «١٥» من سورة «الملك» قوله تعالى: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه».

وفي سورة الأعراف، آية «٩٦» قوله تعالى: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض».

هـ: التضييق في الرزق والقضية التربوية:

أحياناً يكون ضيق الرزق لمنع الناس عن الطغيان، كما نقراً في قوله تعالى: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض»^(١).

ز: الرزاق هو الله

يؤكد القرآن الكريم أن الذي يعطي الرزق للناس هو الله، وعليهم أن لا يطلبوا من غيره، وعليهم بعد الإيمان والتوكل أن يعتمدوا على وسعهم وطاقتهم، كما ورد في الآية (٣) من سورة «فاطر» في قوله تعالى: «هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض».

والآية «١٧» من «العنكبوت» في قوله تعالى: «فابتغوا عند الله الرزق». وهكذا تقطع التربية القرآنية روح الحاجة لدى الانسان إلى عبادٍ مثله، وتجعله مرتبطاً بخالقه وبارئته ورازقه، فتلمي فيه روح الإباء، والعبودية والإنقطاع إلى الله.

ولدينا بحث مفصل بخصوص الأرزاق والسعي للحياة، وأسباب الرزق ومصادره في نهاية تفسير الآية «٧١» من سورة «النحل» وكذلك في نهاية تفسير الآية «٦» من سورة «هود»، فليراجع هناك.

* * *

الآيتان

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي
إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى
أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

التفسير

الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء:

بما أن العديد من بحوث هذه السورة تتعلق بالمشركين، وأن الآيات السابقة كانت تتحدث عن نفس هذا الموضوع أيضاً، لذا فإن الآيات التي نبحثها تبين هذه الحقيقة، وهي أن دعوة الإسلام إلى التوحيد ليست دعوة جديدة، إنها دعوة جميع الأنبياء أولي العزم، وليس أصل التوحيد فحسب، بل إن جميع دعوات الأنبياء في

القضايا الأساسية وفي مختلف الأديان السماوية كانت واحدة.

تقول الآية: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ والذي هو أول نبي من أولي العزم.

وأيضاً: ﴿والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾.

وبهذا الشكل فما كان موجوداً في شرائع جميع الأنبياء موجود في شريعتك أيضاً و«ما يمتلكه الصالحون جميعاً تملكه لوحدك».

إن عبارة (من الدين) تبين أن التنسيق بين جميع الشرائع السماوية لم يكن بخصوص التوحيد أو أصول العقائد فحسب، بل في كل مجموعة الدين الإلهي، فمن حيث الأساس والجذور كانت واحدة، بالرغم من أن تكامل المجتمع الإنساني يقتضي أن تكون التشريعات والقوانين الفرعية متناسقة مع تكامل الناس، وتسير نحو التكامل حتى تصل إلى الحد النهائي وتختتم الأديان.

لهذا السبب هناك أدلة كثيرة في آيات قرآنية أخرى تبين أن الأصول العامة للعقائد والقوانين والتعليمات واحدة في جميع الأديان.

فمثلاً نقرأ في القرآن الكريم بخصوص شرح حال العديد من الأنبياء، أن أول دعوة لهم كانت: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾^(١).

وفي مكان آخر نقرأ: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله﴾.

وأيضاً فقد ورد الإنذار بالبعث في دعوة العديد من الأنبياء (الأنعام ١٣٠، الأعراف ٥٩، الشعراء ١٣٥، طه ١٥، مريم ٣١).

أما موسى وعيسى وشعيب عليهم السلام فيتحدثون عن الصلاة (طه ١٤، مريم ٣١، هود ٨٧).

وإبراهيم يدعو إلى الحج (الحج ٢٧).

وكان الصوم مشرعاً عند جميع الأقوام السابقين (البقرة ١٨٣).

لذا، وكتعليمات عامّة لجميع الأنبياء العظام تقول الآية في الجملة الأخرى:
﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾.

فهي توصي بأمرين مهمّين:
الأوّل: إقامة دين الخالق في كلّ الأرض (وليس العمل فحسب، بل إقامته وإحياؤه ونشره).

الثاني: الإحتراز عن البلاء العظيم، يعني الفرقة والنفاق في الدين.

وبعد ذلك تقول: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾.

فلقد تطبع هؤلاء على الشرك وعبادة الأصنام بسبب الجهل والتعصب لسنين طويلة، وعشعش ذلك في أعماقهم بحيث أصبحت الدعوة إلى التوحيد تخيفهم وتوحشهم، إضافة لذلك فإن مصالحي زعماء المشركين اللامشروعة محفوظة في الشرك، في حين أن التوحيد هو أساس ثورة المستضعفين، ويقف حائلاً دون أهواء الطغاة ومظالمهم.

وكما أن انتخاب الأنبياء بيد الخالق، كذلك فإنّ هداية الناس بيده أيضاً: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾.



ملاحظات

وهناك ملاحظات في هذه الآية يجب الإنتباه إليها:

١- (شَرَعَ) من كلمة (شَرَعَ) وهي في الأصل تعني الطريق الواضح، حيث يقال (الشرعية) للطريق المؤدي إلى النهر، ثم استخدمت هذه الكلمة بخصوص الأديان الإلهية والشرائع السماوية، لأن طريق السعادة الواضح يتمثل فيها، وهي طريق الوصول إلى الإيمان والتقوى والصلح والعدالة.

وبما أنّ الماء هو أساس النظافة والطهارة والحياة، لذا فإنّ لهذا المصطلح

تناسب واضح مع الدين الإلهي الذي يؤدي نفس هذه الأعمال من الناحية المعنوية مع روح الإنسان والمجتمع البشري^(١).

٢- لقد أشارت هذه الآية إلى خمسة من الأنبياء الإلهيين فقط (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام) لأن هؤلاء الخمسة هم الأنبياء أولو العزم، أي أصحاب الدين والشرائع، وفي الحقيقة فإن الآية تشير إلى انحصار الشريعة بهؤلاء الخمسة من الأنبياء.

٣- في البداية ذكرت الآية نوحاً، لأن أول شريعة (أو الدين الذي يحتوي على كل القوانين العبادية والاجتماعية) نزلت عن طريقه، وكانت هناك تعليمات وبرامج محدودة للأنبياء الذين سبقوه^(٢).

ولهذا السبب لم يشر القرآن ولا الروايات الإسلامية إلى الكتب السماوية قبل نوح ﷺ.

٤- من الضروري أن نشير إلى أنه عند ذكر هؤلاء الخمسة، تم ذكر نوح ﷺ في البداية ثم نبي الإسلام ﷺ وبعد ذلك إبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعيسى ﷺ، وهذا الترتيب بسبب أن نوحاً كان هو الباديء والفتاح، ونبي الإسلام ذكر بعد ذلك بسبب عظمتهم، وذكر الآخرون حسب الترتيب الزمني لظهورهم.

٥- من الضروري أيضاً أن نشير إلى هذه الملاحظة، وهي أن القرآن يستخدم عبارة: «أوحينا إليك» بخصوص نبي الإسلام ﷺ، إلا أنه استخدم عبارة «وصينا» بالنسبة إلى الآخرين، وقد يكون هذا الاختلاف في التعبير بسبب أهمية الإسلام بالنسبة لسائر الأديان السماوية الأخرى.

٦- وردت عبارة (من يشاء) بالنسبة إلى كيفية انتخاب الأنبياء في نهاية الآية، والتي قد تكون إشارة مجملة للمؤهلات الذاتية للرسول الإلهيين.

١- لقد جاء هذا المعنى بشكل مجمل في لسان العرب والمفردات للراغب وبقية كتب اللغة.

٢- هناك شرح أوردناه بهذا الخصوص في نهاية الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

أما بخصوص الأمم فقد تم استخدام عبارة (من ينيب) «والتي تعني الرجوع إلى الخالق والتوبة عن الذنب» حتى يتضح معيار الهداية الإلهية وشرائطها للجميع، ويعثروا على طريق الوصول إلى بحر رحمته.

جاء في الحديث القدسي «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١).

وقد ورد هذا الاحتمال أيضاً في تفسير الجملة الأخيرة، وهو أن (الإجتباء) لا يختص بالأنبياء فحسب، بل يشمل جميع العباد المخلصين الذين لهم المقام المحمود عند الخالق.

وبما أن أحد أركان دعوة الأنبياء أولى العزم هو عدم التفرق في الدين، فقد كانوا يدعون لذلك حتماً، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كل هذه الاختلافات المذهبية؟

وقد أجابت الآية الأخرى على هذا السؤال وذكرت أساس الاختلافات الدينية بأنه: «وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم»، فالإختلافات لم تحدث إلا بسبب حب الدنيا والمنصب والظلم والحسد والعداوة.

نعم، فعبيد الدنيا الظلمة والحسودون الحاقدون وقفوا حيال أديان الأنبياء جميعاً، ودفعوا كل مجموعة باتجاه معين كيما يثبتوا أركان زعامتهم ويؤمنوا مصالحهم الدنيوية، ويكشفوا - علانيةً - حسدهم وعداوتهم للمؤمنين الحقيقيين دين الأنبياء، ولكن كل هذا حصل بعد إتمام الحجة.

وبهذا الترتيب فإن أساس التفرق في الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم والبغي والانحراف عن الحق، والأهواء والآراء الشخصية.

«فالعلماء الذين يطلبون الدنيا» و«الحاقدون من الناس والمتعصبون» اتحدوا معاً لزرع هذه الإختلافات.

وتعتبر هذه الآية رداً واضحاً على الذين يقولون بأن الدين أوجد الاختلاف بين البشر، وأدى ألى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ، فلو دققوا في الأمر لوجدوا أن الدين دائماً هو أساس للوحدة والإتحاد في المجتمع (كما حصل للإسلام وقبائل الحجاز وحتى الأقسام في خارج الجزيرة حيث انتهت الاختلافات وأصبحوا أمة واحدة).

إلأن السياسات الإستعمارية هي التي أوجدت الفرقة بين الناس، وحرضت على الاختلافات، وكانت أساساً لإراقة الدماء، ففرض سياساتها وأهوانها على الأديان السماوية كان عاملاً كبيراً آخر في إيجاد الفرقة، وهذا بعد ذاته ينبع من (البغي) أيضاً.

«البغي» كما يكشف أساسه اللغوي، يعني (طلب التجاوز والإنحراف عن خط الوسط والميل نحو الإفراط أو التفريط) سواء تم تطبيق هذا الطلب أم لا، وتختلف كميته وكيفيته، ولهذا السبب فعالباً ما يستخدم بمعنى الظلم. وأحياناً يقال لأي طلب بالرغم من كونه أمراً جيداً ومرغوباً.

لذا فإنّ الراغب في مفرداته يقسم (البغي) إلى نوعين: (ممدوح) و (مذموم) فالأول يتجاوز حد العدالة ويصل إلى الإحسان والإيثار، وتجاوز الواجبات والوصول إلى المستحبات، والثاني يتجاوز الحق نحو الباطل.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ حيث يهلك أتباع الباطل وينصر أتباع الحق.

نعم، فالدنيا هي محل الإختبار والتربية والتكامل، ولا يحصل هذا بدون حرية العمل، وهذا هو الأمر التكويني الإلهي الذي كان موجوداً منذ بدء خلق الإنسان ولا يقبل التغيير. إن هذه هي طبيعة الحياة الدنيوية، ولكن ما يمتاز به عالم الآخرة هو أن جميع هذه الاختلافات ستنتهي وسوف تصل الإنسانية إلى الوحدة الكاملة، ولهذا السبب يتم استخدام عبارة (يوم الفصل) للقيامة.

أما آخر جملة فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعة، أي الذين لم يدركوا عصر الرسل، بل جاؤا في فترة طبع فيها المنافقون والمفروقون المجتمع البشري بطابعهم الشيطاني، لذا لم يستطيعوا إدراك الحق بشكل جيد، حيث تقول: «وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب»^(١). وقد ذكر وافي حقيقة معنى كلمة (ريب) أن هذه الكلمة تطلق على الشك الذي يتبدل إلى الحقيقة أخيراً بعد أن يزال الستار عنه، وقد يكون هذا الأمر إشارة إلى ظهور نبي الإسلام ﷺ بالأدلة الواضحة، حيث محى آثار الشك والريب من قلوب طلاب الحق.

* * *

ملاحظة

نقل تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق ﷺ في قول الله تعالى: «أن أقيموا الدين» قال الإمام، «ولا تتفرقوا فيه» كناية عن أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ ثم قال: «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» من أمر ولاية علي «الله يجتبي إليه من يشاء» كناية عن علي (ع)^(٢).

وبديهي أن المقصود ليس تحديد الدين في ولاية علي عليه أفضل الصلاة والسلام، بل الهدف هو بيان هذه الحقيقة، وهي أن قضية ولاية أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ تعتبر من أركان الدين أيضاً.

* * *

١ - وفقاً لهذا التفسير الذي يتناسق بشكل كامل مع الجمل السابقة، فإن ضمير (بعدهم) يعود إلى الأمم الأولى التي أوجدت الفرة بين المناهب والأديان. وليس إلى الأنبياء المذكورين في الآية السابقة (فدقق ذلك).

٢ - تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ٥٦٧.

الآية

فَلِذَلِكَ فَادِعُ وَأَسْتَقِمُ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ
ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٧﴾

التفسير

فاستقم كما أمرت!

بما أن الآيات السابقة تحدثت عن تفرق الأمم بسبب البغي والظلم والانحراف، لذا فإن الآية التي نبحثها تأمر النبي بمحاولة حل الإختلافات وإعادة الحياة إلى دين الأنبياء، وأن يبذل منتهى الإستقامة في هذا الطريق، فتقول: ﴿فلذلك فادع﴾^(١) أي ادعوهم إلى الدين الإلهي الواحد وامنع الإختلافات. ثم تأمره بالإستقامة في هذا الطريق، فتقول: ﴿واستقم كما أمرت﴾. ولعل جملة «كما أمرت» إشارة إلى المرحلة العالية من الإستقامة، أو إلى أن

١ - بعض المفسرين اعتبر «اللام» في «لذلك» بمعنى (إلى)، والبعض الآخر بمعنى (التصليل) وفي الحالة الأولى تكون كلمة (ذلك) إشارة إلى دين الأنبياء السابقين، وفي الحالة الثانية إشارة إلى إختلاف الأمم.

الاستقامة يجب أن تكون من حيث الكمية والكيفية والزمن والخصوصيات الأخرى مطابقة للقانون الإلهي.

وبما أن أهواء الناس تعتبر من الموانع الكبيرة في هذا الطريق، لذا تقول الآية في ثالث أمر لها: «ولا تتبع أهواءهم»، لأن كل مجموعة ستدعوك إلى أهوائها ومصالحها الشخصية، تلك الدعوة التي يكون مصيرها الفرقة والاختلاف والنفاق، فعليك القضاء على هذه الأهواء، وجمع الكل في ظل الدين الإلهي الواحد.

وبما أن لكل دعوة نقطة بداية، لذا فإن نقطة البداية هي شخص الرسول ﷺ، حيث تقول الآية في رابع أمر لها: «وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب». فأنا لا أفرق بين الكتب السماوية، اعترف بها جميعاً، وكلها تدعو إلى التوحيد والمعارف الدينية الطاهرة والتقوى والحق والعدالة، وفي الحقيقة فإن ديني جامع لها ومكملها.

فأنا لستُ مثل أهل الكتاب حيث يقوم كل واحد بإلغاء الآخرين، فاليهود يلغون المسيحيين، والمسيحيون يلغون اليهود، وحتى أن أتباع كل دين أيضاً يقبلون ما يتلاءم مع حاجاتهم ورغباتهم من كتبهم الدينية، فانا أقبل بالكل لأن الكل له أصول أساسية واحدة.

وبما أن رعاية (أصل العدالة) ضروري لإيجاد الوحدة، لذا فإن الآية تطرح ذلك في خامس أمر لها فتقول: «وأمرت لأعدل بينكم»، سواء في القضاء والحكم، أو في الحقوق الاجتماعية والقضايا الأخرى^(١).

وبهذا الشكل فإن الآية التي نبهنا مؤلفة من خمس تعليمات مهمة، حيث تبدأ من أصل الدعوة، ثم تطرح وسيلة انتشارها - يعني الاستقامة - ثم تشير إلى الموانع في الطريق «عبادة الأهواء» ثم تبين نقطة البداية التي تبدأ من النفس، وأخيراً الهدف النهائي والذي هو توسيع وتعميم العدالة.

١ - بعض المفسرين حدّد (العدالة) هنا بالقضاء، في حين أنه لا توجد قرينة على هذه المحدودية في الآية.

بعد هذه التعليمات الخمس، تشير إلى المشتركات بين الأقوام والتي تتلخص بخمس فقرات، حيث تقول: «الله ربنا وربكم» وكل واحد مسؤول عن أعماله «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم». «لا حجة بيننا وبينكم» وليس بيننا نزاع وخصومة، ولا امتياز لأحدنا على الآخر وليست لدينا أغراض شخصية اتجاهكم.

وعادة لا توجد حاجة إلى الاستدلال والإحتجاج، لأن الحق واضح، إضافة إلى ذلك فإننا جميعاً سوف نجتمع في مكان واحد: «الله يجمع بيننا»^(١).

والذي سوف يقضي بيننا في ذلك اليوم هو الأحد الذي: «وإليه المصير». وعلى هذا الأساس فإنّ إلهاً واحداً، ونهايتنا ستكون في مكان واحد، والقاضي الذي إليه المصير واحد، وبالرغم من كلّ هذا فإننا مسؤولون جميعاً حيال أعمالنا، وليس هناك فرق لإنسان على آخر إلا بالإيمان والعمل الصالح.

ونتهي هذا البحث بحديث جامع، فقد ورد في حديث عن الرسول الأكرم ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فالمنجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله في السر والعلانية، والمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٢).



١- الضمير المتكلم مع ضمير في (بيننا) يشير إلى الرسول ﷺ والمؤمنين، وضمير الجمع في (بينكم) يشير إلى جميع الكفار، سواء كانوا أهل الكتاب أو المشركين.

٢- مجمع البيان، نهاية الآيات التي نبحثها. وتحف العقول كلمات الرسول الأعظم ﷺ.

الآيات

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ
دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٧٦﴾ اللَّهُ
الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
قَرِيبٌ ﴿٧٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي
السَّاعَةِ لِي ظُلْمٌ لِيُبْعِدُوا ﴿٧٨﴾

التفسير

لا تستعجلوا بالساعة!!

الآيات السابقة كانت تتحدث عن واجبات النبي ﷺ، كاحترامه لمحتوى الكتب السماوية، وتطبيق العدالة بين جميع الناس وترك أي محاججة أو خصومة بينه وبينهم. أما الآيات التي نبحثها، فلكي تكمل البحث السابق وتثبت أن حقانية نبي الإسلام لا تحتاج إلى دليل، تقول: «والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم» وبما أن نقاشهم ومحاجبتهم ليس لكشف الحقيقة، بل للعناد والاصرار تقول الآية «وعليهم غضب».

«ولهم عذاب شديد» لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندین.

وقد ذكر المفسرون تفاسير مختلفة حول المقصود من جملة: «من بعد ما استجيب لهم».

فقالوا: إن المقصود هو استجابة عامة الناس من ذوي القلوب الطاهرة، والذين ليست لهم نوايا خبيثة، يستسلمون للحق ويخضعون له مستلهمين ذلك من الفطرة الإلهية ومشاهدة محتوى الوحي والمعجز المختلفة للنبي الأكرم ﷺ. وقد يكون المقصود بها استجابة دعاء الرسول ﷺ بحق معارضيه كما في يوم معركة بدر، حيث أدى ذلك إلى فناء قسم عظيم من جيش العدو وانكسار شوكته.

وأحياناً اعتبروا ذلك إشارة إلى قبول أهل الكتاب، حيث كانوا ينتظرون نبي الإسلام ﷺ قبل ظهوره، ويذكرون علامات ظهوره للناس من خلال كتبهم، وكانوا يظهرون الإيمان والحب له، إلا أنه بعد ظهور الإسلام أنكروا كل ذلك، لأن مصالحهم غير المشروعة أصبحت في خطر.

ويبدو أن التفسير الأوّل هو الأفضل، لأن التفسير الثاني يقتضي أن تكون هذه الآيات نازلة بعد معركة بدر، في حين أنه لا دليل على هذا الأمر، ويظهر أن جميع هذه الآيات نزلت في مكة.

والتفسير الثالث لا يتلاءم مع أسلوب الآية، لأنه يجب أن يقال: «من بعدما استجابوا له».

إضافة إلى أن ظاهر جملة: «يحاجون في الله» يشير إلى محاججة المشركين بخصوص الخالق، وليس أهل الكتاب بالنسبة إلى النبي ﷺ ولكن ما هي المواضيع المطروحة المشار إليها في هذه المحاججة الباطلة؟ هناك اختلاف بين المفسرين:

فقال البعض: إن المقصود هو ادعاء اليهود الذين يقولون بأن دينهم كان

موجوداً قبل الإسلام وإن سبقته دليل على افضليته.

أو، ما دمت تدعون الوحدة فتعالوا وآمنوا بدين موسى ﷺ لأن الطرفين يقبلانه.

ولكن - كما قلنا - فإن من المستبعد أن يكون الكلام في هذه الآيات مع اليهود أو أهل الكتاب، لأن «المحاجة في الله» أكثر ما تخص المشركين، لذا فإن الجملة أعلاه تشير إلى الأدلة الواهية للمشركين في قبولهم بالشرك، والتي منها شفاعة الأصنام أو اتباع دين الآباء والأجداد.

على أية حال، فالمعاندون الذين يصرون على عنادهم بعد وضوح الحق، سيفتضح أمرهم بين خلق الله، وسيشملهم غضب الخالق في هذا العالم والعالم الآخر.

ثم يشير القرآن إلى أحد أدلة التوحيد وقدرة الخالق، وفي نفس الوقت يتضمن إثبات النبوة حيال المتحاججين ذوي المنطق الواهي، حيث تقول الآية: «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان».

«الحق» كلمة جامعة تشمل المعارف والعقائد الحقة، والأخبار الصحيحة والبرامج المتطابقة مع الحاجة الفطرية والاجتماعية، وما شابه ذلك، لأن الحق هو الشيء الموجود الذي يطابق مصداقه الخارجي، وليس له جنبه ذهنية وخيالية. وأما «الميزان» فله معنى عام في مثل هذه الموارد، بالرغم من أن معناه اللغوي هو وسيلة لقياس الوزن، إلا أنه في معناه الكنائي يطلق على أي معيار للقياس والقانون الإلهي الصحيح، وحتى شخص الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام، حيث أن وجودهم معيار لتشخيص الحق من الباطل وميزان يوم القيامة، والميزان في القيامة يراد به هذا المعنى.

بناءً على هذا فإن الخالق أنزل كتاباً على نبي الإسلام ﷺ بحيث يعتبر هو الحق، والميزان للتقييم، والتدقيق في محتوى هذا الكتاب سواء معارفه وعقائده،

واستدلالاته المنطقية، أو قوانينه الإجتماعية، وحتى برامجه لتهديب النفوس وتكامل البشر... كل ذلك يعتبر دليلاً على حقانيته.

إن هذا المحتوى العظيم - بهذا العمق - من شخص أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وقد نشأ في مجتمع يعتبر من أكثر المجتمعات تخلفاً، يعتبر بحد ذاته دليلاً على عظمة الخالق، ووجود عالم ما وراء الطبيعة، وحقانية من جاء به.

وهكذا فإن الجملة أعلاه تعتبر جواباً للمشركين ولأهل الكتاب. وبما أن نتيجة كل هذه الأمور، خاصة ظهور الحق بشكل كامل والعدالة والميزان تتضح في يوم القيامة، لذا فإن الآية تقول في نهايتها: «وما يدريك لعل الساعة قريب».

فالقيامة عندما تقام يحضر الجميع في محكمة عدله، ويواجهون الميزان الذي يقيس حتى حبة الخردل أو أصغر منها.

ثم يشير القرآن إلى موقف الكفار والمؤمنين حيال القيامة، فتقول الآية: «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها».

فهؤلاء لا يقولون ذلك بسبب عشقهم للقيامة والوصول إلى لقاء المحبوب أبداً، إن كلامهم هذا من قبيل الإستهزاء والإنكار، ولو كانوا يعلمون ما سيحل عليهم يوم القيامة لم يطلبوا مثل هذا الأمر.

«والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق»^(١).

طبعاً لحظة قيام القيامة خافية على الجميع، حتى بالنسبة للأنبياء المرسلين والملائكة المقربين، ليكون هذا الأمر أسلوباً تربوياً مستمرًا للمؤمنين، واختباراً واتمام حجة للمنكرين، ولكن لا يوجد أي شك في أصل وقوعها.

١ - «مشفقون» من كلمة (إشفاق) وتعني الملاقة المقرنة مع الخوف، فمنى ما تمدت بحرف (من) يطفى جانب الخوف عليها، وعندما تمدى بحرف (على) يطفى جانب الإنتباه والمراقبة عليها، ولذا فإن الإنسان يقول لصاحبه وصديقه: «أنا مشفق عليك» (تفسير روح المعاني ومفردات الراغب).

ومن هنا يتضح مدى التأثير التربوي العميق للإيمان بالقيامة ومحكمة العدل الإلهي الكبيرة على المؤمنين خاصة في احتمالهم حصول هذا الأمر في أية لحظة من اللحظات.

وكإعلان عام، تقول الآية في نهايتها: «ألا إن الذين يمارون في الساعة لني ضلالٍ بعيدٍ» لأن نظام هذا العالم يعتبر - بحد ذاته - دليلاً على أنه مقدمة لعالم آخر وبدونه سيكون خلق هذا العالم عبثاً وليس له أي معنى، وهذا لا يتناسب مع حكمة الخالق ولا مع عدالته.

وتشير عبارة (ضلال بعيد) إلى أن الإنسان قد يضل الطريق أحياناً، إلا أنه لا يبتعد عنه كثيراً، وبقليل من البحث والجهد يمكنه أن يكتشف الطريق وأحياناً يكون البعد كبيراً جداً بحيث يصعب - أو يستحيل - عليه العثور على الطريق مرة أخرى.

والطريف في الأمر أننا نقرأ في حديث عن النبي الأكرم ﷺ: «سأل رجل رسول الله في إحدى سفراته وبصوت مرتفع: يا محمد... فأجابه الرسول ﷺ وبصوت مرتفع مثل صوته «ما تقول؟».

قال الرجل: متى الساعة؟

قال الرسول ﷺ: «إنها كائنة فما أعددت لها؟».

قال الرجل: حبّ الله ورسوله!

قال الرسول ﷺ: «أنت مع من أحببت»^(١).



الآيتان

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ مَنْ
كَانَ يُرِيدُ حَزْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَزْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَزْثَ
الدُّنْيَا نُوتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾

التفسير

مزرعة الدنيا والآخرة:

بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن العذاب الإلهي الشديد وعن طلب منكري المعاد للتعجيل بقيام القيامة، لذا فإن أول آية نبخثها هنا تقرن «الغضب» الإلهي مع «اللطف» الإلهي في معرض ردها على استعجال منكري المعاد: «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ».

فعندما يهددهم بالعذاب الشديد في موضع، يعدهم باللطف في موضع آخر، ذلك اللطف الواسع غير المحدود ولا يعجل في عقاب الجاهلين المغرورين. ثم تطرح الآية أحد مظاهر لطفه العام وهو الرزق، فتقول: «يرزق من يشاء». وهذا لا يعني أن هناك جماعة محرومون من رزقه، بل المقصود البسط في الرزق لمن يشاء، كما جاء في الآية ٢٦ من سورة الرعد: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

يشاء ويقدر».

ونقرأ في آية قادمة في هذا السورة: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض»^(١).

وواضح أن (الرزق) هنا يشمل الرزق المعنوي والمادي، الجسماني والروحاني فعندما يكون هو مصدر اللطف والرزق، فلماذا تتوجهون نحو الأصنام التي لا ترزق ولا تتلطف، لا تحل مشاكلكم.

وتقول الآية في نهايتها: «وهو القوي العزيز».

وعندما بعد الله تعالى عباده بالرزق واللطف فهو قادر على إنجاز هذا الأمر، ولهذا السبب لا يوجد أي تخلف في عوده أبداً.

ومن الضروري الانتباه إلى هذه الملاحظة وهي أن (لطيف) لها معنيان: الأول: أنه صاحب اللطف والمحبة والرحمة. والثاني: علمه بجميع الأمور الصغيرة والخافية، وبما أن رزق العباد يحتاج إلى الإحاطة والعلم بالجميع وفي أي مكان كانوا، سواء في السماء أو في الأرض، لذا فإن الآية تشير في البداية إلى لطفه ثم إلى رزقه، كما أن القرآن يضيف في الآية (٦) من سورة هود وبعد أن يذكر: «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها» قوله: «ويعلم مستقرها ومستودعها».

وطبعاً لا يوجد أي تناقض بين هذين المعنيين، بل يكمل أحدهما الآخر، فاللطيف هو الشخص الذي يكون كاملاً من حيث المعرفة والعلم، ومن حيث اللطف والمحبة لعباده، وبما أن الخالق يعلم باحتياجات عباده بشكل جيد فانه يسد احتياجاتهم بأفضل وجه، لذا فهو الاجدر بهذا الاسم.

على أية حال، فإن الآية أعلاه أشارت إلى أربعة صفات من أوصاف الخالق: اللطف، والرزق، والقوة، والعزة، وهي أفضل دليل على مقام (ربوبيته)، لأن (الرب) يجب أن تتوفر فيه هذه الصفات.

الآية التي بعدها شبّهت أفراد العالم حيال رزق الخالق وكيفية الاستفادة منه بالمزارعين الذين يقوم قسم منهم بالزراعة للآخرة والقسم الآخر للدنيا، وتحدد عاقبة كل قسم منهم وفق تشبيه لطيف حيث تقول: «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»^(١).

إنه لتشبيه لطيف وكناية جميلة، فجميع الناس مزارعون، وهذه الدنيا مزرعة لنا، أعمالنا هي البذور، والإمكانات الإلهية هي المطر لهذه المزرعة، إلا أن هذه البذور تختلف كثيراً، فبعضها غير محدودة النتائج وأبدية، أشجارها دائمة الخضرة ومثمرة وبعضها الآخر قليل النفع جداً، وتنتهي بسرعة، وتحمل ثماراً مرة. وفي الحقيقة، فإن عبارة (يريد) تشير إلى اختلاف الناس في النيات، ومجموع هذه الآية يعتبر توضيحاً لما جاء في الآية السابقة من المواهب والرزق الإلهي، فالبعض يستفيد من هذه المواهب على شكل بذور للآخرة، والبعض الآخر يستعملها للتمتع الدنيوي.

والطريف في الأمر أن الآية تقول بخصوص الذين يزرعون للآخرة: «نزد له في حرثه» إلا أنها لا تقول أنه لا يصيبهم شيء من متاع الدنيا، وبالنسبة لمن يزرع للدنيا تقول: «نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب».

وعلى هذا الأساس فلا طلاب الدنيا يصلون إلى ما يريدون، ولا طلاب الآخرة يحرمون من الدنيا، ولكن مع الفارق، وهو أن المجموعة الأولى تذهب إلى الآخرة بأيدي فارغة، والمجموعة الثانية بأيدي مملوءة.

وقد جاء ما يشبه نفس هذا المعنى في الآية ١٨ و ١٩ من سورة الإسراء، ولكن بشكل آخر: «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا

١ - مصطلح (حرث) كما يقول الرابع في مفرداته: تعني في الأصل: رمي البذر في الأرض وتهيئتها للزراعة، وفي القرآن الكريم استخدمت عدة مرّات بهذا المعنى، ولكن لا يعلم سبب اعتبار بعض المفسرين أنها تعني (العمل والكسب).

له جهنم يصلها مذموماً ومدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً».

عبارة «نزد له في حرثه» تلاءم مع ما ورد في آيات قرآنية أخرى، مثل: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها»^(١) و«لوفيهم أجروهم ويزيدهم من فضله»^(٢). على أية حال، فالآية أعلاه صورة ناطقة تعكس التفكير الإسلامي بالنسبة إلى الحياة الدنيا، الدنيا المطلوبة لذاتها، والدنيا التي تعتبر مقدمة للعالم الآخر ومطلوبة لغيرها، فالإسلام ينظر إلى الدنيا على أنها مزرعة يقتطف ثمارها يوم القيامة.

والعبارات الواردة في الروايات أو في آيات قرآنية أخرى تؤكد هذا المعنى. فمثلاً تشبّه الآية (٢١٦) من سورة البقرة المنفقين بالبذر الذي له سبعة سنابل، وفي كلّ سنبله مئة حبة، وأحياناً أكثر. وهذا نموذج لمن يبذر البذور للآخرة. ونقرأ في حديث عن الرسول ﷺ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»^(٣).

وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام»^(٤).

ويمكن أن نستفيد هذه الملاحظة من الآية أعلاه، وهي أن الدنيا والآخرة تحتاجان إلى السعي، ولا يمكن نيلهما دون تعب وأذى، كما أن البذر والشر لا يخلوان من التعب والأذى، لذا فالأفضل للإنسان أن يزرع شجرة ويبذل جهده في تربيتها، ليكون ثمرها حلو المذاق ودائماً وأبدياً، وليست شجرة تموت بسرعة وتُفنى.

١- الأنعام، الآية ١٦٠.

٢- فاطر، الآية ٣٠.

٣- المحجة البيضاء، المجلد الخامس، ص ١٩٣ (كتاب آفات اللسان).

٤- الكافي، وفقاً لنقل نور التنقين، المجلد الرابع، ص ٥٦٩.

ونُنهي هذا الكلام بحديث عن الرسول الأكرم ﷺ حيث يقول: «من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأت من لدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١).

وما هو مشهور بين العلماء أن (الدنيا مزرعة الآخرة) فهو في الحقيقة اقتباس من مجموع ما ذكرناه أعلاه.



الآيات

أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ
وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٣١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ
مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي
يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِفْ حَسَنَةً
نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٣﴾

سبب النزول

لقد ورد في تفسير مجمع البيان سبب نزول للآيات ٢٣ وحتى ٢٦ من هذه
السورة أنه ذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني عثمان بن عمير عن سعيد بن
جبير عن عبدالله بن عباس أن رسول الله حين قدم المدينة واستحکم الإسلام
قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسول الله فنقول له إن تعروك أمور فهذه أموالنا

تحكم فيها غير حرج ولا محذور عليك فأتوه في ذلك فنزلت: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ فقرأها عليهم وقال تودون قرابتي من بعدي فخرجوا من عنده مسلمين لقوله فقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد بذلك أن يذلنا لقرابته من بعده، فنزلت: ﴿أم يقولون افتري على الله كذباً﴾ فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فانزل الله: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ الآية، فأرسل في أثرهم فبشرهم وقال: (ويستجيب الذين آمنوا وهم الذين سلموا لقوله تعالى) (١).

التفسير

أجر الرسالة في مودة أهل البيت عليهم السلام

بما أن الآية ١٣ من هذه السورة كانت تتحدث عن تشريع الدين من قبل الخالق بواسطة الأنبياء أولي العزم، لذا فإن أول آية في هذا البحث - كاستمرار للموضوع - تقول في مجال نفي تشريع الآخرين، وأن جميع القوانين ليست معتبرة قبال القانون الإلهي، وأن التقنين يختص بالخالق: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾.

فهو خالق ومالك ومدبر عالم الوجود، ولهذا السبب تنفرد ذاته المنزهة بحق التقنين، ولا يستطيع شخص أن يتدخل في تشريعاته دون إذن، لذا فكل شيء باطل قبال تشريعه.

وبعد ذلك يقوم القرآن بتهديد المشرعين بالباطل، حيث تقول الآية: ﴿ولو لا كلمة الفصل لفضي بينهم﴾ حيث يصدر الأمر بعذابهم.

وفي نفس الوقت يجب عليهم أن لا ينسوا هذه الحقيقة وهي: ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

المقصود من (كلمة الفصل) هي المدة المقررة المعطاة من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد، كي تكون لهم حرية العمل وتتم الحجة عليهم. كما أن عبارة (ظالمين) تتحدث عن المشركين الذين لهم عقائد منحرفة قبال القوانين الإلهية وذلك بسبب اتساع مفهوم الظلم، وإطلاقه على أي عمل ليس في موده.

ويظهر أن المقصود من (العذاب الأليم) هو عذاب يوم القيامة، لأن هذه العبارة عادة ما تستخدم بهذا المعنى في القرآن الكريم، والآية التي بعدها تشهد على هذه الحقيقة، وما قاله بعض المفسرين (كالقرطبي) من أن ذلك يشمل عذاب الدنيا والآخرة مستبعد.

ثم تذكر الآية بياناً مجملاً حول (عذاب الظالمين) ثم بياناً مفصلاً عن (جزاء المؤمنين)، فتقول: «ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم». «والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات».

«روضات» جمع (روضة) وتعني المكان الذي يشتمل على الماء والشجر الكثير، لذا فإن كلمة (روضة) تطلق على البساتين الخضراء، ونستفيد من هذه العبارة بشكل واضح أن بساتين الجنة متفاوتة، والمؤمنون من ذوي الأعمال الصالحة في أفضل بساتين الجنة، ومفهوم هذا الكلام أن المؤمنين المذنبين سيدخلون الجنة بعد أن يشملهم العفو الإلهي بالرغم من أن مكانهم ليس في (الروضات).

إلا أن الفضل الإلهي بخصوص المؤمنين ذوي الأعمال الصالحة لا ينتهي هنا، فسوف يشملهم اللطف الإلهي بحيث: «لهم ما يشاؤون عند ربهم». ولهذا الترتيب لا يوجد أي قياس بين (العمل) و (الجزاء)، بل إن جزاءهم غير محدود من جميع الجهات، لأن جملة: «لهم ما يشاؤون» تكشف عن هذه الحقيقة. والأجمل من ذلك عبارة «عند ربهم» حيث توضح اللطف الإلهي

اللامتناهي بشأنهم، وهل هناك فوز أكبر من أن يصلوا إلى قرب مقام الخالق؟ فكما يقول بخصوص الشهداء: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾، كذلك يقول بشأن المؤمنين ذوي الأعمال الصالحة: ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾.

وليس غريباً أن تقول الآية في نهايتها: ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾.

وقد قلنا - مراراً - أنه لا يمكن شرح نعم الجنة من خلال الكلام، فنحن المكبلون بقيود عالم المادة، لا نستطيع أن ندرك المفاهيم التي تتضمنها جملة: ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾. فماذا يريد المؤمنون؟ وما هي الألطاف الموجودة في جوارق ربه تعالى؟!!

وعادة عندما يقوم الخالق العظيم بوصف شيء ما بالفضل الكبير، فإن ذلك يكشف عن مقدار العظمة بحيث يكون أعظم من كل ما ن فكر به.

وبعبارة أخرى: سوف يصل الأمر بهؤلاء العباد الخالص أنه سيتوفر لهم كل ما يريدونه، يعني سيظهر في وجودهم شعاع من قدرة الخالق الأزلية، أي ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾^(١)، فهل هناك فضيلة وموهبة أعظم من هذه؟ وليبان عظمة هذا الجزاء تقول الآية التي بعدها: ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

يبشرهم حتى لا تصعب عندهم آلام الطاعة والعبودية ومجاهدة هوى النفس والجهاد حيال أعداء الله، ويقوم هذا الجزاء العظيم بترغيبهم ويعطيهم القدرة والطاقة الكبيرة لسلوك طرق الحياة المليئة بالصعوبات والمشاكل للوصول إلى رضا الخالق.

وقد يتوهم أن نبي الإسلام ﷺ يريد جزاءً وأجرًا على إبلاغ هذه الرسالة، لذا فإن القرآن يأمر الرسول بعد هذا الكلام ليقول: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى﴾ أي حب أهل بيتي.

ومودة ذوي القربى ومحبتهم - كما سيأتي بيانها بشكل مفصل - ترتبط بقضية الولاية وقبول قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام من آل الرسول حيث تعتبر في الحقيقة استمراراً لقيادة النبي ﷺ واستمراراً للولاية الإلهية، وجلي أن قبول هذه الولاية والقيادة كقبول نبوة النبي ﷺ ستكون سبباً لسعادة البشرية نفسها وستعود نتائجها إليها.



توضيح

هناك بحوث متعددة وتفسيرات مختلفة للمفسرين في تفسير هذه الجملة، بحيث إذا ما نظرنا إليها بدون أي موقف مسبق نشاهد أنها ابتعدت عن المفهوم الأصلي للآية بسبب الدوافع المختلفة، وذكروا احتمالات لا تتلاءم مع محتوى الآية، ولا مع سبب نزولها، ولا مع سائر القرائن التاريخية والروائية.

وبشكل عام هناك أربعة تفسيرات معروفة للآية:

١- هو ما قلناه أعلاه، حيث أن المقصود من ذوي القربى هم أقرباء الرسول ﷺ، وحبهم يعتبر وسيلة لقبول إمامة وقيادة الأئمة المعصومين ﷺ من نسل الرسول ﷺ، ودعماً لتطبيق الرسالة.

وقد اختار هذا المعنى جمع من المفسرين الاوائل، وجميع المفسرين الشيعة، ووردت روايات كثيرة من طرق الشيعة والسنة في هذا المجال سنشير إليها لاحقاً.

٢- المقصود هو أن جزاء الرسالة وأجرها هو حب أمور معينة تقربكم من الله.

هذا التفسير الذي ذكره بعض مفسري أهل السنة لا يتلاءم مع ظاهر الآية أبداً، لأن معنى الآية سيصبح هكذا: إنني أريد منكم أن تحبوا طاعة الخالق، وتودونه في قلوبكم، في حين أنه يجب أن يقال: إنني أريد منكم أن تطيعوا

الخالق، (وليس مودة الطاعة الإلهية).

إضافة إلى ذلك فإنه لا يوجد أحد بين المخاطبين في الآية لا يرغب بالتقرب من الخالق، وحتى المشركين كانوا يرغبون بذلك، وكانوا يظنون أن عبادة الأصنام تعتبر وسيلة لهذا الأمر.

٣- المقصود حبّ أقرباءكم بعنوان أجر الرسالة، أي بصلة الرحم. وبملاحظة هذه التفسير لا يوجد أي ترابط بين الرسالة وأجرها، لأنه ماذا يستفيد الرسول ﷺ من حبّ الشخص أقرباءه؟ وكيف يمكن اعتبار هذا الأمر أجراً للرسالة؟!

٤- المقصود أن أجري هو أن تحفظوا قرابتي منكم، ولا تؤذوني، لأنني أرتبط برابطة القرابة مع أكثر قبائلكم (لأن الرسول ﷺ كان يرتبط بقبائل قريش نسبياً، وبالقبائل الأخرى سببياً (عن طرق الزواج)، وعن طريق أمه بعض أهالي المدينة من قبيلة بني النجار، وعن طريق مرضعته بقبيلة بني سعد).

هذه العبارة هي أسوأ تفسير مذكور للآية، لأن طلب أجر الرسالة هو من الأشخاص الذين آمنوا بها، ومع هؤلاء الأشخاص لا توجد حاجة إلى مثل هذا الكلام، فأولئك كانوا يحترمون النبي ﷺ لأنه مرسل إلهي، ولا توجد حاجة لإحترامه بسبب قرابته، لأن الإحترام الناشئ بسبب قبول الرسالة فوق جميع هذه الأمور، وفي الواقع يجب اعتبار هذا التفسير من الأخطاء الكبيرة التي أصابت بعض المفسرين ومسخت مفهوم الآية بشكل كامل.

ولكي نفهم حقيقة محتوى الآية بشكل أفضل، علينا طلب العون من الآيات القرآنية الأخرى:

نقرأ في العديد من آيات القرآن المجيد: ﴿ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾^(١).

وهناك عبارات مختلفة تخصّ الرسول، فقد ورد في القرآن: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾^(١). وفي مكان آخر نقراً: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾.

وأخيراً: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾^(٢). وعندما نضع هذه الآيات الثلاثة إلى جانب الآية التي نبحتها، يسهل علينا الإستنتاج: ففي مكان تنفي الآية الأجر والجزاء بشكل كامل. وفي مكان آخر تقول الآية: إنني أطلب الأجر من الأشخاص الذين يريدون سلوك الطريق إلى الخالق.

وبخصوص الآية الثالثة فإنها تقول: إن الأجر الذي أطلبه منكم إنما هو لكم. وأخيراً فإن الآية التي نبحتها تضيف: إن مودة القريبى هي أجر رسالتى، يعنى أن الأجر الذي طلبته منكم ويشمل هذه الخصوصيات: لا يعود نفعه إليّ أبداً، بل ينفعكم بالكامل، ويعتد الطريق أماكم للوصول إلى الخالق.

وعلى هذا الأساس، فهل تعنى الآية شيئاً آخر سوى قضية استمرار خط رسالة النبي الكريم بواسطة القادة الإلهيين وخلفاءه المعصومين الذين كانوا جميعهم من عائلته؟ لكن لأن المودة هي أساس هذا الارتباط نرى أن الآية أشارت بصراحة إلى ذلك.

والطريف في الأمر أن هناك خمسة عشر مورداً في القرآن المجيد - غير الذي ذكرنا - ذكر فيه كلمة (القريبى) حيث أن جميعها تعنى الأقرباء، ومع هذا الوضع لا نعلم لماذا يصر البعض بحصر معنى كلمة القريبى في (التقرب إلى الله) ويتركون المعنى الواضح والظاهر المستخدم في جميع الآيات القرآنية؟.

١- سياً، الآية ٤٧.

٢- سورة ص، الآية ٨٦.

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أنه ورد في آخر الآية: «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور». وهل هناك حسنة أفضل من أن يكون الإنسان دائماً تحت راية القادة الإلهيين، يحبهم بقلبه، ويستمر على خطهم، يطلب منهم التوضيح للقضايا المبهمة في كلام الخالق، يعتبرهم القدوة والأسوة وسيرتهم وعملهم هو المعيار.



الروايات الواردة في تفسير هذه الآية

الدليل الآخر على التفسير أعلاه هو الروايات المتعددة الواردة في مصادر أهل السنة والشيعه، والمنقولة عن الرسول ﷺ، حيث توضح أن المقصود من (القربى) هم أهل البيت والمقربون وخاصة الرسول، وعلى سبيل المثال نذكر:

١- ينقل (أحمد بن حنبل) في فضائل الصحابة بسنده عن سعيد بن جببر عن عامر: لما نزلت: «قل لا أسألكم عليه أجر إلا المودة في القربى» قالوا: يا رسول الله! ومن قرابتك؟ من هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما عليهم السلام، وقالها ثلاثاً»^(١).

٢- ورد في (مستدرك الصحيحين) أن الإمام علي بن الحسين ﷺ قال: عند استشهاده أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ، وقف الحسن بن علي ﷺ يخطب في الناس، وكان ممّا قال: إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبّيه: «قل لا أسألكم عليه أجر إلا المودة في القربى» ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً» فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت^(٢).

١- إحقاق الحق. المجلد الثالث، ص ٢، كما ذكر القرطبي: أيضاً هذه الرواية في نهاية الآمة التي نبعثها المجلد الثامن، ٥٨٤٣.

٢- مستدرك الصحيحين. المجلد الثالث، ص ١٧٢، وقد نقل محب الدين الطبري نفس هذا الحديث في الذخائر ص ١٣٧، كما ذكر ابن حجر ذلك أيضاً في الصواعق المحرقة، ص ١٠١.

٣- ذكر (السيوطي) في (الدر المنثور) في نهاية الآية التي نبحتها عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال في تفسير آية: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»: «أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي»^(١).

ومن هنا يتضح ضعف ما ينقل عن ابن عباس بطريق آخر من أن المقصود هو عدم إيذاء النبي ﷺ بسبب قرابته مع القبائل العربية المختلفة.

٤- ينقل (ابن جرير الطبري) في تفسيره بسنده عن (سعيد بن جبير) وبسند آخر عن (عمر بن شعيب) أن المقصود من هذه الآية هم قربي رسول الله ﷺ^(٢).

٥- وينقل العلامة الطبرسي عن (شواهد التنزيل) للحاكم الحسكاني، الذي هو من المفسرين والمحدثين المعروفين لأهل السنة، عن (أبي أمامة الباهلي) أن رسول الإسلام ﷺ قال: «إن الله خلق الأنبياء من أشجار شتى، وأنا وعلي من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلي فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها- حتى قال - لو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام، حتى يصير كالشن البالي، ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخره في النار، ثم تلا: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»». والظريف في الأمر أن هذا الحديث اشتهر بدرجة بحيث أن الشاعر المعروف الكمي أشار إلى ذلك في أشعاره، فقال:

وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقى ومعرب^(٣)

٦- وينقل السيوطي أيضاً في (الدر المنثور) عن ابن جرير عن أبي الديلم: عندما تأسر علي بن الحسين عليه السلام، وأوقفوه في بوابة دمشق، قال رجل من أهل الشام: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم.

١- الدر المنثور، نهاية الآية التي نبحتها، المجلد السادس، ص ٧.

٢- تفسير الطبري - المجلد ٢٥ - ص ١٦ و ١٧.

٣- مجمع البيان، المجلد التاسع، ص ٢٩.

قال علي بن الحسين عليه السلام: هل قرأت القرآن؟

قال: نعم

قال: هل قرأت سور حم.

قال: لا.

قال: ألم تقرأ هذه الآية: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى».

قال: أنتم الذين أشارت لهم هذه الآية؟

قال: بلى ^(١).

٧- نقل (الزمخشري) حديثاً في «تفسير الكشاف» وقد اقتبسه أيضاً الفخر

الرازي والقرطبي في تفسيرهما، حيث يوضح هذا الحديث مقام آل محمد وأهمية حبهم، فيقول:

قال رسول الله ﷺ: من مات على حب آل محمد مات شهيداً

ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له

ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً

ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان

ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير

ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة

ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة

ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة

ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس

من رحمة الله

ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً

ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة^(١).

والطريف في الأمر أن (الفخر الرازي) بعد ذكر هذا الحديث الشريف الذي أرسله «صاحب الكشاف» ارسال المسلمات، يقول: «وأنا أقول: آل محمد هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أن فاطمة وعلياً الحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله أشد التعلقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم امته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل، وأما غيرهم فيدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه. وروى فيه صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال علي وفاطمة وابناهما فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إلا المودة في القربى﴾ ووجه الإستدلال به ما سبق.

الثاني: لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة وقال (فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها) وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب علياً والحسن والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ ولقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ ولقوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ ولقوله سبحانه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

الثالث: أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد

١ - تفسير الكشاف، المجلد الرابع، ص ٢٢٠ و ٢٢١، تفسير الفخر الرازي، المجلد ٢٧، ص ١٦٥ و ١٦٦، تفسير القرطبي، المجلد الثامن، ص ٥٨٤٢، تفسير التلمبي، نهاية الآية التي نبحثها عن جليل بن عبد الله البجلي (وفقاً لنقل المراجعات رسالة رقم ١٩).

في الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأرحم محمد وأل محمد. وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب.

وقال الشافعي رضي الله عنه:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كما نظم الغرات الفاض
إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي^(١)

نعم فهذا مقام آل محمد الذين نتمسك بهم ونؤمن بهم كقادة لنا، وسراج لديننا ودينانا، ونعتبرهم أسوة وقدوة لنا، ونرى أن استمرار خط النبوة في إمامتهم.

وطبعاً، فإن هناك روايات كثيرة أخرى غير التي ذكرناها أعلاه، في المصادر الإسلامية، وقد اكتفينا بسبع روايات مراعاة للاختصار، ولكن لا بأس من ذكر هذه الملاحظة، وهي أنه في بعض المصادر الكلامية كإحقاق الحق وشرحه المبسوط، ورد الحديث المعروف أعلاه بشأن تفسير الآية: ﴿قل لا أسألكم أجراً إلا المودة في القربى﴾ منقولاً عن خمسين كتاباً تقريباً من كتب أهل السنة، حيث يبين هذا الأمر مدى انتشار هذه الرواية واشتهارها، بغض النظر عن المصادر الكثيرة التي تنقل هذا الحديث عن طريق أهل البيت عليهم السلام.

* * *

بحوث

١- كلام مع المفسر المعروف (الألوسي)

في هذا المجال يطرح سؤال ذكره الألوسي في تفسير روح المعاني بشكل اعتراض على الشيعة، ونحن نذكر ذلك على شكل سؤال ونقوم بمناقشته: يقول:

«ومن الشيعة من أورد الآية في مقام الإستدلال على إمامة علي كرم الله تعالى وجهه قال: علي كرم الله تعالى وجهه واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الإمامة، ينتج، علي رضي الله عنه صاحب الإمامة وجعلوا الآية دليل الصغرى، ولا يخفى ما في كلامهم هذا من البحث أما أولاً: فلأن الإستدلال بالآية على الصغرى لا يتم إلا على القول بأن معناها لا أسألکم عليه أجراً إلا أن تودوا قرابتي وتحبوا أهل بيتي وقد ذهب الجمهور إلى المعنى الأوّل وقيل في هذا المعنى: إنّه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبه الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم وأيضاً فيه منافاة لقوله تعالى: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾

وأما ثانياً: فلأننا لا نسلم أن كل واجب المحبة واجب الطاعة فقد ذكر ابن بابويه في كتاب الإعتقادات أن الإمامية اجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعة كل منهم.

وأما ثالثاً: فلا لا نسلم إن كل واجب الطاعة صاحب الإمامة أي الزعامة الكبرى وإلا لكان كل نبي في زمنه صاحب ذلك ونص: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ يابى ذلك

وأما رابعاً: فلأن الآية تقتضي أن تكون الصغرى أهل البيت واجبو الطاعة ومتى كانت هذه صغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التي ذكروها ولو سلمت جميع مقدماته، بل ينتج أهل البيت صاحبو الإمامة وهم لا يقولون بعمومه...^(١)



تحليل ومناقشة:

يمكن توضيح جواب العديد من هذه الإشكالات إذا راجعنا تصورنا لهذه

الآية - التي نبحتها - وفقاً للقرائن المتعدده القوية الموجودة في نفس هذه الآية، وسائر الآيات القرآنية الأخرى:

قلنا: إن هذه المحبة ليست أمراً عادياً، بل هي جزاء للنبوة وأجرأ للرسالة، ولا بد أن يكون الأجر والثمن مساوياً للمثمن، حتى يمكن اعتباره جزاءً له.

من جانب ثان فإن الآيات القرآنية تؤكد أن نفع هذه المحبة ليس شيئاً يعود إلى النبي ﷺ، بل إن حاصل ذلك يعود إلى المؤمنين أنفسهم، أو بعبارة أخرى يعتبر أمراً معنوياً يؤثر في هداية المسلمين وتكاملهم.

وبهذا الترتيب فبالرغم من أنه لا يستفاد من الآية سوى وجوب المحبة، إلا أن وجوب المحبة هذه - بمراعاة القرائن المذكورة - لها علاقة بقضية الإمامة التي تعتبر السند لمقام النبوة والرسالة.

ومع هذا التوضيح المختصر سنقوم ببحث الإشكالات أعلاه:

١ - يجب القول أن بعض الترسيبات الذهنية واتخاذ المواقف المسبقة كانت سبباً لعدم تفسير بعض المفسرين للآية بمودة أهل البيت، فمثلاً فسر بعضهم (القريب) لمعنى (التقرب من الخالق) في حين أنها وردت بمعنى الأقرباء في جميع الآيات القرآنية التي تحتوي على هذه الكلمة.

أو أن البعض فسر ذلك بمعنى قرابة النبي مع سائر القبائل العربية، في حين أن هذا التفسير يخل بنظام الآية بشكل كامل، فأجر الرسالة يطلب من الذين قبلوا تلك الرسالة، فهل توجد حاجة للإهتمام بالقرابة وغيض النظر عن الأذى لمن آمن برسالة الرسول ﷺ؟

إضافة إلى ذلك، لماذا نترك الروايات المتعددة التي تفسر الآية بولاية أهل بيت النبي؟

لذا يجب الإعتراف بأن هذه المجموعة من المفسرين لم يفسروا الآية بأذهان خالية من المواقف المسبقة، وإلا فإنه لا يوجد موضوع معقد ضمنها.

ومن هنا يتوضح أن طلب مثل هذا الأجر لا يتعارض، لا مع منزلة النبوة، ولا يشبه تقاليد اصحاب الدنيا، ويتناسق بشكل كامل مع الآية (١٠٤) من سورة يوسف التي تنفي أي نوع من الأجر، لأن أجر مودة أهل البيت في الحقيقة - لا يستفيد منه النبي، بل إن المسلمين هم الذين يستفيدون منه.

٢- صحيح أن وجوب المحبة العادية لا تكون دليلاً أبداً على وجوب الطاعة، لكن عندما تكون هذه المحبة بمستوى الرسالة، عندها ستتيقن بأنها تشمل وجوب الطاعة، ومن هنا يتضح أن قول ابن بابويه (الشيخ الصدوق) لا يتعارض مع ما قلناه.

٣- صحيح أن أي طاعة واجبة لا يكون دليلاً على منزلة الإمامة والزعامة الكبرى، ولكن يجب الإنتباه إلى أن وجوب الطاعة التي هي أجر للرسالة بما يناسب مقامها لا يمكن أن يكون شيئاً سوى الإمامة.

٤- الإمام - بمعنى القائد- لا يمكن أن يكون أكثر من واحد في أي عصر، وبناء على ذلك فإنه لا يوجد أي معنى لإمامة أئمة أهل البيت عليهم السلام جميعهم، إضافة لذلك يجب الإستفادة من دور الروايات في هذا المجال لفهم معنى الآية. والملفت للنظر أن الآلوسي نفسه يهتم كثيراً بمودة أهل البيت، ويقول في بضع سطور قبل هذا البحث:

«والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث أنهم قرابته... وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد... وآثار تلك المودة التعظيم والإحترام والقيام بأداء الحقوق أتمّ قيام وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك. وأنا أقول قول الشافعي الشافعي:

واهتف بساكن خيفها والناهض
فيضاً كملتطم الفرات الفاض

يا راكباً قف بالمحصب من منى
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي
ومع هذا لا أعتقد الخروج عما يعتقدُه أكابر أهل السنة في الصحابة رضي الله تعالى
عنهم ديناً، وأرى حجتهم فرضاً علي مبيناً، فقد أوجبه الشارع وقامت على ذلك
البراهين السواطع^(١).

٢- سفينة النجاة

ذكر الفخر الرازي في نهاية هذا البحث ملاحظة، كما ذكرها الألوسي أيضاً في
روح المعاني بعنوان (ملاحظة لطيفة) وذلك نقلاً عن الفخر الرازي، حيث يعتقد أن
بعض التناقضات ستزول من خلال هذه الملاحظة هي: إن الرسول الأكرم قال من
جانب: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجت» ومن جانب آخر
قال: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

فنحن الآن تائهون في بحر التكليف، وأمواج الشبهات والشهوات تعصف بنا
من كل جانب، ومن يريد أن يعبر هذا البحر يحتاج إلى شيتين:
الأول: السفينة الخالية من أي عيب أو نقص.
والثاني: النجوم المتألثة التي توضح الطريق.

فعندما يركب الإنسان في السفينة وتراقب عيناه النجوم الوضاء، عندها
سيكون هناك أمل بالنجاة، وبالمثل فأَي واحد من أبناء السنة عندما يركب في
سفينة حب آل محمد وينظر إلى الأصحاب (النجوم) عندها سيكون هناك أمل بأن
يوصله الخالق جل وعلا إلى السعادة والسلامة في الدنيا والآخرة^(٢).

وكلنا نقول أن هذا التشبيه الشعري ليس دقيقاً بالرغم من جماله، لأن سفينة
نوح كانت مركب النجاة في ذلك اليوم، عندما غطت الأمواج العاصفة والمياه كل

١- تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣٢.

٢- تفسير الفخر الرازي، المجلد ٢٧، ص ١٦٧.

العالم، وكانت في حركة دائبة، وليست مثل السفن العادية التي لها مرفأً تتجه إليه مقتدية بالنجوم.

لقد كان الهدف السفينة نفسها، والنجاة من الفرق، حتى غاظ الماء واستوت على الجودي.

إضافة إلى ذلك فإنّ بعض الروايات الواردة في كتب أهل السنة تنقل عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «النجوم أمان لأهل الأرض من الفرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الإختلاف في الدين»^(١).

٣- تفسير «ومن يقترف حسنة...»

«اقترف» في جملة: «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً» مأخوذة في الأصل من (قرف) على وزن (حرف) وتعني قطع القشرة الإضافية من الشجرة، أو من الجروح الحاصلة، حيث تكون أحياناً علامة على شفاء الجرح وتحسنه، هذه الكلمة استخدمت فيما بعد في الإكتساب سواء كان حسناً أو سيئاً.

ولكن كما يقول الراغب - فإن هذا المصطلح استخدم في السيئات أكثر ممّا هو في الحسنات (بالرغم من أن الآية التي نبحثها استخدمته في الحسنات). لذلك فإن هناك مثل معروف يقول: الإعتراف يزيل الإقتراف.

والطريف في الأمر أنّ بعض التفاسير تنقل عن ابن عباس و(السدي) أن المقصود من (اقتراف الحسنة) في الآية الشريفة هو مودة آل محمّد^(٢).

وجاء في حديث ذكرناه سابقاً عن الإمام الحسن بن علي^(٣): «اقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت».

١- نقل (العاكف) هذا الحديث عن ابن عباس في المجلد الثالث (المستدرک) ص ١٤٩، ثم يقول: هنا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٢- مجمع البيان نهاية الآيات التي نبحثها، وتفسير الصافي والقرطبي.

وواضح أنّ المقصود من هذه التفاسير أن معنى اكتساب الحسنة لا يتحدد بمودة أهل البيت عليهم السلام، بل له معنى أوسع وأشمل ولكن بما أن هذه الجملة وردت بعد قضية مودة ذي القربى، لذا فإن أوضح مصداق لاكتساب الحسنة هو هذه المودة.

٤- مكان نزول هذه الآيات

هذه السورة (سورة الشورى) من السور المكّية، كما قلنا في البداية، إلا أن بعض المفسرين يعتقدون أن هذه الآيات الأربع (٢٣ - ٢٦) نزلت في المدينة، وسبب النزول الذي ذكرناه في بداية تفسير هذه الآيات يشهد على هذا المعنى. وأيضاً فإنّ الروايات التي تفسر أهل البيت بعلي وفاطمة وابنيهما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام تناسب هذا المعنى، لأننا نعلم أن زواج علي من سيدة النساء عليها السلام تمّ في المدينة، وولادة الحسن والحسين عليهما السلام كانتا في العام الثالث والرابع الهجري على ما رواه المؤرخون.



الآيات

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ
وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَطْلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ
السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٨﴾

التفسير

يقبل التوبة عن عباده:

هذه الآيات تعتبر استمراراً للآيات السابقة في موضوع الرسالة وأجرها،
ومودة ذوي القربى وأهل البيت عليهم السلام.

فأول آية تقول: إن هؤلاء القوم لا يقبلون الوحي الإلهي، بل: «أَمْ يَقُولُونَ
افتري على الله كذباً» وهذا الاعتقاد وليد أفكارهم حيث ينسبونه إلى الخالق.
في حين: «فإن يشأ الله يختم على قلبك» ويجردك من قابلية إظهار هذه
الآيات.

وفي الحقيقة، فإن هذا الأمر إشارة إلى الإستدلال المنطقي المعروف، وهو أنه إذا ادعى شخص النبوة، وجاء بالآيات البينات والمعجزات، وشمله النصر الإلهي، فلو كذب على الخالق فإن الحكمة الإلهية تقتضي سحب المعجزات منه وفضحه وعدم حمايته، كما ورد في الآيات (٤٤) إلى (٤٦) من سورة الحاقة: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين احتمالات أخرى في تفسير هذه الجملة، إلا أن ما قلناه أعلاه هو أفضل وأوضح التفاسير كما يظهر.

ونلاحظ أيضاً أن إحدى التهم التي نسبها الكفار والمشركون إلى الرسول ﷺ هي أنه يعتبر أجر الرسالة في مودة أهل بيته وأنه يكذب على الخالق في هذا الأمر: (جاء ذلك وفقاً للبحث في الآيات السابقة) إلا أن الآية أعلاه نفت هذه التهمة عنه ﷺ.

ولكن بالرغم من هذا، فإن مفهوم الآية لا يختص بهذا المعنى، فأعداء الرسول كانوا يتهمونه بهذه التهمة في كل القرآن والوحي كما تقول الآيات القرآنية الأخرى، حيث نقرأ في الآية (٣٨) من سورة يونس: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوات بسورة مثله﴾.

وورد نفس هذا المعنى باختلاف بسيط في الآيات (١٣) و (٣٥) من سورة هود، وقسم آخر من الآيات القرآنية، حيث أن هذه الآيات دليل لما انتخبناه من تفسير للآية أعلاه.

ثم تقول الآية لتأكيد هذا الموضوع: ﴿ومع الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾^(١). فهذه هي مسؤولية الخالق في توضيح الحق وفضح الباطل وفقاً لحكمته، وإلا

١ - لا حظوا أن «مع» هي في الأصل كانت (يمحو) حيث سفطت الواو لأن الرسم القرآني - عادة - هكذا. مثل «ويبدع الإنسان بالشر» (الأنبياء - ١١) «وسندع الزبانية» (العلق - ١٨)، إلا أنه وفقاً للرسم الحديث فإن الواو تذكر في جميع هذه الكلمات - إلا أنها تحذف في القرآن غالباً.

فكيف يسمح لشخص بالكذب عليه وفي نفس الوقت ينصره ويظهر على يديه المعاجز؟

كما أن من الاخطاء الكبيرة أن يتصور البعض قيام الرسول ﷺ بهذا العمل مخفياً ذلك عن علم الخالق: «إنه علم بذات الصدور».

وكا قلنا في تفسير الآية ٣٨ من سورة فاطر، فإنّ (ذات) لا تعني في اللغة العربية عين الأشياء وحقيقتها، بل هو مصطلح من قبل الفلاسفة^(١)، حيث أن ذات تعني - (الصاحب)، عندها سيكون مفهوم جملة: «إنه علم بذات الصدور» إن الخالق عليم بالأفكار والعقائد المسيطرة على القلوب، وكأنما هي صاحبة هذا القلب ومالكته.

وهذه إشارة لطيفة إلى استقرار الأفكار وحاكمتها على قلوب وأرواح الناس (فدقق في ذلك).

وبما أن الخالق يبقي طريق الرجعة مفتوحاً أمام العباد، لذا فإن الآيات القرآنية بعد ذم أعمال المشركين والمذنبين القبيحة تشير الى أن الابواب التوبة مفتوحة دائماً: ولذا تقول الآية محل البحث: «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات».

إلا أنكم إذا تظاهرتم بالتوبة وأخفيتم أعمالاً أخرى، فلا تتصوروا أن ذلك يخفى عن علم الخالق، لأنه: «ويعلم ما تفعلون».

وقلنا في سبب النزول الذي ذكرناه في بداية الآيات السابقة، أنه بعد نزول آية المودة، قال بعض المنافقين وضعفاء الإيمان: إن هذا الكلام افتراه محمد على الخالق، ويريد به أن يذلنا بعده لأقرباءه، عندها نزلت آية: «أم يقولون افتري على الله كذباً» رداً عليهم، وعندما علموا ينزول هذه الآية تندم بعضهم وبكى وبات قلق البال، في ذلك الوقت نزلت الآية: «وهو الذي يقبل التوبة...» وبشرتهم بغفران

الذنب إذا تابوا إلى الله توبةً نصوحاً.

أما آخر آية فتوضح الجزاء العظيم للمؤمنين، والعذاب الأليم للكافرين في جمل قصيرة فتقول: إن الله تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين وطلباتهم: «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات». بل: «ويزيدهم من فضله» وسوف يعطيهم ما لم يطلبوا. «والكافرون لهم عذاب شديد».

وقد تم ذكر تفاسير مختلفة للأمر الذي سيستجيبه من المؤمنين، حيث أن بعض المفسرين حدد ذلك في طلبات معينة، منها:
أنه سيستجيب دعاء المؤمنين أحدهم للآخر.
ومنها أنه سيقبل عباداتهم وطاعاتهم.
ومنها أن ذلك مختص بشفاعتهم لاخوانهم.

ولكن لا يوجد أي دليل على هذا التحديد، حيث أن الخالق سيستجيب أي طلب للمؤمنين الذين يعملون الصالحات والأكثر من ذلك فإنه سيهبهم من فضله أموراً قد لا تخطر على بالهم ولم يطلبوها، وهذا غاية اللطف والرحمة الإلهية بخصوص المؤمنين.

وورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول الأكرم عليه السلام في تفسير: «ويزيدهم من فضله»: «الشفاعة لمن وجبت له النار ممن أحسن إليهم في الدنيا»^(١).

ولا يعني هذا الحديث العظيم في معناه اقتصار الفضل الإلهي بهذا الأمر فحسب، بل يعتبر أحد مصاديقه الواضحة.



الآيات

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ
بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ
الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٣٨﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَمَا أَصْنَبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ
فَمَا كَسَبَتْ أُنْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٤١﴾

سبب النزول

نقل عن الصحابي المعروف (خباب بن الأثرث) أن الآية الأولى: «ولو بسط...» نزلت فينا، وذلك بسبب أننا كنا ننظر إلى الأموال الكثيرة لبني قريظة وبني النضير وبني القينقاع من اليهود، وكنا نرغب بامتلاكنا لمثل هذه الأموال، إلا أن هذه الآية نزلت وحذرتنا من أن الخالق لو بسط لنا في الرزق فسوف نطغى^(١).

١ - تفسير المغفر الرازي، تفسير أبو الفتح الرازي، وتفسير القرطبي (نهاية الآية التي نبحتها).

وفي تفسير (الدر المنثور) ورد حديث آخر، وهو أن هذه الآية نزلت في أهل الصفة، لأنهم كانوا يملون بتحسن وضع دنياهم^(١).
وهناك تفصيل في نهاية الآيات بخصوص أصحاب الصفة ومن هم؟

التفسير

المترفون الباغون:

قد يكون ارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة بلحاظ ما ورد في آخر آية من الآيات السابقة من أن الخالق يستجيب دعوة المؤمنين، وفي أعقاب ذلك يطرح هذا السؤال: لماذا نرى البعض منهم فقراء، ولا ينالون ما يرغبونه مهما يدعون؟ تقول الآية: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء».

وبهذا الترتيب فإن تقسيم الأرزاق يقوم على حساب دقيق من قبل الخالق تجاه عباده، وهذا يحدث بسبب: «إنه بعباده خير بصير».

فهو يعلم بمقدار استيعاب أي شخص فيعطيه الرزق وفقاً لمصلحته، فلا يعطيه كثيراً لئلا يظغى، ولا قليلاً لئلا يستغيث من الفقر.

وجاء ما يشبه هذا المعنى في الآية (٦) و(٧) من سورة العلق: «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى».

وهو حقاً كذلك، فالبحث في أحوال الناس يدل على هذه الحقيقة الصادقة، وأنه عندما تقبل الدنيا عليهم ويعيشون في رفاهية وسعة، ينسون الخالق ويتعدون عنه ويفرقون في بحر الشهوات، ويفعلون ما لا ينبغي فعله، ويشيعون الظلم والجور والفساد في الأرض.

وفي تفسير آخر عن (ابن عباس) في هذه الآية ورد أن المقصود من (البغي)

١ - ينقل الدر المنثور هذا الحديث عن الحاكم والبيهقي وأبي نعيم (ج ٦ ص ٨).

ليس الظلم والجور، وإنما (بغى) تعني (طلب) أي يكون معنى الآية أنهم يطلبون أكثر ولا يشبعون.

إلا أن التفسير الأول مقبول من قبل عدة مفسرين وهو الأفضل كما يظهر، لأن عبارة: «يبغون في الأرض» وردت عدة مرات في الآيات القرآنية بمعنى الفساد والظلم في الأرض، مثل: «فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق»^(١) و«إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق»^(٢).

صحيح أن (بغى) وردت بمعنى (طلب) أيضاً، إلا أنها متى ما تذكر مع كلمة (في الأرض) فإنها تعني الفساد والظلم في الأرض.

وهنا يطرح سؤالان:

الأول: لو كان تقسيم الأرزاق وفق هذا البرنامج، فلماذا إذن نرى أشخاصاً لهم رزق وفير وقد أفسدوا وطغوا كثيراً في الدنيا ولم يمنعهم الخالق، سواء على مستوى الأفراد، أو الدول الناهية والظالمة؟

وفي الجواب على هذا السؤال يجب الإتيان إلى هذه الملاحظة، وهي أن بسط الرزق أحياناً قد يكون أسلوباً للإمتحان والاختبار، لأن جميع الناس يجب أن يُختبروا في هذا العالم، فقسم منهم يختبرون بواسطة المال.

وأحياناً قد يكون بسط الرزق لبعض الافراد لكي يعلموا بأن الثروة لا تجلب السعادة، فعسى أن يعثروا على الطريق ويرجعوا إلى خالقهم، ونحن الان نرى بعض المجتمعات غرقى بأنواع النعم والثروات، وفي نفس الوقت شملتهم مختلف المصائب والمشاكل، كالخوف، والقتل، والتلوث الخلقي، والقلق بأنواعه المختلفة. فأحياناً تكون الثروة غير المحدودة نوعاً من العقاب الإلهي الذي يشمل

١- يونس، الآية ٢٣.

٢- آية ٤٢ من نفس هذه السورة.

بعض الناس، فإذا نظرنا إلى حياتهم من بعيد نراها جميلة، أما إذا تفحصناها عن قرب فسوف نشاهد التعاسة بأدنى حالاتها!، وفي هذا المجال هناك قصص عديدة لسلطين الثروة في الدنيا، حيث يطول بنا المقام لو أردنا سردها.

السؤال الآخر هو: ألا يعني هذا الكلام أنه متى ما كان الإنسان فقيراً فلا ينبغي له السعي للتوسع في الرزق، لأن الخالق جعل مصلحته في هذا الفقر؟ وللجواب على هذا السؤال نقول: إنه قد تكون قلة الرزق بسبب كسل الإنسان وتهاونه أحياناً، فهذا النقص والحرمان ليس ما يريد الله حتماً، بل بسبب أعماله، والإسلام يدعو الجميع إلى الجهد والجهاد والمثابرة وفقاً لتأكيده على أصل السعي وبذل الجهد الذي يشير إليه القرآن في آيات عديدة، وسنة الرسول ﷺ والائمة الأطهار عليهم السلام.

ولكن عندما يبذل الإنسان منتهى جهده، ورغم ذلك تغلق الأبواب في وجهه، عليه أن يعلم بأن هناك مصلحة معينة في هذا الأمر، فلا يجزع، ولا ييأس، ولا ينطق بالكفر، ويستمر في محاولاته ويستسلم لرضا الخالق أيضاً. وتجدر الإشارة إلى هذه الملاحظة وهي أن كلمة (عبادة) لا تتعارض أبداً مع الطغيان عند بسط الرزق، لأن هذه العبارة تستخدم في الأفراد الصالحين والسيئين والمتوسطي الحال، مثل: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله».

صحيح أن الخالق ينزل الرزق بقدر حتى لا يغطي العباد، إلا أنه لا يمنعهم أو يحرمهم، لذا فإن الآية التي بعدها تقول: «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته».

ولماذا لا يكون هذا: «وهو الولي الحميد»؟

هذه الآية تتحدث عن آيات وعلائم التوحيد في نفس الوقت الذي تبيّن فيه نعمة ولطف الخالق، لأن نزول المطر يشتمل على نظام دقيق للغاية ومحسوب،

فعندما تشرق الشمس على المحيطات تفصل ذرات الماء الدقيقة عن الأملاح وترسلها على شكل سحب إلى السماء، ثم تقوم طبقات الجو العليا الباردة بتكثيفها، ثم تحملها الرياح إلى الأراضي اليابسة، ثم تتحول أخيراً إلى قطرات مطر بسبب برودة الهواء وضغطه الخاص وتهطل على الأرض، وتتفد فيها دون تخريب.

نعم، فلو دققنا النظر في هذا النظام، فسنجد علائم قدرة الخالق وعلمه متجلية فيه، فهو الولي الحميد الذي يقوم بتأمين كل حاجات العباد وتشملهم الطافه العديدة.

ولابد القول أن كلمة (غيث) تعني المطر النافع، كما يقول العديد من المفسرين وبعض علماء اللغة، في حين أن (المطر) يطلق على جميع الأنواع الأخرى النافعة والضارة.

لذا، فبعد تلك الجملة وردت عبارة: ﴿وينشر رحمته﴾.

ياله من تعبير لطيف وشامل! فهو ينشر رحمته لإحياء الأراضي الميتة، ونمو النباتات وتنظيف الهواء، وتأمين ماء الشرب للإنسان وباقي الكائنات الحية، والخاصة في جميع المجالات.

فلو أراد الإنسان أن يدرك مفهوم هذه الجملة القرآنية، فإنّ عليه أن يتوجه نحو الجبال والسهول بعد نزول المطر وعندما تشرق الشمس، كي يشاهد الجمال واللطافة ورحمة الخالق الواسعة وهي تعمر كل مكان.

وقد تكوه الاستفادة من كلمة (غيث) بسبب أن لها جذوراً مشتركة مع (غوث) المأخوذة من الإغاثة، ولهذا السبب فإن بعض المفسرين اعتبر الكلمة أعلاه إشارة إلى أي إغاثة من قبل الخالق بعد اليأس ونشر رحمته^(١).

ولهذه المناسبة - أيضاً - فإن الآية التي بعدها تتحدث عن أهم آيات علم

١- يقول الراغب في مفرداته: اللوث يقال في النصرة، والغيث في المطر.

وقدرة الخالق، حيث تقول: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة﴾.

فالسموات بعظمتها، بمجراتها وكواكبها، بملايين الملايين من النجوم العظيمة اللامعة، بنظامها الدقيق الذي يبهت الإنسان عند مطالعته لها. والأرض بمناجمها الحياتية ونباتاتها المتنوعة ولورود والفواكه بمختلف البركات والمواهب والجمال! كلها تعتبر آيات وعلائم تدل عليه... هذا من جانب.

ومن جانب آخر فالأحياء في الأرض والسماء، كأنواع الطيور، ومئات الآلاف من الحشرات، وأنواع الحيوانات الأليفة والمتوحشة، والزواحف، والأسماك بأنواعها وأحجامها، والعجائب المختلفة الموجودة في كل نوع من هذه الأنواع، والأهم من ذلك حقيقة (الحياة) وأسرارها التي لم يستطع أحد التوصل إلى كنهها بعد آلاف السنين من البحوث لملايين العلماء، كل ذلك هو من آيات الخالق.

والملفت للنظر أن (دابة) تشمل الكائنات الحية المجهرية التي لها حركات لطيفة وعجيبة، وتشمل الحيوانات الكبيرة العملاقة التي يصل طولها إلى عشرات الأمتار ووزنها إلى عشرات الأطنان، فكل صنف يستبح على طريقته الخاصة ويحمد الخالق، ويبين عظمته تعالى وقدرته وعلمه اللامحدود، بلسان حاله.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾^(١).

أما ما هو المقصود من جمع الأحياء الذي تذكره هذه الآية؟ فقد ذكر العديد من المفسرين أنه الجمع للحساب وجزاء الأعمال في القيامة، ويمكن اعتبار الآيات التي تذكر القيامة بعنوان (يوم الجمع) دليلاً على هذا المعنى (مثل الآية ٧ من نفس هذه السورة والآية ٩ من سورة التغابن).

١- (إذا) وكما يقول صاحب الكشاف، تدخل على الفعل المضارع كما تدخل على الفعل الماضي، مثل ﴿والليل إذا يفتن﴾ ولكن الفعل أكثر ما يكون بعد (إذا) على شكل الماضي وقليل جداً على شكله المضارع.

وهنا قد يطرح هذا السؤال وهو: هل أن جميع الأحياء سيحشرون يوم القيامة، حتى غير الإنسان؟ حيث يقال أحياناً أن كلمة (دابة) تطلق على غير الإنسان. وهنا ستطرح هذه المشكلة وهي كيف ستحشر الأحياء من غير الإنسان للحساب. في حين أنها لا تتمتع بعقل ولا اختيار ولا تكليف؟

وقد ورد جواب هذا السؤال في نهاية الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾.

وقلنا أن حياة العديد من الحيوانات مقترنة مع نظام بدعي وعجيب، فما المانع من أن تكون أعمالها نتاج نوع من العقل والشعور فيها؟ وهل هناك ضرورة لأرجاع جميع هذه الأمور إلى الغريزة؟ وفي هذه الحالة يمكن تصور نوع من الحشر والحساب لها (اقرأ شرحاً أكثر لهذا الموضوع في ذيل تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام).

ويحتمل في تفسير الآية أعلاه أن المقصود من (الجمع) الجانب المقابل لـ (بت)، أي أن (بت) تشير إلى خلق أنواع الكائنات الحية باختلافها، ثم إذا شاء الخالق (جمعها) وأفناها. فكما أن العديد من الأحياء - (على مدى التاريخ) - انتشرت بشكل عجيب، ثم انقرضت واختفت فيما بعد. كذلك جمعها وإبادتها يكون بيد الخالق، فهي في الحقيقة تشبه الآيات التي تقول: يحيي ويميت (أي الخالق).

وبهذا فإن قضية حساب الحيوانات سوف تكون أجنبية عن هذه الآية.

النجوم السماوية الأهلة:

من الإستنتاجات المهمة التي نستنتجها من خلال هذه الآية، أنها تدل على وجود مختلف الأحياء في السماوات، وبالرغم من عدم صدور الرأي النهائي

للعلماء بهذا الخصوص، إلا أنهم يقولون وعلى نحو الإيجاز: هناك احتمال قوي بوجود عدد كبير من النجوم من بين الكواكب السماوية تحتوي على كائنات حية، إلا أن القرآن يصرح بهذه الحقيقة من خلال: «وما بث فيها من دابة».

وما يقوله بعض المفسرين من احتمال تخصص (فيهما) بالكرة الأرضية غير سديد، لوجود ضمير المثني والذي يعود إلى السماء والأرض معاً، وكذلك لا يصح ما قيل في تفسير (دابة) بالملائكة، لأن دابة تطلق عادة على الكائنات المادية. ويمكن الاستفادة هذا المعنى أيضاً من خلال الآيات القرآنية المتعددة الأخرى.

وفي حديث ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور»^(١).

وهناك روايات أخرى متعددة في هذا المجال (يمكن مراجعة كتاب «الهيئة والإسلام» لمزيد من المعلومات).

وبما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن الرحمة الإلهية، لذا يطرح سؤال في هذا المجال، وهو كيف تجتمع الرحمة وكل هذه المصائب التي تصيبنا؟ الآية الأخرى تجيب على هذا السؤال وتقول: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم».

ثم إن هذا الجزاء ليس جزاءً على جميع أعمالكم القبيحة، لأنه «ويعفو عن كثير».



ملاحظات

علة المصائب:

ومن الضروري الإنتباه إلى بعض الملاحظات الواردة في هذه الآية:

١- تبين هذه الآية وبوضوح أن المصائب التي تصيب الإنسان هي نوع من التحذير والعقاب الإلهي (بالرغم من وجود بعض الإستثناءات التي سنشير إليها فيما بعد).

وبهذا الترتيب سيتوضح لنا جانب من فلسفة الحوادث المؤلمة والمشاكل الحياتية.

والطريف في الأمر أننا نقرأ في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنه نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «خير آية في كتاب الله هذه الآية، يا علي ما من خدش عود، ولا نكبة قدم إلا بذنب، وما عفى الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده»^(١). وهكذا فإن هذه المصائب إضافة إلى أنها تقلل من حمل الإنسان، فإنها تجعله يتزن في المستقبل.

٢- بالرغم من عمومية الآية وشمولها كل المصائب، لكن توجد استثناءات لكلم عام، مثل المصائب والمشاكل التي أصابت الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام بهدف الإختبار أو رفع مقامهم.

وأيضاً المصائب بهدف الاختبار التي تشمل غير المعصومين. أو المصائب التي تحدث بسبب الجهل أو عدم الدقة في الأمور وعدم الإستشارة والتساهل والتي هي آثار تكوينية لأعمال الإنسان نفسه. وبعبارة أخرى فإن الجمع بين الآيات القرآنية المختلفة - والأحاديث -

١- مجمع البيان، المجلد ٩، ص ٣١ (نهاية الآيات التي نبحثها) وقد ورد ما يشبه هذا الحديث في (الدر المتثور) وتفسير (روح المعاني) مع بعض الإختلاف وذلك في نهاية الآيات التي نبحثها، والأحاديث في هذا المجال كثيرة.

يقتضي التخصيص في بعض الموارد بالنسبة لهذه الآية العامة، وليس هذا موضوعاً جديداً ليكون محل نقاش بعض المفسرين.

وخلاصة القول فإنّ هناك غايات مختلفة للمصائب والمشاكل التي تصيب الإنسان، حيث تمت الإشارة إليها في المواضيع التوحيدية وبحوث العدل الإلهي. فالملكات تنمو وتتكامل تحت ضغط المصائب، ويكون هناك حذر بالنسبة للمستقبل، ويقظة من الغرور والغفلة وكفارة للذنوب و...

وبما أن أغلب أعمال الأفراد لها طبيعة جزائية وتكفيرية، لذا فإنّ الآية تطرح ذلك بشكل عام.

ولذا فقد ورد في الحديث أنّه وعندما دخل علي بن الحسين عليه السلام على يزيد بن معاوية، نظر إليه يزيد وقال: يا علي، ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم (إشارة إلى أنّ مأساة كربلاء هي نتيجة أعمالكم).

إلا أنّ الإمام عليه السلام أجابه مباشرة: «كلا ما نزلت هذه فينا، إنّما نزل فينا:» وما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا من أمر الدنيا، ولا نفرح بما أوتينا»^(١).

ونتهي هذا الكلام بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فعندما سئل عن تفسير الآية أعلاه قال: تعلمون أن علياً وأهل بيته قد أصيبوا بالمصائب من بعده، فهل كان ذلك بسبب أعمالهم؟ في حين أنّهم أهل بيت الطهر، والعصمة من الذنوب، ثمّ أضاف: نص إنّ رسول الله كان يتوب إلى الله ويستغفر في كلّ يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب، إنّ الله يخص أوليائه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب^(٢).

٣- البعض يشكك في أن يكون المقصود من المصائب في هذه الآية مصائب

١- تفسر علي بن بن إبراهيم طبقاً لنور الثقلين، المجلد الرابع، ص ٥٨٠.

٢- أصول الكافي طبقاً لنور الثقلين، المجلد الرابع، ص ٥٨١.

الدنيا، لأن الدنيا هي دار العمل وليس دار الثواب والجزاء. وهذا خطأ كبير، لوجود آيات وروايات متعددة تؤكد أن الإنسان يرى - أحياناً - جانباً من نتيجة أعماله في هذه الدنيا، وما يقال من أن الدنيا ليست داراً للجزاء ولا تتم فيها تصفية جميع الحسابات، لا يعني عدم الجزاء بشكل مطلق، حيث أن إنكار هذه الحقيقة يشبه إنكار البديهيات، كما يقول المطلعون على المفاهيم الإسلامية.

٤- أحياناً قد تكون المصائب جماعية، وبسبب ذنوب الجماعة، كما نقرأ في الآية (٤١) من سورة الروم: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون». وواضح أن هذا يختص بالمجتمعات الإنسانية التي أصيبت بالمصائب بسبب أعمالها.

وردد في الآية ١١ من سورة الرعد: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وهذه الآيات تدل على وجود ارتباط وعلاقة قريبة بين أعمال الإنسان والنظام التكويني للحياة، فإذا سار الناس وفقاً لأصول الفطرة وقوانين الخلق فستشملهم البركات الإلهية، وعند فسادهم يفسدون حياتهم.

وأحياناً قد يصدق هذا الأمر بخصوص آحاد الناس، فكل إنسان سيصاب في جسمه وروحه أو أمواله وممتلكاته الأخرى بسبب الذنب الذي يرتكبه، كما جاء في الآية أعلاه^(١).

على أية حال، فقد يتصور البعض أنهم يستطيعون الهروب من هذا القانون الإلهي الحتمي. لذا فإن آخر آية في هذا البحث تقول: «وما أنتم بمعجزين في

الأرض»^(١). وفي السماء بطريق أولي وكيف تستطيعون الهروب من قدرته وحاكميته في حين أن كلَّ عالم الوجود هو في قبضته ولا منازع له؟
وإذا كنتم تعتقدون بوجود من سيساعدكم وينصركم، فاعلموا: «ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير».

قد يكون الفرق بين (الولي) و (النصير) هو أن الولي هو الذي يقوم بجلب المنفعة، والنصير هو الذي يقوم بدفع الضرر، أو أن الولي يقال لمن يدافع بشكل مستقل، والنصير يقال لمن يقف إلى جانب الإنسان ويقوم بنصرته.
وفي الحقيقة فإن آخر آية تجسد ضعف وعجز الإنسان، والآية التي قبلها عدالة الخالق ورحمته^(٢).



مسائل مهمة

الأولى: مصائبكم بما كسبت أيديكم:

يتصور العديد من الناس أن علاقة أعمال الإنسان بالجزاء الإلهي مثل العقود الدنيوية وما تحتويه من الأجر والعقاب، في حين قلنا - مراراً - إن هذه العلاقة أقرب ما تكون إلى الارتباط التكويني منه إلى الارتباط التشريعي.
وبعبارة أخرى فإنَّ الأجر والعقاب أكثر ما يكون بسبب النتيجة الطبيعية والتكوينية لأعمال الإنسان حيث يشملهم ذلك. والآيات أعلاه خير شاهد على هذه الحقيقة.

وبهذا الخصوص هناك روايات كثيرة في المصادر الإسلامية تشير إلى بعضها

١ - «معجزين» من كلمة (عجاز) إلا أنها وردت في العديد من الآيات القرآنية بمعنى الهروب من محط القدرة الإلهية ومن عقابه، حيث يقتضي معناها ذلك.

٢ - في ظلال القرآن - المجلد السابع ص ٢٩٠.

لتكميل الموضوع:

١ - ورد في إحدى خطب نهج البلاغة: «ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش، فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربّهم بصدق من نياتهم، ووله من قلوبهم، لردّ عليهم كلّ شارد، وأصلح لهم كلّ فاسد»^(١).

٢ - وهناك حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في (جامع الأخبار) حيث يقول: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»^(٢).

وهذا الحديث خير شاهد للإستثناءات التي ذكرناها لهذه الآية.

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في الكافي أنّه قال: «إن العبد إذا كثرت ذنوبه، ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها، ابتلاه بالحزن ليكفرها»^(٣).

٤ - وهناك باب خاص لهذا الموضوع في كتاب أصول الكافي يشمل ١٢ حديثاً^(٤).

وكل هذه هي غير الذنوب التي صرحت الآية أعلاه بأن الخالق سيشملها بعفوه ورحمته، حيث أنّها - بحد ذاتها - كثيرة.

الثانية: اشتباه كبير

قد يستنتج البعض بشكل خاطيء من هذه الحقيقة القرآنية ويقول بوجود الإستسلام لأي حادثة مؤسفة، إلا أن هذا الأمر خطير للغاية، لأنّه يستفيد من هذا الأصل القرآني التربوي بشكل معكوس ويستنتج نتيجة تخديرية.

١ - نهج البلاغة - الخطبة ١٧٨.

٢ - بحار الأنوار، المجلد ٨١ ص ١٩٨.

٣ - الكافي - المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر - باب تمجيد عقوبة الذنب - الحديث ٢.

٤ - المصدر السابق.

فالقرآن لا يقول أبداً بالإستسلام حيال المصائب وعدم السعي لحل المشاكل، والركون للظلم والجور والمرض، بل يقول: إذا شملتك المصائب بالرغم من سعيك ومحاولاتك لدفعها، فاعلم أن ذلك هو كفارة الذنوب التي قمت بها وارتكبتها، عليك أن تفكر بأعمالك السابقة، وتستغفر لذنوبك، وتصلح نفسك وتكتشف نقاط ضعفك.

وإذا ورد في الروايات أن هذه الآية من أفضل آيات القرآن، فذلك بسبب تأثيرها التربوي المهم، ومن جانب آخر تقوم بتخفيف هموم الإنسان، وتعيد الأمل وعشق الخالق إلى قلبه وروحه.

الثالثة: من هم أصحاب الصفة؟

الذين يذهبون إلى زيارة قبر النبي ﷺ في المدينة، يشاهدون مكاناً مرتفعاً قليلاً عن الأرض في زاوية المسجد وقرب القبر الشريف حيث عزلت أطرافه بشكل جميل عن باقي المسجد، كما أن الكثير ينتخب هذا المكان لتلاوة القرآن والصلاة.

هذا المكان يذكرنا بمكان (الصفة) وهو المحل الذي هياه النبي ﷺ لمجموعة من الغرباء الذين اعتنقوا الإسلام ولم يكن لديهم مأوى سوى المسجد^(١).

توضيح:

أول شخص غريب اعتنق الإسلام ولم يكن يملك مكاناً في المدينة هو شاب من أهل اليمامة يسمى (جوير) حيث أن قصة زواجه الشهيرة مع (الذلفاء) تعتبر من أجمل حوادث محاربة الفواصل الطبعية في التاريخ الإسلامي.

وقد سمح له الرسول ﷺ بالمبيت ليلاً في المسجد، لأنه لا يملك مكاناً للإستراحة والسكن، وعندما كثر عدد الغرباء - وكلهم سكن المسجد - أدى ذلك إلى وضع سلمي للمسجد، أمر الرسول ﷺ بإخراجهم من المسجد وتطهيره، واغلقت أبواب بيوت الصحابة التي كانت شارعة إلى المسجد بأمر الرسول ﷺ ما عدا بيت علي وفاطمة عليهما السلام.

عندها أمر الرسول ﷺ بتسقيف مكان معين بسعف النخل ليكون محلاً لسكن الغرباء والفقراء، وكان بنفسه يزورهم ويعطيهم الماء والتمر والخبز والمواد الغذائية الأخرى، وقام باقي المسلمين بالإهتمام بهم ومساعدتهم عن طريق الزكاة وأنواع الإنفاق الأخرى.

وقد اشترك هؤلاء في المعارك الإسلامية وجاهدوا بإخلاص، وقد وردت بعض الآيات القرآنية لتذكر فضلهم وصفاءهم وطهرهم، وقد سخطوا (بأصحاب الصفة) لأنهم سكنوا تلك (الصفة).



الآيات

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٣١﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ
الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٢﴾ أَوْ يُوقِفُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٣﴾
وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِيبٍ ﴿٣٤﴾ فَمَا
أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٥﴾

التفسير

هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن ﷻ

مرة أخرى نشاهد أن هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق وأدلة التوحيد، وتستمر في البحث الذي أشارت إليه الآيات السابقة بهذا الخصوص. وهنا تذكر موضوعاً يتعامل معه الإنسان كثيراً في حياته المادية، خصوصاً المسافرين عبر البحار وسكان السواحل، حيث تقول الآية: «ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام».

«جوار» جمع (جارية) وهي صفة للسفن حيث لم تذكر للإختصار، وعادة فإن

الآية تقصد حركة السفن، ولذا فقد استخدمت هذه الصفة.

ويقال للبنت الشابة «جارية» لأن الشباب والنشاط يجري في عروقها ووجودها.

«أعلام» جمع (علم) على وزن (قلم) وتعني الجبل، إلا أنها في الأصل بمعنى العلامة والأثر الباقي الذي يخبر عن شيء معين، مثل (علم الطريق) و(علم الجيش) وما شابه.

أما لماذا سمي الجبل بالعلم؟ فذلك لأنه ظاهر من بعيد، وأحياناً كانوا يشعلون النار فوق قمته حتى تكون مناراً للسائرين، إلا أن وجود النار وعدمها لا يؤثر في التسمية.

وعلى هذا الأساس فإن القرآن يعتبر حركة السفن العملاقة في هذه الآية - كما في الآيات المتعددة الأخرى - بسبب هبوب الرياح المنتظمة، من آيات الخالق.

فليس مهماً حركة السفينة الصغيرة أو الزوارق على سطح الماء بسبب هبوب الرياح، المهم حركة السفن والبواخر العملاقة بحمولتها الكبيرة ومسافريها المتعددين عند هبوب الرياح، فتقطع آلاف الأميال وتصل إلى مرساها.

فمن الذي خلق هذه المحيطات بخصوصياتها ومياهاها وعمقها؟ من أعطى للخشب الذي تصنع منه السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

ومن يأمر الرياح بالهبوب بشكل منظم على سطح البحار والمحيطات كي يستطيع الانسان أن يصل من نقطة إلى أخرى بالاستفادة من هذه الرياح؟

نعم، فلو أخذنا بعين الاعتبار الخرائط التي يملكها البحارة بخصوص حركة الرياح، والمعلومات التي يملكها البشر حول هبوب الرياح من القطبين نحو خط الإستواء ومن خط الإستواء إلى القطبين، وأيضاً هبوب الرياح المتناوبة من السواحل واليابسة نحو البحار وبالعكس، عندها سندرك أن هذا الأمر مخطط وله

نظام.

في زماننا، تقوم المحركات الضخمة بتحريك السفن ودفعها إلى الأمام، إلا أن الرياح تبقى مؤثرة أيضاً في حركة هذه السفن.

وللتأكيد أكثر تقول الآية: «إِنَّ يَشَأُ يسكن الريح فيظلمن رواكد على ظهره». وكإستنتاج تضيف الآية في نهايتها: «إِنَّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور».

نعم، فهبوب الرياح، وحركة السفن، وخلق البحار، والنظام الخاص المتناسق الذي يتحكم بهذه الأمور... كلُّها آيات مختلفة للذات المقدسة.

ونعلم أن هبوب الرياح يتم بسبب الاختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين على الكرة الأرضية، لأنَّ الهواء يتمدد بسبب الحرارة ويتحرك نحو الأعلى، ويضغط على الهواء المحيط به ويقوم بتحريكه، ومن جانب آخر يترك مكانه للهواء المجاور له عند تحركه نحو الطبقات العليا، فلو سحب الخالق هذه الخاصية (خاصية التمدد) من الهواء، عندها سيطغى السكون والهدوء القاتل وستقف السفن الشراعية في عرض البحار دون أية حركة.

«صبار» و«شكور» صيغتا مبالغة حيث تعطي الأولى معنى كثرة الصبر، والثانية كثرة الشكر. وهذان الوصفان واردان في هذه الآية - وفي موارد أخرى^(١) - يشيران إلى ملاحظات لطيفة.

فهاتان الصفتان توضحان حقيقة الإيمان، لأن المؤمن صبور في المشاكل والإبتلاءات وشكور في النعم، وقد ورد في حديث عن الرسول ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر»^(٢).

إضافة إلى ذلك، فإنَّ البحث في أسرار نظام الخلق يحتاج إلى الصبر والإستمرار وتخصيص الوقت الكافي، ومن جانب ثان يستحق شكر لمنعم.

١- إبراهيم - ٥، لقمان - ٣٦، سبأ - ١٩، والآية التي نبحثها.

٢- تفسير الصافي، مجمع البيان، الفخر الرازي والقرطبي نهاية الآية (٣٦) من سورة لقمان.

فمتى ما توفر هذان العاملان عندها يكون الإنسان مؤهلاً للبحث في هذه الآيات، وعادةً فإنّ البحث في أسرار الخلق يعتبر بحد ذاته نوعاً من الشكر. ومن جانب ثالث، فإنّ هاتين الصفتين تتجسدان في الإنسان أكثر من أي وقت مضى متى ما ركب في السفينة، حيث الصبر حيال حوادث ومشاكل البحار، والشكر عند الوصول إلى الساحل.

مرّة أخرى، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهية، تقول الآية الأخرى: «أو يوبقهن بما كسبوا» أي لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التي ارتكبتها المسافرين.

وكما قرأنا في الآيات الماضية، فإنّ المصائب التي تصيب الإنسان غالباً ما تكون بسبب أعماله.

إلاّ أنه بالرغم من ذلك فإنّ اللطف الإلهي يشمل الإنسان: «ويعف عن كثير». فلولا عفو الخالق لم يكن لينجو أحد من عذاب الخالق سوى المعصومين والخواص والطاهرين، كما نقرأ ذلك في الآية (٤٥) من سورة فاطر: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى». نعم، فهو يستطيع أن يمنع الرياح من الهبوب حتى تقف السفن في وسط البحار والمحيطات، أو يحوّل هذه الرياح إلى عواصف هوجاء تدمر هذه السفن والبواخر، إلاّ أن لطفه العام يمنع هذا العمل.

«ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص»^(١) وما لهم من ملجأ سوى ذاته المنزهة.

فهؤلاء سوف لا يشملهم العفو الإلهي، لأنّهم عارضوه بعلم ووعي، واستمروا

١ - جملة «ويعلم الذين يجادلون...» كما يقول الزمخشري في كشافه: وردت منصوبة بسبب عطفا على تعليل محذوف وتقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون... فالهدف أن ينتقم الخالق من هذه المجموعة، والهدف أن يعلم المجادلون بعدم وجود طريق للنجاة.

في محاربتة عن عداوة وعناد، فهؤلاء سوف لا يشملهم عفوه ورحمته، ولا خلاص لهم من عذابه.

«محيص» مأخوذة من كلمة (حيص) على وزن (حيف) وتعني الرجوع والعدول عن أمر ما، وبما أن (محيص) اسم مكان، لذا وردت هذه الكلمة، بمعنى محل الهروب أو الملجأ.

والكلام في آخر آية موجه إلى الجميع حيث تقول: «فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا».

فلا تتصوروا أنه سيقبى لكم، لأنه كالوميض الذي يبرق ثم يخبو، وكالشعلة في مهبّ الريح والفقاعة على سطح الماء، ولكن «وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون».

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنيوي الزائل المحدود التافه بمتاع أبدي خالد، فتلك هي التجارة المربحة العديمة النظير.

فالمواهب في هذه الدنيا لا تخلو من المشاكل، حيث توجد الأشواك دائماً إلى جانب الورود، والمحبطات إلى جانب الآمال، في حين أن الأجر الإلهي لا يحتوي على أي إزعاجات، بل هو خير خالص ومتكامل.

ومن جانب آخر فإن هذه المواهب مهما كانت فستزول حتماً، إلا أن الجزاء الأخروي أبدي خالد، عندها هل يقبل العقل أن يستغني الإنسان عن هذه التجارة المربحة، أو يصاب بالغرور والغفلة وتبهره زخارف الدنيا؟

لذا فإننا نقرأ في الآية ٣٨ من سورة التوبة: «ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل».

وأساساً، فإن «الحياة الدنيا» (بالمعنى المتقدم) تشير إلى الحياة الدنية والحقيرة، وطبيعي أن أي متاع أو وسائل للإستفادة من مثل هذه الحياة ستكون - أيضاً - مثلها في القيمة.

لذا فقد ورد في حديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل أن يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟!»^(١).
 والملفت للنظر أنه ورد في هذه الآية التأكيد على الإيمان والتوكل، وهذا بسبب أن نيل الأجر الإلهي هو للذين يفوضون أمورهم في جميع الأعمال ويستسلمون له تعالى إضافة إلى الإيمان، لأن التوكل يعني تفويض الأمور. وتقابل هذه المجموعة أشخاص يجادلون في آيات الله بسبب حب الدنيا والإرتباط بالمتاع الزائل، ويقلبون الحقائق، وبهذا الترتيب فإن آخر آية هي بمثابة تعليل للآية التي قبلها، والتي كانت تتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله.



الآيات

وَالَّذِينَ يَحْتَبِئُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

التفسير

المؤمنون لا يستسلمون للظلم:

هذه الآيات استمرار للبحث الوارد في الآيات السابقة بخصوص الأجر

الإلهي للمؤمنين المتوكلين.

فبعد ذكر الإيمان والتوكل اللذين لهما طبيعة قلبية، تشير هذه الآيات إلى سبعة أنواع من البرامج العملية للصفتين السابقتين سواء كانت إيجابية أو سلبية، فردية أو إجتماعية، مادية أو معنوية، وهذه البرامج توضح أسس المجتمع الصالح والحكومة الصالحة القوية.

والملفت للنظر أن هذه الآيات نزلت في مكة - كما يظهر - وفي ذلك اليوم لم

يكن قد تأسس المجتمع الإسلامي بعد، ولم يكن هناك وجود للحكومة الإسلامية، إلا أن هذه الآيات أعطت التفكير الإسلامي الصحيح في هذا الخصوص منذ ذلك اليوم، حيث كان الرسول الكريم ﷺ يعلمهم ويربّتهم لغرض الاستعداد لبناء المجتمع الإسلامي في المستقبل.

فأول صفة تبدأ من التطهير حيث تقول الآية أن الثواب الإلهي العظيم سوف يكون من نصيب المؤمنين المتوكلين: «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش»^(١).

«كبائر» جمع «كبيرة» وتعني الذنوب الكبيرة، أما ما هو المعيار في الكبائر؟ البعض فسرها بالذنوب التي توعد القرآن في آياته بعذاب النار لها، وأحياناً الذنوب التي تستوجب الحد الشرعي.

وقد احتمل البعض أنها إشارة للبدع وإيجاد الشبهات الاعتقادية في أذهان الناس.

ولكننا لو رجعنا إلى المعنى اللغوي لكلمة «كبيرة» فإنها تعني الذنب الذي يكون كبيراً ومهماً من وجهة نظر الإسلام، وأحد علائم أهميته أنه ورد في القرآن المجيد وتوعد بالعذاب عليه، وقد ورد تفسير للكبائر في روايات أهل البيت عليهم السلام بأنها: «التي أوجب الله عزّ وجلّ عليها النار»^(٢).

وعلى هذا الأساس فلو توضحت أهمية وعظمة الذنب بطرق أخرى، عندها سيشمله عنوان (الكبائر).

«فواحش» جمع «فاحشة» وتعني الأعمال القبيحة للغاية والممقوتة، وذكر هذه العبارة بعد كلمة (الكبائر) من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وفي الحقيقة فإن

١ - يعتقد غالب المفسرين أن «الذين يجتنبون» عطف لـ «الذين آمنوا» في الآية السابقة. بالرغم من احتمال البعض أنها مبتدأ خبره محذوف (وفي التقدير والذين يجتنبون... لهم مثل ذلك من الثواب) إلا أن المعنى الأول أفضل ظاهراً.

٢ - نور الثقلين، المجلد الأول، ص ٤٧٣.

التأكيد على الذنوب القبيحة للغاية بعد ذكر اجتناب المؤمنين الحقيقيين عن جميع الذنوب الكبائر، للتأكيد على أهمية ذلك.

وعلى هذا الأساس فإن أول علائم الإيمان والتوكل هو الإجتنب عن (الكبائر)، فكيف يمكن للإنسان أن يدعي الإيمان والتوكل على الخالق، في حين أنه مصاب بأنواع الذنوب وقلبه وكر من أوكار الشيطان؟!

أما ثاني صفة، والتي لها طبيعة تطهيرية أيضاً، فهي السيطرة على النفس عند الغضب الذي يعتبر من أشدّ حالات الإنسان حيث تقول الآية: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾.

فهؤلاء لا يفقدون السيطرة على أنفسهم عند الغضب ولا يرتكبون الجرائم عنده، والأكثر من ذلك غسل قلوبهم وقلوب الآخرين من الحقد بواسطة مياه العفو والغفران.

وهذه الصفة لا تتوفر إلا في ظل الإيمان الحقيقي والتوكل على الحق. والطريف في الأمر أن الآية لا تقول: إنهم لا يغضبون، لأن الغضب من طبيعة الإنسان، وهناك ضرورة له في بعض الأحيان خاصة عندما يكون لله وفي طريق إحقاق الحق، بل تقول: إنهم لا يلوثون أنفسهم بالذنب عند الغضب، وبكل بساطة يغفون ويغفرون، ويجب أن يكونوا هكذا، فكيف يمكن للإنسان أن ينتظر العفو الإلهي في حين أن أعماقه مليئة بالحقد وحب الانتقام، ولا يعترف بأي قانون عند الغضب؟ وإذا شاهدنا التأكيد على الغضب هنا، فذلك لأنّ هذه الحالة كالنار الحارقة التي تلتهب في داخل أعماق الإنسان، وهناك الكثيرون الذين لا يستطيعون ضبط أنفسهم في تلك الحالة، إلا أن المؤمنين الحقيقيين لا يستسلمون أبداً للغضب.

وررد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «من ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب،

وإذا غضب، حرم الله جسده على النار»^(١).

الآية الأخرى تشير إلى الصفة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، حيث تقول: «والذين استجابوا لربهم».

«وأقاموا الصلاة».

«أمرهم شورى بينهم»^(٢).

«وممّا رزقناهم ينفقون».

فالآية السابقة كانت تتحدث عن تطهير النفس من الذنوب والتغلب على الغضب، إلا أن الآية التي نبحثها تتحدث عن بناء النفس في المجالات المختلفة، ومن أهمها إجابة دعوة الخالق، والتسليم حيال أوامره، حيث أن الخير كلّ الخير تجسد في هذا الأمر. فهم مستسلمون بكل وجودهم لأوامره، وليست لهم إرادة إزاء إرادته، ويجب أن يكونوا هكذا، لأن الإستسلام والإستجابة أمران حتميان بعد تطهير القلب والروح من آثار الذنب الذي يعيق السير نحو الحق.

ونظراً لوجود بعض القضايا المهمة في التعليمات الإلهية يجب الإشارة إليها بالخصوص، لذا نرى أن الآية أشارت إلى بعض المواضيع المهمة وخاصة (الصلاة) التي هي عمود الدين وحلقة الوصول بين المخلوق والخالق ومربية النفوس، وتعتبر معراج المؤمن وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

بعد ذلك تشير الآية إلى أهم قضية اجتماعية وهي «الشورى» فبدونها تعتبر جميع الأعمال ناقصة، فالإنسان الواحد مهما كان قوياً في فكره وبعيداً في نظره، إلا أنه ينظر للقضايا المختلفة من زاوية واحدة أو عدّة زوايا، وعندها ستختفي عنه الزوايا والأبعاد الأخرى، إلا أنه وعند التشاور حول القضايا المختلفة تقوم العقول

١ - تفسير علي بن إبراهيم - طبقات لنقل نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ٥٨٣.

٢ - يقول بعض المفسرين أنه متى ما كانت (شورى) مصدراً وتعني المشاورة يجب أن تضاف لها كلمة (ذو) ويصبح تقدير الجملة (أمرهم ذو شورى بينهم)... أو للمبالغة والتأكيد، لأن ذكر (المصدر) بدلاً من (الصفة) يوصل هذا المعنى عادة، لكن إذا كانت شورى كما يقول الراغب في مفرداته بمعنى (الأمر الذي يتشاور فيه) عندها لا حاجة للتقدير (لاحظ ذلك).

العقول والتجارب المختلفة بمساعدة بعضها البعض، عند ذلك ستتوضح الأمور وتقل العيوب النواقص ويقل الإنحراف.

لذا فقد ورد في حديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلا هدي إلى الرشد».

والملفت للنظر أن العبارة وردت هنا على شكل برنامج مستمر للمؤمنين، ليس في عمل واحد ومؤقت، بل يجب أن يكون التشاور في جميع الأعمال. والطريف في الأمر أن الرسول ﷺ كان أيضاً يتشاور مع أتباعه وأنصاره في القضايا الاجتماعية المهمة والتنفيذية والصلح والحرب والأمور المهمة الأخرى بالرغم من تكامل عقله وارتباطه بمصدر الوحي، وكان يشاور أصحابه أحياناً بالرغم من المشكل التي تحصل من جراء ذلك، لكي يكون أسوة وقدوة للناس، لأن بركات الإستشارة أكثر بكثير من احتمالات ضررها.

وهناك تفصيلات في نهاية الآية (١٥٩) من سورة آل عمران بخصوص (الإستشارة) و (شروط الشورى) و(أوصاف الذين يجب استشارتهم) و(مسؤولية المستشار) حيث لا نرى ضرورة إلى إعادة ذلك، إلا أنه يجب أن نضيف بعض الملاحظات الأخرى:

أ- الشورى تختص بالأعمال التنفيذية ومعرفة الموضوع وليست لمعرفة الأحكام، لأنها يجب أن تؤخذ من مصدر الوحي ومن الكتاب والسنة، وعبارة (أمرهم) تشير إلى هذا المعنى أيضاً، لأن الأحكام ليست من شأن الناس، بل هي من أمر الخالق.

ولذا فلا أساس لما يقوله بعض المفسرين كالألوسي من أن الشورى تشمل الأحكام أيضاً، حيث لا يوجد نص خاص بذلك، خاصة وأتينا نعتقد بعدم وجود أي أمر في الإسلام ليس له نص عام أو خاص صادر بشأته، وإلا فما فائدة «اليوم

أكملت لكم دينكم»^(١) [يجب قراءة تفصيلات عن هذا المعنى في كتب أصول الفقه بخصوص بطلان الاجتهاد بمعنى التقنين في الإسلام].

ب- قال بعض المفسرين إن شأن نزول عبارة: «أمرهم شورى بينهم» خاص بالأنصار بخصوص الأنصار، إما لأن أعمالهم قبل الإسلام كانت وفقاً للشورى، أو هي إشارة إلى تلك المجموعة من الأنصار الذين آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ وبإيعوه في (العقبة)، ودعوه إلى المدينة (لأن هذه السورة مكية، والآيات أعلاه نزلت في مكة كما يظهر أيضاً).

وعلى أية حال، فإن الآية لا تختص بسبب نزولها، بل توضح برنامجاً عاماً وجماعياً.

ونتهي هذا الكلام بحديث عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «لا ظهير كالمشاورة، والاستشارة عين الهداية»^(٢).

ومن الضروري الإشارة إلى أن آخر صفة وردت في هذه الآية لا تشير إلى الإنفاق المالي فحسب، وإنما إنفاق كل ما أعطاه الخالق من الرزق كالمال والعقل والذكاء والتجربة، والتأثير الاجتماعي، والخلاصة: الإنفاق من كل شيء.

وتقول الآية بخصوص سابع صفة للمؤمنين الحقيقيين: «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون» أي أنهم إذا تعرضوا للظلم لا يستسلمون له، بل يطلبون النصر من الآخرين.

وواضح أن الآخرين مكلفون بالانتصار ضد الظلم، لأن طلب النصر دون النصرة يعتبر لغو ولا فائدة فيه، وفي الحقيقة فإن المظلوم مكلف بمقاومة الظالم وطلب النصرة، وأيضاً فإن المؤمنين مكلفون بإجابته، كما ورد في الآية (٧٢) من سورة الأنفال حيث نقرأ: «وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر».

١- المائدة، الآية ٣.

٢- وسائل الشريعة، المجلد الثامن، ص ٤٢٥ (باب ٢١ من أبواب الأحكام العسرية).

هذا البرنامج الإيجابي البناء يحذر الظالمين من مغية ظلم المؤمنين، حيث أنهم لا يسكتون على ذلك ويقفون بوجوههم. وهو أيضاً يؤمل المظلومين بأن الآخرين سوف ينصرونكم عند استغاثتكم.

«ينتصرون» من كلمة «انتصار» وتعني طلب النصر، إلا أن البعض فسرها بمعنى «التناصر» والنتيجة واحدة للتوضيح الذي ذكرناه.

على أية حال، فأى مظلوم إذا لم يستطع أن يقف بوجه الظلم بمفرده، فعليه ألا يسكت، بل يستفيد من طاقات الآخرين والنهوض بوجه الظلم، ومسؤولية جميع المسلمين الإستجابة لإستغاثته وندائه.

ولكن بم أن التناصر يجب أن لا يخرج عن حد العدل وينتهي إلى الإنتقام والحقد والتجاوز عن الحد، لذا فإن الآية التي بعدها اشترطت ذلك بالقول: «وجزاء سيئة سيئة مثلها».

يجب أن لا تتجاوزوا عن الحد بسبب أن أصدقاءكم هم الذين ظلموا فتقبلوا إلى أشخاص ظالمين، وخاصة الافراط في الرد على الظلم في مجتمعات كالمجتمع العربي في بداية الإسلام، لذا يجب التمييز بين نصرة المظلوم والإنتقام. وعمل الظالم يجب أن يسمى بـ (سيئة) إلا أن جزاءه وعقابه ليس (سيئة) وإذا وجدنا أن الآية عبّرت عن ذلك بالسيئة فبسبب التقابل بالألفاظ واستخدام القرائن، أو أن الظالم يعتبرها (سيئة) لأنه يعاقب، أو يحتمل أن يكون استخدام لفظة (السيئة) لأن العقاب أليم ومؤذٍ، والألم والأذى بحد ذاته (سيء) بالرغم من أن قصاص الظالم ومعاقبته يعتبر عملاً حسناً بحد ذاته.

وهذا يشبه العبارة الواردة في الآية (١٩٤) من سورة البقرة: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله».

على أية حاله، فإن هذه العبارة يمكن أن تكون مقدمة للعبء الوارد في الجملة التي بعدها، وكأنما تريد الآية القول: إن العقاب مهما كان فهو نوع من الأذى، وإذا

ندم الشخص عندها يستحق العفو.

لذا ففي مثل هذه الموارد ينبغي عليكم العفو، لأن ﴿من عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

صحيح أنه فقد حقه ولم يحصل على شيء في الظاهر، إلا أنه بسبب عفو، العفو الذي يعتبر أساس انسجام المجتمع والتطهر من الأحقاد وزيادة أواصر الحب وزوال ظاهرة الإنتقام والإستقرار الإجتماعي، فقد تعهد الخالق بأن يعطيه من فضله الواسع، وبإلها من عبارة لطيفة (على الله) حيث أن الخالق يعتبر نفسه مديناً لمثل هؤلاء الأشخاص ويقول بأن أجرهم عليّ.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾.

وقد تكون هذه الجملة إشارة إلى بعض الملاحظات:

فأولاً: قد يكون العفو بسبب أن الإنسان لا يستطيع أحياناً السيطرة على نفسه بدقة عند العقاب والقصاص، وقد يتجاوز الحد ويكون في عداد الظالمين.

وثانياً: إن هذا العفو ليس بمعنى الدفاع عن الظالمين، لأن الله لا يحب الظالمين أبداً، بل إن الهدف هو هداية الضالين وتثبيت الأواصر الإجتماعية.

وثالثاً: إن الذين يستحقون العفو هم الذين يكفون عن الظلم ويندمون على ما ارتكبوه في الماضي، ويقومون بإصلاح أنفسهم، وليس للظالمين الذين يزدادون جرأة بواسطة هذا العفو.

وبعبارة أوضح، فإن كلاً من العفو والعقاب له موقعه الخاص، فالعفو يكون عندما يستطيع الإنسان الإنتقام، وهذا يسمى العفو البناء، لأنه يمنح المظلوم المنتصر قابلية السيطرة على النفس وشفاء الروح، وأيضاً يفرض على الظالم المغلوب إصلاح نفسه.

والعقاب والإنتقام والردّ بالمثل يكون عندما يبقى الظالم مستمراً في غيبه وضلاله، والمظلوم لم يثبت أركان سيطرته بعد، فالعفو هنا يكون من موقع الضعف

فيجب الردّ بالمثل.

وقد ورد في حديث عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنة، فيقال: من ذا الذي أجره على الله؟ فيقال: العاقون عن الناس، فيدخلون الجنة بغير حساب»^(١).

وهذا الحديث - في الحقيقة - هو النتيجة المستوحاة من آخر آية في هذا البحث، والإسلام الأصل هو هذا.



الآيات

وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ إِنَّمَا
السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٣﴾

التفسير

الظلم والانتصار:

تعتبر هذه الآيات - في الحقيقة - تأكيداً وتوضيحاً وتكميلاً للآيات السابقة بشأن الانتصار ومعاقة الظالم والعفو في المكان المناسب، والهدف من ذلك أن معاقة الظالم والانتقام منه من حق المظلوم، ولا يحق لأحد منعه عن حقه، وفي نفس الوقت فإذا صادف أن سيطر المظلوم على الظالم وانتصر عليه، وعند ذلك صبر ولم ينتقم فإن ذلك يعتبر فضيلة كبرى.

فأولاً تقول الآية: «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل»^(١) فلا يحق لأحد أن يمنع هذا العمل، ولا يلوم ذلك الشخص أو يوبخه أو يعاقبه،

١ - عبارة (ظلمه) هي من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

ولا يتوانى في نصر مثل هذا المظلوم، لأن الانتصار وطلب العون من الحقوق الطبيعية لأي مظلوم، ونصر المظلومين مسؤولية كل إنسان حر ومتيقظ الضمير. «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق». وإضافة إلى عقابهم الدنيوي «أولئك لهم عذاب أليم» ينتظرهم في الآخرة. يقول بعض المفسرين حول الإختلاف بين جملة «يظلمون الناس» وجملة «يبغون في الأرض بغير الحق» أن الجملة الأولى إشارة إلى موضوع (الظلم) والثانية إلى (التكبر)^(١).

البعض الآخر اعتبر الأولى إشارة إلى (الظلم) والثانية إشارة إلى (الوقوف بوجه الحكومة الإسلامية).

«بغى» تعني في الأصل الجد والمثابرة والمحاولة للحصول على شيء ما، ولكن كثيراً ما تطلق على المحاولات لغصب حقوق الآخرين، والتجاوز عن حدود وحقوق الخالق، لذا فإن للظلم مفهوماً خاصاً وللبغى مفهوماً عاماً يشمل أي تعدٍ أو تجاوز للحقوق الإلهية.

عبارة (بغير الحق) تأكيد لهذا المعنى، وعلى هذا الأساس فإن الجملة الثانية من باب ذكر العام بعد ذكر الخاص.

أما آخر آية فتشير مرّة أخرى إلى الصبر والعفو، لكسي تؤكد أن الإنتقام والعقاب والقصاص من الظالم لا يمنع المظلوم من العفو، حيث تقول: «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور»^(٢).

«العزم» في الأصل يعني (التصميم لإنجاز عمل معين)، ويطلق على الإرادة القوية، وقد تكون عبارة (عزم الأمور) إشارة إلى أن هذا العمل من الأعمال التي أمر الله بها ولا يمكن أن تتسرخ، أو أنه من الأعمال التي يجب أن يشد الإنسان

١- تفسر (الكشاف)، (روح المعاني) و(روح البيان) نهاية الآيات التي نبحثها.

٢- اللام في (لمن صبر) هي لام القسم وفي (لمن عزم الأمور) للتأكيد، والإنسان يوضحان أهمية هذا الأمر الإلهي أي (العفو).

العزم لها، وأياً كان من المعنيين فهو يدل على أهمية هذا العمل.
والملفت للنظر ذكر (الصبر) قبل (الغفران)، لأنه مع عدم وجود الصبر لا يمكن
أن يحصل العفو والغفران، حيث يفقد الإنسان السيطرة على نفسه ويحاول الانتقام
مهما كان.

ومرة أخرى نذكر بهذه الحقيقة، وهي أن العفو والغفران مطلوبان في حال
القوة والإقتدار، وأن يستفيد الطرف المقابل من ذلك بأفضل شكل أيضاً، وقد
تكون عبارة «من عزم الأمور» لتأكيد هذا المعنى أيضاً، لأن التصميم بخصوص
شيء معين يحدث عندما يكون الإنسان قادر على إنجاز ذلك الشيء، على أية
حال فإن العفو الذي يكون مفروضاً من قبل الظالم، أو يشجعه في عمله ويجرئه
على ذلك، غير مطلوب.

بعض الروايات فسرت الآيات أعلاه بثورة الإمام المهدي (عج) وانتقامه
وانتصاره على الظالمين والمفسدين في الأرض. وكما قلنا عدة مرات سابقاً فإن
مثل هذه التفاسير من قبيل بيان المصداق الواضح ولا تمنع من عمومية مفهوم
الآية وشموليته^(١).



الآيات

وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا
رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ ﴿١٤﴾ وَتَرَاهُمْ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَفِيٍّ
وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿١٥﴾ وَمَا
كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٦﴾

التفسير

هل من سبيل للرجعة؟

الآيات السابقة كانت تتحدث عن الظالمين، أما الآيات التي نبحثها فتشير إلى عاقبة هذه المجموعة وجوانب من عقابها. فهي تعتبرهم من الضالين الذين لا يملكون أي ولي، فتقول: «ومن يضل الله فما له من ولي من بعده».

الملمون بتعابير القرآن بخصوص الهداية والضلالة، يعرفون بوضوح أنه لا الهداية ولا الضلالة مفروضة وجبرية، إنما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس. فأحياناً يقوم الإنسان بعمل معين وبسببه يسلب الخالق منه التوفيق ويطمس على قلبه ويمنع عنه نور الهداية ويتركه سابحاً في الظلمات.

وهذا هو عين الإختيار والحرية، فلو أن شخصاً أصر على شرب الخمر وأصيب بأنواع الأمراض، فإنه هو الذي جلب هذا الوضع وهذه الأمراض إلى نفسه، فالخالق مسبب الأسباب ويعطي التأثيرات المختلفة للأشياء، ولهذا السبب تربط النتائج به أحياناً^(١).

على أية حال، فإن هذا أحد أكثر العقوبات ألماً بالنسبة للظالمين، ثم تضيف الآية: «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل».

فقد تحدث القرآن المجيد عدة مرات عن طلب الكافرين والظالمين العودة، فأحياناً عند الموت مثل الآية (٩٩) و (١٠٠) من سورة المؤمنون: «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي اعمل صالحاً فيما تركت».

وأحياناً عند القيامة عندما يقتربون من الجحيم، كما تقول الآية (٢٧) من سورة الأنعام: «ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين».

ولكن مهما كانت هذه الطلبات فإنها ستواجه بالرفض، لأن العودة غير ممكنة أبداً، وهذه سنة إلهية لا تقبل التغيير، فكما أن الإنسان لا يمكنه الرجوع من الكهولة إلى الشباب، أو من الشباب إلى الطفولة، أو من الطفولة إلى عالم الأجنة، كذلك يستحيل الرجوع إلى الوراء والعودة إلى الدنيا من عالم البرزخ أو الآخرة. الآية الأخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعة حيث تقول: «وتراهم

١- هناك شرح مفصل في هذا الخصوص في نهاية الآية (٣٦) من سورة الزمر، حيث أوضحنا جميع جوانب هذا الموضوع.

يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي»^(١).

فالقلق والخوف الشديد يسيطران على وجودهم، والذلة والإستسلام يطغيان عليهم، وانتهى كل شيء من التكبر ومحاربة وظلم وإبذاء المظلومين، وينظرون من طرف خفي إلى النار.

هذه صورة لحالة شخص يخشى من شيء أشد خشية ولا يريد أن ينظر إليه بعينين مفتوحتين، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يتغافل عنه، لذا فهو مجبور على النظر إليه، لكن بطرف خفي.

بعض المفسرين قالوا: إن جملة (طرف خفي) تعني هنا النظر بعين نصف مفتوحة، لأنهم لا يستطيعون فتح العين كاملةً من شدة الخوف والهول العظيم، أو أنهم من شدة الأتھيار والإعياء لا يستطيعون فتح العين بشكل كامل.

فعندما تكون حالة الإنسان هكذا قبل أن يدخل النار... فماذا سيجري عليه عندما يطؤها ويهوي في أعماقها؟!!

أما آخر عقاب ذكر هنا، فهو سماع اللوم والتوبيخ الأليم من المؤمنين، كما جاء في آخر الآية: «وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة».

فهل هناك خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه، ثم زوجته، وأبناءه وأقرباءه؟ ونصيبه نار الفراق وهو في داخل العذاب الإلهي؟!!

ثم تضيف: يا أهل المحشر: «ألا إن الظالمين في عذاب مقيم».

إنه العذاب الذي ليس هناك أمل بانتهائه، ولا يتحدد بزمان معين. إنه العذاب الذي يحرق أعماق الروح وظاهر الجسد على السواء.

وليس من المستبعد أن يكون القائل لهذا الكلام هم المؤمنون الحقيقيون، وهم

١- «طرف» بتسكين الراء مصدر وتعني دوران العين، وطرفة العين تعني حركة واحدة للعين. والضمير في (عليها) يعود إلى العذاب. صحيح أن العذاب مذكر لكنه يعني هنا النار وجهن وضمير المؤنث يعود إليها.

الأنبياء والأولياء وأتباعهم الخاصين، حيث أنهم مطهرون من الذنب، والمظلومون الذين أودوا كثيراً من قبل هؤلاء الظالمين، ومن حقهم التحدث بهذا الكلام في ذلك اليوم (وقد أشارت روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى)^(١).

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أن (العذاب الخالد) لهؤلاء الظالمين، يدل على أن المقصود هم الكافرون، كما ورد في بعض الآيات القرآنية: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾.

الآية التي بعدها تشهد على هذه الحقيقة، حيث تقول: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾.

فهؤلاء قطعوا أو اصرار تباطهم بالعباد المخلصين والأنبياء والأولياء، لذلك لا يملكون ناصرًا أو معيناً في ذلك اليوم، والقوى المادية سينتهي مفعولها في ذلك اليوم أيضاً، ولهذا السبب سيواجهون العذاب الإلهي بمفردهم.

ولتأكيد هذا المعنى تقول الآية في نهايتها: ﴿ومن يضل الله فإله من سبيل﴾. وفي الآيات السابقة قرأنا: ﴿ومن يضل الله فإله من ولي من بعده﴾.

فهناك تنفي الولي، وهنا تنفي السبيل، حيث أنه ولأجل الوصول إلى الهدف، يجب أن يكون هناك طريق، ويجب أن يتوفّر الدليل، إلا أن هؤلاء الضالين محرومون من هذا وذاك.



الآيات

أَسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّالٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿١٧﴾ فَإِن أَعْرَضُوا فَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ حَفِيفًا إِن عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ مِنَّا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِن الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿١٨﴾ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿١٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ قَدِيرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾

التفسير

الأولاد... هبة الرحمن:

بما أن الآيات السابقة ذكرت جانباً من العقاب الأليم الموحش للكافرين والظالمين، فإن الآيات اعلاه تحذر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، وتدعوهم إلى الاستجابة لدعوة الخالق والعودة إلى طريق الحق.

فأول آية تقول: «استجيبوا لرّبكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله»^(١). وإذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه، واحداً يحميكم غير رحمته، فإنكم على خطأ، لأن: «ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير».

عبارة «يوم لا مرد له من الله» تشير إلى يوم القيامة، وليس إلى يوم الموت. كما أن عبارة (من الله) تشير إلى أن أحداً لا يستطيع أن يتخذ قراراً بعدم العودة قبالة أمر الخالق جلّ وعلا.

وعلى أية حال، فجميع الطرق التي يعتقد أنها تنقذ الشخص من العذاب الإلهي تكون مغلقة في ذلك اليوم، وأحدها هو العودة إلى عالم الدنيا والتكفير عن الذنوب والخطايا.

أما الآخر فهو وجود ملجأ يأمن الإنسان عند اللجوء إليه.

وأخيراً وجود من يقوم بالدفاع عن الإنسان.

فكل جملة من الجمل الثلاث - للآية أعلاه - تنفي واحداً من هذه الطرق. وقد فسر بعضهم جملة «ما لكم من نكير» بمعنى أنكم لا تستطيعون أن تنكروا ذنوبكم هناك، لأن الأدلة والشهود كثيرون بحيث لا مجال للإنكار، إلا أن المعنى الأول أفضل كما يبدو.

الآية التي بعدها تخاطب الرسول ﷺ وتواسيه قائلة: «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً» فلا تحزن عليهم لأنك لست مسؤولاً عن حفظهم من الإنحراف.

«إن عليك إلا البلاغ» سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

يجب عليك أن تقوم بإبلاغ الرسالة الإلهية بأفضل وجه، وتبمّ الحجّة عليهم، أما القلوب المهياة فسوف تقبل بذلك بالرغم من أن كثيراً من الجاهلين سوف

١ - قد تكون عبارة (من الله) في الجملة أعلاه بمعنى (من قبل الله) يعني لا توجد عودة من قبل الخالق. وقد تكون بمعنى (في مقابل الله) يعني لا يوجد من يستطيع أن يمدكم إلى هذه الدنيا ضد إرادة الخالق.

يعرضون عنها، ولكنك لست مسؤولاً عنهم.

وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في بداية هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾^(١).

ثم ترسم صورة لحال هذه الجماعة غير المؤمنة والمعرضة عن الحق فتقول: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ ويغفل عن ذكر الخالق: ﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾.

فلا النعم الإلهية وشكر المنعم توقف هذا الإنسان وتجّره نحو الشكر والمعرفة والطاعة، ولا العقوبات التي تصيبه بسبب الذنوب توقفه من نوم الغفلة، ولا تؤثر فيه دعوة الرسول ﷺ.

فوامل الهداية من حيث «التشريع» هي دعوة رُسل الخالق، ومن حيث «التكوين» قد تكون النعم وقد تكون المصائب، إلا أن هؤلاء الجهلة ذوي القلوب الميتة لا تؤثر فيهم أيّ من هذه العوامل، وهذا بسببهم أنفسهم وليس بسببك، لأنك قمت بمسؤوليتك في الإبلاغ.

وقد تكون عبارة «إذا أذقنا» في الآية أعلاه (وهي هنا بخصوص رحمة الخالق، وفي آيات قرآنية أخرى بخصوص العذاب الإلهي) إشارة إلى أن النعم والمصائب في هذه الدنيا تعتبر لا شيء بالنسبة إلى نعم ومصائب الآخرة. أو قد تكون بمعنى أن هؤلاء الأشخاص يصابون بالفروغ والطغيان بمجرد قليل من النعمة، واليأس والكفر بقليل من المصائب.

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أن الخالق يوكل النعم إلى نفسه، لأن رحمته تقتضي ذلك، بينما يوكل المصائب والابتلاءات إليهم، لأنها نتيجة أعمالهم.

واستخدام كلمة (الإنسان) في مثل هذه الآيات تشير إلى طبيعة (الإنسان غير

المهذب) حيث أنه ذو تفكير قصير ونفسية ضعيفة، وتكرار ذلك - في الآية أعلاه - يؤكد على هذا المعنى.

ثم لبيان حقيقة أن أي نعمة ورحمة في هذا العالم مصدرها الخالق، ولا يملك الأفراد شيئاً من عندهم، أشارت الآية إلى قضية عامة ومصدق واضح لهذه الحقيقة، حيث تقول: ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء﴾.

ولهذا السبب فإن الكل يأكل من مائدة نعمه، ويحتاج إلى لطفه ورحمته، فليس منطقياً الفرور عند النعمة، ولا اليأس عن المصيبة.

و«نموذج» واضح لهذه الحقيقة وأن كل ما موجود هو منه، والأفراد لا يملكون شيئاً من عندهم هو أنه: ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً﴾.

وبهذا الترتيب فإن الناس يُقسَمون إلى أربع مجاميع: من عنده الأولاد الذكور ويريد البنات، ومن عنده البنات ويريد الذكور، ومن عنده الذكور والإناث، والجموعة التي تفتقد الأبناء ويأملون ويرغبون فيهم.

والعجيب أن أي شخص لا يستطيع الانتخاب في هذا المجال سواء في الماضي أو في الوقت الحاضر، بالرغم من تقدم وتطور العلوم، ورغم المحاولات العديدة فإن أحداً لم يستطع أن يهب الأبناء للعقيم الحقيقي، أو يعين نوع المولود وفقاً لرغبة الإنسان بالرغم من دور بعض الأطعمة أو الأدوية في زيادة احتمال ولادة الذكر أو الأنثى، إلا أن هذا يبقى مجرد احتمال ولا توجد أية نتيجة حتمية لهذا الأمر.

وهذا نموذج واضح لعجز الإنسان، ودليل على المالكية والحاكمية والخالقية للباري، جلّ وعلا، وهل هناك مثال أوضح من هذا؟

والطريف في الأمر أن هذه الآيات قدّمت الإناث على الذكور، لكي توضح

الأهمية التي يعطيها الإسلام لمنزلة المرأة، ومن جانب ثانٍ تقول للذين لهم تصورات خاطئة عن ولادة البنت أو الأنثى - ويكرهونها - أن الخالق يعطي الشيء الذي يريده هو وليس ما تريدونه أنتم، وهذا دليل على أنه هو الذي ينتخب.

إن استخدام عبارة (يهب) تعتبر دليلاً واضحاً على أن الإناث والذكور من هدايا الخالق وهباته، وليس صحيحاً للمسلم الحقيقي التفريق بين الإثنين. كما أن استخدام عبارة (يزوجهم) لا تعني التزويج هنا، بل تعني جمع الهبتين (الإناث والذكور) لبعض الناس وبعبارة أخرى فإن مصطلح (التزويج) يأتي أحياناً بمعنى الجمع بين الأشياء المختلفة أو الأنواع المتعددة، لأن (زوج) تعني في الأصل شيئين أو شخصين متقارنين.

واعتبر بعضهم هذه الآية بمعنى ولادة الذكور والإناث على الترتيب، والبعض الآخر اعتبرها بمعنى ولادة التوائم، يعني الذكر والأنثى. ولكن العبارة أعلاه لا تدل على أي من التفسير المذكورة. إضافة إلى ذلك فإنها لا تتناسب مع ظاهر الآية، لأن الآية تريد الكلام عن مجموعة ثلاثة رزقها الله البنات والبنين.

وعلى أية حال، فإن المشيئة الإلهية هي التي تتحكم في كل شيء وليس في قضية ولادة الأبناء فحسب، فهو القادر والعليم والحكيم، حيث يقترن علمه بقدرته، لذا فإن الآية تقول في نهايتها: «إنه عليم قدير».

ومن الضروري أن نشير إلى أن كلمة (عقيم) المأخوذة من كلمة (عقم) - على وزن (بخل) وكذلك على وزن (فهم) - وتعني في الأصل الجفاف والتصلب المانع من قبول التأثير، والنساء العقيمت تطلق على اللواتي تكون أرحامهن غير مستعدة لتقبل النطفة ونمو الطفل، كما تسمى بعض الرياح بالرياح العقيمة لعدم قدرتها على ربط الغيوم الممطرة، و «اليوم العقيم» يطلق على اليوم الذي ليس فيه

سرور وفرح، كما يسمى يوم القيامة باليوم العقيم بسبب عدم وجود يوم بعد ذلك اليوم يمكن فيه التعويض عن الماضي.

وأخيراً فإن الغذاء (المعقم) يطلق على الغذاء الذي تم القضاء على جميع ميكروباته، بحيث لا يمكنها النمو في ذلك المحيط.



الآية

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ
أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ^{٥١}

سبب النزول

فيما يلي خلاصة لما ذكره بعض المفسرين من سبب النزول في هذه الآية: جاء عدد من اليهود إلى الرسول ﷺ وقالوا له: لماذا لا تتكلم مع الخالق؟ ولماذا لا تنظر إليه؟ فلو كنت نبياً حقاً فافعل مثل موسى حيث نظر إلى الخالق وتحدث معه، وسوف لا تؤمن بك أبداً حتى تفعل ما نطلبه منك، عندها أجابهم النبي ﷺ: إن موسى لم ير الخالق أبداً، هنا نزلت الآية أعلاه (حيث وضحت كيفية الارتباط بين الأنبياء والخالق)^(١).

التفسير

طرق ارتباط الانبياء بالخالق:

هذه السورة، كما قلنا في بدايتها، تهتم بشكل خاص بقضية الوحي والنبوة،

فهي تبدأ بالوحي وتنتهي به، لأن الآيات الأخيرة تتحدث عن هذا الموضوع (أي الوحي).

وبما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن النعم الإلهية، لذا فإن هذه الآيات تتحدث عن أهم نعمة إلهية وأكثرها فائدة لعالم البشرية، ألا وهي قضية الوحي والإرتباط بين الأنبياء والخالق.

في البداية تقول الآية: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً» لأن الخالق منزّه عن الجسم والجسمانية.

«أو من وراء حجاب» كما كان يفعل موسى حيث أنه كان يتحدث في جبل الطور، وكان يسمع الجواب عن طريق الأمواج الصوتية التي كان يحدثها الخالق في الفضاء، دون أن يرى أحداً، لأنه لا يمكن مشاهدة الخالق بالعين المجردة.

«أو يرسل رسولاً» كما كان يقوم به جبرائيل الأمين وينزل على الرسول ﷺ «فيوحي بإذنه ما يشاء».

نعم، فلا يوجد طريق آخر سوى هذه الطرق الثلاثة لتحدث الخالق مع عبادة له «إنه علي حكيم».

فهو أعلى وأجل من أن يرى أو يتكلم عن طريق اللسان، وكل أفعاله حكيمة، ويتم ارتباطه بالأنبياء وفق برنامج.

هذه الآية تعتبر - في الحقيقة - رداً على الذين يتصورون - بجهالة - أن الوحي يعني مشاهدة الأنبياء للخالق وهم يتكلمون معه، حيث أن الآية تعكس بشكل دقيق ومختصر حقيقة الوحي والروح.

ومن مجمل الآية نستفيد أن الإرتباط بين الأنبياء والخالق يتم عبر ثلاثة طرق هي:

١- الإيحاء، حيث كان كذلك بالنسبة للعديد من الأنبياء مثل نوح، حيث

تقول الآية: ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾^(١).

٢- ﴿من وراء حجاب﴾ كما كان الخالق يتكلم مع موسى في جبل طور،
﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾^(٢).

وقد اعتبر البعض أيضاً أن ﴿من وراء حجاب﴾ تشمل الرؤيا الصادقة
والحقيقية.

٣- إرسال الرسول، كما في الوحي الى الرسول الأعظم ﷺ، فالآية تقول:
﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك باذن الله﴾^(٣).

ولم يقتصر الوحي على هذا الطريق بالنسبة للرسول الأعظم ﷺ بل كان يتم
بطرق أخرى أيضاً.

ومن الضروري أن نشير إلى أن الوحي قد يتم أحياناً في اليقظة، كما أشير إلى
ذلك أعلاه، وأحياناً في المنام عن طريق الرؤيا الصادقة، كما جاء بشأن إبراهيم
وأمره بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام [بالرغم من اعتبار بعضهم أن ذلك مصداق لـ ﴿من
وراء حجاب﴾] .

وبالرغم من أن الطرق الثلاثة التي ذكرتها الآية تعتبر الطرق الرئيسية للوحي،
إلا أن بعضاً من هذه الطرق لها فروع بحد ذاتها، فالبعض يعتقد أن الملائكة تقوم
بإنزال الوحي عبر أربعة طرق:

١- يقوم الملك بالقاء الوحي إلى روح النبي وقلبه دون أن يتجسد أمامه أي
النفث في الروح كما نقرأ ذلك في حديث عن النبي ﷺ حيث تقول: «إن روح
القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا
في الطلب».

١- المؤمنون، الآية ٢٧.

٢- النساء، الآية ١٦٤.

٣- البقرة، الآية ١٧.

- ٢- يتقمص الملك أحياناً شكل الإنسان ويتحدث مع النبي (حيث تذكر الأحاديث أن جبرئيل ظهر بصورة دحية الكلبي)^(١).
- ٣- وأحياناً يكون على شكل رنين الجرس الذي يدوي صوته في الآذان، وكان هذا أصعب أنواع الوحي بالنسبة للرسول حيث كان يتصبب عرقاً حتى في الأيام الباردة، وإذا كان راكباً على دابة فإنها كانت تقف وتجتو على الأرض.
- ٤- كما كان يظهر جبرئيل أحياناً بصورته الأصلية التي خلقه الله عليها، وهذا ما حدث مرتين فقط طوال حياة رسول الله ﷺ [كما سيأتي تفصيل ذلك في سورة النجم - الآية ١٢]^(٢).



بحثان

الأول: الوحي في اللغة والقرآن والسنة

يرى الراغب في مفرداته إن أصل الوحي يعني الإشارة السريعة سواء بالكلام الخافت، أو الصوت الخالي من التراكيب الكلامية، أو الإشارة بالأعضاء (بالعين واليد والرأس) أو بالكتابة.

ومن خلال ذلك نستفيد أن الوحي يشتمل على السرعة من جانب والإشارة من جانب آخر، لذا فإن هذه الكلمة تستخدم للإرتباط الخاص والسريع للأنبياء مع عالم الغيب، وذات الخالق المقدسة.

١- «دحية بن خليفة الكلبي» هو أخو الرسول ﷺ في الرضاعة، وكان من أجمل الناس في ذلك الزمان، حيث كان جبرئيل يظهر على صورته عند مجيئه للرسول ﷺ [مجمع البحرين - كلمة دحي]. وكان من أشهر صحابة الرسول ومروفاً بالوجه الحسن، وقد أرسله النبي الأكرم ﷺ إلى قصر الروم (هرقل) حاملاً رسالة منه في العام السادس أو السابع للهجرة، وبقي حياً إلى أيام خلافة معاوية.

٢- في ظلال القرآن، المجلد السابع، ص ٣٠٦.

وهناك معانٍ مختلفة (للوحي) في القرآن المجيد وفي لسان الأخبار، فأحياناً تكون بخصوص الأنبياء، وأحياناً للناس الآخرين، وأحياناً تطلق للإرتباط الخاص بين الناس، وأحياناً للإرتباط الخاص بين الشياطين، وأحياناً بخصوص الحيوانات.

وأفضل كلام في هذا المجال هو ما ورد عن علي عليه السلام في رده لشخص سأل عن الوحي، حيث قسمه الإمام إلى سبعة أقسام هي:

١- وحي الرسالة والنبوة: مثل ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾^(١).

٢- الوحي بمعنى الإلهام: مثل ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾^(٢).

٣- الوحي بمعنى الإشارة: مثل ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيماً﴾^(٣).

٤- الوحي بمعنى التقدير: مثل ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾^(٤).

٥- الوحي بمعنى الأمر: مثل ﴿وإذ أوحيت إلى المحاربيين أن آمنوا بي وبرسولي﴾^(٥).

٦- الوحي بمعنى الأكاذيب: مثل ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾^(٦).

٧- الوحي بمعنى الأخبار: مثل ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم

١- النساء، الآية ١٦٣.

٢- النحل، الآية ٦٨.

٣- مريم، الآية ١١.

٤- فصلت، الآية ١٢.

٥- العنكبوت، الآية ١١١.

٦- الأنعام، الآية ١١٢.

فعل الخيرات^(١)

ويمكن أن تكون لبعض هذه الأقسام السبعة فروعاً أخرى تزيد عند استعمالها من استخدامات الوحي في الكتاب والسنة، لذا فإن «التفليسي» ذهب في كتابه (وهو القرآن) إلى وجود عشر معاني أو أوجه للوحي، وبعضهم ذكر عدداً أكثر من هذا.

ومن خلال هذه الاستخدامات المختلفة للوحي ومشتقاته نستنتج أن الوحي الإلهي على نوعين: (وحي تشريعي) و (وحي تكويني).

فالوحي التشريعي هو ما كان ينزل على الأنبياء، ويمثل العلاقة الخاصة بينهم وبين الخالق، حيث كانوا يستلمون الأوامر الإلهية والحقائق عن هذا الطريق. أما الوحي التكويني فهو في الحقيقة وجود الفرائز والقابليات والشروط والقوانين التكوينية الخاصة التي أوجدها الخالق في أعماق جميع الكائنات في هذا العالم.

الثاني: حقيقة (الوحي) المجهولة

لقد قيل الكثير حول حقيقة الوحي، ولكن بما أن هذا الارتباط المجهول خارج حدود إدراكاتنا، لذا فإن هذه الكلمات لا تستطيع أن تعطي صورة الواضحة للموضوع، وأحياناً تؤدي إلى الانحراف عن جادة الصواب، وقد ذكرنا آنفاً ما يمكن قوله في هذا المجال، وفي الحقيقة فإن ما يمكن قوله بشكل جميل ومختصر، ولم تصل بحوث المفكرين والعلماء لأكثر من ذلك، وفي نفس الوقت لا بدّ هنا من ذكر بعض التفاسير التي طرحها الفلاسفة القدماء والجدد حول الوحي:

١. الأنبياء، الآية ٧٣.

١- تفسير بعض الفلاسفة القدماء

يرى هؤلاء - وفقاً لمقدمات مفصلة - أن الوحي هو عبارة عن الإتصال الخارق (لنفس الرسول) مع (العقل الفعال) المسيطر بظله على عالم (الحس المشترك) و(الخيال).

وتوضيح ذلك:

أن القدماء كانوا يعتقدون أن الروح الإنسانية لها ثلاث قوى: (قوة الحس المشترك) وبواسطتها يدرك الإنسان صور المحسوسات، و(قوة الخيال) وبواسطتها يدرك بعض الصور الذهنية، و(القوة العقلية) التي يدرك بواسطتها الصور الكلية. ومن جانب آخر، فهم يعتقدون بنظرية الأفلاك التسعة لبطليموس، وكانوا يعتقدون بوجود (النفس المجردة) لها مثل (الروح لأجسادنا) ويضيفون: إن هذه النفوس الفلكية تستلهم من كائنات مجردة تسمى (العقول)، وعلى هذا الأساس فهم يقولون بوجود (تسعة عقول) تختص (بالأفلاك التسعة).

ومن جانب ثالث كانوا يعتقدون أن النفوس الإنسانية وأرواحها يجب أن تستلهم من الكائن المجرد الذي يسمى بـ(العقل الفعال) وذلك لأجل إظهار القابليات وإدراك الحقائق، حيث كان يسمى بـ(العقل العاشر)، أما سبب تسميته بالفعال فلأنه أساس حدوث القابليات للعقول الجزئية.

ومن جانب رابع كانوا يعتقدون أنه مهما قويت الروح الإنسانية فإنه سيزداد ارتباطها واتصالها بالعقل الفعال الذي هو خزائنه ومصدر المعلومات، لذا فإن الروح القوية والكاملة تستطيع أن تكتسب أوسع المعلومات من (العقل الفعال) بأمر من الخالق، وذلك في أقصر مدة.

وأيضاً فإذا قويت (قوة الخيال) فإنها تستطيع أن تنقل هذه المفاهيم إلى الحس بشكل أفضل، وعندما يقوى الحس المشترك الإنسان أن يدرك القضايا

المحسوسة الخارجية بشكل أفضل أيضاً.

ومن خلال هذه المقدمات سيستتجون أن روح النبي لها ارتباط واتصال كبير جداً بالعقل الفعال، لأنها قوية بشكل خارق، ولهذا السبب تستطيع أن تأخذ المعلومات بشكل عام من العقل الفعال في أكثر الأوقات.

وبما أن القوة الخيالية للنبي قوية جداً أيضاً، وفي نفس الوقت تتبع القوة العقلية، لذا فإنها (أي القوة الخيالية) تستطيع أن تعطي صوراً محسوسة مناسبة للصور الكلية المأخوذة من العقل الفعال، وأن ترى نفسها ضمن أطر حسية في أفق الذهن، فمثلاً لو كانت تلك الحقائق العامة من باب المعاني والأحكام فسيسمعها من لسان شخص بمنتهى الكمال، وذلك على شكل ألفاظ موزونة بمنتهى الفصاحة والبلاغة.

ولأن قوته الخيالية مسيطرة بشكل كامل على الحس المشترك، لذا فإنها تستطيع أن تعطي طبيعة حسية لهذه الصور، ويستطيع النبي أن يرى ذلك الشخص بعينه ويسمع ألفاظه بإذنه.

نقد وتحليل

هذه النظرية تعتمد على مقدمات يعتبر القسم الأعظم منها مرفوضاً في الوقت الحاضر، فمثلاً أفلاك بطليموس التسع والنفوس والعقول المرتبطة بها تعتبر جزءاً من الأساطير، لعدم وجود أي دليل على إثباتها، بل وتوجد أدلة ضدها.

ومن جانب آخر فإن هذه الفرضية لا تتلاءم مع الآيات القرآنية بخصوص الوحي، لأن الآيات القرآنية تصرّح بأن الوحي نوع من الارتباط مع الخالق الذي قد يكون عن طريق الإلهام أحياناً، وأحياناً أخرى عن طريق الملك أو سماع الأمواج الصوتية أما القول بأنه وليد القوة الخيالية والحس المشترك وأمثال ذلك فهو في غاية الضعف وعدم الانسجام مع الآيات القرآنية.

ومن الإشكالات الأخرى على هذا الكلام هو تصنيفه للنبي في قائمة الفلاسفة والنوابع بعقل وروح أقوى، في حين أننا نعلم أن طريق الوحي مغاير تماماً لطريق الإدراكات العقلية.

فهذه المجموعة من الفلاسفة أساءت لأساس الوحي والنبوة دون قصد ولأنهم لم يلمّوا بالحقيقة سلكوا طريق الخيال والأسطورة.

وهناك تفصيلات أكثر عن هذا الموضوع تأتي ضمن البحوث القادمة.

٢- تفسير بعض الفلاسفة الجدد

هذه المجموعة من الفلاسفة اعتبرت الوحي باختصار نوعاً من (الشعور الباطن) وجاء في (دائرة معارف القرن العشرين) حول الوحي ما يلي:

(كان الغرييون إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم المتدنية يقولون بالوحي لأن كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء، فلما جاء العلم الجديد بشكوكه ومادياته ذهبت الفلسفة الغربية إلى أن مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة وتغالت حتى انكرت الخالق والروح معاً وعللت ما ورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنه إما اختلاف من المتنبأ أنفسهم لجذب الناس إليهم وتسخيرهم لمشيئتهم، وإما إلى هذيان مرض يعترى بعض العصبيين فيخيل إليهم أنهم يرون أشباحاً تكلمهم وهم لا يرون في الواقع شيئاً. رواج هذا التعليل في العالم الغربي حتى صار مذهب العلم الرسمي، فلما ظهرت آية الأرواح في أمريكا سنة ١٨٤٦ وسرت منها إلى أوروبا كلها وأثبت للناس بدليل محسوس وجود عالم روحاني أهل بالقول الكبيرة والأفكار الثاقبة تغير وجه النظر في المسائل الروحانية، وحييت مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة، وأعاد العلماء النحت فيها على قاعدة العلم التجريبي المقرر لا على أسلوب التقليد الديني ولا من طريق الغرب في مهامة الخيالات، فتأدوا إلى نتائج وإن كانت غير ما قرره علماء الدين

الإسلامي إلا أنها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أحيل إلى عالم الأمور الخرافية^(١).

والكلام في هذا المجال كثير، إلا أن خلاصته أنهم اعتبروا الوحي تجلياً للوجدان الخفي وإظهاراً لعالم اللاشعور في الانسان الذي هو أقوى بكثير من عالم الشعور فيه وبما أن الانبياء كانوا رجالاً متميزين فقد كانوا يتمتعون بوجدان قوي جداً وذو ترشحات مهمة.

نقد وتحليل

واضح أن ما تقوله هذه المجموعة هو افتراض بحث، حيث لم يذكروا أي دليل على ذلك، وفي الحقيقة فقد اعتبروا الانبياء أفراداً لهم نبوغ فكري وشخصية عظيمة، دون أن يقبلوا بارتباطهم بمصدر عالم الوجود (الخالق العظيم) واكتسابهم للعلوم عن طريقه ومن خارج كيانهم.

إن مصدر خطئهم هو أنهم أرادوا قياس الوحي وفقاً لمعايير العلوم التجريبية، ونفي أي شيء خارج دائرتها، وجميع الموجودات في هذا العالم يجب أن تدرك بهذا المعيار، وإلا فهو غير موجود.

هذا الأسلوب من التفكير ترك آثاره السيئة، ليس في موضوع الوحي فحسب، بل في العديد من البحوث الفلسفية والعقائدية الأخرى. لذا فإن هذا التفكير مرفوض من أساسه، لأنهم لم يذكروا أي دليل على تقييد جميع الكائنات في العالم بالكائنات المادية وما ينتج عنها.

٣- النبوغ الفكري

البعض الآخر تجاوز هذه الأقوال وأعلن بشكل رسمي أن الوحي نتيجة

للنبوغ الفكري للأنبياء، ويقول: إن الأنبياء كانوا أفراداً ذوي فطرة طاهرة ونبوغ خارق، حيث كانوا يدركون مصالح المجتمع الإنساني، وبواسطته يضعون له المعارف والقوانين.

وهذا الكلام في الواقع ينكر بصراحة نبوة الأنبياء، ويكذب أقوالهم، ويتهمهم بأنواع الأكاذيب (العياذ بالله).

وبعبارة أوضح فإنّ أيّاً ممّا ذكرناه لا يعتبر تفسيراً للوحي، وإنّما هي افتراضات مطروحة في حدود الأفكار، ولأنّهم أصروا على عدم الاعتراف بوجود قضايا أخرى خارج إطار معلوماتهم، لذا فإنّهم واجهوا الطريق المسدود.

الكلام الحق في الوحي:

لا يمكننا الاحاطة - بلا شك - بحقيقة الوحي وارتباطاته، لأنّه نوع من الإدراك خارج عن حدود إدراكنا، وهو ارتباط خارج عن حدود ارتباطاتنا المعروفة. فعالم الوحي بالنسبة لنا عالم مجهول وفوق إدراكاتنا، فكيف يستطيع إنسان ترابي أن يرتبط مع مصدر عالم الوجود؟!

وكيف يرتبط الخالق الأزلي الأبدي مع مخلوق محدود وممكن الوجود! وكيف يتيقن النبي عند نزول الوحي أن هذا الارتباط معه؟

هذه أسئلة يَضْعُبُ الجواب عليها بالنسبة لنا، ولا داعي للإصرار على فهمها. أمّا الموضوع الذي يعتبر معقولاً بالنسبة لنا ويمكن قبوله فهو وجود - أو إمكانية وجود - هذا الارتباط المجهول.

فنحن نقول: لا يوجد أيّ دليل عقلي ينفي إمكانية مثل هذا الأمر، بل على العكس من ذلك حيث نرى ارتباطات مجهولة في عالمنا نعجز عن تفسيرها، وهذه الارتباطات تؤكّد وجود مرئيات ومدركات أخرى خارج حدود حواسنا وارتباطاتنا.

ولا بأس من ذكر مثال لتوضيح هذا الموضوع...

لنفرض أننا كنا في مدينة كل أهلها من العميان (عميان منذ الولادة) ونحن الوحيدون ننظر بعينين، فكل أهل المدينة لهم أربعة حواس (على فرض أن الحواس الظاهرية للإنسان خمسة) ونحن الوحيدون نملك خمسة حواس. عندها سنشاهد أحداثاً كثيرة في هذه المدينة، وعندما نخبر أهل هذه المدينة سيتعجبون جميعهم من هذه الحاسة الخامسة التي تستطيع أن تدرك هذه الحوادث المتعددة، ومهما حاولنا شرح حاسة النظر لهم وفوائدها وآثارها فإنهم لا يستطيعون فهم ذلك. فمن جانب لا يستطيعون نكران ذلك لإدراكهم آثارها، ومن جانب آخر لا يقدرّون على درك حقيقة حاسة النظر، لأنهم غير قادرين على النظر طيلة حياتهم ولو للحظة واحدة.

ولا نريد القول أن الوحي هو (الحاسة السادسة)، بل هو نوع من الارتباط والإدراك لعالم الغيب والذات الإلهية المقدسة، ولأننا نفقد ذلك لا نستطيع أن ندرك كنهه بالرغم من إيماننا بوجود الوحي لوجود آثاره.

إننا نرى رجالاً عظماء يدعون الناس إلى أمور هي فوق مستوى أفكار البشر، ويدعوهم إلى الدين الإلهي، وعندهم من المعاجز الخارقة ما يفوق طاقة الإنسان، حيث توضح هذه المعاجز ارتباطهم بعالم الغيب، فالآثار واضحة إلا أن الحقيقة مخفية.

هل توصلنا - نحن إلى معرفة جميع أسرار هذا العالم، كي ننفي الوحي لصعوبة إدراكه بالنسبة لنا؟!

وحتى في عالم الحيوانات، فهناك ظواهر مجهولة نعجز عن تفسيرها، فهل توضحت لنا الحياة المجهولة لبعض الطيور المهاجرة التي قد تقطع ثمانية عشر ألف كيلومتر من القطب الشمالي وحتى الجنوبي أو العكس؟ فكيف تعرف هذه الطيور الطريق بدقة مع أنها قد تسافر أحياناً في النهار وأحياناً أخرى في الليالي

المظلمة، في حين أننا لا نستطيع أحياناً أن نسير مقداراً يسيراً من طريقها ما لم يكن لدينا أجهزة ووسائل معينة توضح لنا لمسير؟

وهناك بعض الأسماك التي تعيش في أعماق البحار والمحيطات، وعندما تريد أن تضع بيوضها تعود إلى مسقط رأسها الذي يبعد أحياناً آلاف الكيلومترات، فكيف تستطيع هذه الأسماك أن تهتدي إلى مسقط رأسها بهذه السهولة؟!

وهناك العديد من هذه الأمثلة المجهولة في حياتنا تمنعنا انكار ونفي كل شيء، وتذكرنا بوصية الفيلسوف «ابن سينا» الذي يقول: «كل ما قرع سمعك من الغرائب فضعه في بقعة الإمكان ما لم يزدك عنه قاطع البرهان». والآن لنر ادلة الماديين في إنكار الوحي.

منطق منكري الوحي:

يذكر بعض الماديين لدى طرح مسألة الوحي بأن الوحي خلاف العلم! وإذا سألناهم كيف ذلك؟ يقولون بلهجة المغرورة والواثق من نفسه: إنه يكفي لانكار شيء أن العلوم الطبيعية لم تثبته. ونحن لا نقبل إلا المواضيع التي أثبتتها العلوم التجريبية وفق معاييرها الخاصة.

وإضافة لذلك فنحن لم نواجه في تحقيقاتنا العلمية حول جسم الإنسان وروحه، شيئاً مجهولاً يستطيع أن يربطنا بعالم ما وراء الطبيعة.

كيف يمكننا أن نصدق بأن الأنبياء، الذين هم بشر مثلنا، لهم إحساس غير إحساسنا وادراك فوق ادراكنا؟

الايراد الدائمي والرد الدائمي:

مثل هذا التعامل للماديين مع الوحي لا يرتبط بهذا الخصوص فحسب،

فهؤلاء لهم مثل هذا التحليل حيال جميع القضايا التي تختص بما وراء الطبيعة، ولأجل التوضيح نقول لهم دائماً: لا تنسوا أن حدود العلم هي عالم المادة، والأجهزة والوسائل المستخدمة في البحوث العلمية - كالمختبرات والتلسكوبات والميكروسكوبات وقاعات التشريح - كلها محدود بحدود هذا العالم، فهذه العلوم وأجهزتها لا تستطيع أن تتحدث أبداً عما هو موجود خارج حدود عالم المادة، لا بالنفي ولا بالإثبات، والدليل على ذلك واضح، لأن هذه الأجهزة والوسائل لها قدرة محدودة ومحيط خاص بها.

بل إن أجهزة كل واحد من العلوم الطبيعية لا يستطيع أن يكون فاعلاً بالنسبة للعلم الآخر، فمثلاً نحن لا نستطيع أن ننكر وجود ميكروب السل إذا لم نشاهده بواسطة التلسكوب العظيم المستخدم في النجوم، أو نفي وجود كوكب البلوتون لأننا لم نشاهده بواسطة الميكروسكوب أو المجهر.

فالوسائل تتناسب مع نوع العلم دائماً، أما الوسائل المستخدمة لمعرفة ما وراء الطبيعة، فهي ليست سوى الاستدلالات العقلية القوية التي تفتح لنا الآفاق نحو ذلك العالم الكبير.

فالذين يخرجون العلم عن محيطه وحدوده ليسوا علماء ولا فلاسفة، إنما يدعون ذلك، وفي نفس الوقت هم خاطئون وضالون.

المهم إننا نرى أشخاصاً عظاماً جاؤوا وذكروا لنا أموراً هي خارج حدود معرفة البشر، وهذا يؤكد ارتباطهم بما وراء عالم المادة. أما كيف يكون هذا الارتباط المجهول؟ فهذا ما لم يتضح لنا، إنما المهم هو أننا نعلم بوجود مثل هذا الارتباط.

بعض الأحاديث بخصوص قضية الوحي:

هناك روايات عديدة وردت في المصادر الإسلامية بخصوص الوحي، حيث

توضح جوانب من هذا الارتباط المجهول للأنبياء بمصدر الوحي:

١- يمكن الاستفادة من بعض الروايات أن النبي ﷺ كان في حالة عادية عند نزول الوحي عليه عن طريق الملك، إلا أنه كان يشعر بحالة خاصة عند الارتباط المباشر - بدون واسطة - وأحياناً يشعر بالغشية، كما ورد في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله عن الغشية التي كانت تصيب رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي قال: «ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلّى الله له»^(١).

٢- كان جبرئيل ينزل على النبي ﷺ بشكل مؤدب وباحترام كامل، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «كان جبرئيل إذا أتى النبي قعد بين يديه قعدة العبيد وكان لا يدخل حتى يستأذنه»^(٢).

٣- يمكن الاستفادة من روايات أخرى أن النبي ﷺ كان يُشخص جبرئيل بشكل جيد، وذلك بتوفيق من الله (والشهود الباطني) كما جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «ما علم رسول الله أن جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق»^(٣).

٤- هناك تفسير لقضية غشية النبي ﷺ عند نزوله الوحي ورد في حديث منقول عن ابن عباس حيث يقول: كان النبي إذا نزل عليه الوحي وجد منه ألماً شديداً ويتصدع رأسه، ويجد ثقلاً (وذلك) قوله تعالى: «إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً» وسمعت أنه نزل جبرئيل على رسول الله ستين ألف مرة^(٤).



١- (توحيد الصدوق) تقرأ عن بحار الأنوار، المجلد ١٨، ص ٢٥٦.

٢- علل الشرائع تقرأ عن بحار الأنوار، المجلد ١٨، ص ٢٥٦.

٣- بحار الأنوار، المجلد ١٨، ص ٢٥٦.

٤- بحار الأنوار، المجلد ١٨، ص ٢٦١.

الآيتان

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا
الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نُّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ
مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾ صِرَاطِ اللَّهِ
الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ
الْأُمُورُ ﴿٥٨﴾

التفسير

القرآن روح من الخالق:

بعد البحث العام الذي ورد في الآية السابقة بخصوص الوحي، نتحدث
الآيات التي نبحثها عن نزول الوحي على شخص الرسول الأكرم ﷺ حيث
تقول: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا».

قد تكون عبارة (كذلك) إشارة إلى الأنواع الثلاثة للوحي الواردة في الآية
السابقة، والتي تحققت جميعها بالنسبة للنبي ﷺ، فأحياناً كان يرتبط بذات
الخالق المنزهة والمطهرة بشكل مباشر، وأحياناً عن طريق ملك الوحي، وأحياناً
عن طريق سماع لحن خاص يشبه الأمواج الصوتية، كما أشارت الروايات

الإسلامية إلى جميع ذلك، وبيننا شرح ذلك في نهاية الآية السابقة.

وهناك قولان للمفسرين بخصوص المقصود من كلمة (روح) في هذه الآية:

الأول: إن المقصود هو القرآن الكريم، لأنه أساس حياة القلوب وحياة جميع

الأحياء، وقد اختار هذا القول أكثر المفسرين^(١).

ويقول الراغب في مفرداته: سمي القرآن روحاً في قوله: «وكذلك أوحينا

إليك روحاً من أمرنا» وذلك لكون القرآن سبب للحياة الأخروية.

وهذا المعنى يتلاءم بشكل كامل مع القرائن المختلفة الموجودة في الآية مثل

عبارة (كذلك) التي تشير إلى قضية الوحي، وعبارة (أوحينا) وعبارات أخرى

بخصوص القرآن وردت في نهاية هذه الآية.

وبالرغم من أن (روح) وردت غالباً بمعاني أخرى سائر آيات القرآن، إلا أنه

- وفقاً للقرائن أعلاه - يظهر أنها وردت هنا بمعنى القرآن.

وقد قلنا أيضاً في تفسير الآية ٢ من سورة النحل: «ينزل الملائكة بالروح من

أمره على من يشاء من عباده» أن كلمة (روح) في هذه الآية - وفقاً للقرائن -

وردت بمعنى (القرآن والوحي والنبوة) وفي الحقيقة فإن هاتين الآيتين تفسر

إحداهما الأخرى.

فكيف يمكن للقرآن أن لا يكون روحاً في حين أننا نقرأ في الآية (٢٤) من

سورة الأنفال: «يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيبكم».

التفسير الثاني: أن المقصود هو (روح القدس) (أو ملك أفضل حتى من

جبرائيل وميكائيل وكان يلزم النبي دائماً).

ووفقاً لهذا التفسير فإن (أوحينا) تكون بمعنى (أنزلنا) يعني أنزلنا روح

القدس عليك، أو ذلك الملك العظيم (بالرغم من أننا لم نر كلمة (أوحينا) لهذا

١ - الطبرسي في مجمع البيان، الشيخ الطوسي في التبيان، الفخر الرازي في التفسير الكبير المرآة في تفسير المرآة وجماعة آخرون.

المعنى في الآيات القرآنية الأخرى). ويؤيد ذلك بعض الروايات المذكورة في مصادر الحديث المعروفة، ولكن - كما قلنا - فإن التفسير الأول ملاءمة مع الآية لوجود القرائن المتعددة، لذا يمكن أن تكون مثل هذه الروايات التي تفسر الروح بمعنى روح القدس أو الملك المقرب من الخالق، إشارداً إلى المعنى الباطني للآية. على أية حال، فإن الآية تضيف: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا».

فهذا هو اللطف الإلهي الذي شملك أنزل عليك هذا الوحي السماوي وآمنت بكل ما يحتويه.

فالإرادة الإلهية كانت تقتضي أن يهدي عباده الآخرين في ظل هذا النور السماوي، وأن يشمل الشرق والغرب - بل وجميع القرون والأعصار حتى النهاية - إضافة إلى هدايتك أنت إلى هذا الكتاب السماوي الكبير وتعليماته.

بعض المنحرفين فكراً كانوا يتصورون أن هذه الجملة تبين أن الرسول لم يكن يؤمن بالله قبل نبوته، في حين أن معنى الآية واضح، حيث أنها تقول: إنك لم تكن تعرف القرآن قبل نزوله ولم تكن تعرف تعليماته وتؤمن به وهذا لا يتعارض أبداً مع اعتقاد الرسول التوحيدي ومعرفة العالية بأصول العبادة لله وعبوديته له. والخلاصة، إن عدم معرفة محتوى القرآن يختلف عن موضوع عدم معرفة الله.

فحياة الرسول ﷺ قبل مرحلة النبوة والواردة في كتب التاريخ، تعتبر دليلاً حياً على هذا المعنى. والأوضح من ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: «وقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»^(١).

وتضيف الآية في نهايتها: «وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم». فالقرآن نور للجميع وليس لك فحسب، وهو وسيلة لهداية البشر إلى الصراط

المستقيم، وموهبة إلهية عظيمة بالنسبة للسائرين على طريق الحق، وهو ماء الحياة بالنسبة للعطاشى كي ينتهلوا منه.

وقد ورد نفس هذا المعنى بعبارة أخرى في الآية (٤٤) من سورة فصلت حيث تقول الآية: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾.

ثم تقول الآية مفسرة للصراط المستقيم: ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾.

وهل هناك طريق أكثر استقامة من الطريق الذي ينتهي بخالق عالم الوجود؟
وهل هناك أحسن من هذا الطريق؟

فالسعادة الحقيقية هي السعادة التي يدعو إليها الخالق، والوصول إليها يجب أن يكون عبر الطريق الوحيد الذي انتخبه البارئ لها.

أما آخر جملة في هذه الآية - وهي آخر آية في سورة الشورى - فهي في الحقيقة دليل على أن الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذي يوصل إلى الخالق، حيث تقول: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾.

فبما أنه يملك عالم الوجود ويحكمه ويدبره لوحده، وبما أن برامج تكامل الإنسان يجب أن تكون تحت إشراف هذا المدبر العظيم، لذا فإن الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذي يوصل إليه، والطرق الأخرى منحرفة وتؤدي إلى الباطل، وهل هناك حق في هذا العالم غير ذاته المقدسة؟!

هذه الجملة بُشرى للمتقين، وهي في نفس الوقت تهديد للظالمين والمذنبين، لأن الجميع سوف يرجعون إلى الخالق.

وهي دليل على أن الوحي يجب أن يكون من الخالق فقط، لأن جميع الأمور ترجع إليه وتدبر كل شيء بيده، ولهذا السبب وجب أن يكون البارئ تعالي هو مصدر الوحي بالنسبة للأنبياء حتى تتم الهداية الحقيقية.

وهكذا نرى أن بداية ونهاية هذه الآيات منسجمة فيما بينها ومتراصة، ونهاية السورة - أيضاً - يتلاءم مع بديتها والموضوع العام الساري عليها.



ملاحظات

١- ماذا كان دين الرسول الأعظم قبل نبوته؟

لا يوجد شك في أن الرسول الأكرم ﷺ لم يسجد لصنم قبل بعثته أبداً، ولم يتحرف عن خط التوحيد، فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنى، إلا أن العلماء يختلفون في الدين الذي كان عليه:

فذهب بعضهم أنه دين المسيح ﷺ، لأن المسيحية كانت الدين الوحيد الرسمي غير المنسوخ قبل بعثة الرسول ﷺ.

وقال البعض الآخر: إنه دين إبراهيم ﷺ، لأنه (شيخ الأنبياء) وأبوهم، وقد ذكرت بعض آيات القرآن أن دين الإسلام هو دين إبراهيم: «ملة أبيكم إبراهيم»^(١).

أما البعض الآخر فلم يذكر شيئاً واكتفى بالقول بأننا نعلم بأنه كان على دين معين إلا أنه لم يتوضح لنا ما هو.

وبالرغم من أن كلاً من هذه الأقوال يستند إلى دليل معين، إلا أنها ليست قطعية، وأفضلها قول آخر وهو: لقد كان الرسول ﷺ يملك برنامجاً خاصاً من قبل الخالق وكان يعمل به، وفي الحقيقة فقد كان له دين خاص حتى زمان نزول الإسلام عليه.

والدليل على هذا الكلام الجملة التي ذكرناها قبل قليل، والوارد في نهج البلاغة، وهو «ولقد قرن الله به ومن لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته،

يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره». فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

والدليل الآخر هو أن التاريخ لم يذكر لنا أبداً أن الرسول ﷺ انشغل بالعبادة في معابد اليهود أو النصرى أو الأديان الأخرى، ولم يكن إلى جوار الكفار في معابدهم، ولا إلى جوار أهل الكتاب في كنائسهم، وفي نفس الوقت فقد استمر في سلوك طريق التوحيد وكان متمسكاً بقوة بالأصول الأخلاقية والعبادة الإلهية.

وقد وردت عدة روايات - وفقاً لنقل العلامة المجلسي في بحار الأنوار- في المصادر الإسلامية عن أن الرسول ﷺ كان مؤيداً منذ بداية عمره بروح القدس. وحتماً فإنه كان يعمل وفقاً لما يستلهمه من روح القدس^(١).

ويرى العلامة المجلسي أن الرسول ﷺ كان نبياً قبل أن يكون رسولاً، فالملائكة كانت تتحدث معه أحياناً وكان يسمع صوتها، وأحياناً كان الإلهام الإلهي ينزل عليه ضمن الرؤيا الحقيقية الصادقة، وبعد أربعين سنة وصل إلى منزلة الرسالة ونزل القرآن والإسلام عليه، وقد ذكر لذلك ستة أدلة حيث يتلاءم بعضها مع ما ذكرناه أعلاه (للإستزادة راجع المجلد ١٨ من بحار الأنوار ص ٢٧٧ فما بعدها).

٢- الجواب على سؤال

بعد هذا البحث قد يُطرح هذا السؤال: لماذا تقول الآية: «ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» رغم ما ذكرناه من إيمان وأعمال النبي ﷺ قبل نبوته؟ وبالرغم من أنه ورد جواب هذا السؤال بشكل موجز في تفسير الآية، إلا أنه من الأفضل إعطاء توضيح أكثر بهذا الخصوص.

المقصود أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف بتفصيلات هذا الدين ولا بمحتوى

القرآن، قبل نزوله وقبل تشريع الإسلام.

أما كلمة الإيمان، فلو لا حظنا أن هذه الكلمة وردت بعد الكتاب، وبملاحظة الجمل الأخرى الواردة بعدها في الآية، يتضح أن المقصود بها هو الإيمان بمحتوى هذا الكتاب السماوي وليس مطلق الإيمان، لذا لا يوجد أي تعارض مع ذكرناه، ولا يمكن أن تكون هذه الجملة وسيلة لذوي النفوس المريضة كي يستدلوا بها على نفي الإيمان بشكل مطلق عن الرسول، وينكرون الحقائق التاريخية في هذا المجال.

وقد ذكر بعض المفسرين أجوبة أخرى لهذا السؤال منها:

أ - المقصود من الإيمان ليس الاعتقاد لوحده، بل مجموع الاعتقاد والإقرار باللسان والأعمال وهذا هو المقصود به في التعبير الإسلامي.

ب - المقصود من الإيمان هو الاعتقاد بالتوحيد والرسالة، ونحن نعلم أن النبي كان موحداً، إلا أنه لم يكن يؤمن برسالته بعد.

ج - المقصود من الإيمان هو أركان الإيمان التي لا يتوصل إليها الإنسان عن طريق العقل، والطريق الوحيد لذلك هو الأدلة النقلية (مثل العديد من خصوصيات المعاد).

د - هناك محذوف في هذه الآية وفي التقدير: ما كنت تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان^(١).

ولكن حسب اعتقادنا فإن المعنى الأول

أفضل المعاني وأكثرها تلاؤماً مع محتوى الآية.

٣- ملاحظة أدبية

هناك كلام كثير حول الضمير في جملة: «لكن جعلناه نوراً» لمن يعود،

١- الألويسي في روح المعاني، المجلد ٢٥، ص ٥٥. وقد ذكر احتمالات أخرى إلا أننا لم نذكرها لعدم أهميتها.

فذهب البعض أن المقصود هو القرآن نفسه، الكتاب السماوي العظيم لرسول الإسلام ﷺ، ويحتمل أن يكون هذا النور هو النور الإلهي (الإيمان).

ولكن الأفضل أن يعود هذا الضمير إلى الإثنين (القرآن والإيمان)، فما داما ينتهيان بحقيقة واحدة، لذا فلا مانع من أن يعود الضمير المفرد إليهما.

إلهي، نور قلوبنا دائماً بنور إيمانك، واهدنا بلطفك إلى الخير والسعادة.

إلهي، ترحم علينا بالصبر والتحمل حتى لا نطغى عند النعم ولا نجزع عند المصائب والفتن.

إلهي، اجعلنا في صف المؤمنين المخلصين في ذلك اليوم الذي يكون فيه الظالمون والمستكبرون حيارى تائهين، والمؤمنون مصونين في ظل حمايتك،

أمين رب العالمين

نهاية سورة الشورى



الفهرس

«سورة الزمر»

- ٥ محتوى سورة الزمر:
- ٦ فضيلة سورة الزمر:
- ٨ تفسير الآيات: ١-٣
- ٨ عليك الاخلاص في الدين!

ملاحظة

- ١٤ الفرق بين التنزيل والإنزال:
- ١٧ تفسير الآيتان: ٤-٥
- ١٧ ما حاجة الله إلى الأولاد؟
- ٢٢ تفسير الآيتان: ٦-٧
- ٢٢ الجميع مخلوقون من نفس واحدة:
- ٣٠ تفسير الآيتان: ٨-٩
- ٣٠ هل العلماء والجهلة متساوون؟

ملاحظة

- ٣٨ تفسير الآيات: ١٠-١٦
- ٣٨ الخطوط الرئيسية لمناهج العباد المخلصين:

ملاحظات

- ١ - حقيقة الخسران! ٤٤
- ٢ - ما هو المراد من الآية: (فاعبدوا ما شئتم) ٤٥
- ٣ - من هم الأهل؟ ٤٥
- تفسير الآيات: ١٧ - ٢٠ ٤٧
- عباد الله الحقيقيون: ٤٧

بحوث

- ١ - منطق حرية التفكير في الإسلام ٥١
- ٢ - الردّ على بعض الأسئلة ٥٢
- ٣ - نماذج من الروايات الإسلامية التي تؤكد على حرية التفكير ٥٤
- ٤ - سبب النزول ٥٤
- تفسير الآيتان: ٢١ - ٢٢ ٥٦
- الذين هم على مركب من نور!! ٥٦

بحث

- عوامل (شرح الصدر) و (قسوة القلب) ٦٠
- تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٦ ٦٣
- سبب النزول ٦٣
- أما الخاصية الأولى فهي (كتاباً متشابهاً) ٦٤
- أما الخاصية الثانية فهي (مثنائي) - أي المكرر - ٦٥
- أما الخاصية الثالثة فهي (تقشعر منه الجلود) ٦٥

بحث

- تفسير الآيات: ٢٧ - ٣١ ٧١
- قرآن لا عوج فيه: ٧١

بداية الجزء الرابع والعشرون مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

٧٩	تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٥
٧٩	أرللك الذلزن ىصدقون كلام الله:
٨٣	مسألة:
٨٥	تفسير الآيتان: ٣٦ - ٣٧
٨٥	سبب النزول
٨٦	إن الله كاف!

بحثنان

٨٨	١ - الهداية و الإضلال من الله:
٩٤	٢ - الإنكال على لطف الله
٩٦	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠
٩٦	هل إن آلهتكم قادرة على حل مشاكلكم؟
١٠٠	تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤
١٠٠	الله سبحانه يتوفى الأنفس:

ملاحظتان

١٠٥	١ - عجائب عالم الرؤيا؟
١٠٦	٢ - النوم كما ورد فى الروايات الإسلامية:
١٠٨	تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٨
١٠٨	الذللن ىخافون من اسم الله!
١١٢	تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٢
١١٢	فى الشدائد ىذكرون الله، ولكن.....
١١٧	تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٥
١١٧	إنَّ الله ىغفر الذنوب جمیعاً:

بحثان

- ١ - باب التوبة مفتوح للجميع ١٢٢
 ٢ - اصحاب الأحمال الثقيلة ١٢٤
 تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٩ ١٢٧
 الندم لا ينفع في ذلك اليوم: ١٢٧

ملاحظتان

- ١ - التفريط في جنب الله ١٣١
 ٢ - على أعتاب الموت أو القيامة؟ ١٣٢
 تفسير الآيات: ٦٠ - ٦٤ ١٣٣
 الله خالق كل شيء وحافظه: ١٣٣
 تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٧ ١٤١
 الشرك محبط للأعمال: ١٤١

ملاحظتان

- ١ - مسألة إيجاب الأعمال ١٤٦
 ٢ - هل عرف المؤمنون الله؟ ١٤٦
 تفسير الآية: ٦٨ ١٤٨
 (النفخ في الصور) وموت وإحياء جميع العباد: ١٤٨

بحوث

- ١ - هل أن النفخ في الصور يتم مرتين، أو أكثر؟ ١٥١
 ٢ - ما هو صور إسراييل: ١٥٢
 ٣ - من هم المستثنون؟ ١٥٤

- ١٥٥ ٤ - فجائية النفختين:
- ١٥٥ ٥ - ماهي الفاصلة الزمنية بين النفختين؟
- ١٥٧ تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٠
- ١٥٧ ذلك اليوم الذي تشرق الأرض بنور ربها:
- ١٦٢ تفسير الآيات: ٧١ - ٧٢
- ١٦٢ الذين يدخلون جهنم زمراً:
- ١٦٦ تفسير الآيات: ٧٣ - ٧٥
- ١٦٦ المتقون يدخلون الجنة افواجاً!!

سورة المؤمن

- ١٧٣ نظرة مُختصرة في محتوى السورة:
- ١٧٥ فضيلة تلاوة السورة:
- ١٧٨ تفسير الآيات: ١ - ٣
- ١٧٨ صفات تبعث الأمل في النفوس:

ملاحظات

- ١٨٣ تفسير الآيات: ٤ - ٦
- ١٨٣ الأمر الإلهي الحاسم:

بحثنان

- ١٨٧ أولاً: استعراض الكفار لقواهم الظاهرية
- ١٨٨ ثانياً: المجادلة في القرآن الكريم
- ١٨٩ أ- مفهوم «جدال» و «مراء»
- ١٩٠ ب: الجدال السلبي و الإيجابي

- الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١٥
- ج: الآثار السيئة للجدال السلمي ١٩٢
- د: أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن: ١٩٤
- تفسير الآيات: ٧ - ٩ ١٩٧
- دعاء حملة المستمر للمؤمنين: ١٩٧

بحوث

- أولاً: الأدعية الأربعة لحملة العرش ٢٠٠
- ثانياً: آداب الدعاء ٢٠١
- ثالثاً: لماذا تبدأ الأدعية بكلمة «ربنا»؟ ٢٠١
- رابعاً: ما هو العرش الإلهي؟ ٢٠٢
- تفسير الآيات: ١٠ - ١٢ ٢٠٧
- اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟ ٢٠٧

ملاحظة

- الدعاء البعيد عن الإجابة! ٢١٤
- تفسير الآيات: ١٣ - ١٥ ٢١٦
- ادع الله وحده رغماً على الكافرين: ٢١٦
- تفسير الآيات: ١٦ - ١٧ ٢٢٣
- يوم التلاقي! ٢٢٣
- تفسير الآيات: ١٨ - ٢٠ ٢٢٨
- يوم تبلغ القلوب الحناجر: ٢٢٨
- تفسير الآيات: ٢١ - ٢٢ ٢٣٤
- اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين: ٢٣٤
- تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٧ ٢٣٧

- ٢٣٧ ذروني أقتل موسى!!
- ٢٤٥ تفسير الآيات: ٢٨ - ٢٩
- ٢٤٥ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!

بحوث

- ٢٤٩ أولاً: من هو مؤمن آل فرعون؟
- ٢٥٠ ثانياً: التقية أداة مؤثرة في الصراع
- ٢٥٢ ثالثاً: من هم الصديقون؟
- ٢٥٣ تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٣
- ٢٥٣ التحذير من العاقبة!
- ٢٥٧ تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٥
- ٢٥٧ عجز المتكبرين عن الادراك الصحيح!
- ٢٦١ تفسير الآيات: ٣٦ - ٣٧
- ٢٦١ أريد أن أطلع إلى إله موسى!!
- ٢٦٥ تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠
- ٢٦٥ اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد:
- ٢٦٨ تفسير الآيات: ٤١ - ٤٦
- ٢٦٨ الكلام الأخير:

بحوث

- ٢٧٣ أولاً: مؤمن آل فرعون والدرس العظيم في مواجهة الطواغيت
- ٢٧٤ ثانياً: تفويض الأمور إلى الله
- ٢٧٥ ثالثاً: عالم البرزخ
- ٢٧٧ تفسير الآيات: ٤٧ - ٥٠

- ٢٧٧ نقاش الضعفاء والمستكبرين في جهنم:
- ٢٨١ تفسير الآيات: ٥١ - ٥٥.
- ٢٨١ الوعد بنصر المؤمنين
- ٢٨٣ سؤال:
- ٢٨٥ سؤال آخر
- ٢٩٠ تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٩.
- ٢٩٠ ما يستوي الأعمى والبصير!

ملاحظه

- ٢٩٥ اليهود المغرورون
- ٢٩٧ تفسير الآيات: ٦٠ - ٦٣.
- ٢٩٧ ادعوني أستجب لكم:
- ٢٩٨ أهمية الدعاء وشروط الإستجابة.
- ٣٠١ موانع استجابة الدعاء
- ٣٠٦ تفسير الآيات: ٦٤ - ٦٦.
- ٣٠٦ ذلكم الله ربكم:
- ٣١٢ تفسير الآيتان: ٦٧ - ٦٨.
- ٣١٢ المراحل السبع لخلق الإنسان:
- ٣١٧ تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٦.
- ٣١٧ عاقبة المعاندين المغرورين:
- ٣٢٤ تفسير الآيتان: ٧٧ - ٧٨.
- ٣٢٤ فاصبر... حتى يأتيك وعد الله:
- ٣٢٧ ملاحظة في عدد الأنبياء!؟
- ٣٣٠ تفسير الآيات: ٧٩ - ٨١.

الفهرس.....٦٠١

- ٣٣٠ منافع الأنعام المختلفة:
٣٣٤ تفسير الآيات: ٨٢ - ٨٥
٣٣٤ لا ينفع الإيمان عند نزول العذاب:
٣٣٨ المغرورون بالعلم!

سورة فصلت

- ٣٤٣ نظرة في المحتوى العام للسورة:
٣٤٤ فضيلة تلاوة السورة:
٣٤٦ تفسير الآيات: ١ - ٥
٣٤٦ عظمة القرآن:
٣٥٢ تفسير الآيات: ٦ - ٨
٣٥٢ من هم المشركون؟

ملاحظة

- ٣٥٦ الأهمية الإستثنائية للزكاة في الإسلام:
٣٥٨ تفسير الآيات: ٩ - ١٢
٣٥٨ مراحل خلق السماوات والأرض:

ملاحظات

- ٣٦١ أولاً: ما هو المقصود من قوله تعالى: (بارك فيها)؟
٣٦٢ ثانياً: بما تتعلق الايام الاربعة في عبارة: (في أربعة أيام)؟
٣٦٧ تفسير الآيات: ١٣ - ١٦
٣٦٧ أحذركم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود!

ملاحظتان

- ٣٧٢ أولاً: ما هي وسيلة فناء قوم عاد؟
- ٣٧٤ ثانياً: أيام قوم عاد النحسة.
- ٣٧٥ تفسير الآيتان: ١٧ - ١٨.
- ٣٧٥ عاقبة قوم ثمود.

ملاحظة

- ٣٧٧ أنواع الهداية الإلهية:
- ٣٧٩ تفسير الآيات: ١٩ - ٢٣.

بحثنان

- ٣٨٤ الأول: حسن الظن وسوء الظن بالله تعالى.
- ٣٨٥ الثاني: الشهود في محكمة القيامة.
- ٣٨٩ تفسير الآيتان: ٢٤ - ٢٥.
- ٣٨٩ قرناء السوء.
- ٣٩٢ تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٩.
- ٣٩٢ الضجيج في مقابل صوت القرآن!!
- ٣٩٦ تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢.
- ٣٩٦ نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين.

ملاحظات

- ٤٠٣ تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٦.
- ٤٠٣ ادفع السيئة بالحسنة.

ملاحظاتان

- ٤٠٩ أولاً: برنامج الدعاء إلى الله
- ٤١٠ ثانياً: الإنسان في مواجهة عواصف الوسواس:
- ٤١٢ تفسير الآيات: ٣٧ - ٣٩
- ٤١٢ السجدة لله تعالى:
- ٤١٧ تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٢
- ٤١٧ محرفو آيات الحق:
- ٤٢٣ تفسير الآيات: ٤٣ - ٤٦
- ٤٢٣ كتاب الهداية والشفاء:
- ٤٢٨ مسائل:
- ٤٢٨ أولاً: الإختيار والعدالة
- ٤٢٩ ثانياً: الذنوب وسلب النعم
- ٤٣٠ ثالثاً: لماذا كل هذا التحجج؟!:

بداية الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم

- ٤٣٣ تفسير الآيات: ٤٧ - ٤٨
- ٤٣٣ الله العالم بكل شيء:
- ٤٣٦ تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٢
- ٤٤٢ مسألة
- ٤٤٤ تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٤
- ٤٤٤ علائم الحق في العالم الكبير والصغير:

بحوث

- ٤٤٨ أولاً: التوحيد بين دليل «النظم» ودليل «الصدّيقين»:

٦٠٤ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ١٥

٤٥٠ ثانياً: حقيقة إحاطة الله بكل شيء

٤٥٠ ثالثاً: آيات الآفاق والأنفس

«سورة الشورى»

٤٥٧ نظرة عامة في محتوى السورة:.

٤٥٨ فضيلة تلاوة السورة:.

٤٥٩ تفسير الآيات: ١-٥

٤٥٩ تكادُ السماوات يتفطرن!

٤٦٥ هل تستغفر الملائكة للجميع؟

٤٦٦ تفسير الآيات: ٦-٨

٤٦٦ انطلاقة من «أم القرى»:

٤٧٣ تفسير الآيات: ٩-١٢

٤٧٣ الولي المطلق:

بحوث

٤٧٩ ١- معرفة صفات الله تعالى

٤٨٠ ٢- ملاحظة أدبية

٤٨١ ٣- بعض الملاحظات حول الرزق الإلهي:

٤٨٥ تفسير الآيات: ١٣-١٤

٤٨٥ الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء:

ملاحظات

٤٩١ ملاحظة

٤٩٢ تفسير الآية: ١٥

٦٠٥	الفهرس.....
٤٩٢	فاستقم كما أمرت!
٤٩٥	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨
٤٩٥	لا تستعجلوا بالساعة!!
٥٠٠	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٠
٥٠٠	مزرعة الدنيا والآخرة:
٥٠٥	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٣
٥٠٥	سبب النزول
٥٠٦	أجر الرسالة في مودة أهل البيت(ع)
٥٠٩	توضيح
٥١٢	الروايات الواردة في تفسير هذه الآية

بحوث

٥١٦	١- كلام مع المفسر المعروف (الآلوسي)
٥١٧	تحليل ومناقشة:
٥٢٠	٢- سفينة النجاة
٥٢١	٣- تفسير «ومن يقترف حسنة...»
٥٢٢	٤- مكان نزول هذه الآيات
٥٢٣	تفسير الآيات: ٢٤ - ٢٦
٥٢٣	يقبل التوبة عن عباده:
٥٢٧	تفسير الآيات: ٢٧ - ٣١
٥٢٧	سبب النزول
٥٢٨	المترفون الباغون:
٥٢٩	وهنا يطرح سؤالان:
٥٣٣	النجوم السماوية الآهلة:

ملاحظات

- ٥٣٥ علة المصائب:
- ٥٣٨ مسائل مهمة.
- ٥٣٨ الاولي: مصائبكم بما كسبت أيديكم:.
- ٥٣٩ الثانية: اشتباه كبير.
- ٥٤٠ الثالثة: من هم أصحاب الصفة؟.
- ٥٤٠ توضيح:
- ٥٤٢ تفسير الآيات: ٣٦- ٣٢.
- ٥٤٢ هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن:
- ٥٤٨ تفسير الآيات: ٤٠ - ٣٧.
- ٥٤٨ المؤمنون لا يستسلمون للظلم:
- ٥٥٧ تفسير الآيات: ٤١ - ٤٣.
- ٥٥٧ الظلم والإنتصار:
- ٥٦٠ تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦.
- ٥٦٠ هل من سبيل للرجعة؟.
- ٥٦٤ تفسير الآيات: ٤٧ - ٥٠.
- ٥٦٤ الأولاد... هبة الرحمن:
- ٥٧٠ تفسير الآية: ٥١.
- ٥٧٠ سبب النزول.
- ٥٧٠ طرق ارتباط الانبياء بالخالق:

بحوث

- ٥٧٣ الأول: الوحي في اللغة والقرآن والسنة.
- ٥٧٥ الثاني: حقيقة (الوحي) المجهولة.

- ٥٧٦ ١- تفسير بعض الفلاسفة القدماء.
- ٥٧٦ وتوضيح ذلك:
- ٥٧٨ ٢- تفسير بعض الفلاسفة الجدد
- ٥٧٩ ٣- النبوغ الفكري.
- ٥٨٠ الكلام الحق في الوحي:
- ٥٨٢ منطق منكري الوحي:
- ٥٨٢ الايراد الدائمي والرد الدائمي:
- ٥٨٣ بعض الأحاديث بخصوص قضية الوحي:
- ٥٨٥ تفسير الآيتان: ٥٢ - ٥٣.
- ٥٨٥ القرآن روح من الخالق:

ملاحظات

- ٥٨٩ ١ - ماذا كان دين الرسول الأعظم قبل نيوته؟
- ٥٩٠ ٢ - الجواب على سؤال
- ٥٩١ ٣ - ملاحظة أدبية

